ميشيل
بوسي

فتاة الرحلة 5403

مكتبة
470

رواية

المركز الثقافي العربي

رواية بوسي الأكثر مبيعاً
أكثر من مليون قارئ

مكتبة | 470

ميشيل بوسي

فتاة الرحلة 5403

الكتاب

فتاة الرحلة 5403

تأليف

ميشيل بوسي

ترجمة

عبد المجيد سباطة

الطبعة

الأولى، 2019

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-899-2

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

العنوان الأصلي للرواية:

Michel Bussi

Un avion sans elle

© Presses de la Cité,
un département de Place
des Editeurs, 2012
All rights reserved

مكتبة

t.me/ktabrwaya

٢٠١٩ ٦ ٢٤

ميشيل بوسي

مكتبة | 470

فتاة الرحلة 5403

رواية

ترجمة: عبد المجيد سباطة

المركز الثقافي العربي

إلى مالو، اليعسوبة الصغيرة التي ولدت مع هذه الحكاية.

مكتبة t.me/ktabrwaya

23 ديسمبر 1980، الثانية عشرة ليلاً وثلاث وثلاثون دقيقة

مالت طائرة الإيرباص 5403 إسطنبول-باريس. منحدرة في أقل من عشر ثوان بشكل شبه عمودي لما يقارب ألف متر، قبل ثباتها من جديد. كان معظم المسافرين نائمين، لكنهم استيقظوا فجأة، مع إحساسٍ مخيف بأنهم كانوا غافين على مقاعد شبيهة بمقاعد ألعاب مدينة الملاهي.

كانت صرخات المسافرين -وليس ارتجاف بدن الطائرة- سبباً في انتزاع إيزيل من نومها الخفيف، هي المعتادة على العواصف والمطبات الهوائية منذ ما يقارب ثلاث سنوات توالت خلالها جولاتها حول العالم مع الخطوط الجوية التركية. كانت نائمة منذ أقل من عشرين دقيقة في ساعة استراحتها. وبالكاد فتحت عينيها عندما انحنت نحوها زميلتها العجوز مليحة، بفستانها المبروم، مكشوف الرقبة والكتفين.

- إيزيل؟ إيزيل؟ أسرعي! يبدو أن العاصفة في الخارج. الرؤية منعدمة حسب القبطان. أتتولين أمر الممرّ الخاص بك؟

رسمت إيزيل على وجهها ملامح الضجر، كمضيفة طيران

محترفة لا تُصاب بالذعر لأتفه الأسباب. نهضت من مقعدها معدِّلة تناسق ثوبها، وشدَّت تنورتها قليلاً، متأملة للحظة، بإعجاب، انعكاس قوامها الجميل الشبيه بدمية تركية على الشاشة المطفأة أمامها، ثم تقدّمت نحو الممرّ الأيمن.

توقف الركاب المستيقظون عن الصراخ، وإن جحظت أعينهم معبِّرة عن الحيرة أكثر من تعبيرها عن القلق. واصلت الطائرة اهتزازها. فيما سعَت إيزيل إلى تهدئة كلّ واحد منهم على حِدَة.

- كل شيء على ما يرام، لا شيء يدعو للقلق. كل ما هنالك أننا نجتاز عاصفة ثلجية فوق جبال جورا(*). سنكون في باريس بعد أقل من ساعة.

لم تكن ابتسامة إيزيل مصطَنَعة. فروحها تتسكّع من الآن في باريس. ستمكث بها ثلاثة أيام، حتى ليلة عيد الميلاد. كانت متحمِّسة كطفلة صغيرة لفكرة لعب دور الإسطنبولية المتحرِّرة في العاصمة الفرنسية.

وجَّهت عنايتها المطَمئنة توالياً نحو طفل في العاشرة يتمسّك بيد جدّته، وإطار شاب يرتدي قميصاً مدعوكاً، تخيَّلت أنها من الممكن أن تلتقي به غداً في الشانزيليزيه، وامرأة تركية غطى حجابها غير المتناسق نصف عينيها، غالباً بسبب الاستيقاظ المباغت، وعجوز منكمش حول نفسه، يداه محصورتان بين ركبتيه، يرمقها بنظرة متوسِّلة.

- كلّ شيء على ما يرام. اطمئنوا.

(*) جبال جورا: سلسلة جبال تقع على الحدود بين سويسرا وفرنسا، شمال غرب سلسلة جبال الألب الشهيرة. (المترجم)

تقدّمت إيزيل في الممرّ بهدوء عندما مالت الإيرباص على جنبها من جديد. أُطلقت بعض الصرخات، فيما اختار شاب يجلس على يمين إيزيل، يُمسك بين يديه مشغّل شرائط جوالٍ، أن يهتف بسخرية زائفة:

– متى ستبدأ فقرة التحلق؟(*)

أجابته ضحكات خجولة، حجبتها فوراً صرخات رضيعة. كانت الطفلة ممدَّدة على مقعد استراحة على بُعد أمتار قليلة من إيزيل. ألقت مضيفة الطيران نظرة على الطفلة الصغيرة التي لا يتجاوز عمرها بضعة أشهر، كانت ترتدي فستاناً أبيض تزيّنه ورود برتقالية وكنزة من صوف الجاكار الخام.

– لا، سيدتي، تدخّلت إيزيل، لا!

شرعت الأم الجالسة بالقرب من رضيعتها في فكّ حزام المقعد رغبة منها في الانكباب على ابنتها.

– لا، سيدتي، أصرَّت إيزيل. الزمي مكانك. هذا أمر. هذا...

لم تكلّف الأم نفسها عناء الالتفات أو حتى الردّ على المضيفة، تدلَّت خصلات شعرها الطويل المفكوك على مقعد ابنتها التي واصلت صراخها بحدّة أكبر.

تردَّدت إيزيل باحثة عن التصرّف الأنسب أمام هذا الوضع، ثم اقتربت.

مالت الطائرة مرة أخرى. ثلاث ثوان، ربما ألف متر مجدّداً.

أُطلقت صرخات قصيرة، لكن معظم الركاب حافظوا على

(*) التحلق: الطيران على شكل حلقات. (المترجم)

صمتهم. خُرساً. واعين بأنّ اهتزاز بدن الطائرة لم يكُن بسبب عواصف شتوية معتادة.

سقطت إيزيل على الجانب بفعل الارتجاج، وألصق مرفَقها مشغل الشرائط الجوال بصدر صاحبه، على يمينه، قاطعاً نفَسه، فاعتدلت واقفة من دون اعتذار، وأمامها واصلت الرضيعة البالغة من العمر ثلاثة أشهر بكاءها، فيما انكبّت عليها والدتها من جديد محاولة فكّ حزام سلامة الطفلة.

- لا، سيدتي! لا...

أرغَت إيزيل وأزبدت. فشدَّت تنورتها بحركة آلية بعدما انكشف جزء من جوربها المغزول.

يا لها من مشقّة! ستكون متعة أيامها الثلاثة وليلتيها في باريس مستحقّة تماماً!

ثم مضى كلّ شيء بسرعة كبيرة.

خيِّل لإيزيل لبرهة أنها سمعت صرخة أخرى لرضيع، في مكان ما من الطائرة، بعيداً عن يسارها بعض الشيء.

مسَّت اليد المرتجفة للشاب، صاحب مشغِّل الشرائط الجوال، ثوب سرواله الرمادي من جهة الفخذ. أمّا العجوز فقد طوق كتف المرأة المحجّبة بذراعه، رافعاً الذراع الأخرى نحو إيزيل متوسّلاً. فيما مدّت الأم -الواقفة أمامها- يديها لاحتضان رضيعتها التي تحرّرت أخيراً من أحزمة مقعدها.

كانت هذه آخر المشاهد قبل الاصطدام، قبل مجابهة الإيرباص للجبل.

دفع الاصطدام بإيزيل عشرة أمتار بعيداً، نحو منفذ الإغاثة.

والتوت ساقاها الصغيرتان الجميلتان المغمدتان بالجوارب السوداء، كأطراف دميةٍ بلاستيكية بين يدي طفلة سادية؛ فيما حطّمت صفائح التنك صدرها الصغير، وانفجر صدغها الأيسر بعد ارتطامه بنتوء البوابة.

قُتلت إيزيل في الحال. فكانت بذلك الأكثر حظاً.

لم ترَ الأنوار وهي تطفأ. لم ترَ الطائرة وهي تُسحق كعلبة صودا تافهة بعد ملامستها لغابة من الأشجار التي تكاتفت للتخفيف من السرعة المجنونة للإيرباص.

عندما توقف كلّ شيء أخيراً، لم تشمّ رائحة الكيروسين وهي تنتشر. لم تشعر بأيّ ألمٍ عندما مزّق الانفجار جسدها، هي وثلاثة وعشرون راكباً هم الأقربَ إليها.

لم تصرخ عندما اجتاحت ألسنة اللهب قُمرة الطيار، موقِعَة الأحياء المئة وخمسة وأربعين في المصيدة.

بعد ثماني عشرة سنة

- 1 -

29 سبتمبر 1998، الحادية عشرة ليلاً وأربعون دقيقة

ها أنتم تعرفون كلّ شيء الآن.

رفع كريدول غران-دوك قلمه موجّهاً بصره نحو الجهة المقابلة، حيث المياه الصافية للمَحيى(*) الضخم. ولبضع لحظات تابعت عيناه الطيران اليائس لليعسوبة الرقعاء التي كلّفته قبل أقلّ من ثلاثة أسابيع ما يقارب الألفين وخمسمئة فرنك. فصيلة نادرة، من بين الأكبر حجماً في العالم، نسخة مطابقة تماماً لسلفها القبل تاريخي. اهتاجت اليعسوبة الطويلة وهي تنتقل بين الجدران المزجّجة، وسط أسرابٍ مسعورة لعشرات اليعاسيب المسجونة، الواقعة في الفخ، شاعرة بأنها تُحتضر.

وُضِع القلم مرة أخرى على الورقة. وتحرّكت يد كريدول غران-دوك بعصبية.

لقد أحصيتُ في هذا الدفتر كلّ الأدلة، كلّ الآثار، كلّ الاحتمالات. ثماني عشرة سنة من التحقيقات. كلّ شيء مدوّن في

(*) مَحيى أو Vivarium: مكان نحتفظ ونربي فيه حيوانات صغيرة محاولين تأمين البيئة المناسبة لها. (المترجم)

هذه الصفحات المئة. إذا ما طالعتموها بتمعُّن ستعرفون كل شيء، وبقدر معرفتي. ربما ستكونون أكثر ذكاء؟ ربما ستتبعون وجهة أهمَلْتُها أنا؟ ربما ستعثرون على مفتاح اللغز، إن كان موجوداً أصلاً؟ ربما. . .

لمَ لا؟

مكتبة

انتهى كلّ شيء بالنسبة لي.

رُفِع القلم، مرتجفاً لمليمترات قليلة فوق الورقة. وغابت عينا كريدول غران-دوك الزرقاوان مرة أخرى في الزجاج الأملس للمَحيى، ثم انتقلتا نحو المدفئة، حيث التهمت ألسنة اللهب ركامَ صحف وأوراق وصناديق أرشيف كرتونية، قبل أن تعودا لمرة أخيرة نحو الدفتر. انساب القلم.

من المُبالغ فيه القول إنني لا أشعر بأيّ ندم أو تأنيبٍ للضمير، لكنني بذلتُ كلّ ما في وسعي.

ركّز كريدول غران-دوك بصره على هذا السطر الأخير لبضع ثوانٍ، ثم أغلق الدفتر ذا اللون الأخضر الباهت ببطء.

لقد بذلتُ كلّ ما في وسعي، كرَّر في نفسه، مقتنعاً في نهاية المَطاف بخلاصته.

الحادية عشرة ليلاً وثلاث وأربعون دقيقة

أعاد القلم إلى علبة أمامه، ثم انتزع وريقة ملاحظات صفراء يمين مكتبه وألصقها على غلاف الدفتر. اتّجهت يده من جديد نحو علبة الأقلام، التقطت أصابعه قلم حبر سميكاً كَتب به على الوريقة بخط كبير، **إلى ليلي**. ثم دفع الدفتر نحو حافة المكتب، ونهض.

تركزت نظرات غران-دوك لبضع لحظات على المكتب، حيث لمعت صفيحة نحاسية. قرأ بتهكّم، **كريدول غران-دوك، تَحَرٍّ خاص**. رسم على وجهه ابتسامة مشرقة. منذ زمن طويل والجميع ينادونه بغران-دوك، لكن لا أحد يستخدم هذا الاسم السخيف الآن.

لا أحد، ربما باستثناء إيميلي ومارك فيترال، وهؤلاء أيضاً، كانا يستخدمانه فيما مضى، عندما كانا صغيرين، قبل سنوات طويلة من الآن.

اتجه غران-دوك نحو المطبخ. ألقى نظرة أخيرة على مغسلة الصحون بمعدنها الرمادي المقاوم للصدأ، وعلى البلاط الأبيض ثُمانيّ الأضلاع، والخزانات المغلقة بخشبها اللامع. كان كلّ شيء مرتباً، مصقولاً، متناسقاً؛ تمّ محو كلّ علامة على حياة سابقة داخل المنزل، وبدقّة متناهية، كما لو أنّ الأمر يتعلق بشقة للإيجار يتوجب إعادتها إلى مالكها.

كان غران-دوك شديد العناية بأدقّ التفاصيل، حتى آخر نفس، وإلى أبعد حدٍّ ممكن. هو يعلم ذلك، وهذا يفسِّر بعض الأمور، أو كلّها في الواقع.

استدار، وتقدّم نحو المدفأة حتى شعر بحرارتها تكاد تحرق يديه. انحنى وألقى بعلبتَي أرشيف في الموقد، ثم تراجع متجنّباً شرارات اللهب.

الطريق المسدود...

لقد كرّس آلاف الساعات من وقته للتركيز على أتفه التفاصيل في هذه القضية...

كل الدلائل والملاحظات والأبحاث، تتحول الآن إلى دخان. اندثرت كلّ آثار هذا التحقيق في ساعات قليلة فقط.

ثماني عشرة سنة من التحقيقات من دون جدوى.

يا لسخرية القدر. . .

حياته كلها تتلخص في هذه المحرقة التي كان الشاهد الوحيد عليها.

الحادية عشرة ليلاً وتسع وأربعون دقيقة

بعد أربع عشرة دقيقة، ستَبلغ ليلي عامها الثامن عشر، رسمياً على الأقل، مَن تكون؟ لم يكن يملك أدنى يقين بشأن ذلك. لعبة حظّ مقسومة على اثنتين، مثل اليوم الأول. وجه العملة أم ظهرها.

ليز-روز أم إيميلي؟

لقد أخفق. أنفقت ماتيلد دو كارفيل ثروة، ثماني عشرة سنة من الرواتب المدفوعة، من أجل لا شيء. . .

تقدم غران-دوك نحو المكتب وصبّ لنفسه كأساً جديدة من النبيذ الأصفر المعتّق منذ خمسة عشر عاماً في المستودع الخاص لمونيك جنيفيز، ربما أجمل ذكرى متبقية من هذا التحقيق في نهاية المطاف. ابتسم حاملاً الكأس إلى شفتيه. لم يكُن يشبه تلك الصورة النمطية للمحقّق العجوز المدمن على الخمر، بل كان أكثر تقتيراً في شربه، مقتصراً فقط على المناسبات الكبرى. عيد ميلاد ليلي أحدها، وربما دقائق حياته الأخيرة أيضاً، وإن بدرجةٍ أقل.

أفرَغ المحقِّق كأس النبيذ الأصفر في جوفه دفعة واحدة.

نادرة هي تلك الأحاسيس التي قد يتحسّر عليها، وقد يكون

المذاق المتفرّد للنبيذ الأصفر أحدها، عندما يعبر المذاق جسده مُلهِباً إياه بألمٍ لذيذ، مُنسِياً إيّاه ولو للحظات وجيزة هذا الوسواس، هذا اللّغز العَصي عن الحلّ، الذي كرَّس حياته كلها من أجله.

وضع غران-دوك الكأس على المكتب وحرّك الدفتر ذا اللون الأخضر الباهت، متردّداً في إعادة فتحه للمرة الأخيرة، ثم تأمل الوريقة الصفراء، **إلى ليلي**.

سيبقى هذا الدفتر، المئة صفحة هذه التي كتبها في الأيام الأخيرة... إلى ليلي، إلى مارك، إلى ماتيلد دو كارفيل، إلى نيكول فيترال، إلى رجال الشرطة، إلى المحامين، إلى كلّ مَن يريد الغوص في أعماق هذه الهاوية.

قراءة جذابة بلا شك، تحفة حقيقية، تحقيق بوليسي يحبس الأنفاس... كلّ شيء هنا...

ما عدا النهاية...

لقد كتب ما يشبه الرواية البوليسية التي انتُزِعت صفحتها الأخيرة، رواية مشوّقة مُجِيت أسطرها الخمسة الأخيرة.

عملية نصب...

سيعتقد القراء المستقبليون بلا شك أنهم أذكى منه، سيفكّرون، سيسعون بشكلٍ حثيث إلى العثور على الحلّ.

لقد آمنَ بذلك أيضاً، كان يملك ذلك اليقين بأنّ الدليل موجود، بأنّ المعادلة قابلة للحلّ، بأنه أغفلَ شيئاً ما. هو إحساس، مجرد إحساس، لكنه راسخ... لقد أبقاه ذلك اليقين حياً حتى ساعة الحقيقة هذه، الآن، بعد عشر دقائق، ستبلغ ليلي عامها الثامن عشر... ربما كان لاوعيه هو الذي يقوده نحو هذا السراب، حتى

لا ييأس بشكل تام، فمن القسوة أن يبحث طوال هذه السنوات عن مفتاح لغزٍ بلا حلّ...

لقد بذلتُ كل ما في وسعي، قرأ المحقّق مرة أخرى، أما ما تبقّى فلم يعُد يهمّه الآن.

ألقى غران-دوك نظرة أخيرة على الغرفة. امتنعَ عن رمي القنينة الفارغة والكأس القذرة، ابتسم لنفسه مرة أخرى. لن يهتم رجال الشرطة والأطباء الشرعيون المنكبّون على جثته بكأسٍ غير نظيفة. ستتدفّق دماؤه وأجزاء من دماغه لتتحوّل إلى بركة لزجة تلوّث كلّ شيء على المكتب المعمول بخشب الأكاجو والأرضية الخشبية المصقولة. لن يتمّ اكتشاف موته فوراً، وهذا الاحتمال هو الأكثر منطقية (مَن سيشتاق إليه بأيّ حال من الأحوال؟)، رائحة جثته الكريهة هي التي ستُثير انتباه جيرانه، جثّة متحلِّلة عائمة في إفرازات الحشرات آكلة الجثث التي ستستمتع بوليمتها.

سبب إضافي، فكّر غران-دوك.

انحنى ورمى بقطعة كرتونية صغيرة أفلتت من ألسنة اللهب في المدفأة.

نبالته الأخيرة.

اتجه غران-دوك ببطء نحو المكتب الذي يشغَل ركن الغرفة المقابل للمدفأة. فتح الدُّرج الأوسط، ثم أخرج مسدساً من جرابه الجلدي، ماتيبا(*)، بحالة جيدة، كما لو كان جديداً، لمع معدنه الرمادي بعد تعرّضه لأشعة الضوء. بحثَت يد المحقّق عميقاً في الدّرج قبل أن تستخرج ثلاث رصاصات من عيار 38 ملم.

(*) ماتيبا: مسدس إيطالي الصنع من نوعية المسدسات ذات الساقية الدوارة. (المترجم)

ابتسم غران-دوك، ثم قلبَ ساقية المسدس بحركة مدرَّبة مُدخِلاً الرصاصات في خزائنها بتؤدة.

رصاصة واحدة تكفي، وإن كان ثملاً بعض الشيء، قد يرتجف أو يتردَّد. لكنه سيتمكّن بلا شك من وضع فوهة المسدس على صدغه، الإمساك بالمقبض بثبات، ثم الضغط على الزناد.

لا مجال أمامه لارتكاب أيّ خطأ، وإن كانت اثنان وستون سنتيليتراً من الخمر تجري في دمه.

وضع المسدس على المكتب، فتح الدرج الأيسر، والتقط منه صحيفة، عددٌ مصفرّ قديم جداً من ليست ريبوبليكان (*L'Est républicain*). منذ أشهرٍ طويلة وهو يحضّر لهذا المشهد الجنائزي، لهذه الطقوس الرمزية التي ستساعده على إنهاء كلّ شيء، على التحليق نهائياً، بعيداً عن المتاهة.

الحادية عشرة ليلاً وأربع وخمسون دقيقة

تلوَّت آخر الأوراق مستسلمة لألسنة اللهب في المدفأة. اتّجه بصر المحقِّق نحو المَحيى والطنين الجنائزي الكئيب لليعاسيب. قُطِعت الكهرباء عن المَحيى منذ ثلاثين دقيقة. لن تعيش اليعاسيب أكثر من أسبوع بعد حرمانها من الغذاء والأوكسجين. كان قد أنفقَ مبالغَ طائلة لاقتناء الأنواع الأكثر ندرة والأكثر قِدماً، وأمضى ساعات وأعواماً في الاعتناء بالمَحيى، كان قد اهتمّ بإطعامها بكلّ أنواع الحشرات الصغيرة، بتقويتها، بمزاوجتها، ذاهباً حدّ تكليف شركة مختصّة بالاعتناء بها في أثناء سفره.

كلّ هذه المجهودات تركها هي الأخرى تموت...

أمرٌ لطيف في المجمل، هكذا فكَّر غران-دوك، أن تقرّر بهذه الطريقة في مسألة حياة وموت الآخرين، أن تحمي الآخر قبل القضاء عليه، أن تمنحه الأمل قبل التضحية به، أن تُلاعب القدر، كإله ماكر يستحيل توقع أفكاره وتصرفاته، هو في نهاية المطاف ضحية أخرى لهذا الإله السادي.

جلس كريدول غران-دوك على الكرسي خلف المكتب، دافعاً مرة أخرى، رغماً عنه، الدفتر ذا اللون الأخضر الباهت إلى الحافة، كما لو كان يخشى أن تلوّثه قطرات الدم.

فَرَدَ على المكتب أمامه نسخة ليست ريبوبليكان، عدد 23 ديسمبر 1980. أعاد قراءة الصفحة الأولى مرة أخرى: **معجزة جبل تيريبل**(*).

احتلّ العنوان الصفحة الأولى من الجريدة، وتحته صورة ضبابية تُظهر خيال جسم الطائرة المحطّمة، والأشجار المقتَلَعَة من جذورها، والثلوج الملطّخة بآثار أقدام رجالِ فرق الإنقاذ، فيما رَوَت بضعة أسطرٍ تحت الصورة تفاصيل الكارثة:

تحطّم دراميّ للإيرباص 5403 إسطنبول-باريس، على منحدرات جبل تيريبل، على الحدود الفرنسية السويسرية، ليلة 22 إلى 23 من ديسمبر 1980. مئة وثمانية وستون من أصل مئة وتسعة وستين من ركاب وطاقم الطائرة لقوا مصرَعَهم، إمّا في الحال أو

(*) جبل تيريبل أو Mont Terrible: هو جبل ينتمي إلى سلسلة جبال جورا التي تقع على الحدود بين فرنسا وسويسرا، حمل الجبل هذا الاسم منذ الحقبة النابوليونية، ستتعرّف عليه بشكلٍ أكثر تفصيلاً ضمن أحداث الرواية. (المترجم)

بفعل النيران. الناجية الوحيدة بأعجوبة، رضيعة تبلغ من العمر ثلاثة أشهر، قُذِفَت بعيداً في أثناء الاصطدام، قبل اشتعال النيران في الطائرة.

رفع غران-دوك عينيه. سيموت مائلاً قليلاً إلى الأمام، مطلقاً رصاصة على رأسه. سيسقط على الصفحة الأولى للجريدة. سيلوّن دمه صورة الحادث الذي وقع قبل ثماني عشرة سنة، ممتزجاً بدماء الضحايا المئة وثمان وستين. سيتمّ العثور عليه هكذا، خلال بضعة أيام، بضعة أسابيع. لن يحزن على رحيله أحد، خاصّة آل كارفيل. . . أمّا آل فيترال فمن الممكن أن يتألّموا قليلاً، إيميلي، مارك، وعلى الأخصّ نيكول.

مشهدٌ ساخر إلى أقصى حدّ.

سيعثرون عليه ويسلّمون الدفتر لليلي، كتاب حياتها القصيرة، وصيّتها.

تأمّل غران-دوك بما يشبه الفخر انعكاس صورته على الصفيحة النحاسية البراقة.

قد تكون هذه أفضل نهاية ممكنة قبل تصفية الحساب نهائياً.

لقد امتلك فرصته بين يديه، ثماني عشرة سنة من البحث. . .

الحادية عشرة ليلاً وسبع وخمسون دقيقة

حان الوقت.

وضع نسخة صحيفة ليست ريبوبليكان أمامه بلطف، ثم قدّم مقعده والتقط المسدس بحزم، واضعاً مقبضه في راحة يده الدّبِقة.

ارتفعَت ذراعه ببطء.

دفعته فوّهة المسدس الباردة والملتصقة بصدغه للارتجاف رغماً عنه. لكنه كان على أتمّ الاستعداد، سيُساعده الخمر على التحمّل.

حاول طرد كلّ الأفكار الجانبية من رأسه، لن يفكّر في هذه الرصاصة على بُعد سنتيمترات قليلة من دماغه، هذه الرصاصة التي ستخترق جمجمته...

لن يفكّر في أيّ شيء، سيركّز تفكيره فقط على العدم.

وضع سبابته على الزناد، سيضغط عليه ويُنهي كلّ شيء.

أيغلق عينيه أم يتركهما مفتوحتين؟

انزلقت قطرة عرق على جبينه ثم سقطت على الصحيفة.

سيفتحهما وينتهي.

مالَ بجسده، ثبّت بصره على نسخة الصحيفة المستقرّة على بُعد عشرين سنتيمتراً أمامه. تأمّل لآخر مرة صورة الطائرة المحطّمة وصورة الإطفائي أمام مستشفى مونبيليارد، محتضناً بحرصٍ الجسد الصغير المزرقّ، جسد الرضيعة المعجزة.

صارت السبابة الضاغطة على الزناد أكثر حزماً.

الحادية عشرة ليلاً وثمان وخمسون دقيقة

غابت عينا المحقق الفارغتان في الحبر الأسود لصفحة الجريدة القديمة. ستخترق الرصاصة صدغه من دون أدنى مقاومة. لم يعُد أمامه سوى ثَني أصبعه أكثر فأكثر، مليمترات قليلة. ركّز بصره للأبد، صار الحبر الأسود للصحيفة أكثر وضوحاً، كعدسة آلة تصوير جرى تعديلها، كنافذة أخيرة على العالم، قبل أن يُظلم كلّ شيء متحوّلاً إلى مشاهد ضبابية.

السبابة، الزناد، والعينان الجاحظتان.

ثم هزّت المفاجأة غير المتوقّعة جسد غران-دوك، كصعقة كهربائية قوية وصادمة.

ما رأته عيناه مستحيل. هو متأكد من ذلك!

تراخى أصبعه الضاغط على الزناد قليلاً.

اعتقد غران-دوك في البداية أنه مجرّد سراب، هلوسة سبَبها اقترابه من موته المحتوم، أو حيلة دفاعية أخيرة ابتكَرَها عقله...

لا!

ما رآه وقرأه في الصحيفة حقيقي فعلاً. نعم هي مصفرّة بفعل تأثيرات الزمن، وربما مُحِيَ بعض أسطرها، ولكن لا مجال للشكّ رغم ذلك.

كلّ شيء هنا.

تحرّكت غريزة المحقّق في أعماقه، لقد جمع طوال هذه السنوات عدداً من الاحتمالات، مئات الاحتمالات، لكنه يملك الآن نقطة البداية، لم يعُد أمامه سوى شدِّ الخط لتنفكّ العقدة ببساطة محيرة.

كان كلّ شيء واضحاً، منطقياً...

خفضَ سلاحه، ثم أطلق، رغماً عنه، ضحكة شيطانية متأمّلاً ساعة الحائط.

الحادية عشرة ليلاً وتسع وخمسون دقيقة

لم يصدق عينيه حتى الآن، ارتجفت يداه فيما اجتاحت رجفة شديدة جسده، من قفاه إلى أسفل ظهره.

لقد نجح!

الحلّ كان موجوداً هنا، منذ البداية، في هذه الصحيفة، في صفحتها الأولى التي انتظرت بصبر: كان اكتشاف الحلّ مستحيلاً قبل ثماني عشرة سنة. الجميع قرأوا، حلّلوا، فصّلوا، ودقّقوا هذه الصفحة، ألف مرة، ولم يتمكّن أحد، سواء عام 1980 أو في الأعوام التي تلته، من فكّ اللغز.

كان الحلّ موجوداً أمام أعين الجميع، لكن بشرط...

شرط وحيد، لكنه مجنون.

أن تفتح هذه الصحيفة بعد ثماني عشرة سنة!

- 2 -

2 أكتوبر 1998، الثامنة صباحاً وسبع وعشرون دقيقة

عشيقان أم مجرد شقيقين؟

منذ ما يقارب الشهر وهذا السؤال يزعج بالَ مريم، مُسيِّرة حانة لينين، الواقعة على مفترق طرق شارع ستالينغراد وشارع الحرية، على بُعد أمتار قليلة من ساحة جامعة باريس فانسين-سان-دوني الثامنة. كانت الحانة شبه فارغة في هذه الساعة الصباحية، وهو ما استغلّته مريم لترتيب الطاولات والكراسي.

كان الاثنان موضوع تساؤلها جالسين كالمعتاد في الداخل، بالقرب من النافذة، تجمعهما طاولة صغيرة، يتأمّلان العينين الزرقاوين لبعضهما البعض بثبات، متشابكَي الأيدي.

عشيقان؟

صديقان؟

شقيقان؟

زفرت مريم. يُثير أعصابها هذا الشك، فهي تملك في المعتاد حُكماً يقينياً قاطعاً عندما يتعلّق الأمر بالشؤون العاطفية لزبناء حانتها من الطلبة. تعجّلت أكثر، يجب عليها أن تنظّف الطاولات وربما

تكنس الأرضية أيضاً؛ فبعد دقائق قليلة ستفرج محطة نهاية سير خطّ المترو الثالث عشر في جامعة سان-دوني عن الآلاف من الطلبة المتعجّلين، المرهقين... افتُتحت المحطة منذ أربعة أشهر فقط، لكن تدشينها غيَّر الحيّ بأكمله، وها قد تمّ ربط كلية سان-دوني مباشرة بقلب باريس.

وضعَت مريم الكراسي حول الطاولات كما اتفق، موقنة بأنه من بين آلاف الطلبة المجتهدين والقلقين سيمرّ عددٌ لا يُستهان به منهم إلى حانة لينين، لشرب فنجان قهوة أو تدخين سيجارة بهدوء، كوسيلة لتأخير موعد الذهاب إلى المدرج والانزواء فيه، للتلكُّؤ في اللحاق بالحصّة، أو ربما للتغيّب عنها تماماً...

تعوّدت مريم على تدفّق الطلبة في الثامنة وخمس وأربعين دقيقة من صباح كلّ يوم. لقد تابعت طويلاً ذلك التحوّل الذي طال جامعة باريس فانسين-سان-دوني الثامنة، من جامعة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، ومنارة للثقافة والتمرّد، إلى مجرّد جامعة عادية هادئة من جامعات الضواحي. لم يعُد معظم الأساتذة متحمّسين للعمل في جامعة باريس الثامنة، مفضّلين السوربون أو جوسيو على الأقل... قبل افتتاح محطة المترو، كان هؤلاء الأساتذة مُجبَرين على اجتياز سهل سان-دوني والاحتكاك بعض الشيء بالمنطقة وما حولها. كلّ هذا صار من الماضي بعد افتتاح المحطة، فهم أيضاً ينحشرون في قاطرات خط المترو الثالث عشر للوصول إلى أحد أبرز صروح الثقافة الباريسية، وإلى المكتبات، والمختبرات، والوزارات والمؤسسات العليا.

عادت مريم إلى طاولة الشرب للبحث عن إسفنجة، ملقية نظرة جانبية حذرة على هذين الشابين اللذين لم يتوقّفا عن إثارة اهتمامها،

هذه الشقراء الجميلة وهذا الشاب الذي جمعت بنيته الضخمة بين القوّة والجمود.

شابان يثيران عصبيّتها، ها قد أصبحت مسكونة الآن بهذا اللغز!

مَن هما؟

لم تفهم مريم يوماً آليات عمل نظام التعليم العالي، المجزوءات والمعدّلات والإضرابات وكلّ هذا الكلام، لكن أحداً لم يكُن ليُنافسها في مراقبة فترات الاستراحة. لم تقرأ يوماً لروبير كاستل(*)، جيل دولوز(**)، ميشيل فوكو(***)، جاك لاكان(****)، أشهر من درّسوا في جامعة باريس الثامنة، ربما صادفت بعضهم مرة أو اثنين، في ساحة الكلية أو في حانتها، لكنها تعتبر نفسها خبيرة في التحليل النفسي، وعلم الاجتماع وفلسفة المعاناة وقصص الحبّ الطلابية، فهي تلعب دور الأم الحاضنة لكلّ زبناء حانتها، وتهتمّ بشؤونهم العاطفية بخبرة احترافية منقطعة النظير.

وجّهت مريم بصرها مرة أخرى نحو الشابين الجالسين بالقرب

(*) روبير كاستل (1933-2013): عالم اجتماع فرنسي، متخصّص في سوسيولوجيا العمل. (المترجم)

(**) جيل دولوز (1925-1995): فيلسوف وناقد أدبي وسينمائي فرنسي، ركّز اهتمامه على دراسة تاريخ الفلسفة وتأويل نماذج منها كفلسفات كانط وسبينوزا ونيتشه. (المترجم)

(***) ميشيل فوكو (1926-1984): فيلسوف فرنسي، يُعتَبر أحد أهم فلاسفة القرن العشرين، اشتهر بمؤلفه **تاريخ الجنون**، توفي عام 1984 بعد إصابته بالإيدز. (المترجم)

(****) جاك لاكان (1901-1981): محلّل نفسي فرنسي، ساهمت مجهوداته في التعريف بتحليلات سيغموند فرويد النفسية في فرنسا. (المترجم)

من النافذة. العلاقة بين هذين الاثنين محكّ حقيقي لتجربتها وحَدْسها.

إيميلي ومارك.

هذا الشكّ يُزعجها إلى أبعد حدّ.

عشيقان خجولان أم أبوان؟

يا له من لغزٍ! لم تعُد مريم قادرة على فَهْم المسألة بدقّة. شيء ما غير طبيعي. متشابهان ومختلفان في الآن نفسه. تعرف مريم اسميهما، كما هو الشأن بالنسبة إلى كلّ الزبناء المعتادين على حانتها.

يُتابع مارك دراسته منذ سنتين في جامعة باريس الثامنة، هو زبون وفيّ لِحَانة لينين. ضخم الجثة، وسيم، وإن دلَّت ملامحه على بعض الطيبة الزائدة، كأميرٍ صغير أشعث الشعر، حالم بعض الشيء، يفتقر نوعاً ما لتلك النخبوية التي تميّز طبقة معينة، هو نموذج للطالب الذي لم يفقه بعد شيئاً في القواعد العامة، تدلّ سحنته على قدومه من وسط ريفي، ويبدو أنّ وضعه المالي صعب بما لا يسمَح له بالتوفّر على ملابس عصرية مسايرة للموضة... أمّا فيما يخصّ الدراسة، فلم يكن مارك طالباً عنيفاً، ظاهرياً على الأقل،... شعبة القانون الأوروبي كما فهمت مريم، هادئ الطبع، كثير التأمّل طِوال سنتين كاملتين، وقد أدركت مُسيِّرة الحانة سبب ذلك.

كان ينتظرها. ينتظر إيميلي...

جاءت هذه السنة، في سبتمبر، أي أنها تصغره بعامين أو ثلاثة.

نعم، هما يمتلكان بعض الخصائص المشتركة، كاللكنة العامية التي يتحدّثان بها ولم تتمكّن مريم من تحديد أصلها، وإن لم تكُن

تتوافق بشكلٍ تام مع شخصية إيميلي، كما هو الشأن بالنسبة إلى اسمها العادي المألوف، إيميلي... كانت شقراء كمارك، زرقاء العينين مثله... متشابهان نسبياً. ولكن حركات مارك البسيطة المتكلّفة والمرتبكَة نوعاً ما يقابلها اختلاف غير مفهوم في حركية إيميلي، في سكناتها ما يشبه الرفعة والسمو، أقلّ حركة تشي بنوعٍ من الأناقة الأصيلة والغنج الذي يبدو أنها ورَثته عن أسلافٍ من سُلالة نادرة، وبتربية خاصة ومتميّزة... فتاة مثلها تستحقّ أن تتابع دراستها في جامعات أو مؤسسات أو مدارس عُليا لا يرتادها إلّا أبناء العائلات العريقة، لا أن تكون واحدة من طالبات جامعة سان-دوني التي -إلى حدٍّ ما- لا تليق بمثلها.

لغز آخر يتعلّق بالجانب المادي، يبدو أن المستوى المعيشي لإيميلي على النقيض تماماً من مستوى مارك. كانت مريم قادرة -بنظرة واحدة- على تقييم نوعية وأثمنة الملابس التي يرتديها الطلبة، من إتش آند إم إلى زارا، مروراً بجينيفر وإيف سان لوران.

لم تكن إيميلي ترتدي ملابس من ماركة إيف سان لوران... لكنها ببساطتها وأناقتها لم تكن بعيدة عنها تماماً، بقميصٍ حريري برتقالي اللون وتنورة حِيْكَت بطريقة لا تماثلية، كلَّفتها مبلغاً باهظاً بلا شك... لا، إنْ كان مارك وإيميلي قادمَين من المكان نفسه، فمن المستحيل أن يكونا منتميين إلى العوالم نفسها.

ولكنهما لا يفترقان أبداً رغم ذلك...

بينهما توافق لا يمكن صنعه عبر بضعة أشهر في الكلية، كما لو أنهما عاشا دائماً مع بعضهما... يُلاحظ ذلك في نظرات مارك الحذرة، النسقية والحريصة على إيميلي، يد على الكتف، إزاحة مقعد، إمساك بمقبض باب، ملء كأس...

كانت مريم قادرة على فكّ شفرة هذه النوعية من الحركات: إنها عادات الأخ الأكبر تجاه شقيقته الصغرى!

مسحت مقعداً ثم وضعته بنشاط، دون أن تمنع نفسها من مواصلة التفكير في هذا الثنائي.

وصلت إيميلي إلى جامعة باريس الثامنة في سبتمبر، كما لو أنّ مارك قام بتهيئة المكان، ممضياً سنتين كاملتين في الاعتناء بمقعدها في المدرج وطاولتها المحاذية للنافذة في حانة لينين. أحسَّت مريم بأنها أمام طالبة لامعة، طموحة وسريعة، تملؤها العزيمة والتصميم، فنانة وعاشقة للأدب. لاحظت أيضاً أنّ هذا الحزم يظهر عندما تُخرج كتاباً، ملخَّص درس، أو عندما تراجع بقراءة سريعة تلك الملخّصات التي قضى مارك ساعات في إعدادها.

شقيقان إذاً، رغم تناقضاتهما الطبقية؟

إلّا إذا كان مارك يحب إيميلي!

هذا أمر جليّ أيضاً...

لا يحبّها كأخ، بل كعاشقٍ ولهان!

هذا منطقي بالنسبة إلى مريم، ومن أقلّ نظرة.

انفعال وشغف لا تخطئه العين.

لم تعُد مريم تفهم شيئاً.

منذ شهر وهي تتجسَّس عليهما، سبقَ وأن ألقَت نظرة خاطفة على نسخة من ملّف على الطاولة، وتعرف الآن اسمهما العائلي.

مارك فيترال.

إيميلي فيترال.

هذا لا يقود إلى شيء في النهاية. الاحتمال الأكثر منطقية أنهما شقيقان... لكن ماذا عن هذه الحركات المحرّمة؟ يد مارك أسفل

ظهر إيميلي مثلاً. أكانا -ببساطة- شابين متزوجين بين الثامنة عشرة والعشرين؟ هذا تافه بعض الشيء بالنسبة إلى طالبين جامعيين، لكنه ممكن. . . تبقى المجانسة احتمالاً أخيراً، لكن مريم لا تؤمن بهذه الصدف، إلّا إذا تعلّق الأمر برابط أبوّة بعيد، مُصاهرة، أو روابط عائلية بالغة التعقيد. . .

اصطدمت قوائم المقاعد بأرضية الحانة، مستسلمة لخرقة مريم الغاضبة.

يبدو أن إيميلي متمسّكة أيضاً بمارك، لكن نظراتها أكثر تعقيداً، صعبة القراءة، وتائهة في معظم الأحيان، خاصة عندما تكون وحيدة، كما لو أنها تخفي صدعاً أو حزناً عميقاً. . . لقد منَحَتها هذه الكآبة سحراً خاصاً، وجعلتها المسافة التي وضعتها بينها وبين العالم مختلفة تماماً عن كلّ حسناوات الحَرَم الجامعي. لم يجد أيّ طالب في حانة لينين حرَجاً من التهام الجميلة إيميلي بعينيه، لكن انطوائيتها لم تكُن لتشجّع أحداً على التقرّب منها.

باستثناء مارك!

إيميلي كانت له، وهو هنا من أجل ذلك، لا من أجل الدراسة أو الكلية، هو هنا فقط ليكون معها، ليحميها.

حارسها الشخصي.

هذا ما فهِمَتْه مريم.

وما تبقى؟ الرابط الذي يجمعهما؟ حاولت مريم في بعض الأحيان أن تتجاذب أطراف الحديث مع إيميلي ومارك، لكنها لم تعرف أيّ معلومات عن خصوصياتهما.

على أيّ حال، ستتخلى عن سعيها الآن، لكنها ستعرف الحقيقة كاملة يوماً ما.

انهمكت مريم في تنظيف آخر الطاولات عندما رفعَ مارك يده.

- مريم، صاح قائلاً، أتُحضرين لنا فنجانَي قهوة، مع كأس من الماء لإيميلي؟

ابتسمت مريم لنفسها، لا يطلب مارك القهوة أبداً عندما يكون وحيداً، ويطلبها دائماً عندما يكون برفقة إيميلي. قهوة ممزوجة بالماء.

- حسناً، أيها الحبيبان، أجابت مريم.

قالتها لتَختبرهما.

رسم مارك ابتسامة مرتبكة على وجهه، أمّا إيميلي -الممسكة برأسها المطأطأ قليلاً- فلا. لاحظت مريم لتوّها أنّ وجه إيميلي كان مخيفاً هذا الصباح، ملامحَ مضطربة لمن لم تذُق طعم النوم طوال الليل، وإن كانت ابتسامتها الأنيقة قادرة على تبديد هذا الانطباع. هي ربما رهبةُ امتحان، أو تعبُ ليلة طويلة من الاستعداد، أم أنه ملفٌّ مهمٌّ لا بد من تسليمه بشكل عاجل؟

لا، هنالك شيء ما...

رجَّت مريم ثفل القهوة، نظّفت المصفاة، ثم هيأت فنجانَي الإكسبريسو.

شيء ما أخطر...

كما لو أن إيميلي تتهيأ لإعلان خبرٍ مؤلم لمارك. عايَنَت مريم الكثير من المواقف المماثلة، لقاءات وداعٍ، أحاديث ثنائية مؤثرة، شباب شجعان يبقون وحيدين أمام فناجين قهوتهم بينما تختار الفتاة الرحيل شاعرة ببعض الضيق يتبَعه تحرّر تام.

يبدو أنّ إيميلي قد قضت الليل بطوله تفكر قبل أن تحسم أمرها بشكلٍ نهائي مع طلوع الفجر، وهي مستعدّة لتحمّل تبعات قرارها.

مشت مريم نحوهما ببطء، حاملة فنجانَي القهوة وكأس الماء على صينية.

مارك المسكين، أيخامره شك بأنّ حكم الإعدام قد صدر بحقّه؟

تعرف مريم أيضاً كيف تتصرّف بحذر. فقد وضعت فنجانَي القهوة على الطاولة، ثم استدارت مبتعدة دون أن تستمع إلى حديث الشابين.

- 3 -

2 أكتوبر 1998، الثامنة صباحاً وإحدى وأربعون دقيقة

انتظر مارك فيترال للحظات قليلة ريثما تبتعد مريم، ثم مالَ نحو حقيبة ظهره الإيستباك الموضوعة بالقرب من مقعده، واستخرج منها مكعّباً صغير الحجم مغلفاً بورقٍ فضيّ اللون.

- عيد ميلاد سعيد إيميلي، قال مارك ببشاشة.

ثم مدّ إليها العلبة.

حدجته إيميلي بنظرات غاضبة.

- مارك! قالتها بنبرة متذمِّرة، هذه ثالث مرة تهنئني فيها بعيد ميلادي في غضون أسبوع واحد فقط... تعلم جيداً أنني لست بحاجة إلى كلّ هذا...

- صه... افتحي العلبة.

فتحت إيميلي هديتها مقطّبة الجبين. فوجدت فيها جوهرة فضيّة. صليبٌ غريب الشكل يزيّن كلّ طرف من أطرافه معيَّنٌ صغير، باستثناء الطرف العلوي الذي يُزينه ثقب واسع يعتليه تاج صغير.

قلبت إيميلي الجوهرة بين يديها.

- مارك، أنت مجنون...

- إنه صليب طارقي! يوجد منه واحد وعشرون نوعاً مختلفاً، يرمز كلّ نوع -على ما يبدو- لعددٍ من مدن الصحراء الكبرى، هذا صليب مدينة أغاديس(*). هل أعجبك؟

- أعجبني طبعاً، ولكن...

واصل مارك كلامه بلا توقف:

- يُقال بأن المعيّنات ترمز للجهات الجغرافية الأربع الأصلية... مَن يهدي صليباً طارقيّاً يهدي العالم...

- أعرف هذه الأسطورة، همَست إيميلي بصوتٍ هادئ. «ها أنذا أهديك كلّ أركان العالم لأنني لا أدري بأيّ أرض تموت».

ابتسم مارك في ضيق، يبدو أنّ ليلي تعرف كلّ شيء أصلاً عن الصلبان الطارقية. بقيا صامتَين للحظات. مدّت إيميلي يدها إلى فنجان قهوتها. ففعل مارك الشيء نفسه بحركةٍ غريزية لا إرادية، امتدت أصابعه إلى أناملها باحثة عن اللقاء، لكن يده توقفت فجأة، مسمّرة على الطاولة. ليلي تضع خاتماً في بنصرها! خاتم ذهبي متقن الصنع، مرصَّع بلازورد لامع، جوهرة نفيسة رائعة، باهظة الثمن بلا شك. لم يرَها مارك من قبل. أغشَت الغيرة بصره للحظات طويلة، الإحساس نفسه الذي يعتريه كلّما ظهرت تفاصيل جديدة غير مفهومة تُساهم كلّ مرة في وضع حواجز جديدة بينه وبين ليلي.

تمتم قائلاً:

- هذا... هذا الخاتم... أهو... أهو لكِ؟

- لا... لقد سرقته من ساحة الفاندوم(**) صباح هذا اليوم!

(*) أغاديس أو أغاديز: مدينة صحراوية، أكبر مدن شمال النيجر. (المترجم)

(**) ساحة الفاندوم: ساحة باريسية تقع في الدائرة الأولى، معروفة بهندستها الكلاسيكية ومحلاتها المشهورة ببيع المجوهرات. (المترجم)

لم يعقّب مارك على كلامها. ارتجف جفنه ببطء. صحيح أنّ الصليب الطارقي الذي أهداها إياه قد كلفه عطلة نهاية أسبوع وثلاث ليال من العمل كموظّف مقسم هاتفي في فرانس تيليكوم -وهو ما يسمح له بمتابعة دراسته بشكلٍ موازٍ- إلّا أنّ هذا الصليب لا يعدو كونه سلعة تافهة زهيدة الثمن مقارنة بالخاتم، وها قد أعادت إيميلي الجوهرة الأفريقية إلى علبتها الصغيرة، أمّا هذه القطعة الثمينة ف. . .

تجرّع قهوته بصعوبة وتمتم:

- هذا. . . خاتمك. هل. . . هل هو هدية؟ هدية عيد ميلاد؟

خفَضَت إيميلي عينيها بهدوء.

- إلى حدٍّ ما. . . المسألة معقَّدة بعض الشيء. . . خاتم رائع، أليس كذلك؟

صمتَت للحظات، باحثة عن الكلمات المناسبة.

- سأشرحُ لكَ، لا تشغل بالك بشأن ذلك، أقصد بشأن هذا الخاتم، على أية حال. . .

وضعت إيميلي يدها على يد مارك.

«لا تشغلَ بالك بشأن ذلك، أقصد بشأن هذا الخاتم، على أية حال. . .».

تصادمت الكلمات في رأس مارك. ماذا تقصد بكلامها؟ إيميلي ليست على ما يرام هذا الصباح، كما لو أنها لم تنَم الليل بطوله، وإن حاولَت الابتسام ومزج قهوتها بالقليل من الماء كعادتها.

لمعت عيناها فجأة، كما لو أنها اتّخذت لتوّها قراراً مصيرياً، تجرّعت القليل من قهوتها، ثم مالت بدورها نحو حقيبتها واستخرجت منها دفتراً بغلافٍ أخضر باهت مَدَّته إلى مارك.

- حان دوري، خُذْ، هذا لك!

من جديد اعترى مارك ذلك الخوف الصامت المبهم.

- ما هذا؟

- مفكرة غران-دوك، أجابت إيميلي دون أن تترك لمارك الفرصة لالتقاط أنفاسه. لقد أحضرها لي أول أمس، بُعَيد عيد ميلادي، أو بالأحرى، قام بوضعها في صندوق بريدي، لأجدها صباحاً.

ارتجف جفن مارك من جديد وهو يلامس الدفتر بأصابع حذرة.

يحوي هذا الدفتر مذكرات غران-دوك. . . لقد فهم كلّ شيء الآن. وقد قضت إيميلي اليومين والليلتين السابقتين في قراءته وإعادة قراءته. . .

ثماني عشرة سنة من التحقيقات التي قادَها المحقق الأحمق العجوز، مشوار عمر، عمر إيميلي.

يا لها من هدية عيد ميلاد سخيفة!

بحثَ مارك عن إشارات في نظرة إيميلي. ما الذي وجدته في هذه المفكرة؟ أي حقيقة؟ هوية جديدة؟ الهدوء المرجو أخيراً؟ أم لا شيء؟ مجرّد أسئلة بلا أجوبة. . .

لم تُظهر إيميلي شيئاً ممّا يعتمل في أعماقها. هي قوية جداً في لعبة المشاعر هذه. صبّت -بهدوء- قليلاً من الماء في فنجان قهوتها، ثم تجرّعتها برشفاتٍ صغيرة.

- كما ترى يا مارك، لقد سلّمني المفكرة أخيراً، كما وعدني بذلك دائماً. الحقيقة، بمناسبة انتقالي رسمياً إلى عالم الكبار.

أطلقت إيميلي ضحكة بدت عصبية أكثر من كونها عفوية، فيما تردّد مارك في أخذ الدفتر.

- و. . .؟ تمتم مرة أخرى. هل قال شيئاً في هذه المفكرة؟ شيئاً ذا أهمية؟ هل. . . هل تعرفين الحقيقة الآن؟

تهرّبت منه مرة أخرى، موجِّهة بصرها نحو النافذة وساحة جامعة باريس الثامنة التي تعبُرها أفواج مبعثرة من الطلبة.

- أعرف ماذا؟

اجتاح مارك إحساس عميق بالغيظ. تصادمت الكلمات في رأسه مرة أخرى دون أن يجسر على التفوّه بها.

«نعرف لماذا دفعت كلّ هذه الأموال لهذا المحقّق الأخرق طوال هذه السنوات! نعرف مَن أنت يا ليلي. من أنت!».

تلاعَبَت يدها اليسرى الشاردة بهيكل خاتمها. يبدو أنّ مزيجاً من التعب والبرود قد جعلها غير مهتمة بعصبية مارك المتنامية.

- لقد حانَ دورك يا مارك، حان دورك لقراءة هذا الدفتر.

تضارب كلّ شيء في أعماق مارك، لم يعُد قادراً حتى على التفكير في حقيقة هذا الخاتم الغامض الذي تحمله إيميلي في بنصرها. مَن أهداها إياه؟ متى؟ لماذا؟

جذب الدفتر إليه وسمع نفسه وهو يجيبها:

- حسناً، يا يعسوبتي... سأقرأ هذه المفكرة اللعينة.

صمَتَ للحظات، ثم أكمل:

- ولكن، هل أنتِ بخير؟

- نعم... لا تقلق، أنا بخير.

لامست إيميلي القهوة بشفتيها، مكتفية بلعقها كما لو كانت تُجبر نفسها على شربها.

لا! هي ليست بخير.

إيميلي تخفي شيئاً ما، شيئاً ما اكتشفه غران-دوك ودوَّنه في دفتره.

هويّتها؟

- هل ترك غران-دوك رسالة ما . . . أقصد رسالة مرفَقَة مع المفكرة؟

- لا ، لم يترك رسالة، لكن كلّ رسائله موجودة في الدفتر.

- إذاً؟

- اقرأ، سيكون من الأفضل لك أن تقرأ الدفتر بنفسك.

- وغران-دوك؟ أين هو الآن؟

غام بصر إيميلي، كما لو كانت تملك معلومة رهيبة لا تريد الكشف عنها، ثم ألقَت نظرة متمعِّنة على ساعة يدها، فانتفض مارك قائلاً :

- ستعودين؟ هكذا بسرعة!

- أجل، لا حِصصَ لديّ هذا الصباح، أمّا أنت فنعم! في العاشرة! القانون الدستوري الأوروبي. تمارين تطبيقية مع كراندين، ذلك الأستاذ الشاب والأخاذ! مارك، أنا مضطرة لتركك الآن!

- إلى أين أنت ذاهبة؟

أفرغَت إيميلي ما تبقى من ماء في فنجانها، ثم شربت قهوتها بالهدوء نفسه. حدجت مارك بنظرة متعَبَة أخرى ثم مالت على حقيبتها لتنهض من فورها.

- لدي. . . لدي هدية أخرى لك.

مدَّت إليه علبة صغيرة، وإن كانت أكبر قليلاً من علبة أعواد الثقاب.

بقي مارك مسمّراً في مكانه.

راوده شعور ملؤه التشاؤم. هنالك نوع من التصنّع والزيف في حالة إيميلي، ببشاشتها المصطنعة وبذلها مجهوداً كبيراً لتبدو حركاتها طبيعية.

- ولكن لا يجب عليكَ فتحها الآن، أكمَلَت إيميلي بحزم، فقط بعد ساعة من مغادرتي للمكان! أتعدُني بذلك؟ أيمكنني الوثوق بك؟ إنها أشبه بلعبة الغميضة، اترُك لي وقتاً كافياً للاختفاء، ستغمض عينيك وتعدّ حتى... حتى الألف...

بدا أن محاولتها لإقناعه بخوض لعبة العشّاق السخيفة هذه قد استَهلكَت ما تبقى من طاقتها.

لكن مارك ليس شخصاً مغفّلاً...

- أتعدُني بذلك؟ أصرَّت إيميلي.

أومأ مارك برأسه موافقاً باستسلام. تلاقَت نظراتهما طويلاً، وتحرَّك جفنا إيميلي أولاً.

- لا، لن تفعلها. أعرفك جيداً يا مارك، أنتَ عنيد، ستنقضّ على العلبة بمجرَّد إدارتي لظهري...

لم يكذِّبها، فرفَعَت يدها بأناقة.

دائماً ذلك الخاتم الشيطاني...

- مريم؟

لحظة واحدة كانت كافية لمُسيِّرة الحانة -التي يبدو أنها كانت تترصَّد كلّ تصرفات وحركات مارك وإيميلي- حتى تقف أمام طاولتهما.

- سأكلِّفكِ بمهمّة يا مريم. سأستودعُك هذه العلبة. ستسلِّمينها لمارك بعد ساعة من الآن، لا قبلَها! حتى وإن ترجّاك أو حاول رشوتكِ أو ابتزازك... وبعدها ستُرسلينه كما أتمنى إلى حصّة درسه، القاعة B318، بلا خطأ!

وجدَت مريم نفسها وهي تحمل العلبة في يدها.

- أنا أثقُ بكِ يا مريم.

لم تكن مسيِّرة الحانة تملك أي خيار. نهضت إيميلي بوثبةٍ واحدة، وضعت علبة الصليب الطارقي في حقيبتها ثم طبعت قبلة محتشمة على وجه مارك، بين خدّه وشفته. قبلة غامضة، كما لو أنها تتعمّد ازدراء مريم...

دفعت إيميلي باب حانة لينين الزجاجي، ثم ذابت كشبحٍ في ساحة الكلية، بعدما التهمَها تدفّق الطلبة اللامتناهي.

أُغلق الباب.

أحكمت مريم قبضتها على العلبة. ستنفِّذ رغبة إيميلي بطبيعة الحال، لكن هذه اللعبة لا تروقها. كانت خبيرة بقصص فراق العشاق، وتعرف أنّ معظم النساء يمتلكن في هذه اللحظات بالذات نوعاً من التصميم والخيال المدهشَين.

وإيميلي واحدة منهن...

هذا المشهد بأكمله يفوح برائحة الكذب. لقد فرَّت إيميلي من المكان، والهدية على راحة يد مريم ليست سوى قنبلةٍ موقوتة. ما كان على مارك أن يترُكها تغادر هكذا. هذا الشاب الشجاع ساذج أكثر من اللازم... لا تعرف مريم حتى اللحظة إن كانت الفتاة التي تركته الآن شقيقته، زوجته، عشيقته أو صديقته، لم تتمكن حتى اللحظة من تحديد طبيعة العلاقة التي تجمعهما، لكنها متأكدة من أن إيميلي قد اتّخذت قرارها.

قرار قطع هذه العلاقة.

- 4 -

2 أكتوبر 1998، التاسعة صباحاً ودقيقتان

ركّز مارك بصره على مريم الواقفة خلف طاولة المشرب. وهي منهمكة في إعداد طلبيات زبنائها، حدَجَته بنظرة طويلة غامضة قبل أن تضع العلبة التي سلّمتها إياها إيميلي في خزينتها المسجّلة، لا حاجة لمارك بتمنّي شيء ما قد يحدث قبل الساعة التي حدّدَتها إيميلي. نوع من التضامن الأنثوي كما هو واضح. انتقلت عيناه اليائستان إلى دفتر غران-دوك الأخضر. تعرِف إيميلي جيداً ماذا تفعل. ساعة كاملة من الانتظار هنا، ساعة كاملة قبل حصّته الصباحية الأولى، أعمال تطبيقية مملّة حول القانون الدستوري الأوروبي يسيِّرها أستاذ شاب يقضي نصف وقت الحصة في الإجابة على اتصالات هاتفه المحمول.

ساعة كاملة من الانتظار، حصار تام، لقد أوقعته إيميلي في الفخ.

غصَّت حانة لينين بالزبناء. سأل أحدهم مارك عن إمكانية الجلوس في المقعد المقابل. وافقَ بشرود. أشارَت ساعة الحائط المارتيني بألوانها الحمراء والبيضاء إلى التاسعة وثلاث دقائق. لم يعُد أمام مارك خيار آخر، لكنه تردّد رغم ذلك في رفع غلاف

الدفتر. لامست يده الورق المبرنَق بهدوء. انتظر، رافعاً عينيه من جديد نحو الساعة الحائطية وقد خيِّل إليه أنّ عقاربها السوداء قد ثُبِّتت بشريط لاصق.

التاسعة صباحاً وأربع دقائق.

أطلق مارك زفرة حارة.

لم يشرَب قهوته حتى الآن، ولا يظنّ أنه سيشربها، هو لا يحبّها أصلاً. لاحظَ أن أستاذاً عجوزاً واقفاً بطوله على طاولة المشرب يقرأ جريدة لو باريزيان ويسترق النظر إلى مكانه. وهذا منطقي للغاية. فمارك لم يكُن يتمنى في تلك اللحظة سوى النهوض ومغادرة المكان للّحاق بإيميلي ورمي هذه المفكّرة في سلّة المهملات.

نظر عبر النافذة، كما لو كان يبحث وسط جموع الطلبة عن خيال إيميلي المألوف، كما لو أنّ هذه الكتل البشرية ستُوقف سباقه، وتتنحّى جانباً لتشكِّل طريقاً بشرياً بينهما. غامَ بصره، تسارَعت دقات قلبه، وشعرَ بنوعٍ من الاختنناق في حلقه. يعرف هذه الأعراض الأولى جيداً، المشاكل التنفّسية وتسارع دقات القلب المرضي...

حوَّل ناظريه عن ساحة الجامعة بحذر، فانتظم تنفّسه مباشرة بشكلٍ أفضل.

استقرّت أصابعه من جديد على الدفتر الأخضر الباهت.

ستربح إيميلي الرهان كالعادة. هو الآخر مُطالَبٌ بمواجهة ماضيه.

تنفّس مارك بعمق، ثم فتح الدفتر. لغران-دوك خطّ صغير مشدود ومنتظم -وإن كان عصبياً بعض الشيء- لكنه مقروء بشكلٍ ممتاز.

انكبَّ مارك على قراءة المذكرات، وغاصَ في الأمواج الزرقاء

للحروف والكلمات والسطور، كمَن يغوص في محيطٍ من الشكوك منقطع الأنفاس.

مذكرات كريدول غران-دوك

بدأ كلّ شيء بكارثة. لا أعتقد بأن الجميع تقريباً -وأنا أوّلهم- قد سمعوا قبل 23 ديسمبر 1980 بجبل تيريبل. هو أحد القمم الصغيرة في سلسلة جبال جورا، على الحدود السويسرية الفرنسية، قمة محشورة وسط إحدى دروع نهر دوبس(*): جبل صغير منعزل، بعيد عن مونبليار(**) من الجانب الفرنسي، وبورانتروي(***) من الجانب السويسري. قمة ليست على علوّ كبير، 804 أمتار بالتحديد، لكن الوصول إليها ليس بتلك السهولة المتوقعة، خاصة في الشتاء عندما تغطي الثلوج كلّ شيء. يقول بعض المؤرخين إنّ جبل تيريبل كان مقاطعة فرنسية-سويسرية أيام الثورة الفرنسية، قبل أن يُمحى تماماً من ذاكرة الجميع -باستثناء بضع مئات من ساكنة المنطقة طبعاً- ويتحوّل اسمه إلى «جبل تيري»... وكما هو واضح، فمع تحطم الإيرباص 5403 إسطنبول-باريس ليلة 22 إلى 23 ديسمبر، على السفح الجنوبي الغربي للجبل، من الجانب الفرنسي، فضَّل الصحافيون اسم «جبل تيريبل» على «جبل تيري». ضعوا أنفسكم

(*) دروع نهر دوبس: يتعلق الأمر بتعرّجات طبيعية لنهر دوبس جعلت المناطق المطلّة عليه شبيهة بدروع المحاربين، أشهرها درع الحي التاريخي القديم لمدينة بيزانسون شرق فرنسا. (المترجم)

(**) مونبليار: بلدية تقع في إقليم دوبس. (المترجم)

(***) بورانتروي: إحدى بلديات كانتون جورا في سويسرا.. (المترجم)

مكانهم، «مأساة جبل تيريبل» عنوان ضخم، أكثر جاذبية وتأثيراً من «مأساة جبل تيري»![*].

ربما يتذكر البعض تلك الفترة، وربما لا. تتالت الحوادث وتشابهت. قبل ذلك بأشهرٍ قليلة، تحطمت طائرة بوينغ 747 بالقرب من تينيريفي في جزر الكناري مخلِّفة مئة وستة وأربعين قتيلاً. عاماً واحداً بعد حادثة جبل تيريبل، فاتح ديسمبر 1981، اصطدمت طائرة الدي سي 9 ليوبليانا[**]-أجاكسيو بجبل سان بيترو: مئة وثمانون قتيلاً... هي حادثة الطيران الوحيدة في جزيرة كورسيكا، والتي نسِيَها الجميع باستثناء أبناء الجزيرة. كما يتذكّر الجميع حتى الآن حادثة جبل سان أوديل، في انتظار حادثة أخرى قد تحتلّ مكان سابقتها في الأذهان.

كانوا يتحدثون في تلك الفترة من عام 1981 عن سلسلة سوداء!

كلام فارغ! الإحصائيات موجودة! ثقوا بي، قضيت ساعات من الإبحار عبر مواقع الشبكة العنكبوتية المتخصّصة في حوادث تحطم الطائرات، 1001crash.com على سبيل المثال، ابحثوا عنه وسترون، لقد بلغوا مستوى مذهلاً من الدقّة، أعداد القتلى ومجموعة من التفاصيل حول اللحظات الأخيرة التي تسبق الكارثة... قد يبدو الأمر غير قابلٍ للتصديق، لكنهم أحصوا طوال أربعين عاماً أكثر من ألف وخمسمئة حادثة تحطّم للطائرات، وأزيد من خمس وعشرين ألف ضحية... هذا يعني -بحسابٍ بسيطٍ- ما يقارب الأربعين

(*) لفظ تيريبل أو Terrible يعني باللغة الفرنسية «مرعب»، القصد هنا أنّ تعبير «مأساة الجبل المرعب» مَنَح لعناوين الصحف جاذبية إعلامية قد لا يوفّرها تعبير «مأساة جبل تيري». (المترجم)

(**) ليوبليانا: عاصمة سلوفينيا وأكبر مدنها. (المترجم)

حادثةَ تحطم سنوياً، حادثة واحدة أسبوعياً في أماكن مختلفة من العالم، وليس فقط في الصين أو أعماق سيبيريا.

كما ترون إذاً، لقد نسي الجميع حادثة تحطّم طائرة عام 1980 أو مأساة جبل تيريبل! مئة وثمانية وستون قتيلاً تحوّلوا إلى غبار... مجرّد غبارٍ كونيّ...

أنا أيضاً لم أهتم في تلك الفترة بكارثة جبل تيريبل. بالكاد سمعتُ الخبر صباح ذلك اليوم. كنت في مهمة بهينداي(*)، قضية اختلاس أموال تحوم حول كازينو، مع خلفية مرتبطة بالإرهاب الباسكي... شيء في غاية الإثارة. كنت مهتماً وقتها -أو مختصّاً- بالعمليات الدافئة إنْ صحَّ التعبير. بدأتُ العمل لحسابي الشخصي كتحرٍّ خاص منذ خمس سنوات تقريباً، بعدما قضيتُ عشرين عاماً من عمري أجيراً، أجوب كلّ أرجاء العالم. كنت أقترب من الخمسين. مضطراً لتدبّر أموري بوركٍ مصابٍ وعمود فقري ملتوٍ كصولجان؛ أكتسب كيلوغراماً واحداً بعد أسبوع من العمل، ثم أحتاج شهراً كاملاً لفقدانه في أفضل الأحوال... باختصار، تحرٍّ خاص لقضايا معظمها فاشلة، لكن هذا الوضع كان يناسبني للغاية.

ربما سمعتُ كالجميع بخبر تحطم الطائرة في الصباح، على أمواج الإذاعة، وأنا في موقف السيارات أمام كازينو هينداي، دون أن أعيره أدنى اهتمام، غير عالمٍ بأنّ هذا الحادث سيتحوّل بعد أشهر قليلة إلى محور حياتي الأوحد. يا لسخرية القدر! فقط لو كنت أعلم...

تحطّمت الإيرباص 5403 إسطنبول-باريس على جبل تيريبل يوم

(*) هينداي أو Hendaye: مدينة تقع في منطقة الباسك الفرنسي، آخر مدينة ساحلية قبل الحدود مع إسبانيا. (المترجم)

23 ديسمبر ليلاً في الدقيقةِ السابعة والثلاثين بعد منتصف الليل تحديداً. لم يتمكّن أحد من معرفة حقيقة ما وقع تلك الليلة. كان فصل شتاء هادئاً عموماً، لكن الثلوج بدأت بالانهمار بلا توقف منذ ذلك الصباح، ثم ازدادت حدّة العاصفة ليلاً. يمكن تشبيه جبل تيريبل بالممر أو الثغرة بين جبال جورا السويسرية ونظيرتها الفرنسية، ويبدو أنّ ربان الطائرة قد أخطأ الثغرة. ذلك ما قِيل في تلك الفترة، هكذا ببساطة شديدة. تُلقى المسؤولية بأكملها على عاتق الربان المسكين الذي قضى متفحِّماً في الطائرة كباقي الضحايا.

ستسألونني: وماذا عن الصندوق الأسود؟ سأجيبكم بأنه لم يحمل أيّ جديد ذي أهمية، باستثناء تحليق الطائرة على علوٍّ منخفض للغاية ثم فقدان الربان السيطرة على طائرته... بحثت جمعية ضحايا الحادث وعائلة الربان عن معرفة المزيد، لكن بلا جدوى. وهكذا ألقى الجميع بالمسؤولية على الربان، والثلوج، والعاصفة، والجبل، والقدر، وقانون مورفي الشهير المتعلق بالسلاسل السوداء، وسوء الحظ... ثم صدر الحكم بطبيعة الحال.

بحثت عائلات الضحايا عن الحقيقة، لكن أحداً لم يكُن ليهتم بذلك، لم يكن هذا الحكم ليثير اهتمام المتتبعين للقضية.

تحطّمت الطائرة في الدقيقة السابعة والثلاثين بعد منتصف الليل... هذا ما توصّل إليه الخبراء بعد التحقيق، فلا وجود لشهودٍ لتأكيد المعلومة، باستثناء الركاب بطبيعة الحال، ولم يتمّ العثور على شيء، ولا حتى ساعة مهشّمة تشير ربما لساعة التحطّم.

قبل ليلة الميلاد، كان علماء البيئة قد بذلوا كلّ ما في وسعهم للاعتناء بأشجار التنّوب الصغيرة في الجبل، لكن ثواني قليلة كانت كافية بالنسبة إلى طائرة الإيرباص حتى تقتلعها من جذورها، فيما احترقت الأشجار التي لم تُقتلع، رغم انهمار الثلوج.

زحفت الطائرة في الغابة بضع مئات من الأمتار قبل توقّفها، لتنفجر بعد لحظات قليلة، ويستمرّ احتراقها طوال الليل.

لم يعثر رجال الإنقاذ على جسم الطائرة المتوهّج إلّا بعد مرور ساعة كاملة على الحادث. فقد تأخر الإعلان عن وقوع الكارثة كثيراً. لا وجود لأحد في دائرةٍ قطرها خمسة كيلومترات، ويبدو أن ألسنة اللهب هي التي نبَّهت ساكنة الوادي القريب، ثم ساهمت الثلوج في تأخير عمليات الإنقاذ، المروحيات بقيت مسمّرة أرضاً، ووصلت طلائع رجال الإطفاء إلى فرجة الغابة المضطرمة سيراً على الأقدام، بعدما تابعت طريقها في الخندق المشتعل بمشقة بالغة. هدأت العاصفة في ساعات الصباح الأولى، وتحوّل جبل تيريبل إلى مركز للعالم. أعتقد بأنه قد تمّ رفع دعوى قضائية، أو ربما مطالبة بتحقيقٍ على الأقل لمعرفة الأسباب التي أخّرت وصول رجال الإنقاذ، ولكن هذا أيضاً لم يكن ليُثير اهتمام أحد، حتى هذه الدعوى لم تكن كافية لإثارة شغف الجمهور المتحمّس لمتابعة أطوار القضية.

على أية حال، بدا أنّ رجال الإنقاذ قد أدركوا بأنه لا داعي للإسراع، فالمنطق يقول إنه لا وجود لأحياء. هذا ما فكّروا فيه عندما وجدوا أنفسهم أمام ألسنة اللهب المضطرمة، ولكنهم -في نهاية المطاف- رجال شرفاء بضمائر حية، بحثوا رغم ذلك عن شيء لا يُدركون هم أنفسهم كُنهه، وإن كانوا في مواجهة عاصفة ثلجية على الساعة الواحدة والنصف صباحاً في قلب سلسلة جبال جورا، مغالبين بالتأكيد شعوراً بأنّ تنقّلهم كان بلا فائدة، أو لمجرد التدفئة لبضع دقائق بهذه النيران الضخمة التي التهمت كلّ شيء على سفح الجبل. هذه النيران التي تحالَفَت مع الثلوج لتحويل جثث مئة وثمانية وستين راكباً مذعوراً إلى بخار ورماد.

بحثوا، بأعينٍ هدَّها الدخان والضيق. قبل أن يعثرَ رجل إطفاء شاب -ينتمي إلى فرقة سوشو ويُدعى تيري موشو- على شيء ما. أعرف أنّ الدقة المتناهية في المعلومات التي سأوردها الآن -رغم مرور سنوات طويلة- ستفاجئكم، لكن ثقوا بي، كلّ المعلومات صحيحة. لقد قضيت عدّة ساعات فيما بعد مع هذا الإطفائي، وجهاً لوجه، فقط لأخلّد ثواني الرعب التي عاشها، وأعود إلى أدقّ التفاصيل، وإن كانت غير قابلة للتصديق.

اعتقد الشاب في البداية أنه أمام جثة، جثة رضيعة، لكنه كان الجسد الوحيد الذي لم تلتهمه النيران كباقي جثث ركاب الإيرباص. يتعلق الأمر برضيعة حديثة الولادة. طفلة في شهرها الثالث تقريباً. قُذِفت في أثناء التحطّم عبر باب طائرة الإيرباص الأيسر الذي انبعج جزئياً بفعل الاصطدام. هذا ما أعاد الخبراء تشكيله من جديد عبر استدلالات دقيقة. أمّا في ما يخص تحديد المكان الذي كانت تشغله الطفلة ووالداها في الطائرة، فاطمئنوا، سأعود لهذه النقطة فيما بعد، كونوا صبورين...

كان رجل الإطفاء الشاب مقتنعاً بأنه لم يعثُر سوى على جسد صغير لا حياة فيه، لقد قضت الرضيعة أزيد من ساعة تحت الثلوج، لكنه شعر في أثناء انكبابه على الطفلة أنّ وجهها ويديها وأصابعها كانت بالكاد مزرقّة. استقر الجسد على بُعد ثلاثين متراً تقريباً من نيران الطائرة المشتعلة، كما لو أنّ حرارتها قد دثَّرتها بغطاء دافئ.

أجرى رجل إطفاء سوشو الشاب عملية تنفس اصطناعي سريعة، من الفم للفم، كما جرى تدريبه عليها بالضبط، ثم دلَّك قلب الطفلة بحرصٍ بالغٍ. لم يتصوّر يوماً أنه سينقذ رضيعة صغيرة، وفي مثل هذه الظروف الغريبة...

كانت الطفلة تتنفّس بصعوبة. فتولى أطباء الحالات المستعجلة مهمّة إنقاذها في الدقائق الموالية، ثم أكّدوا فيما بعد أنّ الحريق الذي شبَّ في فرجة الغابة والحرارة المنبعثة من هيكل الطائرة المشتعلة كلها ساهمت في إنقاذ الرضيعة.

طفلة زرقاء العينين، شديدتا الزرقة مقارنة بعمرها الصغير، فرنسية غالباً بالنظر إلى بياض بشرتها. قُذفت خارج الطائرة بمسافة كافية سمحت في الوقت نفسه بنجاتها من الموت محترقة والبقاء دافئة بفعل النيران المشتعلة في برد الليل القارس. سخرية قدرٍ مرعبة، محرقة حقيقية للركاب ولوالديها اللذين أنقذا حياتها، هذا ما قاله الأطباء لتفسير المعجزة.

لأنها كانت معجزة بالفعل!

أصدرت معظم الصحف الوطنية طبعات خاصة حول الكارثة في وقت متأخر من الليل، من دون انتظار انتهاء عمليات الإنقاذ. وحدها يومية **ليست ريبوبليكان** التي جازفت بالانتظار قليلاً، فلم تشغِّل مطابعها، ووضعت فريقها على أهبّة الترقب، مشكِّلة عدة إنذار فريدة من نوعها، غالباً من ابتكار رئيس تحرير ذكي للغاية. لجريدة **ليست ريبوبليكان** جيش من الصحافيين تحت تصرّفها في كل أرجاء منطقة جورا، ممَّن لحقوا بسيارات الشرطة وتمركزوا أمام أبواب المستشفيات... تسرَّب خبر المعجزة في الثانية صباحاً. فعنونت **ليست ريبوبليكان** عددها ليوم 23 ديسمبر 1980: «معجزة جبل تيريبل»، ليترسّخ التعبير في أذهان الجميع، ولم يتوقف الصحافيون عند هذا الحدّ، مضيفين إلى جانب صورة الطائرة المحترقة، صورة ملوّنة للرضيعة التي يحملها رجل الإطفاء بين يديه أمام مستشفى بيلفور-مونبليار، مع تشديد الزرقة على وجهها وأطرافها وعينيها. وتعليق مختصر واضح: «تحطم درامي للإيرباص 5403 إسطنبول-

باريس،على منحدرات جبل تيريبل، على الحدود الفرنسية- السويسرية، ليلة 22 إلى 23 من ديسمبر 1980. مئة وثمانية وستون من أصل مئة وتسعة وستين من ركاب وطاقم الطائرة لقوا مصرعهم، إمّا في الحال أو بفعل النيران. الناجية الوحيدة بأعجوبة، رضيعة تبلغ من العمر ثلاثة أشهر، قذفت بعيداً في أثناء الاصطدام، قبل اشتعال النيران في الطائرة.»

استيقظت فرنسا على وقعِ هذه المأساة، أبكَت يتيمة الثلوج الجميع في منازلهم. في الصباح تناقلت كلّ نشرات الأخبار الإذاعية والتلفزية سَبْقَ **ليست ريبوبليكان**. ربما تتذكرونها الآن؟ كلّ تلك الدموع الساخنة التي أغرقَت الحداد الشتوي الوطني...

بقيت نقطة مهمة. لقد تمكّنت الجريدة من نشر صورة للناجية بأعجوبة، لكنها لم تنشر اسمها...

في الثانية صباحاً، كانت المسألة بالغة التعقيد، إذ وجب الاتصال بمصلحة إير فرانس في إسطنبول. هذا ما قاله رئيس تحرير الصحيفة. واسمها في نهاية المطاف ليس بتلك الأهمية. صحيح أنّ كتابة اسم اليتيمة زرقاء العينين تحت صورتها في الصفحة الأولى كان سيُضيف الكثير من الناحية العاطفية؛ لكن عنوان «معجزة جبل تيريبل» لا بأس به... وقد يترك حيزاً ولو صغيراً من الغموض قبل تحديد هويّة الرضيعة في الغد.

على أبعد تقدير...

ولكن مهلاً...

أنا أبحث عن هذا الاسم، عن هذه الهوية، منذ ثماني عشرة سنة!

- 5 -

2 أكتوبر 1998، التاسعة صباحاً وعشر دقائق

شتّتت الضحكات الهستيرية لخمسة طلبة متحلّقين حول منضدة صغيرة انتباه مارك. يبدو أنهم يتبادلون صوراً معينة فيما بينهم، غالباً عن سهرتهم الطلابية الأخيرة، صوراً من تلك النوعية التي سيحتفظون بها خِفية طوال حياتهم، بمزيجٍ من الفخر والندم. يعرفهم مارك لكن بشكل سطحي، فهُم جميعاً أعضاء في واحدة من الجمعيات الرئيسة المهتمّة بتنظيم الأنشطة الجامعية الموازية، تعاونيات، وسجلّات امتحانات ونسخ جاهزة للدروس، بما يسمح بتمويل السهرات والرحلات الجامعية.

رفع مارك بصره.

التاسعة وإحدى عشرة دقيقة، كما تشير إليها عقارب ساعة المارتيني.

لم تكلّف مريم نفسها عناء النظر إليه، منشغلة بالثرثرة مع فتاة مسربَلَة بالسواد من قمّة رأسها إلى أخمص قدميها، بما في ذلك ملابسها الداخلية المتناسقة مع تنورتها الكحلية، فبدت شبيهة

بمورتيسيا آدامز(*) في نسختها الجامعية.

زفر مارك في ضيق، ثم عاد إلى القراءة باستسلام.

مذكرات كريدول غران-دوك

وهكذا... في هذه اللحظة بالذات، بدأ لغز جبل تيريبل. ربما عادت نتف ذكرياتٍ من هذه الفترة إلى أذهانكم الآن، أليس كذلك؟ سارت الأحداث -رغم ذلك- في مجراها الطبيعي... تولّت مصلحة طب الأطفال في المركز الطبي بيلفور-مونبليار مهمة الاعتناء بالرضيعة اليتيمة التي اكتشفها رجل الإطفاء الشاب، تحت مراقبة جيش من الأطباء.

قمت بإعادة ترتيب ما جرى بعد ذلك بدقّة موقّت موسيقي، لكنني سأجنّبكم ساعات طويلة من تسجيلات إفادات الشهود. أعتقد بأن ملخّصاً مختصراً سيكون كافياً.

عَلِمَ ليونس دو كارفيل بالخبر المزدوج، التحطّم والرضيعة الناجية بأعجوبة، عبر موجز الأخبار الإذاعية للسادسة صباحاً، هو معتاد على الاستيقاظ في ساعات الفجر الأولى. ألغى كلّ مواعيد جدول أعماله -الممتلئ أصلاً- باتصالٍ هاتفي واحد، ثم سافر في الحال إلى مونبليار عبر طائرة خاصة. ليونس دو كارفيل، خمس وخمسون سنة وقتئذٍ، واحد من بين مئة من أشهر رواد قطاع الصناعة

(*) مورتيسيا آدامز (Morticia Addams): شخصية خيالية ضمن أبطال السلسلة التلفزية الأميركية «عائلة آدامز» التي عرضت في ستينيات القرن الماضي، اشتهرت هذه الشخصية بارتدائها لملابس سوداء طوال أحداث العمل. قامت بأداء الدور الممثلة الأميركية كارولين جونز. (المترجم)

في فرنسا. درس الهندسة، ثم كوَّنَ ثروته عبر مدّه لخطوط أنابيب النفط والغاز في جميع أنحاء العالم. وقَّعت شركة دو كارفيل عقوداً مع كبريات شركات البترول والغاز الدولية. في الواقع، لم تكن التقنية المبتكرة التي ابتدعتها الشركة في خطوط الأنابيب وناقلات الغاز سبباً رئيساً في نجاحها، وإنّما قدرتها على مدّ هذه الأنابيب في المناطق الأكثر خطورة أو تعقيداً في العالم، في أعماق البحار والجبال، والمناطق المعرَّضة لخطر الزلازل... عرفت الشركة انطلاقتها الحقيقية في الستينيات، عندما ابتكرت تقنية ثورية لتثبيت الأنابيب في المجلّدات الأرضية، وهي طبقات تحتأرضية دائمة التجمّد على طول السنة تقريباً... بدأت في تصديرها، في خضمّ الحرب الباردة، سواء إلى سيبيريا أو حتى آلاسكا...

حافظ ليونس دو كارفيل على قناع الهدوء والوقار في المتاهة البيضاء لمستشفى بيلفور-مونبليار، وهو ما أدهشَ كلّ الموظفين المحاصَرين والمطارَدين من قبل الصحافيين.

- اتبعنا، قالت ممرِّضة متعجِّلة.

- أين هي؟

- في الحضانة. اطمئن. هي بخير...

- مَن يتابع حالتها؟

تردَّدت الممرضة، مذهولة قليلاً، فتمتمت مجيبة:

- ال... الدكتور مورانج. هو الذي تابع حالتها هذه الليلة...

حدجها ليونس دو كارفيل بنظرة متفحِّصة، لم يكن بحاجة للتفوّه بكلمة واحدة حتى تُكمل الممرضة:

- أنتَ محظوظ يا سيد دو كارفيل. هو أحد اختصاصيينا الأكثر شهرة. ما زال موجوداً في المستشفى. يمكنك سؤاله عن أيّ شيء.

افترّ ثغر ليونس دو كارفيل عن شبح ابتسامة هازئة، قد تعني الرضى أو الانتباه التام. ثم واصل مشيه بخطوات حازمة غير متردِّدة، فحرص الجميع على إجلاء الممرات المزدحمة أمامه.

في الليلة الماضية، فَقدَ رجل الصناعة والأعمال في مأساة جبل تيريبل ابنه الوحيد وزوجة ابنه. كان هو، رائد الصناعة الحكيم، مَن دفع ابنه قبل عامين إلى تسلُّم مهام الإدارة في الفرع التركي لشركة دو كارفيل. كان سرّاً شائعاً، أن يتمّ إعداد الشاب ألكسندر دو كارفيل لتسلّم منصب مدير الشركة بعد والده، وأن ينتقل إلى تسلّم المهام بهدوء. وقد أثبتَ ألكسندر جدارته في تركيا، مستفيداً من تكوينه الصارم في البوليتكنيك ورغبته في إعطاء قيمة لشهادته العلمية، بالتوازي مع قدرته في الوقت نفسه على التعامل مع تغيّر أنظمة الحكم في هذا البلد، سواء تركيا العسكرية، أو تركيا الديمقراطية... فيما كان الهدف الأخير والأكثر أهمية بالنسبة إلى شركة دو كارفيل، الذي انتقل من أجله ألكسندر وأسرته إلى هذا البلد، هو التفاوض بشكلٍ مباشر لإنشاء خطّ أنابيب باكو(*)-تبيليسي(**)-جيهان(***)، ثاني أطول خط في العالم، بما يقارب

مكتبة

(*) باكو: عاصمة دولة أذربيجان. (المترجم)

(**) تبيليسي: عاصمة دولة جورجيا. (المترجم)

(***) جيهان: إحدى المدن التابعة لمنطقة أضنة في تركيا، وتضم ميناء مهماً يطلّ على البحر الأبيض المتوسط. (المترجم)

ألفي كيلومتر، من بحر قزوين(*) إلى البحر الأبيض المتوسط، ألف منها في تركيا وصولاً إلى الميناء الصغير في جيهان، جنوب شرق الساحل المتوسطي التركي، قريباً من الحدود مع سوريا، حيث نقلت عائلة ألكسندر مستقرّها الصيفي. كانت مفاوضات طويلة، وعرفت نوعاً من الجمود طوال عامين. كان ألكسندر دو كارفيل يمضي معظم شهور السنة في تركيا، مرفوقاً بزوجته فيرونيك وابنتهما مالفينا وعمرها ست سنوات، قضت سنتين منها في هذا البلد. لم تعُد فيرونيك إلى فرنسا منذ علمها بحملها، وضعها الصحي الهشّ جعلَ الحمل معقّداً بعض الشيء، حذّرها الأطباء من التنقّل المستمر، ومنعوها من ركوب الطائرة... لكنّ الولادة تمّت رغم ذلك في ظروفٍ ممتازة، في باكيركوي، أكبر مستشفى خاص للولادة في إسطنبول، واستطاعت مالفينا احتضان شقيقتها الصغرى ليز-روز بين ذراعيها بإخلاصٍ شديد... فيما توصّل ليونس دو كارفيل وزوجته ماتيلد -وقد بقيا في فرنسا- برسالة جميلة وصورة مهتزة بعض الشيء لحفيدتهما. لا داعي للعجلة، فقد خطّطت العائلة للقاء في ليلة الميلاد لعام 1980. سافرت مالفينا دو كارفيل -ككلّ سنة- إلى فرنسا مع بداية عطلة الميلاد، أسبوعاً قبل والديها. كان من المفروض أن يلحق بها ألكسندر وفيرونيك وليز-روز أياماً قليلة بعد ذلك، عبر رحلة جوية مسائية، من إسطنبول إلى باريس، يوم 23 ديسمبر... تمّ الإعداد للحفلة في الإقامة العائلية الفسيحة لدو كارفيل في كوبفراي، على ضفاف نهر المارن. زيَّنت مالفينا -على

(*) بحر قزوين: بحر مغلق يقع في غرب آسيا على مساحة تبلغ 371 ألف كيلومتر مربع. أكبر بحر مغلق في العالم، تطلّ عليه دول روسيا وإيران وأذربيجان وتركمانستان وكازاخستان. (المترجم)

شرف شقيقتها- كلّ أرجاء المنزل، من المدخل إلى غرفة ليز-روز، بشرابات وردية وبيضاء، بما في ذلك الدرج الكبير المصنوع من خشب كرز الطير، هي الطفلة السمراء والمحبوبة، بسنواتها الست. عفريتة صغيرة لا تُقاوم، اعتادت على إلقاء الأوامر على جيش من الخدم كما لو كانت جنرالاً، سواء في تركيا أو فرنسا.

مالفينا دو كارفيل...

اسمحوا لي بالابتعاد قليلاً عن سير ليونس دو كارفيل الطويل بين ممرات مستشفى مونبليار، وتقديم مالفينا، هذا مهم للغاية، ستفهمون قصدي فيما بعد.

مالفينا دو كارفيل، إذاً.

هي إنسانة لا أظنّها أحبَّتني يوماً... هذا أقلّ ما يمكنني قوله. وهو شعور متبادل صراحة. أعتقد بأنها ليست مسؤولة عن جنونها، وأنه كان من الممكن -لولا هذه المأساة- أن تصبح امرأة لامعة ومرغوبة، بورجوازية ممَّن تلقّوا أفضل تربية ممكنة وحظوا بأفضل زواج ممكن... لكن هذه الطفلة بثَّت في نفسي -بوساوسها المتنامية على مرّ السنين- رعباً شيطانياً... لم تمنحني ثقتها الكاملة أبداً، عكس جدَّتها؛ لقد شَعَرَت بأنني أعتبرها أشبه ما تكون بمسخ. نعم، مسخ! هكذا أصبحت هذه الطفلة الجميلة ذات الستة أعوام مع مرور الوقت، مخلوقاً بشعاً وحاداً وخارجاً عن السيطرة... لكن لنتجاوز كلّ هذا، فالوقت ليس مناسباً للحديث عنها الآن... قد يلقي القليل من الحظ السيئ بالمفكّرة بين يديّ هذه الشريرة، ومَن يدري أيّ ردة فعل قد تخلِّفها قراءة هذه السطور في نفسها!

لنعُد بالأحرى إلى ما أصابها بالجنون. المعجزة، أو خيال المعجزة، إن شئتم الدقة.

بالعودة إلى المركز الطبي لبيلفور-مونبليار، حافظ ليونس دو كارفيل على مظهر أعطى -لأول مرة- انطباعاً بأنه أقرب للرزانة منه للجمود. كان رابط الجأش حتى عندما تعرَّف على حفيدته لأول مرة خلف نافذة زجاجية منَعَته من سماع بكائها.

- ها هي، قالت الممرضة. السرير الأول، أمامك مباشرة.

- شكراً.

كانت نبرة صوته متحفّظة، هادئة، مُتَحَكِّماً بها. تراجعت الممرضة بثلاث خطوات، فقد علمت أن ليز-روز هي كلّ ما تبقّى لليونس دو كارفيل.

في هذه اللحظة بالذات، تزعزع إيمان رائد الصناعة المرموق، أو ضعف على الأقل. . . بطبيعة الحال، لم يكن ليونس كاثوليكياً ورعاً كزوجته ماتيلد. كان مؤمناً بالهدي، وخاضعاً للعادات الاجتماعية، حتى لا تؤثر عقلانيته العلمية على علاقته بعائلة زوجته ومجتمع كوبفراي الطائفي الطابع. لكن يبدو أنه من الصعب تجاهل عوالم الماورائيات في وضعٍ مثل هذا، حتى بالنسبة إلى أكثر الرجال عقلانية. أن تُرهقك الحيرة بين شعور بالغضب العارم تجاه إلهٍ قاسٍ حرمَكَ من ابنك الوحيد، وإحساس بالامتنان والمغفرة تجاه إلهٍ قَبِلَ -كتعويضٍ ربما- إنقاذ حفيدتك، فقط. . .

بكَت ليز-روز في قفَصِها الزجاجي بصمت.

- إنها معجزة، قال الطبيب مورانج الواقف خلف ليونس دو كارفيل، بردائه الأبيض وابتسامته الشبيهة بابتسامة الرهبان.

الهيئة نفسها التي قابلني بها وروى لي هذه التفاصيل، سنوات بعد ذلك.

- إنها بخير بما يشبه المعجزة، ولا تعاني من أية مشاكل

صحية. هي فقط تحت المراقبة الاحترازية، حالتها ممتازة، أؤكّد لك أنها أعجوبة بالفعل...

أعتقد بأنّ ليونس دو كارفيل قد شكر الرب في السماوات، رغم كلّ شيء...

في هذه اللحظة بالذات جاءت ممرضة تبحث عن الطبيب المداوم، اتصال عاجل من أجله، عاجل وغريب جداً، فترك الدكتور مورانج ليونس دو كارفيل أمام القفص الزجاجي الذي ترقد فيه حفيدته.

ما دام ليونس وحيداً الآن فسوف يكون قادراً على ذرف دموعه بأريحية، هكذا فكَّر الطبيب، الذي يحب -كما الجميع- المآسي التي تنتهي بنهاية سعيدة، أو بنهاية أفضل من بدايتها على الأقل. التقط الطبيب سماعة الهاتف من يد الممرضة مغالباً تأثّره.

بدا أنّ الصوت في السماعة قادم من آخر نقطة في العالم، بمزيج من الوقار والعجلة.

- مرحباً دكتور، أنا جدّ الرضيعة، رضيعة الطائرة، كارثة الليلة الماضية في جبال جورا، لقد حوّلتني مصلحة الهاتف إليكم... هل هي بخير؟

- بخير.. وعلى أفضل ما يرام، اطمئن، ستكون قادرة على مغادرة المستشفى بعد أيامٍ قليلة فقط، بالمناسبة، جدّها لأبيها هنا. إن كنتَ ترغب في محادثته...

أجابه صمت المتصل، فشعر الطبيب -منذ هذه اللحظة- أنّ شيئاً ما ليس على ما يرام.

- معذرة دكتور.. يبدو أن هنالك سوء تفاهم... أنا جدّ الرضيعة لأبيها، ليس لحفيدتي جدّ لأمها، فكنّتي كانت يتيمة...

شعر الدكتور مورانج بتنمّل عصبي في أصابعه، فيما وضع عقله -الذي انتقل إلى حالة الغليان- عدّة تفسيرات محتَمَلَة لما يجري.

خدعة؟ حيلة من صحافي يطمع في الحصول على معلومات جديدة؟

كان الطبيب بحاجة إلى مزيدٍ من التدقيق.

- هل تقصد كارثة رحلة إسطنبول-باريس، الليلة الماضية؟ الرضيعة التي نجت بأعجوبة؟ الطفلة ليز-روز؟

- لا يا دكتور...

شعر الطبيب في صوت مخاطبه بأنه قد أطلق زفرة ارتياح كبيرة.

- لا يا دكتور، أكمل الصوت بنبرة أكثر اطمئناناً، هنالك سوء تفاهم، اسم الرضيعة التي بقيت على قيد الحياة ليس ليز-روز... اسمها إيميلي.

التمَعَ جبين الطبيب بحبّات العرق، وهو ما لم يحدث له أبداً، حتى وهو في غرفة العمليات.

- عذراً سيدي، هذا مستحيل. السيد دو كارفيل جدّ الطفلة هنا والآن، في المستشفى، لقد رآها وتعرَّف عليها، ويؤكد بأنَّ اسمها هو ليز-روز...

تبع كلامه صمت مضطرب من كلا الجانبين.

- أنت... أنت تقطن بعيداً عن مونبليار؟ سأله الطبيب بحذر.

- دييب... في نورماندي العليا.

- آه... و... أعتقد بأنه من الأفضل أن... سيد؟

حاول الطبيب كسب بعض الوقت وإنْ بطريقة رعناء.

- السيد فيترال، بيير فيترال...

- إذاً، سيد فيترال، أعتقد بأنه سيكون من الأنسب لكَ أن

تتّصل بمفوضية الشرطة في مونبليار. أظنّهم منهمكين الآن في تدقيق ومراجعة هويات الركاب. هذا كلّ ما أستطيع قوله... سيقدّمون لك بلا شك كلّ الإفادات الضرورية، ستجد عندهم كلّ الإجابات عن تساؤلاتك...

شعر الطبيب في تلك الأثناء بأنه لا يختلف كثيراً عن موظّفي المصالح الإدارية الذين يبعثون بمواطنٍ مسكين إلى الشبّاك المقابل. لقد أحسَّ بأنه بمجرّد وضعه للسماعة فسوف يدفع بذلك الشخص، هناك في دييب، إلى الانهيار، كما لو أنّ حفيدته قد قُتِلَت للمرة الثانية في هذا الحادث. لكنه طمأنَ نفسه بسرعة، هو لا علاقة له بكلّ هذا في نهاية المطاف. قد تكون مجرّد قصة سخيفة، وربما اختلط الأمر على هذا الشخص.

ثم أنهى المكالمة.

تساءل الطبيب عندئذٍ إن كانَ عليه أن يُخبِر ليونس دو كارفيل بشأن هذا الاتصال الغريب.

وضع بيير فيترال السماعة ببطء، فيما وقفت زوجته نيكول بجانبه، لتقول بقلق:

- إذاً، هل إيميلي بخير؟ ماذا قالوا؟

تأمّلها زوجها بحنان لامتناهٍ، كما تعوَّد على ذلك دائماً، ثم تكلَّم بهدوء كما لو كان مسؤولاً عن كلّ ما حصل:

- قالوا إنّ الرضيعة التي بقيت حية تُدعى ليز-روز وليس إيميلي...

بقيت نيكول وبيير فيترال صامتين لوقت طويل. لم تكن الحياة رحيمة بكليهما. أن تجمع حظّين سيئين قد يعني معادلة إيجابية أحياناً، كما هو الشأن بالنسبة إلى الجَمع بين إشارتين سالبتين. لقد

واجه الاثنان يومياً نقص المال، وضربات القدر، والأمراض، دون أيّ شكوى أو امتعاض. دائماً الشيء نفسه، عندما تصمت فأنت لا تحصل على شيء. . . لم يتذمّر آل فيترال من هذه الحياة، فلم تجد حرجاً في منحهم تعاسة إضافية. أضرّ بيير ونيكول فيترال بصحتيهما، بيير في ظهره ونيكول في رئتيها، بعدما أمضيا أزيد من عشرين سنة في بيع البطاطس المحمرة والنقانق ومشويات أخرى في ناقلة من طراز ستروين إتش، برتقالية وحمراء اللون، جهّزت خصيصاً للتنقل بين شاطئ دييب وشواطئ أخرى في الشمال، تبعاً للتظاهرات والحفلات والطقس الذي لم يكن معتدلاً في معظم الأحيان. وجدا الوقت لإنجاب طفلين، كنوعٍ من الاستهزاء بعبثية الحياة، فكافأتهما بحرمانهما من أحدهما، نيكولا، الذي قضى نحبه في حادثة سير بدراجة بخارية في كريل سور مير، ذات ليلة ممطرة.

التصق سوء الحظ بجلديهما، لكنهما فازا -رغم ذلك- بشيء ما قبل شهرين، رحلة إلى بودروم كومبي مدّتها خمسة عشر يوماً.

بودروم كومبي؟ أين تقع بودروم كومبي هذه؟

يتعلق الأمر بشبه جزيرة تركية، مطلّة على البحر الأبيض المتوسط، تضمّ سواحلها فنادق أربع نجوم، قوائم الكراسي الطويلة في المياه الشفافة. مع التكفّل بكامل المصاريف. فندق فخم بالفعل! كانا قد فازا مصادفة، في مسابقة وضعا خلالها قسيمة قرعة في إناء زجاجي بفضاء أحد متاجر كارفور، في فترة الخمسة عشر يوماً التجارية، وكانت قسيمة ابنهما باسكال هي الفائزة. اعترضهما عائق واحد: كانت الرحلة مقرَّرة قبل نهاية عام 1980، وهذا غير مناسب لهما. . . صار باسكال وزوجته ستيفاني أبوين من جديد منذ شهرين فقط، بعدما أنجبا طفلة جميلة اسمها إيميلي. لا مشكلة فيما يخصّ ابنهما الأكبر مارك الذي يبلغ من العمر سنتين، إذ يمكنه البقاء مع

جدّه وجدته وقت الرحلة، لكن الأمور أكثر تعقيداً فيما يتعلق بالصغيرة إيميلي، فستيفاني تُرضِعها، ولا يمكن لها الابتعاد عن ابنتها لخمسة عشر يوماً بأيّ حال من الأحوال. . . كانت التذاكر اسمية غير قابلة للاستبدال. . . إمّا الاعتذار عن الرحلة، أو السفر بمعيّة الطفلة.

سافروا في نهاية المطاف، لم يسبق لهم ركوب الطائرة من قبل. كانت ستيفاني شابة تجسّد خيالها في عينيها الضاحكتين، واعتقادها أن العالم أشبه بتفاحة ضخمة تستحق القضم، أو فاكهة حسبتها محرَّمة في جنتها الصغيرة.

لا يجب عليهم أن يديروا ظهورهم للحظ الذي ابتسم لهم أخيراً، هكذا اعتقدوا. كان عليهم أن يحذروا، نحن مطالبون دائماً بالحذر من الابتسامات. كان من المفروض أن تحط الطائرة بباسكال وستيفاني وإيميلي في مطار رواسي(*) يوم 23 ديسمبر، ثم قضاء يوم في باريس لتأمُّل واجهات المحال المحتفية بليلة الميلاد، هو اقتراح شاعري آخر من ستيفاني، اليتيمة اللطيفة التي يحبّها كل أفراد عائلة فيترال وتُبادلهم هي الحب نفسه أيضاً. في الواقع، لم تكن ستيفاني في أعماقها بحاجة إلى هذه الرحلة إلى تركيا حتى تكون سعيدة. حكايتها السعيدة كانت هي مارك وإيميلي، طفلاها الجميلان، مع والدهما وجدَّيهما لتدليلهما.

علم بيير ونيكول فيترال بالواقعة معاً، وهما يستمعان إلى موجز السابعة صباحاً في إذاعة فرنسا الدولية.

(*) مطار رواسي أو مطار باريس شارل ديغول: مطار فرنسي يقع في منطقة رواسي، 23 كيلومتراً شمال شرق العاصمة باريس، يحمل هذا الاسم تخليداً لذكرى الرئيس الفرنسي الأسبق شارل ديغول. (المترجم)

ككلّ صباح.

وجهاً لوجه، متقابلان على الطاولة الصغيرة في المطبخ الضيق المزدحم. بقيَ قدحا الصلصال الرملي -قهوة بيير وشاي نيكول- طويلاً هناك، باردَين، بالكاد شَرَعا في تناول فطورهما. تسمَّرا في موضعهما، مصدومين، غير قادرين على الإتيان بحركة، بعد هذه الثانية التي أربَكَت مسار الحياة في منزل الصيادين الصغير هذا، في شارع بوشول في حي بوليه، حيّ الصيادين القديم الذي تحوّل إلى ما يشبه الجزيرة وسط ميناء دييب.

- لماذا ليز-روز؟ صرخت نيكول فيترال فجأة.

كانت جدران منازل الحيّ مشتركة، إذ يتألّف الردب من العشرات من واجهات مبانٍ كلّها متشابهة، ما يمكّن الجميع من أن يسمعوا كل شيء.

وهكذا اخترقت صرخة نيكول الجدران...

- لماذا أطلقوا على هذه الرضيعة اسم ليز-روز؟ هه؟ مَن أخبرهم بذلك؟ الرضيعة ربما؟ هي التي أخبرت رجال الإطفاء بذلك؟ رضيعة في شهرها الثالث على متن طائرة، طفلة صغيرة زرقاء العينين... إنها حفيدتنا إيميلي، وهي على قيد الحياة. مَن يجرؤ على قول العكس؟ كيف يجرؤون على قول العكس؟ هم يتلاعبون بنا لأنها الناجية الوحيدة، يريدون سرقتها منّا، لأنها الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة...

ملأت الدموع عينَي نيكول، فيما بدأ بعض الجيران في مغادرة منازلهم رغم البرد الشديد. انهارت نيكول بين ذراعي زوجها.

- لا يا بيير. عِدْني بذلك... لا يا بيير، لن يأخذوا منّا حفيدتنا، لم تفلت من جحيم الطائرة ليسرقها منّا هؤلاء. عدني بذلك.

في الغرفة المجاورة للبهو، أطلق مارك فيترال -الذي تجاوز بالكاد عامه الثاني- صرخات خائفة بعدما انتزعته صرخة جدّته من نومه، وإن كان عاجزاً عن الفهم، وربما لن تحتفظ ذاكرته بأية تفاصيل عن هذه الصبيحة المشؤومة.

2 أكتوبر 1998، التاسعة صباحاً وأربع وعشرون دقيقة

رفع مارك عينيه عن مفكرة غران-دوك، وقد ملأت الدموع عينيه.

لا، بالفعل، لم تحتفظ ذاكرته بأية تفاصيل عن هذه الصبيحة المشؤومة، إلى أن قرأ هذا النص...

أن يكتشف هكذا أدقّ تفاصيل مأساة طفولته لهو أمر غريب، خياليّ إلى حدٍّ ما.

أشعَرَته الحركة من حوله في حانة لينين بالدوار. غادر الطلبة الخمسة المنتمون إلى الجمعية الطلابية المكان في جدلٍ، صافقين البوّابة الزجاجية خلفهم بقوّة. انزلقت يد مارك على وجهه لتمسح خفية الدموع على جانبَي عينيه. تنفَّس بعمقٍ محاوِلاً طمأنة نفسه.

في نهاية المطاف، هو يعرف كلّ عناصر هذه الحكاية تقريباً. حكايته.

تقريباً...

أشارت عقارب ساعة المارتيني إلى التاسعة صباحاً وخمس وعشرين دقيقة.

ولم تكن هذه سوى البداية.

- 6 -

2 أكتوبر 1998، التاسعة صباحاً وسبع عشرة دقيقة

ضربت مالفينا دو كارفيل زجاج المَحيى بفوهة الماوزر إل 100(*). بالكاد أصدرت اليعاسيب ردّة فعل، باستثناء أكبرهن، بجسمها الضخم الأحمر اللامع وجناحيها الهائلين، التي حاولت الطيران لبضعة سنتيمترات قبل أن تسقط مرة أخرى في قعر المَحيى بعدما عرقلتها جثث باقي الحشرات الميتة، بالعشرات. لم تفكر مالفينا دو كارفيل ولو للحظة في إعادة تركيب نظام تهوية المَحيى أو رفع الغطاء الزجاجي بما يسمح بإفلات اليعاسيب التي بقيت على قيد الحياة، كانت تفضّل مراقبة احتضار الحشرات، هي غير مسؤولة في نهاية المطاف عن هذه المجزرة.

ضربت زجاج المَحيى بمسدسها من جديد، وبعنف أكبر. أثارتها محاولات الحشرات اليائسة -مع كل اهتزاز لجدران المَحيى- لتحريك أجنحتها المتثاقلة في أجواء محرومة من الأوكسجين.

(*) ماوزر إل 100: مسدس ألماني الصنع من نوعية المسدسات ذات الساقية الدوارة. (المترجم)

بقيت مالفينا على هذه الحال لعدّة دقائق. ستموت كلّ هذه اليعاسيب! لا يهمّها أمرها طبعاً، فهي ليست هنا من أجلها، إنها هنا من أجل ليز-روز. يعسوبتها هي. الوحيدة الفريدة.

تقدَّمت مالفينا في الغرفة، ففاجأها انعكاس صورتها في مرآة البهو. لم تقاوم تلك الرغبة في تأمّل مظهرها، لتعتريها رعشة اشمئزاز، هي تكره ذلك المشبك الأبيض الذي يقسم -من المنتصف- شعرها الطويل والمتيبس إلى قسمين، وتكره كنزتها الصوفية السماوية بياقتها الدانتيلا، وتكره جذعها بلا نهدين بارزين، وذراعيها النحيفتين، وجسدها الذي لا يتجاوز وزنه الأربعين كيلوغراماً.

يعتقد المارة في الشارع أنها طفلة في الخامسة عشرة من عمرها. . . على الأقل من الخلف، أمّا من الأمام فقد تعوّدت على نظرات الصدمة، عندما يجدون أنفسهم مندهشين أمام طفلة عجوز؛ طفلة عجوز في الرابعة والعشرين، ترتدي ملابس من حقبة الخمسينيات.

لم تكن تأبَه لكلّ ذلك.

هي تحتقر الجميع، كلّ مَن أخبرها بالشيء نفسه، منذ ثمانية عشر عاماً، عشرات الأطباء النفسيين، وأفضلهم، ممَّن أتعبتهم الواحد تلوَ الآخر، أطباء نفس الأطفال والمراهقين، وخبراء التغذية، والاختصاصيون في شيء ما. . . وجدَّتها أيضاً. تحفظ كلامهم المكرَّر عن ظهر قلب: رفض للنمو، ورفض لاكتساب الوزن، ورفض لزيادة السن، ورفض لتقبّل العزاء، ورفض لنسيان ليز-روز.

ليز-روز.

تقبُّل العزاء في موتها، نسيانها...
بمعنى آخر، قتلها...

استدارت متوجِّهة نحو المدفأة، فتعثّرت بالجثة، لكنها لم تكُن لتتخلى عن الماوزر في يدها اليمنى مهما حصل، فكلّ شيء ممكن. وإن كان هذا القذِر المدعو غران-دوك قد مات برصاصة في القلب، ورأسه داخل المدفأة.

أمسكَت بسطام المدفأة في يدها اليسرى وبحثت في الموقد برعونة.

لا شيء!

هذا النذل... كريدول غران-دوك... لم يترك وراءه أيّ شيء!

حرَّكت مالفينا العصا الحديد بعصبية أكبر، فضربت رأس غران-دوك، محرِّكة بذلك سحابة من الدخان الأسود. هي واثقة من وجود أثرٍ ما، أو ورقة غير محروقة، أي دليل كيفما كان...

كانت مُجبَرَة على الرضوخ للأمر الواقع. لم تكُن تهزّ سوى نثارٍ صغيرٍ متفحِّم.

استقرَّت صناديق الأرشيف على الأرضية الخشبية بهدوء.

تمَّ تدوين التواريخ على حواف الصناديق بقلم حبر أحمر:
1980، 1981، 1982-1983، 1984-1985، 1986-1989، 1990-1995، 1996...

كلها فارغة، فراغاً يبعث على اليأس.

اعترى مالفينا غضب عارم لا حدود له، ولا قابلية لها للسيطرة عليه. هكذا سخر ذلك القذر كريدول غران-دوك منهم! أمِن أجل

هذا دفعَ له جدّاها أموالاً طائلة طوال ثمانية عشر عاماً، متكفّلين بفواتيره، وسفرياته، ونفقاته، سنة بعد أخرى؟

من أجل حفنةٍ من الرماد!

أسقطت مالفينا السطام على الأرضية الخشبية المصقولة، فخلّف أثره الأسود على الخشب.

لقد اشترى هذا القذر منزله بأموالهم، هذا المنزل البرجوازي في قلب بوت-أو-كاي. . . بأموالهم! من أجل ماذا في النهاية؟ ليحرق كلّ الأدلّة قبل إغلاق فمه. نهائياً!

أحكَمَت قبضتها على الماوزر.

لم تتملّك مالفينا دو كارفيل أية رحمة بغران-دوك أو حتى شفقة بيعاسيب المَحيى الميتة.

وربما حتى أنّ شفقتها تجاهه كانت أقلّ.

لم ينل هذا القذر سوى ما يستحقه، وانتهى به المطاف مقتولاً في منزله، وقد احترق أنفه، عيناه وفمه بجمرِ أكاذيبه الملتهب. لقد قرَّر المخاطرة بخوضه هذه اللعبة بوجهين، ولكنه خسر. ولن يبكي حظّه التعيس. حسرة مالفينا الوحيدة كانت على استحالة قدرته على الكلام مرة أخرى. . . لكنها لن تيأس، الآن على الأقل. لن تتخلى عن شقيقتها الصغرى. هي هنا من أجلها، مثلما كانت دائماً. ليز-روز، يعسوبتها. يجب عليها أن تُواصل البحث وأن تعثُر على شيء ما.

تلك المفكّرة على سبيل المثال، مفكرة كريدول غران-دوك التي دوَّن فيها مذكراته طوال هذه السنوات، يوماً بعد يوم. دفترٌ بغلاف أخضر باهت كما تناهى إلى علمها. أين دسَّ هذه المفكرة؟ لِمَن سلَّمها؟

تقدَّمت مالفينا نحو المطبخ مُلقِيَة عليه نظرة دائرية متفحِّصة.

يبدو كلّ شيء نظيفاً صافياً. ممسحة زرقاء معلّقة على مسمار. على أية حال، لقد بحثت في كلّ أركان المكان، من دون جدوى. كان كلّ شيء مرتّباً في المطبخ كما في باقي الغرف. يبدو أنّ غران-دوك كان شخصاً مهووساً بالدقّة.

اللعنة!

هذا المنزل الحقير أشبه بالطريق المسدود. عليها أن تفكر.

تذكرت مالفينا اتصال غران-دوك بجدّتها. أخيراً! بعد كل هذه السنوات، ليلة بلوغ ليز-روز سنّ الرشد، أو دقائق قبل منتصف تلك الليلة. تحدّث عن صحيفة قديمة، **ليست ريبوبليكان**، وعن اكتشاف لا يمكن الوصول إليه إلّا بفتح نسخة الصحيفة بعد ثماني عشرة سنة!

فعلاً!

خدعة أخرى من هذا القذر!

قد تقع جدّتها في الفخّ مرة أخرى، إن كان يُسعدها تصديق ترّهات هذا المحقّق من جديد. أمّا هي فلا... **ليست ريبوبليكان**. بعد مرور ثماني عشرة سنة؟ هكذا مع متمّ منتصف الليل...

هذا مثير للشفقة.

لقد بحث -ببساطة- عن كسب المزيد من الوقت. ينتهي عقده بالضبط مع بلوغ ليز-روز عامها الثامن عشر. سيتوقّف نهر الأموال المتدفّق عن الجريان، فحاولَ هو الاستفادة أكثر من الصنبور، باختراع أيّ شيء. كانت جدّتها -بتزمّتها الديني الصارم- مستعدّة لسماعه، هي تثق بهذا المدعو غران-دوك أكثر من اللازم، وتحكَّم هو بها طوال هذه السنين. تأمّلت مالفينا الصحيفة النحاسية على المكتب. **كريدول غران-دوك، تحرٍّ خاص**.

يا له من اسم سخيف!

نعم، لقد تصوّر أنه قادرٌ على التحكّم بجدّها وجدّتها.

أمّا هي فلا!

كانت حرة، صافية، وتمكَّنت من كشف لعبته المزدوجة. كان غران-دوك متحيِّزاً دائماً لآل فيترال. كان في صفّهم! وراقبها دوماً كما لو كانت مجسَّماً في معرض. كان حذراً في تعامله معها.

ليس تماماً!

ألقت مالفينا نظرة أخيرة على المكتب، وغادرَت الغرفة بحسرة، ثم تقدَّمت نحو البهو الصغير. تفحَّصت نظراتها الثاقبة المظلّات في وعاء كبير، والمعاطف الطويلة المعلَّقة على المشجب. لا شيء هنا أيضاً.

لم تمنع نفسها من التوقف أمام الصور الممغنطة المثبتة في إطار جامع، فوق نافذة المدخل مباشرة. صورة من حفل زفاف ناظم أوزان، شريك غران-دوك، مع زوجته السمينة الشبيهة ببقرة تركية؛ صورة أخرى لنيكول فيترال طبعاً، بنهديها البارزين ولباس بائعة البطاطس المحمَّرة الرديء الذي ترتديه. يبدو أنّ غران-دوك قد تعود في أثناء ارتداء معطفه وحَمْل مظلّته كلّ صباح على النظر بعين الحسد إلى ثديي نيكول فيترال، قبل مغادرة المنزل.

شردت مالفينا أمام بقية صور البهو. مناظر طبيعية لجبال جورا بلا شك، جبل تيريبل، مونبليار.

تذكّرت تلك الفترة. كانت قد تعرَّفت على الرضيعة، شقيقتها، في ذلك المستشفى. كانت في السادسة من عمرها وقتئذٍ. الشاهدة الحيّة الوحيدة.

كانت ليز-روز على قيد الحياة. لقد سرقوا منها شقيقتها.

فليقولوا ما يشاؤون، هي ترفض إقامة العزاء وكلّ هذا الكلام.

لن تتخلى عن شقيقتها أبداً، أبداً.

أجبرت مالفينا نفسها على تجاوز غفلتها، عليها أن تتحرّك. عادت إلى الغرفة، تخطت جثة غران-دوك من جديد، ثم ركّزت بصرها على المدفأة، المَحيى والمكتب لآخر مرة... كانت قد دخلت إلى المنزل بعد كَسْرِها لنافذة الغرفة التي تناثر زجاجها بين الخطمى البرية. وتركت بصماتها هنا وهناك؛ سيأتي رجال الشرطة بعد تلقّيهم إخطاراً من الجيران. عليها أن تكون حذرة. ليس من أجلها، فذلك لا يهمّها في شيء، إنما من أجل ليز-روز. عليها أن تبقى حرة، وأن تُزيل كلّ آثار وجودها بهذا المنزل. قد تعثُر -بقليلٍ من الحظ- على دليلٍ تجاهَلَته سابقاً. لِمَ لا قد يكون الدليل هو هذا الدفتر الأخضر اللعين؟

ما الذي كتبه ذلك القذر غران-دوك في دفتره هذا؟ أصحيحٌ أنه تمكّن من اكتشاف شيء ما، الحقيقة، في هذه المذكرات، يوم بلوغ ليز-روز عامها الثامن عشر؟

أية حقيقة؟

أتكون خدعة جديدة؟

أيمكنها خوض مخاطرة كهذه؟

يجب عليها أن تعثُر على هذا الدفتر...

يبدو أنه قد سلّمه لآل فيترال، هدية عيد ميلاد... قبل أن يموت برصاصةٍ في قلبه. هذا هو الأقرب إلى الظن. إنْ كان الأمر كذلك، فإنّ الدفتر غالباً بين يديّ ذلك المنحرف المدعو مارك فيترال. وربما يقرؤه، الآن.

- 7 -

2 أكتوبر 1998، التاسعة صباحاً وثمان وعشرون دقيقة

ثبَّت مارك فيترال ناظريه على ساعة المارتيني.

أمامه، على الطاولة القريبة، طالبة سمراء فاتنة، شعرها قصير بقَصَّة على طريقة الغلمان، تتأمّله بعينيها الزرقاوين كلون المحيط. عينان كان من الممكن أن يغرق فيهما أيّ رجل، وبلا تردّد.

غضَّ مارك الطرف ببرود.

يبدو أنّ هذا التجاهل قد أثار الطالبة الجميلة أكثر فأكثر.

هذا الأشقر التائه، في أفكاره، في حزنه، عيناه تلمعان بالدموع وتتجاوزانها كما لو كانت مخلوقاً غير مرئي. نادرون هم أولئك الرجال الذين لم يأبهوا بجمالها. طبيعي إذاً ألّا تنجذب إلّا لهؤلاء الرجال المتحفّظين، هذه الأشباح المنيعة.

دقَّق مارك مرة أخرى في وصف غران-دوك لوالديه، باسكال وستيفاني، اللذين لم يحتفظ عنهما بأيّ ذكرى، باستثناء بعض الصور القديمة. لوَّح بيده لمريم. اعتقدَت مسيِّرة الحانة أنه يُطالب بهديته

قبل الموعد المحدَّد، ربحاً لبعض الدقائق، فحوَّلت بصرها نحو ساعة الحائط باستهجانٍ واضح.

- مريم، أعدّي لي هلالية من فضلك، لم آكل شيئاً هذا الصباح... لم أتعود أن تضرب لي ليلي موعداً في وقتٍ مبكّر كهذا!

افترَّ ثغر مريم عن ابتسامة كبيرة مطمئنة.

حضَّرت الهلالية ثم قدَّمتها لمارك في صحن بعد لحظات قليلة. صمّ ضجيج حانة لينين الآذان. واصلت الطالبة ذات العينين العميقتين تأمّلها لحركاته باشتهاء، راجية نظرة واحدة منه، بلا جدوى.

جهد ضائع...

اقتطع مارك نصف الهلالية، ليبتلعها مرة واحدة.

التاسعة صباحاً وثلاث وثلاثون دقيقة.

عادَ للغوص مرة أخرى في ما كتبه غران-دوك.

مذكرات كريدول غران-دوك

قد تتفقون معي إن قلت لكم بأنّ هذه الحياة القذرة لم تكُن رحيمة بآل فيترال وآل دو كارفيل على السواء... أفجعَتْهم في البداية بخبر تحطّم طائرة إيرباص قُتِلَ كلّ مَن فيها، فحرمتهم بضربة واحدة من جيلين عقدت عليهما كلّ الآمال المستقبلية، أبناء وحفيدات... ثم صدمتهم، ساعة واحدة بعد ذلك، بتألّقها، معلنة عن معجزة: تمّ إنقاذ المخلوق الأصغر والأضعف... يسعدهم ذلك رغم كلّ شيء، فيشكرون السماء ويتناسون موت أعزائهم... لكن يبدو أنّ هذه الحياة لا تنزع خنجرها إلّا لتغرزه ثانية بقوة أكبر. ماذا لو أنّ هذا

المخلوق الصغير، الذي نجا بأعجوبة، لحمُ لحمك، ثمرةُ ثمرة أحشائك، لم يكُن لك؟

انشغلت مفوضية الأمن في مونبليار بالقضية منذ فجر 23 ديسمبر 1980، وتولى أمر متابعتها مفوض الشرطة شخصياً، اسمه فاتوليي، شرطي نشيط ومدرّب، بلحية داكنة غير مشذبة، وإن بدت متناسقة مع سترته الجلدية. كانت الخطوط الجوية التركية قد أرسلت -منذ السابعة صباحاً- لائحة ركاب الطائرة عبر الفاكس. المضحك في الأمر، والذي أثار ربما سخرية الموظفين في مطار أتاتورك بإسطنبول، أنّ الطائرة قد حملت على متنها رضيعتين اثنتين فرنسيتين جاءتا إلى العالم في اليوم نفسه تقريباً.

ليز-روز دو كارفيل، ولدت يوم 27 سبتمبر 1980.

إيميلي فيترال، ولدت يوم 30 سبتمبر 1980.

صدفة غريبة، أليس كذلك؟ دقّقت في هذه المسألة بعد ذلك، لم يكُن من قبيل الصدف الاستثنائية أن يوجد الأطفال الرضّع بالطائرات، بالعكس، كان الأمر مألوفاً للغاية، خاصةً في الرحلات الطويلة والرحلات المتزامنة مع العطل. بما أننا نعيش عصر العولمة الاقتصادية، فمن الطبيعي إذاً أن تجتمع عائلات حول شجرة تنوب ليلة الميلاد، كعكة عيد ميلاد، زواج، دفن، أو أية مناسبة عائلية أخرى... لم أكن أنتبه للأمر، لكنني أعرفه الآن، الطائرات مليئة بالرضّع!

اعترفَ لي فاتوليي بأنّ القضية بدت ممتعة في البداية بالنسبة إلى فريقه... رضيعتان... كيف سيتعرّفون على هوية مَن بقيت منهما

على قيد الحياة؟ في الواقع، اعتقد رجال الشرطة بأنّ التحقيق سيكون مختصراً. لا أسهل من إنطاق رضيعة. عيناها، جلدها، دمها، بقايا الطعام في معدتها، ملابسها، أغراضها الشخصية، أقاربها... عدّة دلائل أكثر من كافية بلا شك...

لكن، لا بد من الإسراع، إذ يلاحق رجالَ الشرطة حشدٌ من الصحافيين، فهذه القضية أشبه بالكنز لوسائل الإعلام... كما ترون، يتيمة واحدة لعائلتين! أضفْ إلى ذلك أنّ المسألة تتعلق بوضع مستقبل طفلة صغيرة على المحكّ، لم يكن من الممكن طبعاً ترك الطفلة في حضانة مستشفى بيلفور-مونبليار إلى الأبد، لا بدّ إذاً من دراسة القضية بسرعة، إجراء المشاورات، والاختيار، ثم إعادة الرضيعة إلى عائلتها. أوفَد ليونس دو كارفيل -منذ الثانية من بعد زوال يوم 23 ديسمبر- فريقاً من المحامين الباريسيين إلى مونبليار، ممّن تلقوا مَبالغ ضخمة لمتابعة عمل فريق فاتوليي والتدقيق في كلّ التفاصيل...

من الناحية القانونية، كانت القضية بالغة التعقيد، لكن وزارة العدل بتَّت في الأمر خلال ساعات معدودة: تمّ تكليف مفوضية مونبليار بالتحقيق، فيما سيتخذ القرار النهائي قاضٍ متخصّص بملفات الأطفال، وذلك بعد متابعة التفاصيل والاستماع للشهود في جلسات مغلقة بطبيعة الحال. على أن يصدر الحكم في أجَلٍ أقصاه نهاية أبريل 1981، منعاً للتأثير على الأمن العاطفي للطفلة، التي سيحتفظ بها في حضانة مستشفى بيلفور-مونبليار. ولأجل هذه المهمة، قامت وزارة العدل بتعيين القاضي جان لوي لو دريان، ولم يكن هذا التعيين مفاجئاً لأحد، فهو أحد أشهر قضاة المحكمة العليا بباريس، وسبقَ له البتّ في عشرات القضايا المتعلِّقة بأطفالٍ مجهولي النَّسَب، والكشف عن الهوية، والتبني... وهو ما لا يمكن تجنّبه.

منذ زوال اليوم الموالي، 24 ديسمبر، قام القاضي لو دريان بتشكيل فريق عمل مرتَجَل. لم يكن أحد من عناصر هذا الفريق متحمّساً للاشتغال على القضية بالتزامن مع عطلة أعياد الميلاد، ويتعلّق الأمر بفاتوليي، مفوض الشرطة في مونبليار، وموراںج، الطبيب الذي تولّى مسؤولية العناية بالرضيعة منذ اليوم السابق، وسان-سيمون، عنصر أمن يعمل بالسفارة الفرنسية في تركيا، الذي تواصَلَ معهم عبر الهاتف.

لقد حكوا لي كلّ شيء فيما بعد، ذلك الاجتماع السريالي في مكتبٍ باريسي كبير يقع في شارع سوفرين، مع إطلالة واضحة على برج إيفل المُضاء تحت غيوم شتوية ملبّدة... ليلة عيد ميلاد بلا شرائط احتفالية أو هدايا. أطفالهم بانتظارهم بالقرب من أشجار التنوب، فيما هم منشغلون بالبتّ، بكلّ حرصٍ واحترافية، في مصير رضيعة في شهرها الثالث.

كان القاضي لو دريان منزعجاً، فهو يعرف آل دو كارفيل، وإن بشكلٍ غير واضح، سبق وأن قابلهم في سهرة أو سهرتين من تلك السهرات الباريسية التي تجمع مئات الأشخاص في قاعات كبيرة داخل مبانٍ هوسمانية(*). تخيلت نفسي مكانه. داخل رأسه صوت صغير يهمس: عسى أن تكون هذه الطفلة حفيدة دو كارفيل، وإلّا، فلن تكون الأمور على ما يُرام بالنسبة له...

(*) المباني الهوسمانية: نسبة إلى جورج أوجين هوسمان (1809-1891)؛ مهندس وسياسي فرنسي اشتهر بوضعه مخطط باريس في القرن التاسع عشر، والمعروف بالمخطط الهوسماني، ليقود بذلك التحوّل الباريسي في عهد الإمبراطورية الثانية بوضعه خطّة شاملة لتحسين الوضع المعماري للمدينة. (المترجم)

حظّ واحد مقسوم على اثنين. . . وجه العملة أو ظَهرها.

لكن يبدو للوهلة الأولى أنّ هذه العملة لا تريد أن تسقط على جانبها الأفضل.

عندما قابلت القاضي لو دريان -سنوات طويلة بعد ذلك- لاحظت أنه قد بقي على الهيئة نفسها التي ميزته أيام العمل على القضية: جاف، ودقيق، ومتأنق. الشال البنفسجي الفاتح، وربطة العنق الأرجوانية، ممّا يطرح عدّة تساؤلات حول قدرة هذا الرجل المحتجز في بذلته الأنيقة على دفع الأطفال المصدومين نفسياً إلى منحه ثقتهم وتلقي اعترافاتهم. قام القاضي بتسجيل كلّ الاجتماعات، وقد سلّمني الشرائط، فهو لم يكُن ليرفض لآل دو كارفيل طلباً، سأكون أكثر دقة: ستتابعون معي هذه الاجتماعات بالصوت والصورة، أمّا فيما يخصّ القرار النهائي، فأترك الحُكم لكم، هذا كلّ ما يُمكنني قوله.

- سأحاول الاختصار قدر الإمكان، ابتدرهم لو دريان بقوله، كلّنا على عجلة من أمرنا، أليس كذلك؟ سأبدأ بالمعلومات التي تخصّ ليز-روز دو كارفيل. ولدت الطفلة في إسطنبول، قبل ثلاثة أشهر تقريباً. والداها فقط مَن يستطيعان التعرّف عليها بشكلٍ دقيق، لكن الواضح هنا أنّ ألكسندر وفيرونيك دو كارفيل قد أحضرا معهما -في رحلة الإيرباص من إسطنبول إلى باريس- كل أغراض ليز-روز، لعبها، ملابسها، صورها، أدويتها ودفترها الصحي، فقدنا كلّ شيء طبعاً بعد احتراق الطائرة. على الجانب التركي، هل حصلت على شهادات أو أدلة أخرى يا سان-سيمون؟

أجابه الصوت الأغنّ للشرطي عبر مكبِّر صوت الهاتف:
- ليس تماماً... باستثناء بعض الخدم الأتراك الذين رأوا ليز-روز عبر ستارٍ معتم لكلّة مضادّة للبعوض، يبقى شاهد العيان الوحيد هو شقيقتها الكبرى مالفينا، والتي تبلغ من العمر ست سنوات...
شعر لو دريان بأنّ القضية بدأت تأخذ منحى المواجهة الحتمية. في حالات مشابِهَة -عندما تخرج الأمور عن سيطرته- ينهض ويشدّ طرفي الشال المتدليين على سترته ليكونا على الطول نفسه. لنقل إنه هوَسه الشخصي، خصوصاً مع إصرار هذا الشال البنفسجي اللعين على الانزلاق يساراً أو يميناً، في واحدة من ألغاز احتكاك النسيج الغامضة، حتى وإن لم يُصدر القاضي أيّ حركة بعنقه. راقب المفوّض فاتوليي حركة القاضي بابتسامة مكتومة يظهر أثرها بالكاد عبر لحيته. ثم استطرد قائلاً:
- تحدَّثت مطولاً مع الجدّين دو كارفيل، خصوصاً ليونس دو كارفيل، هما لا يعرفان عن حفيدتهما إلّا بعض الأوصاف المشوّشة التي سمعاها عبر الهاتف. بحوزتهما أيضاً صورة لليز-روز، تمّ التقاطها بعد ولادتها مباشرة، وتوصّلا بها عبر البريد مع إعلان الولادة.
- ما الذي تُظهره هذه الصورة؟
أجاب المفوض فاتوليي مقطّب الجبين:
- لا شيء تقريباً. الأم وهي تلقم الطفلة ثديها. لا نتبيّن سوى ظهر ليز-روز، وعنقها، وأذنها، فقط لا غير...
ثبت القاضي لو دريان الشال على يمينه بحركة عصبية، لا يبدو أنّ الأمور ستسير بشكل جيد بالنسبة إلى آل دو كارفيل.

اسمحوا لي باستباق الأحداث قليلاً، ليكن في علمكم أنّ ليونس دو كارفيل قد استعان في الأسابيع الموالية بخبراء جادين أكّدوا أنّ أذن الرضيعة الناجية مطابقة تماماً لأذن ليز-روز في صورتها بعد الولادة. كنتُ قد رأيت الصور، كما تابعت التحاليل بالتفصيل: بمعنى أو بآخر، يحتاج الأمر إلى جرعة كبيرة من سوء النية للحصول على أية معلومة يقينية. أمّا القاضي لو دريان فقد واصلَ من جهته التركيز على التنقيب في أصول الرضيعة الناجية.

- ماذا عن جدّ ليز-روز وجدَّتها من جهة الأم؟ قال متسائلاً.

تأمّل فاتوليي، مفوض مونبليار، برج إيفل -الساطع كشجرة عيد ميلاد ضخمة- بنظرات حزينة، ثم راجع مفكرته:

- فيرونيك، والدة ليز-روز، هي الابنة الرابعة لعائلة تنحدر من الكيبك في كندا، آل بيرنيي، وتضم سبعة أبناء بالإضافة إلى أحد عشر حفيداً، ويبدو أنّ فيرونيك قد فضّلت وضع مسافة معينة في علاقتها بعائلتها بعد تعرُّفها على ألكسندر في تورونتو، خلال ندوة نُظِّمت هناك حول الكيمياء الذرية. يبدو أنّ آل بيرنيي يساندون آل دو كارفيل، ولكن بشكلٍ محتشم.

- حسناً، سنحاول التنقيب أكثر في هذا الجانب، قال لو دريان. نمرَّ الآن إلى إيميلي فيترال. يبدو أنها خلَّفت وراءها عدداً أكبر من الأدلة، ظاهرياً على الأقل...

- نعم، قال فاتوليي متنهّداً، وإن كانت نيران الطائرة المحترقة قد التهمت دفترها الصحي، وحقيبتها، ورضاعاتها، وصداراتها أيضاً. سأكون أكثر دقة. منذ ولادتها وحتى بلوغها شهرها الثاني، رآها جدها وجدّتها خمس مرات، اثنتان منهما في مصحّة ديبب، في أسبوع ولادتها الأول، ومرة يوم إقلاع الطائرة، عندما تركَ باسكال

وستيفاني ابنهما مارك بمعيّة جدّيه، فيما كانت الطفلة تغطّ حينها في نومٍ عميق.

استدار المفوض نحو الدكتور مورانج الذي تكلَّم لأول مرة:

- كنت حاضراً عندما رأوا الرضيعة في مستشفى بيلفور-مونبليار. لقد تعرَّف آل فيترال على حفيدتهم فوراً.

- طيب، قال لو دريان، طيب. لم يكونوا ليقولوا العكس...

تنهَّد القاضي في ضجر، وحرَّك الشال إلى اليسار بأصابعَ منزعجة، فيما رفع المفوض فاتوليي من نبرته:

- لم نكن لنضع أربعة رضَّع مرقَّمين أمام زجاج مرآة عاكسة ثم نطلب من الجدّين التعرُّف على الحفيدة الصحيحة!

- كان عليكم القيام بذلك، أصرّ لو دريان بجدّية. لَربما ساعدنا ذلك على كسب بعض الوقت...

هزّ المفوض كتفيه مكمّلاً:

- سأضيف، تتويجاً لكلّ ما سبق، بأنّ آل فيترال لا يتوفرون على أية صورة. كانت ستيفاني -بحسب قولهم- قد شكّلت ألبوماً صغيراً يضم صور ابنتها، اثنتا عشرة صورة لم تكن تُفارقها أبداً، ما يدفعنا إلى الاعتقاد بأنّ هذا الألبوم قد فُقدَ أيضاً في حريق الطائرة.

- وماذا عن النسخ السلبية للصور، النيغاتيف؟ تساءَل القاضي.

- قام رجال الدرك في دييب بتفتيش كلّ شيء في شقة الأبوين فيترال، من البساط إلى السقف، بحثاً عن هذه النسخ اللعينة، حتى الآن بلا جدوى. ربما حملتهم ستيفاني معها أيضاً، في محفظة آلة التصوير...

ربما...

بحثتُ أنا أيضاً، فيما بعد، عن هذه النسخ اللعينة. إنها صورة رضيعة! لم أكن لأترك مجالاً للترقّب أو التشويق، في هذه الجزئية على الأقل. سأقولها لكم من الآن، لم يتمّ العثور على هذه الصور أبداً! فباستثناء احتمال ضياعها في حريق الطائرة، أو كونها مجرّد كذبة اختلقها آل فيترال، لم أُغفل فرضية تحرّك ليونس دو كارفيل وزيارته لشقة باسكال وستيفاني فيترال ثم إتلافه لكلّ النسخ السلبية قبل تفكير رجال الشرطة في الأمر. كان قادراً على ذلك. هذا يُعطيكم فكرة حول تعدّد الفرضيات التي يمكن وضعها حول المسألة.

شعر القاضي لو دريان بتعرّق رقبته وانزلاق شاله بسهولة أفعوانية على كتفه. يبدو أنّ هذه القضية قد انتقلت إلى خانة الألغاز القانونية المعقّدة.

- حسناً، قال. لقد دقّقنا في كلّ شيء تقريباً. ماذا عن باقي أفراد عائلة إيميلي فيترال. . . الطريق مسدود أيضاً؟

- نعم، إنْ صحّ التعبير، أجابه المفوض فاتوليي. كانت الأم ستيفاني يتيمة، ولدت بهوية مجهولة، ونشأت في إحدى دور الطفولة التابعة لمؤسسة أوتوي في روان. أغرمت بباسكال بعدما قابلته في مقهى وهي بعد في السادسة عشرة من عمرها. يمكن القول، باختصار، إنه لم يعُد لإيميلي في هذه الحياة -إن كانت هي الرضيعة الناجية بطبيعة الحال- سوى جدّها وجدّتها، بيير ونيكول فيترال، وشقيقها الأكبر، مارك.

ثبَّت القاضي لو دريان ناظريه على نقطة بعيدة خلف النافذة الزجاجية الكبيرة، حيث كوكبة النجوم اللامعة فوق برج إيفل، باحثاً عن أيّ اتجاه، عن الزهرة، لينقاد إليه كالأعمى في ليلة الميلاد هذه.

كان بإمكاني الاستمرار أكثر من ذلك، بأن أصف لكم ساعات طويلة من النقاشات المملّة، المعطيات والمعطيات المضادة، توجد أيضاً -بالإضافة إلى الاجتماعات المسجَّلة- ثلاثة آلاف صفحة من التحقيقات التي تكدَّست، طوال الأسابيع الموالية، في مكتب القاضي لو دريان، والتي محّصتها أيضاً، من دون الحديث عن أرشيفي الشخصي. اطمئنوا، سأعود إلى كلّ هذه التفاصيل لاحقاً، أو أكثرها أهمية على الأقل. وإن كنتُ أعتقد بأنّكم قد بدأتم تستشعرون صعوبة القضية وحيرة المحققين، من الصعب تكوين فكرة واضحة عن هذا اللغز، أليس كذلك؟

على أيّ وجه ستسقط عملة الحظ؟ لم أتوصل إلى الجواب في نهاية المطاف.

لقد تركت لكم كلّ هذه الأدلة، الكرة الآن في ملعبكم...

أراكم قادمين...

والعِلم؟ الملابس؟ الدماء؟ العينان؟... إلخ.

أنا قادم.

لن أخيّب ظنكم.

- 8 -

2 أكتوبر 1998، التاسعة صباحاً وخمس وثلاثون دقيقة

التهمَ مارك ما تبقى من هلاليته دون أن يكلِّف نفسه عناء النظر إلى ساعة الحائط شبه المتوقفة، أو إلى الطالبة الحسناء ذات العينين الزرقاوين الجالسة قبالته، أو حتى إلى مريم، هذه النادلة التي تتلاعب بأعصابه. غصَّت حانة لينين بالحركة من حوله، كما هو الشأن بالنسبة إلى ساحة الجامعة التي يتطلّع إليها عبر النافذة. صحيح أنّ اعترافات غران-دوك لم تكُن لتُثير شكوكه، إلّا أنه كان مطالَباً بمواصلة القراءة وتخزين كلّ هذه المعلومات التي يكتشف معظمها لأوّل مرة.

ما دامت هذه رغبة ليلي. . .

مذكرات كريدول غران-دوك

خمسة عشر يوماً بعد ذلك، في 11 يناير 1981، قام القاضي لو دريان باستدعاء الجميع لعقد اجتماع جديد. المحققين نفسهم، والمكان نفسه، والمكتب نفسه، في شارع سوفرين، ولكن صباحاً

هذه المرة. بدا برج إيفل مهتزاً في التسجيل، وقد غطّاه الضباب، وبالكاد يمكن تبيّن أساساته الرطبة عبر البرك التي ساهم رذاذ مطرٍ خفيف في تكبير مساحتها ببطء. ظهرت قوافل من السيّاح هنا وهناك ممَّن احتموا بمظلّاتهم، إذ لا يوجد أيّ مكان -ولا حتى سقف زجاجي- مخصّص لمَن يرغبون في التطلّع -تحت المطر- إلى المَعْلَمَة الأكثر زيارة في العالم.

أمر يدعو فعلاً للاستغراب، وإن لم يكُن الوحيد.

انزعجَ القاضي لو دريان أكثر فأكثر. لقد أفهَموه، عبر التسلسل الإداري، أنّ عدداً من الأشخاص المتنفّذين يتعاطفون مع آل دو كارفيل في هذه القضية.

لم يكن القاضي مغفلاً، لقد فهم الرسالة جيداً... لكنه يبذل كلّ ما في وسعه بما يتوفّر بين يديه من أدلة. لا يمكنه اختلاق أدلّة مزوّرة طبعاً!

أنهى الدكتور مورانج عرضه حول مسألة الفصيلة الدموية، بعدما كشف عن نسخ تحاليل طبية معقّدة.

- في المجمل إذاً، قال الطبيب، تتوفر رضيعتنا الناجية على فصيلة الدم الأكثر انتشارا، أ+، كما هو الشأن بالنسبة إلى أكثر من أربعين في المئة من مواطني فرنسا، وقد دلّ أرشيف المصحّات في دييب وإسطنبول على أنّ إيميلي فيترال وليز-روز دو كارفيل تمتلكان أيضاً، كما قد يتناهى إلى فهمكم، فصيلة الدم الأكثر شيوعاً، أ+.

- ألا توجد طريقة ما لاستخلاص المزيد من هذه التحاليل الطبية؟ قال القاضي لو دريان مفكّراً باستياء واضح.

واصَلَ مورانج شرحه وقد ظهر بمظهر العالِم ببواطن الأمور:

- افهمني، تحليل فصيلة الدم يساعدنا فقط على استبعاد بعض فرضيات الأبوّة أو الأخوة، لا تأكيدها. يمكننا فقط تأكيد وجود رابط أسري إذا توفرنا على ريزوس قليل الانتشار أو في حالة الإصابة بمرض وراثي نادر... لكن حالتنا هنا مختلفة تماماً. لا يمكن للعلم أن يدلّنا على شيء بخصوص عائلة هذه الطفلة.

بالحديث عن العلوم، أراكم قادمين نحوي، تحسبون أنفسكم أذكياء: ماذا عن علم الوراثة؟ الدي إن أي (الحمض النووي)، اختبار الكشف عن الأبوة وكلّ هذه الأمور المُربِكَة؟ ولكن ضعوا الأمور في سياقها التاريخي، يتعلق الأمر بسنة 1980! كانت اختبارات الدي إن أي أقرب إلى الخيال العلمي في تلك الفترة. أوّل قضية قانونية تمّ حلّها في العالم اعتماداً على اختبار دي إن أي كانت عام 1987... مفهوم! اطمئنوا، سنعود، بطبيعة الحال، إلى سؤال الدي إن أي، السؤال الذي كان من المنتظَر طرحه يوماً ما... لكن الرضيعة الناجية كبرت، كما أنّ معطيات المسألة تغيّرت تماماً. العلم لا يفسِّر كلّ شيء، وهو أبعد ما يكون عن ذلك، سترون...

في انتظار ذلك، وبما أننا في بداية الثمانينيات، فقد تصرّف الخبراء المجتمعون في شارع سوفرين بما هو متاح لديهم. قام الدكتور مورانج بتوزيع عدد من الصور على المجتمعين.

- هذه تصاميم معلوماتية من إنجاز مختبر ميدون. تقنيات تقدّم صناعي في السن، تمّ إجراؤها على ملامح وجه الرضيعة، قد تمكّننا من التعرّف على ملامحها بعد خمس سنوات، عشر سنوات، عشرين سنة...

ألقى القاضي نظرة على الصور، ثم قال بصبرٍ نافد:

- أتظنّني قادراً على اتخاذ القرار النهائي اعتماداً على هذا الهذيان!

كان محقّاً في استنكاره ذاك. من الناحية الموضوعية، كان شَبَه الرضيعة الناجية، اعتماداً على تقنية التقدّم الصناعي في السن، أقرب لآل فيترال منه لآل دو كارفيل، لكنه لم يكُن شبهاً واضحاً، وقد حوّل محامو آل دو كارفيل الأمر إلى مادّة دسمة لسخريتهم، وبعد ثماني عشرة سنة تابعت فيها نمو الطفلة الناجية، سنة بعد سنة، توصَّلت إلى قناعة أؤكِّد لكم من خلالها أنّ تقنيات التقدم الصناعي في السن مجرّد كلام فارغ!

- يتبقى أمامنا موضوع لون العينين، أصرّ الطبيب. العلامة المميزة الحقيقية الوحيدة للرضيعة الناجية... العينان زرقاوان بشكلٍ مدهش مقارنة بعمرها. يمكن للون أن يتغيّر، أن يصبح داكناً أكثر، لكننا هنا أمام حالة وراثية خاصة...

واصلَ المفوض فاتوليي الكلام نيابة عنه:

- تملك إيميلي فيترال عينين صافيتين مائلتين إلى الزرقة، بتأكيد قاطع من جميع الشهود، جدّها، جدتها، بعض الأصدقاء، وممرّضات مستشفى الولادة. عينان صافيتان شبيهتان بعينَي والديها، وجديها وعموم عائلة فيترال. أمّا فيما يخصّ عائلة دو كارفيل، فإنّ أعين الوالدين والجدين داكنة، بنية اللون. الشيء نفسه بالنسبة إلى آل بيرنيي، عائلة الأم، لقد تأكّدت من الأمر.

بدت علامات العصبية واضحة على ملامح القاضي لو دريان، فما سمعَه ليس مبشّراً، ليس مبشّراً تماماً بالنسبة إلى آل دو كارفيل. هذا الشرطي يُزعجه. تحوّل الرذاذ الخفيف في الخارج إلى أمطار

قوية. واصل الزوار انتظارهم بالقرب من برج إيفل بعزم شديد، متجمعين تحت خيمة من المظلات، بما يشبه نسخة محدثة من القفعة الرومانية(*). نهض القاضي للضغط على قاطع تيار، بما يسمح بإضاءة الغرفة أكثر. مالَ الشال على جانبه الأيمن. لم يَعدِله.

- نعم، قال بنبرة مخفَّفة. مجرَّد تخمينات إضافية، لا دليل حتى الآن. يعلم الجميع أنه بإمكان والدين بعينين داكنتين أو سوداوين إنجاب طفل بعيون متنوعة الألوان...

- هذا صحيح، قال الدكتور مورانج مسلّماً، هي مسألة احتمالات...

الاحتمالات... وهي لا تميل -بكلّ صدق- لصالح آل دو كارفيل. أذكر أنّ مجلة سيانس إي في (*Science et Vie*) قد اعتمدت -أسابيع بعد ذلك- على حالة «أعجوبة جبل تيريبل» لشرح عجز علم الوراثة عن التكهّن منهجياً بالخصائص الجسدية لشخص ما اعتماداً على أصوله العائلية. وقد شكّكت دائماً منذئذٍ في وقوف ليونس دو كارفيل -بطريقة مباشرة أو غير مباشرة- وراء هذا المقال، الذي يخدم مصلحته بكلّ تأكيد...

وجَّه القاضي سؤاله عبر مكبِّر الصوت إلى سان-سيمون، على الجانب التركي.

- ماذا عن ملابس الرضيعة الناجية، بحقّ الرب؟ أيكون

(*) القفعة الرومانية: آلة حربية تشبه قحف السلحفاة، استخدمها الرومان اتقاء للنبال المعادية. (المترجم)

الخروج باستنتاجات قوية من تحليل الملابس التي كانت ترتديها يوم تحطّم الطائرة صعباً إلى هذه الدرجة؟

ردّ سان-سيمون بهدوء:

- أذكِّركم يا سادة بنوعية الملابس التي كانت ترتديها الرضيعة الناجية. لباس داخلي قطني، فستان أبيض بورود برتقالية، كنزة صوفية جاكار. ويمكننا التأكيد بنوع من اليقين أنه تمّ شراء هذه الملابس من إسطنبول، في البازار الكبير، أكبر سوق مغطى في العالم.

لم يفوّت القاضي لو دريان الفرصة:

- كانت أسرة فيترال تقضي عطلة من خمسة عشر يوماً في تركيا، منها يومان فقط في إسطنبول! المنطقي إذاً أن ترتدي الطفلة إيميلي فيترال ملابس فرنسية حمَلَها والداها مع أمتعتهما. أمّا أن يفكر الوالدان في إلباس ابنتهما ملابس تمّ شراؤها من إسطنبول ساعات قليلة قبل العودة إلى فرنسا، فيبقى احتمالاً ضئيلاً للغاية! إذا كانت الطفلة الناجية ترتدي لباساً داخلياً، فستاناً وكنزة صوفية تركية الصنع، فمن الطبيعي إذاً أن يتعلق الأمر بليز-روز دو كارفيل. فقد وُلدت الطفلة في إسطنبول.

سرعان ما غيّر سان-سيمون المعطى في ثانية واحدة:

- ولكن، سيدي القاضي، اسمَح لي بالقول إنّ الملابس التركية التي ارتدتها الرضيعة رخيصة الثمن... لقد تأكّدت من الأمر، هذه الملابس لا علاقة لها بخزانة ملابس ليز-روز في فيلا أسرة فيترال بمدينة جيهان. سأبعث لكم وصفاً تفصيلياً. لم تكُن ليز-روز ترتدي سوى ملابس من علامات تجارية معروفة، تمّ شراؤها من القسم الغربي في إسطنبول، في غلطة سراي... وليس من البازار الكبير!

كان سان-سيمون على وشك البدء في شرحٍ تحليلي للفروق الاجتماعية والطبقية بين أحياء إسطنبول، عندما قاطعه القاضي لو دريان بلهجة جافة:

- حسناً، سأنظر في هذا الأمر. أنت يا فاتوليي، أيمكنكَ وضعنا في صورة ما قاله خبراء علم القذائف؟

داعبَ فاتوليي لحيته، وحدجَ القاضي بنظراتٍ حذرة، قبل أن يقول:

- لقد حاول الخبراء دراسة الزمن والكيفية التي قُذفت بها الرضيعة خارج الطائرة، نعرف طبعاً مكان جلوس كلّ مسافر. كان آل دو كارفيل في الصف العاشر، جهة النافذة، قريباً من مؤخرة الطائرة؛ أمّا آل فيترال فكانوا وسط الإيرباص، قريباً من مستوى الجناحين. ما يعني أنّ الرضيعتين كانتا متساويتَي البُعد عن بوابة الطائرة التي انفتحت تحت ضغط التحطّم وبعده الانفجار، لتجد الرضيعة نفسها مقذوفة عبرها. يمكن القول إنّ الآراء كلها تتفق حول هذه النقطة. ها هو الملفّ أمامكم، لقد وضع الخبراء تصوّراً دقيقاً للاصطدام والتواء البوابة، وهم متّفقون على أنّ كائناً حيّاً وزنه أقل من عشرة كيلوغرامات هو الوحيد القادر على النجاة من هذا الفخ...

- حسناً، حسناً سيدي المفوض، قاطعه القاضي الذي لفّ عنقه هذه المرة بشال بلون الخردل، متناسق إلى حدّ ما مع سترته الخضراء. ولكن توجد أيضاً نظرية لو تالانديه، إن لم تخنّي الذاكرة، لقد برهن أستاذ الفيزياء سيرج لو تالانديه على أنّ إمكانية القذف بحركة جانبية صعبة جداً، بعبارة أخرى، بما أنّ إيميلي فيترال كانت جالسة وسط الطائرة فإنّ احتمال قذفها يبقى ضعيفاً للغاية... ما رأيك سيدي المفوض؟

- سأكون صريحاً، حسابات لو تالاندييه معقّدة بدرجة يعجز أيّ شرطي في فرنسا، وإن كان منتمياً إلى الشرطة العلمية، على معارضتها. ولكن وَجَبَت الإشارة هنا إلى أنّ سيرج لو تالاندييه كان زميل دفعة ليونس دو كارفيل في معهد بوليتكنيك، كما أنه أشرف على أطروحة تخرّج ألكسندر دو كارفيل في مدرسة دو مين باريس-تيك...

حدَجَ القاضي المفوض فاتوليي بنظرة مصدومة كما لو أنه تلفّظ بهرطقة، ثم حرّك ذراعيه وشدّ الشال الأصفر بلون الخردل بحركة شديدة العصبية في محاولة منه لإعادة تنسيق قطعة الثوب هذه.

- ها أنذا مُطالب أيضاً بتنفيذ نظريات خبراء يديرون مختبراً في بوليتكنيك...

أجابه المفوض فاتوليي مبتسماً:

- أوه، أنا لم أقصد شيئاً، كما أنني لستُ مؤهّلاً لذلك، فقط وَجَبَت الإشارة إلى أنّ نظرية لو تالاندييه قد تحوَّلت إلى مادة للسخرية بين زملائه ممَن قابلتهم في البوليتكنيك...

أطلقَ القاضي زفرة حارّة. في الخارج، اختفى البرج تماماً بفعل الضباب الكثيف، يبدو أنّ مئات من السياح قد انتظروا ساعات طويلة تحت المطر من أجل لا شيء.

بإمكاني إغراقكم لصفحات موالية بتفاصيل تقنية أخرى، وتسجيلات واجتماعات امتدّت لساعات، لكنني لن أتعبكم بذلك، حالياً على الأقل.

راوحت القضية مكانها لأسابيع، بعدما دخلت في ركود قانوني وعلمي لم يعُد يثير اهتمام أحد باستثناء العائلتين المعنيتين.

واصل رجال الشرطة عملهم بإصرار.

شعرَ الصحافيون بالضجر.

أمّا الرأي العام، الذي أثارته قضية «المعجزة» في أيامها الأولى، فقد ملَّ بسرعة بعدما تزايدت الشكوك... بدا أنّ نزاعات الخبراء وخلافاتهم قد أضجَرَت الجميع، وأنّ اللغز سيبقى هكذا بلا حلّ. فكان انحسار الاهتمام الإعلامي فرصة لرجال الشرطة للعمل برصانة أكبر. من جهتهم، ألقى محامو دو كارفيل بكلّ ثقلهم في محاولة منهم لتجنّب إطالة أمدِ التحقيق القضائي وتأثير ذلك على الرأي العام. لو أنّ القضية كانت محصورة بين كبار الموظفين ليتمكنوا من توجيه دفّتها لصالحهم، كما أن القاضي لو دريان كان رجل عدالة نزيهاً.

من جهتها، كانت صحيفة ليست ريبوبليكان، التي بدأ بها كل شيء، آخر صحيفة تتابع أخبار تطورات «قضية أعجوبة جبل تيريبل»، متابعة جرى اختصارها يوماً بعد يوم. أمّا الصحافية المكلّفة بتغطية التحقيقات، واسمها لوسيل مورو، التي لم تفوّت متابعة القضايا الأكثر صعوبة في شرق فرنسا على امتداد عقود طويلة، فقد وجدت نفسها بسرعة أمام مأزق: أيّ اسم ستُطلقه على الطفلة الناجية؟ البقاء على الحياد يعني استحالة تسميتها بإيميلي أو ليز-روز... أمّا الألقاب التي على شاكلة «أعجوبة جبل تيريبل»، «يتيمة الثلوج»، «الرضيعة التي نجت من المحرقة» فقد شعرت بأنها تُصيب أسلوبها في الكتابة بالترهّل، أسلوب أرادته بسيطاً ومباشراً بما يسمح بشدّ انتباه العامة من القرّاء. لكنها عثرت على الإلهام المرجو أواخر يناير 1981، ففي تلك الفترة، التي تذكرونها بكلّ تأكيد، بثَّت محطات

الإذاعة بشكل متواصل أغنية لشارليلي كوتور، أغنية جاءت مناسِبَة تماماً للظرفية، وعنوانها «كطائرة بلا أجنحة»(*).

أتعبها بطء المعاملة القانونية وتخوّف القاضي لو دريان من التعامل مع الصحافة، فنشرت في الصفحة الأولى من جريدة **ليست ريبوبليكان**، يوم 29 يناير، صورة لـ«الرضيعة الأعجوبة» احتلّت معظم مساحة الصفحة، وتظهر فيها الطفلة داخل قفصها الزجاجي بمصلحة طبّ الأطفال بالمستشفى، منتظرة منذ أزيد من شهر وسط لامبالاة تامة، وعلّقت بثلاثة أسطر من الأغنية، كُتبت بخط عريض:

آه، أيتها اليعسوبة،
أنت، تملكين أجنحة هشّة،
أنا، أنا، جسمي مدعوك. . .

أصابت الصحافية الخبيرة هدفها. لم يعُد أحد قادراً على تجاهل الرضيعة الصغيرة، بيديها الهشّتين وجسم الطائرة المحطّم، كلما بثت الإذاعة أغنية شارليلي كوتور. في فرنسا، تحوّلت يتيمة الثلوج إلى «يعسوبة». بقي لقبها كذلك، كما تبنّاه أقاربها، وأنا أيضاً.

يا له من اسم!
يعسوبة!

(*) أغنية Comme un avion sans ailes للمغني الفرنسي Charlélie Couture ومن هنا جاء اختيار الكاتب لـ Un avion sans elle عنواناً لروايته، الذي يتطابق لفظياً مع عنوان الأغنية، لكنه يختلف في المعنى، «كطائرة بلا أجنحة» بالنسبة إلى الأغنية، و«طائرة من دونها» بالنسبة إلى العنوان الأصلي للرواية. (المترجم)

لقد وصل بي الحماس حدّ الاهتمام بهذه الحشرات الدميمة، وإنفاق مبالغ طائلة لجمعها. عندما أفكّر في ذلك الآن، أجد أنّ كلّ هذا السيرك سببه صحافية ذكية نجحت في اللعب على وتر العواطف الشعبية الحساس...

رجال الشرطة، من جانبهم، كانوا أقلّ رومانسية. فقد ابتكروا اسماً محايداً استعملوه لتجنّب التعاطف مع إحدى العائلتين، وذلك بالجَمع بين الحروف الأولى للاسم الأول، والحروف الأخيرة للاسم الثاني، فمنحنا الجمع بين ليز-روز وإيميلي اسماً جديداً هو ليلي...

مكتبة

ليلي...

كان المفوّض فاتوليي أوّل مَن استخدمه أمام الصحافيين ورجال الإعلام.

اسمٌ لا بأس به بكلّ تأكيد، يبدو أنّ رجال الشرطة قادرون أيضاً على إظهار جانبهم الرومانسي. بقي هذا الاسم أيضاً، كما هو الشأن بالنسبة إلى «اليعسوبة»، كما لو كان اسماً تدليلياً وَدوداً.

لا ليز-روز ولا إيميلي.

ليلي...

كائن خرافي غريب مشكَّل من جسدين.

وحش.

فيما يخصّ الوحوش، حان الوقت الآن لأحدِّثكم عن الدور الذي لعبته مالفينا دو كارفيل... أعرف، لم تكن مالفينا لتقبل بهذا الانتقال... ستسامحونني على ذلك. ستفهمون، فهذا يأتي ضمن الأضرار الجانبية التي خلّفتها المأساة، إن صحّ التعبير...

كان ليونس دو كارفيل شخصاً عنيداً، مصمّماً، معتاداً على

الحصول على ما يريد. ولكن في الواقع، رغم ذلك، لم يكن أيّ دليل أو عنصر من عناصر الملفّ في صالحه. فارتكب هنا خطأين، خطأين فادحين للغاية، من شدّة رغبته في الدفع بالقضية بسرعة أكبر.

يتعلق الخطأ الأول بحفيدته مالفينا. لم يكُن عمرها يتجاوز ست سنوات، كانت طفلة مليئة بالحياة، تلقّت تربية جعَلَتْها أشبه بملكة في شرنقة معزولة. وكما هو معلوم، كان من الطبيعي أن تجد صعوبة في تجاوز الآثار الكارثية للوفاة المفاجئة لوالديها وربما شقيقتها أيضاً، ولكنها كانت مُحاطة بجيش من الأطباء النفسيين، وبعائلتها، كان من الممكن أن تتجاوز ما حصل وتُعيد بناء حياتها من جديد.

مثل الجميع.

ولكنها كانت شاهد العيان الوحيد، وحدها مَن رافقت ليز-روز في تركيا، في أوّل شهرين من حياتها، وربما الأخيرين...

أتستطيع طفلة في السادسة من عمرها التعرّف على رضيعة؟ والتعرّف عليها بيقينٍ تام؟ وتمييزها عن رضيعة أخرى؟

أسئلة تستحقّ أن تُطرح...

كانت مالفينا ورقة اللعب الوحيدة لآل دو كارفيل أمام تأكيدات الجدّين فيترال، الوحيدة القادرة على التعرّف على ليز-روز. كان على ليونس دو كارفيل أن يحميها، أن يُجنّبها الإدلاء بالشهادة، أن يُبعد رجال الشرطة عنها، ألّا يطالبها بشيء، أن يتركها وشأنها، أن يعزلها، أن يرسلها إلى إحدى الدور المخصَّصة لاستقبال أبناء الأثرياء، المتوفّرة على ممرضات متخصّصات وحريصات على النزلاء، رفقة أطفال سعداء آخرين، وحديقة كبيرة تضمّ مختلف أنواع الحيوانات، كان بإمكانه ذلك... لكنه، في المقابل، جعل مالفينا

في واجهة الأحداث، ودفعها إلى الإدلاء بشهادتها، عشر مرات، مئة مرة، أمام عشرات القضاة والمحامين ورجال الشرطة والخبراء. . . فقضت بذلك أسابيع طويلة في التنقّل بين مكاتب المحامين وجلسات الاستماع، بين قاعات الانتظار وقاعات الاستماع، محاطة باستمرار بأشخاص مخيفين هم أشبه بقرود الغوريللا، يرتدون بذلات بربطات عنق، مهمّتهم حمايتها من الصحافيين.

أمام كلّ هؤلاء الأشخاص الذين جرى تقديمهم لها، كرَّرت مالفينا -بشكل آلي- الكلام نفسه:

«نعم، هذه الرضيعة هي شقيقتي».

«لقد تعرَّفتُ عليها، إنها ليز-روز فعلاً».

لم يعُد جدّها بحاجة لإجبارها. كانت متأكّدة، لا تملك أدنى ذرّة شك، ولا يمكنها أن تخطئ.

أروها ملابس الرضيعة، وملامحها التي تعرفها، وأسمعوها بكاءها. كانت مستعدّة لأداء القسم، أمام القاضي، على الإنجيل، أو حتى على رأس دميتها. كانت قادرة في سنتها السادسة حتى على مجابهة الجدّين فيترال!

تابعت مالفينا منذئذٍ وهي تكبر، وإن كانت هذه الكلمة فضفاضة المعنى، لنقُل بأنني تابعت مالفينا وهي تشيخ، حتى بلوغها سن المراهقة ثم الشباب، ولاحظت كيف أصيبت تدريجياً بالجنون، الجنون الغاضب.

كانت تخيفني، هذا صحيح؛ أعتقد بأنّ مكانها الطبيعي سيكون في مستشفى للأمراض النفسية، مع متابعة عن قرب؛ لكنني مجبر على الاعتراف بشيء ما: لا دخل لمالفينا في كلّ ما حصل لها. جدّها ليونس دو كارفيل، هو المسؤول الوحيد. كان واعياً بما

يفعله. لقد استعملَ حفيدته عن عمد، وضحّى باستقرارها النفسي ضارباً بنصائح الأطباء وتوسّلات زوجته عرض الحائط.

الأسوأ أنّ كلّ هذا لم يفده في شيء، أي شيء!

فقد ارتكب ليونس دو كارفيل خطأً آخر، ربما أفدح بكثير من خطئه الأول.

- 9 -

2 أكتوبر 1998، التاسعة صباحاً وثلاث وأربعون دقيقة

لم تغادر ليلي مكانها منذ نصف ساعة. كانت جالسة على الدرابزين الرخامي لمجمّع دي أنفاليد(*). شاعرة ببرودة الرخام في ساقيها، وإن لم يزعجها ذلك كثيراً. كان الطقس جافاً على أي حال. بالكاد يمكنها تبيّن قبة دي أنفاليد في السماء البيضاء، أحادية اللون تقريباً.

كان بعض هواة التزلّج بالعجلات منشغلين بتدريباتهم أمامها، غير آبهين بلسعات البرد.

صحيح أنّ ساحة دي أنفاليد معروفة لدى المتعوّدين على المكان، لكنها لم تكن الأكثر شعبية في باريس. يوجّه السياح اهتمامهم أكثر نحو التروكاديرو(**)، أمام القصر الملكي، ساحة

(*) دي أنفاليد (Esplanade des Invalides): مجمّع من المباني يحتوي على متاحف ونصب تذكارية، يقع في الدائرة الباريسية السابعة في فرنسا. (المترجم)

(**) التروكاديرو: تقع ساحة تروكاديرو في الدائرة الباريسية السادسة عشر، تم إنشاؤها عام 1869 في ظلّ الإمبراطورية الفرنسية الثانية تحت اسم ساحة ملك روما. (المترجم)

قصر البلدية(*)، أو ساحة الباستي(**)... أما الجمهور هنا فكان أقل بكثير، من النادر أن تظهر وسط الجموع هنا فتاة بجمال ليلي. فتاة جميلة جداً تتابع حركات هؤلاء الشباب، متحدّية حالة الطقس، وبرودة الرخام على مؤخّرتها.

ما الذي تبحث عنه؟ مغامرة عابرة؟

من جانبهم، تنافس هواة التزلج على إظهار أفضل ما عندهم. كانت ساحة دي أنفاليد مناسبة لألعابهم المعتمدة على السرعة والتعرج والقفز. كما زوّد هواة التزلج المكان بكُرات بلاستيكية صغيرة برتقالية اللون، على خطّين متوازيين بطول مئة متر، بما يسمح بتنظيم مبارزات فيما بينهم، كما لو أنّ الأمر يتعلق بنُسخة معاصِرَة من مبارزات القرون الوسطى التي يفوز فيها الأسرع، أو آخر مَن بقي واقفاً، بقلبِ الأميرة الحسناء.

أحبَّت ليلي سرعة هواة التزلج على العجلات، صرخاتهم، ضحكاتهم. ساعدها هذا الصخب على الاحتفاظ بهدوئها الداخلي. وإن لم يكن ذلك سهلاً بالمرة. اضطربَ كلّ شيء في أعماقها. تذكّرت دفتر غران-دوك مرة أخرى. هل كان قرارها بتسليم الدفتر

(*) ساحة قصر البلدية: يطلق عليها أيضاً اسم ساحة التحرير، ساحة في وسط باريس وأمام قصر البلدية في الدائرة الباريسية الرابعة على يمين نهر السين. كانت قد أنشئت بموجب مرسوم من الملك لويس الثاني الذي مات في عام 1180 وعليها يطلّ مبنى بازار قصر البلدية في باريس. (المترجم)

(**) ساحة الباستي: أحد أهم المواقع السياحية والأثرية في العاصمة الفرنسية باريس، هي الساحة الرمزية للثورة الفرنسية، ضمّت في السابق حصن سجن الباستي. (المترجم)

لمارك في محلّه؟ هل سيقرأ محتواه؟ نعم بطبيعة الحال... ولكن، هل سيَفهمه؟ كانت علاقة مارك بكريدول غران-دوك معقّدة بعض الشيء، لا، كان أبعد من أن يكون أباً بديلاً، لكنه كان في الوقت نفسه أحد الرجال القلائل الذين طبعوا حياته لسنوات طويلة. كانت لمارك يقينياته، حدسه كما يسمّيه، معتقداته أيضاً... هل هو قادر إذاً على تحمّل هذه الحقيقة، الحقيقة المختلفة تماماً؟

تكرّرت هذه الأسئلة في ذهنها منذ دقائق طويلة. لم تجِد مخرجاً لحيرتها.

تابعها أحد المتزلجين ببصره، كان أكبر سناً من الآخرين، أشيب تقريباً، ربما في الأربعينيات من عمره. كان قد فاز بكلّ مبارزات التزلّج أمام منافسيه الآخرين، وبسهولة تامة. رمى بسترته الجلدية أرضاً، مستغلاً الفرصة للتباهي بتناسق تفاصيل جسده الرياضي مفتول العضلات تحت تيشيرته. جالَ ببصره الأسود الثاقب على الساحة بكاملها، قبل أن يثبته في النهاية على عينَي ليلي الزرقاوين. كلّ شيء في هيئته يذكّر الناظر إليه بالجوارح، برقصه الأنيق بين الكرات البلاستيكية، وملامحه الدقيقة الحازمة.

لم تنتبه ليلي لوجوده حتى بين المتزلجين الآخرين. كانت تفكر في هديتها لمارك، في هذه المسرحية الحزينة.

هل كانت ضرورية؟

بدأت الدموع في التجمّع على جانبَي عينيها. لا خيارَ أمامها، كانت مجبَرَة على إبعاد مارك، لساعات، أو ربما لأيام، إبعاده عن كلّ هذا، حمايته. وعندما ينتهي كلّ شيء فيما بعد، يمكنها عندئذٍ أن تملك الشجاعة اللازمة للاعتراف. مارك متمسّك بها... بمَن أصلاً؟

ابتسمت.

بليلي، بيعسوبته... يا إلهي، هي مستعدّة للتضحية بكلّ شيء في سبيل الحصول على اسم عادي، تافهٍ. اسم واحد!

احتكّ المتزلج الأشيب بليلي فانتفضت بعدما أخرَجَها فجأة من غفلتها. لم تستطِعْ كبح جماح ابتسامتها. كان الرجل الجارح إنْ صحّ التعبير قد رمى التيشيرت، رغم الطقس الذي كان غالباً أقل من عشر درجات مئوية. رقص أمامها بساقيه الكبيرتين في سروال جينز، وجذع عار.

جسد متناسق، أمرط، مفتول العضلات.

لم يعُد يجد أيّ حرج الآن في اختراق تفاصيل جسد ليلي بعينيه، كما لو كان يُقيِّم محاسنه ونقاط ضعفه، متحوّلاً بشكلٍ فعليّ إلى طير جارح يؤدّي رقصة مُتقَنَة لاجتذاب أنثاه. كم أدّى هذه الرقصة من مرة؟ كم من فتاة تمكّن من إسقاطها بين مخالبه؟

كلهن؟

بادلته ليلي النظرات للحظات قليلة، متأمِّلة تفاصيل جسده بلامبالاة. كانت معتادة على ذلك، جسدها الجميل يثير انتباه الرجال. وإن أدهَشَها ذلك في الواقع، أن يروها، أن يرغبوا بها. كانت تعتقد أنها شفافة...

عادت مرة أخرى إلى أفكارها. لا يجب عليها أن تُشفق على مصيرها. لا أهمية الآن لاسمها أو لقبها. عليها أن تتحرّك وحدها، وبسرعة.

معرفتها بالحقيقة، الحقيقة الرهيبة، جعلتها مصمِّمة أكثر، لا خَيار أمامها، عليها أن تتحمَّل مسؤوليتها.

بدأ كلّ شيء منذ فترة قصيرة، بالأمس فقط. تغيَّر مسار حياتها، تسارعت وتيرة الأحداث، وإن كانت قد اقترفت منذ فترة ما لا يمكن إصلاحه. فوجدت نفسها الآن داخل دوامة لا فكاك منها. لا خيار أمامها، إمّا أن تُكمِل، أو أن يتمّ سحقها...

لم ييأس الطير الجارح. كان يرسم دوائر كبيرة بأحذية تزلّجه التي تحوّلت إلى أعضاء سفلية، دون أن يحرّك رأسه قيد أنملة، متوجِّهاً بالكامل نحو ليلي.

غابت عينا ليلي في الفضاء. كانت تفكّر في مارك الذي تركته في الحانة.

لقد أوقعته في الفخ. هي متأكِّدة من أنه سيحاول الاتصال بها بعد خمس عشرة دقيقة من الآن. التقطت حقيبتها وأطفأت هاتفها المحمول. عليها أن تظلّ غير مرئية، أبعد من أن يصل إليها أحد، الآن على الأقل. لن يوافق مارك على خططها. يريد أن يحميها، لكن ذلك لن يعرِّضه سوى لمخاطر جمّة.

هي تعرفه جيداً، سيعتبر أنّ ما تقوم به بمثابة جريمة قتل.

جريمة قتل...

كما لو أنّ الأمر يتعلق بهروب سرب من طيور السنونو بعد إطلاق نار، ابتعد هواة التزلج على العجلات عن دي أنفاليد، مطيعين أوامر زعيمهم الأشيب اليائس أو الغاضب ربما من فشل عرضه. اختفى كلّ شيء، الكرات البلاستيكية البرتقالية، السترات، التيشيرتات، اختفى كلّ شيء في لمح البصر، ليبقى الإسفلت الرمادي فقط.

جريمة قتل. . .

ابتسمت ليلي بعصبية.

بعد كلّ ما جرى، نعم، يمكنها القول بأنها فعلاً جريمة قتل.

جريمة دموية ضرورية.

قتل.

قتل وحش لمواصلة مسار حياتها الطبيعية.

أو البقاء حية، على الأقل.

- 10 -

2 أكتوبر 1998، التاسعة صباحاً وخمس وأربعون دقيقة

رفع مارك عينيه.

ساعة المارتيني: التاسعة وخمس وأربعون دقيقة.

يا إلهي، إنها لا تتحرك. اعتراه شعور غريب. قد تكون هدية ليلي التي سلّمتها لمريم -في تلك العلبة الشبيهة بعلب أعواد الثقاب- فخاً، مبرّراً، طُعماً. ساعة الانتظار هذه لم تكن سوى فرصة قد تسمح لليلي بالفرار، بالرحيل، بالاختباء.

لماذا؟

لا يعجبه هذا الوضع، كما لو أنّ كلّ دقيقة إضافية تساهم في إبعاده عن ليلي أكثر فأكثر. خفض عينيه نحو الدفتر، لقد فهم قصد غران-دوك عندما تحدّث عن خطأ ليونس دو كارفيل الثاني، كان شاهداً على ما جرى، وإن كان مجرّد طفلٍ باكٍ مثلما حكوا له آنذاك؛ سيستمتع بما سيقرأ الآن، هذا إن كانت رواية غران-دوك مطابقة تماماً لما يتناقله أبناء الحيّ في بوشول.

اعتقد ليونس دو كارفيل بأنّ المال قادر على حلّ كلّ المشاكل. بدا أنّ القضية لن تشهد أيّ تقدم ملموس، رغم حثّ وزير العدل للقاضي لو دريان على إصدار حكمٍ نهائي قبل بلوغ الرضيعة شهرها السادس.

ستة أشهر.

مدة طويلة جداً بالنسبة إلى شخص مثل ليونس دو كارفيل.

أكّد محاموه أنّ التأخير مناسب لهم، ستُميل الشكوك الكفّة لصالحهم، فهُم يتحكّمون بشبكات من العلاقات القوية، وقادرون على توجيه الآخرين بما يخدمهم، بمن فيهم الإعلام والشرطة والمفوّض فاتوليي نفسه. عدم وجود دليل مادي يُلقي بالكرة في ملعب خصومات الخبراء. سيكون حكم القاضي لو دريان مضموناً. لا يملك آل فيترال أيّ وزن أو خبرة أو دعم... لكن ليونس دو كارفيل كان بلا شك أقلّ صفاء، أقل وقاراً، وأقل لامبالاة ممّا تظنون، فقرَّر حلّ القضية وحده، وبشكل نهائي، وبالطريقة نفسها التي أدارَ بها شركته.

بروحٍ قيادية غريزية.

التقط هاتفه ببساطة شديدة، منتصف يوم 17 فبراير 1981، وطلب اللقاء بآل فيترال صباح اليوم التالي، دون أن يفكر حتى في تكليف سكرتيرته بهذه المهمة...

لنقل إنه طلب اللقاء مع بيير فيترال بالذات، وكان هذا خطأً كبيراً. هذا ما روته لي نيكول فيترال بابتهاج فيما بعد، مع تركيزها على أدقّ التفاصيل.

وهكذا شهد أبناء الحي في بوشول بديب، صباح اليوم الموالي، قدوم سيارة مرسيدس قد تكون أطول من واجهة المنزل الذي توقفت أمامه، منزل آل فيترال. دخل دو كارفيل محتمياً بتنكّره، حاملاً حقيبة سوداء، كما يحدث في معظم الأفلام السينمائية.

مشهد كاريكاتوري.

- سيد فيترال، هل تسمح لي بمحادثك على انفراد؟

تردّد بيير، أمّا زوجته فلا، رغم أنّ السؤال كان موجّهاً إليها هي بالدرجة الأولى، لكنها لم تجد أي غضاضة في الإجابة:

- لا يا سيد دو كارفيل، هذا مستحيل.

كانت تحمل مارك الصغير بين ذراعيها، لم تتركه، بل عانقته بقوة أكبر مكملة:

- حتى لو ذهبت إلى المطبخ فسوف أسمع كلّ شيء يا سيد دو كارفيل، منزلنا صغير كما ترى. حتى لو ذهبت عند الجيران فسوف أسمع أيضاً. الجدران هنا ليست سميكة، ما يعني أننا نسمع كلّ شيء، لا أسرار بيننا، ربما لأننا نرفض أصلاً أن تكون بيننا أسرار.

قالتها ثم جلست على مقعد لتهدئة مارك الباكي، وربما تأكيداً أيضاً على أنها لن تغادر المكان.

لم يبد على ليونس دو كارفيل أيّ تأثر بكلامها.

- كما تريدين، أكمل مبتسماً، سأختصر قدر الإمكان، ما أعرضه عليكم لن يكلّفني سوى بضع كلمات.

تجوّل في الغرفة الضيقة قليلاً، ثم ألقى نظرة على شاشة التلفاز الصغير الذي يعرض مسلسلاً أميركياً. كان البهو صغيراً جداً، اثنا عشر متراً مربعاً فقط، مجهّزاً بفورميكا برتقالية على طراز سنوات السبعينيات.

وقف دو كارفيل على بُعد مترين من عائلة فيترال.

- لنكن صرحاء مع بعضنا سيد فيترال، لن يعرف أحد مَن نجت من هذه الحادثة، من بقيت على قيد الحياة؟ ليز-روز أم إيميلي؟ لا وجود لأيّ دليل ملموس، أنتم مقتنعون بأنها إيميلي، كما نحن مقتنعون بأنها ليز-روز، وسنبقى محتفظين بقناعاتنا مهما حصل. هذا جزء من الطبيعة البشرية.

وافقه آل فيترال على كلامه.

- حتى القاضي، تابع دو كارفيل، حتى القاضي لن يعرف شيئاً، سيكون مُجبَراً على اتخاذ قرار لكنه لن يتأكد أبداً من صواب هذا القرار. ملك وكتابة، وجهان لعملة نقدية واحدة، هل تظنّ يا سيدي أنّ مستقبل طفلة رهين بوجهَي عملة نقدية؟

انتظر آل فيترال بقية كلامه، فيما صدرت بعض الضحكات السخيفة عن المسلسل التلفزيوني، فتقدمت نيكول نحو التلفاز وقطعت الصوت، ثم عادت للجلوس.

- سأكون أكثر وضوحاً يا سيد فيترال، وأنت يا سيدة فيترال أيضاً، لقد جمعتُ عنكما قدراً كافياً من المعلومات، وربما فعلتما الشيء نفسه معي.

تراجعت ثقة نيكول فيترال بابتسامته.

- يقول الجميع بأنكما ربيتما أبناءكما بصبر، وقدّمتما تضحيات كبيرة، مرَرتما بأوقات صعبة، لقد سمعتُ بما جرى لابنكما الأكبر، نيكولا، الذي توفي في حادثة دراجة نارية قبل أربع سنوات، علمتُ بأنك تعاني من آلام في الظهر يا بيير، كما تعانين من مشاكل رئوية يا نيكول، وهذا طبيعي نظراً إلى طبيعة عملكما، ولو أنني أستغرب عدم بحثكما عن عمل آخر، لأجلكما، ولأجل حفيدكما.

عانقت نيكول مارك بقوة أكبر، فبكى قليلاً.

- ما الذي ترمي إليه سيد دو كارفيل؟ سأله بيير فيترال فجأة.

- أعتقد بأنكَ قد فهمت قصدي، نحن لسنا أعداء، بالعكس، علينا أن نوحّد جهودنا بما يصبّ في مصلحة يعسوبتنا.

نهضت نيكول فيترال فجأة، دون أن ينتبه ليونس دو كارفيل لها، هو المتشبّث بخيط أفكاره وربما يقينياته، تابع قائلاً:

- سأكون واضحاً، أنا واثق من بأنكما تحلمان بتوفير مستقبل دراسي حقيقي لأبنائكما وأحفادكما، دراسة وعطل وكلّ ما يحلمون به ويستحقونه. قد تكون تلك فرصة حياتهم، ولكل فرصة ثمن، لكلّ شيء ثمن.

كان يتمادى، وربما لم يكن واعياً بذلك، فيما صمَتَ آل فيترال مشدوهين.

- بيير، نيكول، لا أدري إن كانت هذه اليعسوبة حفيدتي أم حفيدتكما، لكنني أتعهّد بتوفير كلّ ما تحتاجه وبتحقيق كلّ رغباتها. أتعهد وأعدكم بذلك، سأجعل منها أسعد طفلة في العالم، سأذهب أبعد من ذلك وأقول بأنني أقدّر عائلتكم كثيراً، أتعهّد بمساعدتكما مادياً، ومساعدتكما على تربية حفيدكما مارك، أعلم أنّ تبعات هذه المأساة كانت صعبة علينا جميعاً، ربما ستكونان مجبَرين على العمل لسنوات أخرى، بما يسمح لكما بإطعام فمٍ إضافي...

اقتربت نيكول من زوجها وقد تصاعَدَت حدّة غضبها. صمت ليونس دو كارفيل متردِّداً، قبل أن يقول:

- بيير، نيكول، ستوافقان على التنازل عن حقوقكما تجاه الطفلة، وتعترفان بأنها تُدعى ليز-روز، ليز-روز دو كارفيل. فيما

أتعهد أنا برعايتكم... يمكنكما زيارة ليلي في أيّ وقت، لن يتغير شيء، ستكونان مثل جديها.

بدت نظرات دو كارفيل أقرب إلى التوسل.

- أتوسل إليكما، وافِقا على هذا العرض، فكِّرا في مستقبل ليلي...

كانت نيكول فيترال على وشك التدخل، لكن بيير سبقها، مجيباً بهدوء مفاجئ:

- سيد دو كارفيل، أفضِّل ألّا أجيبك. إيميلي ليست للبيع، كما هو الشأن بالنسبة إلى مارك وكلّ مَن يعيش في هذا المنزل. لا يمكنك أن تشتري كلّ شيء بالمال يا سيد دو كارفيل. ألم تستوعب هذا بَعد الحادثة التي أودَت بحياة ابنك؟

رفع ليونس دو كارفيل من نبرته بعدما صدمه جواب بيير، لم يتعوّد أبداً على البقاء في موقفٍ دفاعي. احتدّ بكاء مارك بين ذراعي جدته. وربما سمعه كلّ ساكني حي بوشول.

- لا يا سيد فيترال! لا داعي لاستخدام هذا الأسلوب معي، ألا ترى بأنّ في قدومي إلى هنا إهدارٌ لكرامتي؟ أنا أمنحكم فرصتكم الوحيدة لتأمين مستقبلكم، لكنكم تتخلّون عنها بسهولة. أقدِّر هذه الشهامة...

- اخرج!

لم يتحرك.

- اخرج حالاً! ولا تنسَ حقيبتك، كم بداخلها؟ بكم تقدِّر ثمن إيميلي؟ مئة ألف فرنك؟ سيارة جميلة... ثلاثمئة ألف، ومنزل شاطئي بإطلالة بديعة على بحر الشمال، نقضي فيه أيامنا الأخيرة؟

- خمسمئة ألف فرنك يا سيد فيترال، تتسلّمونها بعد صدور قرار القاضي.

- قلت لك اخرج!

- أنتما مخطئان. . . وتخاطران بفقدان كلّ شيء بسبب أنفتكما، تعلَمان أنكما لا تملكان أيّ حظ أمامي عندما سيتمّ اتخاذ القرار في المحكمة، عشرات المحامين يعملون تحت إمرتي، ويرفعون الكلفة في تعاملهم مع الخبراء ورجال الشرطة المكلفين بالتحقيق. أملك شبكة من العلاقات الشخصية مع نصف قضاة محكمة باريس. هذا ليس عالمكم أنتم. اللعبة ليست في صالحكم يا سيد فيترال، وأنتم تعلمون ذلك، بل وتعلمون بذلك منذ البداية. ستحمل الرضيعة الناجية اسم ليز-روز، حتى وإن اكتشفت قرائن تدلّ على العكس، ليز-روز هي التي بقيت على قيد الحياة، سيُحسَم الأمر هكذا. لم أزركم بصفتي عدواً يا سيد فيترال، ولم أكُن مجبَراً على القدوم أصلاً، لكنني قَدمتُ بهدف موازنة الحظوظ قدر الإمكان.

واصلَ مارك صراخه بين ذراعي نيكول.

- اخرج!

حمل دو كارفيل حقيبته ثم تقدَّم نحو باب المنزل.

- شكراً سيد فيترال. لقد أخليتُ ذمتي على الأقل. . . ولم يكلّفني ذلك أيّ سنتيم!

ثم غادر المكان.

احتضنت نيكول مارك وهي تبكي. تبكي لأنها تعلم بأنّ دو كارفيل على حق. كلّ ما قاله صحيح، وهم يعلمون هذه الحقيقة، لا فرصة لهم في كسب القضية. ألقى بيير فيترال نظرة على بهو منزله، ثم وجّه ناظرَيه نحو الشاشة الصامتة.

لم يفكر في آلام ظهره، بل في آلام أخرى أشدّ.

ألقى بيير فيترال نظرة أخيرة على الشاشة الصغيرة، قبل أن تلمع عيناه ببريق مقاومة، فقال كما لو كان يخاطب نفسه:

- لا، لن تربح يا سيد دو كارفيل.

لو سمحتم لي بتقديم تحليلي الشخصي والهادئ بعد سنوات طويلة من هذه الواقعة، لقلتُ بأنّ دو كارفيل قد ارتكب خطأً فادحاً في ذلك الصباح: لقد أشعَلَ غضب آل فيترال. ولولا ذلك لربح القضية من دون عناء يُذكر.

لم تكد المرسيدس تغادر شبه جزيرة بوليه حتى أخرج بيير فيترال نسخة جريدة من الخزانة.

- ماذا سنفعل؟ سألته زوجته.

- سنحارب... وسنسحقه...

- كيف؟ لقد سمعت كلامه، إنه على حق...

- لا... لا يا نيكول. ما زالت هنالك فرصة بحوزة إيميلي. لقد نسي دو كارفيل تفصيلاً مهماً، كان محقاً في كل ما قاله، قبل اليعسوبة، وقبل تحليق باسكال وستيفاني نحو السماء، وأما الآن فلا! نحن مهمّون أيضاً إن أردنا ذلك يا نيكول! نحن أيضاً مصدر اهتمام للجميع، ويتحدّثون عنّا في الصحف والإذاعة...

استدار نحو زاوية الغرفة.

- حتى القنوات التلفزية تحدَّثت عنا، يبدو أنّ دو كارفيل لا يشاهدها، ولا يعلم عن ذلك شيئاً. قوة الإعلام اليوم تُضاهي قوة المال...

- ما. . . ما الذي ستفعله؟

سطَّر بيير فيترال تحت رقم هاتف مدوّن في الصحيفة.

- سأبدأ بصحيفة ليست ريبوبليكان لأنها الأكثر معرفة بتفاصيل الملف. هل تذكرين تلك الصحفية التي تابعت تطورات القضية يا نيكول؟

- لم يتجاوزوا خمسة أسطر في تعليقهم على الأحداث قبل أسبوع!

- بالفعل، وهذا سبب إضافي، ابحثي لي عن اسمها.

أجلست نيكول حفيدها مارك على مقعد أمام التلفاز، ثم أخرجت حافظة أوراق من تحت طاولة البهو، تحتفظ فيها بكلّ المقالات الصحفية التي تتناول موضوع كارثة جبل تيريبل، لم يستغرق الأمر سوى لحظات معدودة:

- لوسيل مورو!

- حسناً. . . لن نخسر شيئاً. سنرى. . .

أمسك بيير فيترال بالهاتف ثم اتصل بالصحيفة.

- صحيفة ليست ريبوبليكان؟. . . مرحباً، أنا بيير فيترال، جدّ الرضيعة الناجية من كارثة جبل تيريبل. . . نعم، «اليعسوبة». . . أريد التحدّث مع الصحافية لوسيل مورو، أملك معلومات بشأن القضية، معلومات بالغة الأهمية. . .

شعر بيير فيترال بأنهم منشغلون بكلامه في الجانب الآخر من الخط، وبعد أقل من دقيقة سمع صوت امرأة لاهثة، جمّدته بسؤالها:

- بيير فيترال؟ معك لوسيل مورو. تقول بأنك تملك معلومات جديدة. هل أنتَ جاد؟

- لقد غادر ليونس دو كارفيل منزلي قبل قليل. عرض عليّ مبلغ خمسمئة ألف فرنك مقابل التنازل عن القضية.

بدا لبيير فيترال أنّ ثواني الصمت اللاحقة كانت بلا نهاية، قبل أن يكسر هذا الصمت مرة أخرى بالصوت الجهوري للصحافية:

- هل عندك شهود؟

- الحي بأكمله...

- يا إلهي... لا تتحرك من مكانك، لا تُخبر أحداً، سنتصرّف، سنُرسل لك أحد موظفينا حالاً!

- 11 -

2 أكتوبر 1998، العاشرة صباحاً

أشارت ساعة المارتيني إلى العاشرة صباحاً، بالضبط!

ضبط مارك وتيرة قراءته بما يتناسب مع الدقائق التي تمرّ، عين على الدفتر، وعين على ساعة الحائط.

أغلق الدفتر الأخضر، ثم دسّه بين حافظات أوراقه في حقيبته الإيستباك، ثم تقدّم نحو طاولة الشرب في حانة لينين وقد زيّنت وجهه ابتسامة راضية. أدارت مريم ظهرها له، منشغلة بمسح بعض الأكواب. وضع مارك أصبعه على الزنك، كما لو كان يضغط على الجرس.

- دريييينغ!!! قال بصوتٍ حاد. انتهى الوقت!

استدارت مريم، آخذة وقتها الكافي في مسح يديها بمنشفة طوَتها ثم وضعتها في مكانها.

- انتهى الوقت! قال مارك بإصرار.

- حسناً . . .

رفعت مريم عينيها نحو ساعة الحائط.

- جميل، واضح أنك لا تضيع وقتك أبداً. . . لا يبدو أنك كنت من أولئك الذين ينامون ليلة الميلاد. . .

- لا، أبداً. . . هيا، أسرعي يا مريم. . . لقد سمعتِ ما قالته ليلي، يجب أن ألحق بالحصّة. . .

لمعَت عينا مريم.

- يمكنك أن تخدع الآخرين بكلامك هذا، أنا لا . . . حسناً، ها هي هديتك!

فتحت الدرج، ثم أمسكت بالعلبة الصغيرة وسلَّمتها لمارك، فالتقطها بحماسٍ ثم استدار متوجِّهاً نحو باب حانة لينين.

- ألن تفتحها الآن؟

- لا. . . قد تكون هدية حسّاسة. . . لعبة جنسية. . . لباس داخلي. . .

- أنا لا أمزح يا مارك.

- ولماذا تريدين مني أن أفتح العلبة أمامك؟

- لأنني أتوقع من الآن ما الذي تتضمنه العلبة أيها الذكي. سأساعدك على النهوض عندما تسقط فاقداً الوعي!

تأمّلها مذهولاً.

- هل تعرفين ما الذي يوجد في هذه العلبة؟!

- بشكلٍ عام. . . نعم. دائماً الشيء نفسه. عندما. . .

تململ أحد الزبناء نافدي الصبر خلف مارك وهو يداعب علبة سجائر مارلبورو فارغة.

- عندما ماذا؟

تنهدت.

- . . . عندما تنسحب الفتاة قبل ساعة أيّها الأبله. ساعة قبل الفتى الذي تتركه جالساً وحده في أحد مقاعد حانتي!

فهم مارك قصدها. تذكر مباشرة خاتم اللازورد الذي وضعته ليلي في أصبعها، والصليب الطارقي الذي لم تزيّن به عنقها، فهزّ كتفيه في ترفع.

- إلى الغد يا مريم. الساعة نفسها، الطاولة نفسها بالقرب من النافذة، مفهوم؟

أمسك بالعلبة بيدٍ بَذَلَ كلّ ما في وسعه ليحافظ على تحكّمه بها، ثم غادر المكان.

سلَّمت مريم زبونها ثلاث علب سجائر وهي تراقب ابتعاد مارك، يبدو أنها قد تكلّمت أكثر من اللازم هذه المرة، لم تكُن واثقة من حدسها إلى هذه الدرجة. . . يشكل مارك وإيميلي ثنائياً غريباً، مثيراً للتساؤلات، لا يشبه أيّ ثنائي آخر، لكنها مقتنعة بأنّ مارك سيواجه قدره خلال الساعات القادمة، بين حُسن وسوء الاختيار. . .

اختفى مارك بدوره في ساحة جامعة باريس الثامنة، كما لو أنّ معطفه الرمادي قد ذاب بين الجموع. تابعت مريم المارة ببصرها للحظات.

هي واثقة من أنّ مارك قد غادر المكان مزهواً بيقينياته، ولكن، يمكن لتفصيل واحد، ذرّة رمل واحدة، أن تبعثر كلّ شيء، وتهزّ مسلّماته، وربما حياته بأكملها.

كهزة جناح يعسوبة. . .

ابتعد مارك عن حانة لينين بسرعة، صاعداً عبر شارع ستالينغراد بشكلٍ قد يكون عشوائياً، نحو ملعب دولون. تراجعت أعداد الموظفين الصباحيين المتعجِّلين للّحاق بعملهم، لكنه قابل على الرصيف بعض كبار السن والأمهات اللواتي يدفعن عربات أطفالهن. تقدم لما يقارب خمسين متراً إضافياً ليجد نفسه وحيداً تقريباً. مزّق - بيدين مرتعشتين- الورق الفضي الذي يغلف العلبة ثم دسَّه في جيب سرواله الجينز بلامبالاة واضحة. يتعلق الأمر بعلبة كرتونية صغيرة اهتزت بين أصابعه المرتجفة.

سقط محتوى العلبة في راحة يد مارك فترنّح.

عجزت ساقاه عن حمله، فتراجع مترين كدمية متحرّكة مفكّكة المفاصل. اصطدم ظهره بالمعدن البارد لمرآة عاكسة، فتنهد ببطء، في محاولة منه لاستعادة توازنه وانتظام تنفسه.

لن يسمح للقلق بأن يتمكن منه، سيأخذ وقته الكافي، ويستعيد سيطرته على نفسه.

بقي ذلك الجزء من الشارع فارغاً، ومع ذلك بإمكانه أن يصرخ، سيسمعونه ويهرعون لمساعدته. لا، عليه أن يتصرّف بشكلٍ أكثر عقلانية.

جفَّ حلقه وتلاحقت أنفاسه رغماً عنه... دائما الأعراض نفسها مذ كان في الثانية من عمره. رهاب الخلاء..

سيتنفس بهدوء محاولاً استعادة هدوئه.

عكس ما يعتقده البعض، فإنّ رهاب الخلاء لا يعني خوف المُصاب به من المساحات الشاسعة أو التجمّعات البشرية الكبيرة، بل هو الخوف من ألّا يتمّ إنقاذه... الخوف من الشعور بالخوف، إن صحَّ التعبير... وهذا يعني أن قلقاً من هذا النوع قد يظهر في

الأماكن المعزولة، صحراء، غابة، جبل، محيط... كما قد يظهر أيضاً وسط تجمهر، مدرج، ملعب؛ في شارع مليء بالمارة كما في شارع مقفر...

تعوّد مارك على هذه الأعراض منذ وقت طويل، وهو يحسن التعامل مع النوبة عندما لا تكون بتلك الحدّة. صار قادراً على متابعة حصص الدروس في قاعات ممتلئة، ركوب المترو، والذهاب إلى الحفلات الغنائية...

تنهد.

استعاد تنفّسه وتيرته الطبيعية شيئاً فشيئاً. بقي مستنداً إلى المرآة العاكسة رغم الإزعاج الذي سبّبته الأسطوانة الفولاذية لظهره.

ألقى نظرة على راحة يده.

كان يمسك بلعبة صغيرة.

طائرة.

مجسّم حديدي مصغر، مطابق تماماً لنموذج إيرباص أ300، ثقيل الوزن، بلون أبيض حليبي، باستثناء الذيل بألوانه الزرقاء والبيضاء والحمراء. لعبة صغيرة يمكن أن تجد الآلاف مثلها في غرف الأطفال الصغار. ارتجفت يد مارك قبل أن يغلقها مرة أخرى على المجسّم البارد.

ما الذي يعنيه ذلك؟

دعابة؟

هدية صغيرة ترافقه في أثناء قراءته لدفتر غران-دوك؟

هذا سخف...

عليه أن يفكر بعقلانية. ألم تترك له شيئاً باستثناء هذه اللعبة؟

بحث في جيب سروال الجينز، ثم ملس ورق التغليف الفضي ليجد بين ثناياه ورقة صغيرة بيضاء، لم يجد صعوبة في التعرّف على خط ليلي بها. استند بظهره إلى المرآة العاكسة أكثر فأكثر، ثم قرأ:

مارك،

سأرحل، لا تسألني عن السبب، هذا ما وعدتُ به نفسي منذ البداية. الرحيل بمجرد بلوغي الثامنة عشرة. الرحيل بعيداً، بعيداً عن هنا... إلى الهند، إلى أفريقيا، إلى جبال الأنديز... أو إلى تركيا، لِمَ لا؟ لا تقلق، لا تخشَ شيئاً، لقد تعودتُ على ركوب الطائرة، أليس كذلك؟ أنا قوية بما يكفي.

سأبقى على قيد الحياة. مرة أخرى...

لو حدّثتُكَ بشأن ذلك لرفضت، لكنك ستوافقني على قراري هذا بعد تفكير عميق. لا يمكننا الاستمرار على هذا الشكل، محاصَرين بالشكوك. لهذا أنا مُجبَرَة على الابتعاد يا مارك. سأبتعد عنك وأضع لكلّ شيء نقطة نهايته. سأقطع كلّ الفروع الميتة أيضاً...

مارك، لا تبحث عني، لا تتصل بي، لا تفعل شيئاً. أحتاج إلى بعض الحرية، وإلى بعض الوقت.

هذا ما أعتقده.

سنعرف يوماً ما مَن نحن، وما الذي يمثّله كلّ واحد منا بالنسبة إلى الآخر.

اعتنِ بنفسك.

إيميلي

تلاحقَت أنفاس مارك من جديد، باذلاً كلّ ما في وسعه لطرد تلك الأفكار التي ملأت رأسه.

الفعل، التصرف. . .

تقدم بخطوة واحدة، ثم فتح حقيبة ظهره ودسّ فيها الطائرة الصغيرة ومعها الرسالة وورق التغليف. أطلق زفرة حارة ثم أمسكَ بهاتفه المحمول. لقد مكَّنه عمله مع فرانس تيليكوم من الحصول على هواتف حديثة، له ولليلي، آخر صيحة، مع إمكانية التسجيل الأوتوماتيكي للأرقام.

بحث في قائمة الأسماء من دون تفكير، قبل أن يتوقف عند اسم ليلي. ضغط على الزر الأخضر فأضاءت الشاشة، وبدا له أنها محاولة اتصال بلا نهاية.

كان معتاداً على عدم ردّ ليلي على اتصالاته أحياناً. يتم تشغيل المجيب الآلي مباشرة بعد الرنة السابعة. قام بعَدِّ الرنات، ثم فقد الأمل بعد الرنة الرابعة.

«مرحباً، هذه إيميلي، اترك لي رسالة، وسأتصل بك فيما بعد. إلى اللقاء. قبلاتي».

ابتلع مارك ريقه. اغرورقَت عيناه بالدموع بعد سماعه لصوت ليلي في المجيب الآلي.

- ليلي، معك مارك. أرجوك، اتصلي بي، أينما كنت. من فضلك، اتصلي بي. سأقبّلك، أنا متمسّك بكِ أكثر من أيّ شخص آخر في هذا العالم. اتصلي بي، عودي إليّ.

أنهى مارك الاتصال. مشى على رصيف شارع ستالينغراد ببطء، مستعيداً في ذهنه كلمات ليلي.

«الرحيل بعيداً». . .

«سأضع لكلّ شيء نقطة نهايته»...

«سأقطع كلّ الفروع الميتة»...

ما الذي تقصده بكلّ هذا الكلام؟

لم يكن مارك مغفّلاً، لم يكن بلوغها سن الثامنة عشرة سوى مبررٍ، هذه المسرحية مرتبطة بمحتوى دفتر غران-دوك، هذا الدفتر الذي قرأته ليلي طوال الليل. ما الذي وجدته؟ هل توصّلت إلى حقيقة ما؟

«سنعرف يوماً ما مَن نحن، وما الذي يمثله كل واحد منا بالنسبة إلى الآخر»...

لا! مارك لا يشاطر ليلي الشكوك نفسها. لن تتزعزع أسمى يقينياته أبداً.

وصل مارك إلى ساحة الجنرال ليكريك. تقاطعت الحافلات في صفوف متزاحمة بين شارع غابرييل بيري وجادة الكولونيل فابيان.

ماذا سيفعل؟ كيف سيعثر على ليلي؟ أن يسلك الطريق نفسها التي سلكتها؟ قراءة محتوى دفتر غران-دوك حتى الصفحة الأخيرة، والتوصل إلى الحقيقة التي سبقته ليلي في الوصول إليها؟

أرغى مارك وأزبد. ظلّ واقفاً أمام الحافلات بلا حراك. استبعد فكرة الجلوس وقراءة هذه الصفحات المئة والاحتفاظ بأملٍ ضئيل في العثور على حلّ. أمسك بهاتفه المحمول من جديد، ثم بحث بين الأرقام عن رقم مقرّ عمله.

ابتعد مارك قليلاً عن الساحة بصخبها الذي يصم الآذان.

- آلو؟ جينيفر؟... ممتاز، أنا مارك. آسف، أنا متعجل جداً. أنا بحاجة إلى معلومة شخصية، رقم هاتف وعنوان شخص معيّن يقطن بباريس... قومي بتسجيل اسمه من فضلك... يدعى غران-

دوك... كريدول غران-دوك... نعم... اسم شخصي سخيف، لكنه هكذا، اسم لا مثيل له...

كانت جينيفر زميلته في فرانس تيليكوم، في مثل سنه، تدرس في شعبة الآداب العالمية التطبيقية، ويملك مارك بعض الشكوك حول وقوعها في حبه. رفع ناظريه نحو السماء متأمّلاً أجراس قمة كاتدرائية سان-دوني، فوق مبان تبعد عن موقعه ببضعة شوارع، دون أن يتخلى عن سماعة الهاتف الملتصقة بأذنه.

- نعم؟... حقاً، وصلت إلى المعلومات المطلوبة؟ ممتاز!

دوَّن مارك رقم غران-دوك وعنوانه، ثم اكتفى بكلمة «شكراً» سريعة لجينيفر قبل أن يُنهي المكالمة ويُجري اتصالاً برقم هاتف المحقق. توالت الرنات في الفراغ قبل أن يشتغل المُجيب الآلي. شعر مارك بالغضب. لا بأس، سيلعب على المكشوف، لن يضيّع المزيد من الوقت:

- غران-دوك؟ معك مارك فيترال. أريد التحدّث معك، أو بالأحرى مقابلتك، في أسرع وقت ممكن. الأمر يتعلق بليلي وبدفترِكَ أيضاً، تلك المذكرات التي كتبتها من أجلها. هي بين يديّ الآن، لقد سلَّمَتْها إلي، وبدأتُ بقراءتها. اسمع، إذا توصَّلتَ بهذه الرسالة اتصل بي في هاتفي المحمول. أنا قادم الآن، سأصل بعد خمس وأربعين دقيقة على الأكثر...

أعادَ مارك هاتفه المحمول إلى جيبه وقد ملأه الإصرار. عاد أدراجه صاعداً عبر شارع ستالينغراد بخطى سريعة، متوجِّهاً نحو المحطة النهائية للخطّ الثالث عشر. يقطن غران-دوك في شارع بوت-أو-كاي، رقم 21. راجع مارك أهم خطوط المترو. سنتان وهو يتجول في شوارع باريس وحده، ما جعله قادراً على تحديد موقعه من

دون الحاجة إلى الاستعانة بتلك الخطوط. سيقوده اتجاه الخط الثالث عشر بين شاتيون ومونروج إلى المركز، عبر سان-لازار، الشانزليزيه، أنفاليد، مونبارناس. . . تتموقع بوت-أو-كاي في مسار الخط السادس، بين كلاسيير وساحة إيطاليا. سيغيّر الخط في مونبارناس. عشرون محطة في المجمل، وربما أكثر من ذلك بقليل.

دقائق قليلة وجد مارك بعدها نفسه أمام ساحة جامعة باريس الثامنة، شارع لينين. ألقى نظرة على حانة مريم، قبل أن يدخل إلى محطة المترو. عثر في الممرّ على شخص نائم يلتحف بطانية متسخة اتقاءً للبرد، وبالقرب منه كلب أصفر هزيل. لم يكن يتسوّل، لكن مارك وضع فرنكين فوق بطانيته ثم واصلَ المسير دون أن يخفِّف من سرعته، فتابعه الكلب بنظرات مصدومة. هو يستخدم المترو منذ سنتين، وتعوَّد على دسّ قطعة نقدية في يد كل المتسولين الذين يقابلهم، وقد حافظ على هذه العادة منذ طفولته في دييب، بعدما ورثها عن جدته التي تساعد كلّ المحتاجين في شوارع المدينة، وعلَّمته وشرحت له الكثير عن قيم التضامن ومؤازرة الفقراء والعطاء، فصار ذلك جزءاً من عاداته المكتسبة، في دييب كما في باريس أو أيّ مكان آخر قد يذهب إليه مستقبلاً، رغم أنّ ذلك يكلفه ثروة! كانت ليلي تسخر منه بلطف، لا يوجد أيّ باريسي يقوم بذلك! إذاً فهو يقوم بذلك لأنه ليس باريسياً.

كان اتجاه سان دوني شبه خالٍ من الركاب. قد يكون ذلك من حُسن حظه. خمس وأربعون دقيقة عبر المترو، عشرون محطة. . . وقت كاف لمواصلة قراءة محتوى دفتر غران-دوك، سيحاول التوصل بدوره إلى الحقيقة.

أن يقتفي خطى ليلي.

أربع كلمات تسكن أعماق مارك.

«سأقطع كل الفروع الميتة»...

ما الذي قصدته ليلي بهذا الكلام؟

قطع كلّ الفروع الميتة؟

وصل المترو إلى المحطة، فصعد مارك إلى المركبة ثم أخرجَ الدفتر الأخضر.

حاصرته فكرة مجنونة وملحَّة. ماذا لو كانت هذه الطائرة اللعبة مجرّد طُعم، تمثيلية لتشتيت انتباهه؟ لم تقُل ليلي كلّ شيء. ما قصة خاتم اللازورد الذي تضعه؟ هنالك جانب مظلم في هذه القصة.

ماذا لو أنها لم تفكر في الرحيل بعيداً؟ ربما بقيت هنا، بالقرب منه، وفي ذهنها فكرة مغايرة تماماً...

إبعاده.

إبعاده لأنّ ما تفكر فيه قد يكون محفوفاً بالمخاطر.

إبعاده لأنه لن يوافق على قرارها.

قطع الفروع الميتة...

ماذا لو أنّ ليلي قد توصلت إلى الحقيقة وتفكر حالياً في الانتقام؟

- 12 -

مذكرات كريدول غران-دوك

يملك صحافيو الجرائد الجهوية مزيّة مهمة، وهي أنهم لا يسبقون صحافة باريس في الحصول على الأخبار الحصرية إلّا نادراً، حتى وإن تعلَّق الأمر بأحداثٍ جرت تحت أعينهم وفي مواقعهم هم، تتمكّن وسائل الإعلام الباريسية من الوصول قبلهم إلى الموقع، وتحصل على حوارات خاصة مع مَن تربطهم علاقة بالموضوع وتعرضها في نشرات الأخبار المسائية، وعليه، فإنّ الصحافة الجهوية لا تفوّت أبداً فرصة الحصول على معلومة قد تهمّ فرنسا بأكملها . . . الأكثر من ذلك أنها توظّف كنوزاً مهارية لاستثمارها واعتصارها حتى آخر قطرة.

وصل صحافي من جريدة **أنفورماسيون ديبواز** (*Informations dieppoises*) إلى منزل بيير فيترال في شارع بوشول ربع ساعة فقط بعد اتصاله بمقرّ الجريدة. تحرّكت لوسيل مورو بأقصى سرعة ممكنة. تنتمي **ليست ريبوبليكان** إلى المجموعة الإعلامية نفسها التي تضمّ **أنفورماسيون ديبواز** الأسبوعية المحلية. تلخّصت مهمة الصحافي المنحدر من مدينة دييب في الحصول على المعلومات الأولى، الصور

الأولى، وإرسال كلّ شيء بالفاكس إلى مقرّ الجريدة في نانسي. فاوضت لوسيل مورو القنوات التلفزية الجهوية بشأن أخبارها الحصرية، إف إر 3-فرانش-كونتي وإف إر 3-هوت-نورماندي.

تمّ إعداد الخطّة بعناية، بما يسمح ببيع أكبر عدد ممكن من النسخ صباح الغد: حثّ عاطفة الرأي العام، مدّ القنوات التلفزية ببعض التفاصيل في الليلة السابقة، ما سيدفع بالجميع إلى انتظار الحوار الحصري مع آل فيترال، في الصفحة الثانية من ليست ريبوبليكان، كما نقلت القنوات التلفزية الوطنية التقارير التي أعدّتها نظيرتها الجهوية. وتمكّن فريق قناة تي إف 1 من محاصرة ليونس دو كارفيل أمام منزله في كوبفراي، قبل أن يجد محاموه الوقت الكافي للتدخل وإسكاته. لكنه تكفّل بصبّ المزيد من الزيت على نار الإعلام.

لا، لم يقُم بنفي ذلك.

نعم، لقد عرض مبلغاً من المال على آل فيترال.

نعم، كان يملك يقيناً شخصياً بأن الناجية هي حفيدته ليز-روز، وقد تحرّك فقط بدافع من الكرم -أو ربما الشفقة- تجاه آل فيترال، ويبدو أنه يخلط بين الاثنين. كان ميسوراً مقارنة بآخرين، وهو ما لم يملك أيّ دخل فيه.

أضاف في اليوم الموالي، 18 فبراير 1981، في تصريح مباشر لقناة إر تي إل، في نشرة أخبار العاشرة:

- إذا استمرّ الشكّ، ولم يتمّ التوصل إلى الحقيقة بشكل قاطع، فسوف يفكّر القاضي في مصلحة الطفلة، مصلحتها فقط، لو كان الأمر ممكناً لكان على الرضيعة أن تختار بنفسها، لو كان ذلك ممكناً

فلن يشكّ أحد في أنّ الطفلة ستختار المستقبل الذي سأقدّمه أنا، لا مستقبل آل فيترال.

تعلمت في أثناء اشتغالي على هذه القضية درساً في غاية الأهمية، تعمل الآلة الإعلامية ككرة ثلج ضخمة جرى دفعها إلى المنحدر، لن يستطيع أحد التحكّم بها. لو أنكم تتذكرون تفاصيل قضية «اليعسوبة» حتى الآن، فأنا متأكِّد من أنّ هذه الفترة بالذات ما زالت عالقة في أذهانكم، أسابيع قليلة قبل النطق بالحكم، بين شهري فبراير ومارس 1981، فباستثناء الحملات الانتخابية الرئاسية بطبيعة الحال، لم يكن أحد يتحدّث سوى عن هذه القضية بالذات. انقسمت فرنسا إلى قسمين، الأثرياء ضد الفقراء إن حاولنا تصوير المشهد بطريقة كاريكاتورية. معسكران غير متكافئين، وهكذا، إن قمنا بتقسيم فرنسا إلى قسمين بحسب متوسط الدخل الفردي فسوف نجد بأنّ عددَ مَن هُم «تحت» أكبر بكثير من عدد مَن هم «فوق»، فتعاطف معظم الفرنسيين إذاً مع عائلة فيترال التي ضاعفت من حضورها الإعلامي، على شاشات التلفاز، الإذاعة، والصحف. بدت القضية كمسلسل لا يعرف أحد نهايته!

وجد دو كارفيل نفسه مضطراً للعب دور الشرير رغماً عن أنفه، تصادَفَ ذلك مع بداية انتشار مسلسل **دالاس**(*) في فرنسا، لم يكن ليونس دو كارفيل يشبه بطل المسلسل جي آر إيوينغ في شيء، لكن الجميع تمكّنوا من إيجاد روابط بينهما، كانت فرصة سانحة للغاية،

(*) دالاس: مسلسل درامي أميركي شهير، عرضته قناة سي بي إس بين عامي 1978 و1991. (المترجم)

وكما في مسلسل دالاس، اعتبروا أن جي آر دو كارفيل قادرٌ على كسب القضية لصالحه.

تشويق وإثارة.

أعتقد بأنكم اخترتم معسكركم أيضاً في تلك الفترة، أليس كذلك؟

أمّا أنا فلا، لم أكن أعير قضية «اليعسوبة» أيّ اهتمام في تلك الفترة. لم أعرف التفاصيل إلّا في وقت لاحق، في أثناء تحقيقي في القضية بشكلٍ دقيق ومعمّق. كنت مشغولاً في فبراير 1981 بقضايا الكازينو في الساحل الباسكي، قبل أن أنتقل إلى كوت دازور والريفييرا، على الجانب الإيطالي. قضايا صغيرة وسهلة. عمل مملّ تناقصت موارده شيئاً فشيئاً. لكنني أتذكّر رغم كلّ شيء متابعتي في إحدى غرف الفنادق لمقتطفٍ من برنامج خاصّ، هو أشبه بموضة تلفزيون الواقع، لكن قبل أوانها. استضاف البرنامج نيكول فيترال، التي تسلَّمت شيئاً فشيئاً زمام الأمور في كلّ ما يتعلق بالعلاقة مع وسائل الإعلام، بعدما تجاوزت الآلة الإعلامية زوجها بيير الذي بدأ يتجنّب آلات التصوير، وربما لو كان الأمر بيده لأوقفَ كلّ شيء وأفسحَ المجال للعدالة حتى تأخذ مجراها، حتى لو أدّى ذلك إلى خسارته كلّ شيء.

كانت نيكول فيترال وقتها في السابعة والأربعين من عمرها تقريباً، جدة صغيرة، لم تكن جميلة بالمعنى الكلاسيكي للمصطلح، لكنها كانت كما يسمّي أمثالها الإعلام -وهو ما فهمته فيما بعد- «زبونة جيدة» إن صحَّ التعبير، كانت تملك طاقة تواصليّة قوية، تخوض حرباً مقدّسة هي قديستها وشهيدتها، قادرة على التأثير في المتلقين بلكنتها النورماندية المتفرّدة... كانت صادقة، بسيطة،

حساسة، مثيرة، وكل هذا يظهر جلياً عبر شاشة التلفاز. تركت رياح بحر المانش آثارها على وجهها، كانت امرأة قوية وهي في سن السابعة والأربعين... أبعد ما تكون عن عارضة أزياء نموذجية بطبيعة الحال...

لكنني أعترف بأنّ شكل هذه المرأة قد أصابني بنوعٍ من الاضطراب وأنا أتابع ذلك البرنامج وحيداً أمام شاشة التلفاز، دون أن أعرف شيئاً عن طبيعة قضيتها أو حربها المقدّسة.

لا أظنني الوحيد الذي أصابه هذا الاضطراب. كانت عيناها الزرقاوان متلألئتين على الدوام، بما قد يدفعك لنسيان هذه الحياة بكل أحزانها والاكتفاء بتأملهما... لكن نهديها هما أهم ما في الموضوع، كانت لنيكول فيترال طريقتها المعتادة في احتواء صدرها العامر، بفساتين مكشوفة الرقبة والكتفين، أو قمصان مفتوحة. أعتقد بأنّ ذلك قد ساهم في الرفع من مبيعات مأكولاتهما بالقرب من شاطئ ديبب، ثم تتوّج كل ذلك بارتداء صدار أو سترة، تقضي جل وقتها في إغلاقها لإخفاء نحرها المكشوف. كنت أراقبها فألاحظ بأنّ الأمر قد تحوّل إلى ما يشبه الحركة الغريزية: تكلّمها فتنحرف نظراتك رغماً عنك إلى صدرها، فتواصل هي الكلام مع رفع يدها بحركة منزعجة لإغلاق صدارها، لكن سرعان ما ينزلق الزمام مرة أخرى، بعد بضع ثوان.

لعبة غريبة لا تُقاوم، أصابتني دوماً باضطراب شديد.

كانت اللعبة أكثر انحرافاً على التلفاز. فسترتها تفتح وتُغلق لإخفاء صدرها باستمرار، أمام نظرات منشّط البرنامج الذي يزعجه ذلك بشكلٍ تدريجي، فيستدير لطرح سؤال على ضيوف آخرين، في الوقت الذي يملك فيه المتفرّج امتياز تأمّل الصدر الكبير الذي يتعمّد

المصوّر التركيز عليه برزانة وإيحاء قويّ، دون أن يشعر المنبّه الغريزي لنيكول بذلك فتعمَد إلى إغلاق سترتها مرة أخرى.

يبدو أنّ نيكول فيترال قد أصابت -بسحرها هذا- كلّ فرنسا بالاضطراب في فبراير 1981، وربما دون أن تكون هي نفسها واعية بذلك. اضطربت أيضاً في تلك الليلة، أنا الذي لم أكُن أعرفها بشكلٍ شخصي، ولم يُكتَب لي أن ألتقي بها إلّا أشهراً طويلة بعد ذلك. وما زالت قادرة على إصابتي بالاضطراب نفسه، وهي الآن في الخامسة والستين من عمرها. أي أنها في مثل عمري، مع فارق بسيط لا يتعدى بضعة أشهر.

صار كلّ شيء مفهوماً الآن، تحوّل الجميع إلى الدفاع عن آل فيترال والصغيرة إيميلي. تطوّع أفضل المحامين في فرنسا -على الأقل أولئك الذين لا يعملون لحساب دو كارفيل- لعرض خدماتهم على العائلة المنحدرة من مدينة دييب، وبالمجان! بلغت الدعاية حول القضية أبعد مدى ممكن، وصار الرأي العام في صفّ آل فيترال... يا لها من نعمة! صار طرفا المعركة على القدر نفسه من القوة، سواء من هذا الجانب أو ذاك.

كانت مهمة فريق المحامين الجدد، المحترفين، والمؤثرين، القادرين على التعامل مع وسائل الإعلام، هي خوض حرب عصابات حقيقية، بين شهري فبراير ومارس 1981، ضد القاضي لو دريان. فقد اتّهموه بالتحيّز والمحاباة، مقتنعين بأنّ حُكمه سيَميل لصالح آل دو كارفيل، ما دام لو دريان ودو كارفيل منتميَين إلى العالم نفسه: نوادي ليونز، وروتاري، والماسونيون، وحفلات عشاء عند السفير، يمكن أن يجري ويدور فيها أي شيء غير متوقع، وبما قد يتعدى مجرد إشارة خفية «من فوق»... ثم تحركت عجلة الحظ!

قدّم القاضي لو دريان استقالته يوم 1 أبريل، ليتمّ تعيين قاضٍ جديد من محكمة ستراسبورغ، القاضي ويبير، شخص مستقيم يحملُ نظارات، مزيج بين إليوت نيس(*) ووودي آلن(**)... شخص لم يشكّك أحد بعد ذلك في نزاهته، بما في ذلك آل دو كارفيل.

بدأت جلسات الاستماع للشهود في 4 أبريل. ومهما حصل فسوف يعلم الجميع بالحُكم النهائي بعد شهر واحد فقط. على القاضي أن يختار، وقد اتّفق الطرفان على تجنّب أيّ حلّ وسط، أو أيّ حكم يقضي بمنح الطفلة هُوية مزدوجة أو حضانة مشتركة، أسبوع عند إحدى العائلتين وعطلة عند أخرى. بما يمنع فرضية بروز وحش جديد باسمين، ليلي مدى الحياة.

لا، كان على القاضي ويبير أن يحسم الأمر، أن يتخذ قرار حياة أو موت. أن يختار مَن بقيت حية، أو مَن ماتت. ليز-روز دو كارفيل أو إيميلي فيترال؟ وقد تساءلت منذ ذلك الوقت. هل امتلك قاضٍ ما هذه القدرة على قتل طفلة لكي تعيش أخرى؟ أن يكون قاتلاً ومنقذاً في الآن ذاته؟ إحدى العائلتين ستربح، فيما ستخسر الأخرى كلّ شيء. ربما كان ذلك أفضل، وبما يوافق الجميع...

الفصل التام.

هذا أكيد، لكن انطلاقاً من ماذا؟

أعدتُ قراءة الملف عشرات المرات، مئات الصفحات التي

(*) إليوت نيس (1903-1957): قائد فريق المحصنين الذين حاربوا آل كابون إمبراطور الجريمة المنظمة في شيكاغو بين عامي 1925 و1932. (المترجم)

(**) وودي آلن (1935- ...) مخرج وممثل وكاتب سينمائي ومسرحي وعازف جاز أميركي. (المترجم)

كانت بين يدي القاضي ويبير؛ استمعتُ لتسجيلات ساعات طويلة من جلسات الاستماع في أثناء المحاكمة، وقد تمكّنت من الحصول عليها بعد سنوات، بفضل نفوذ آل دو كارفيل. . .

لا شيء! خبرات وخبرات مضادّة يمكن أن يُقال فيها الشيء وضدّه في الوقت نفسه. تلخّصت جلسات الاستماع في عروض خبراء جرى استدعاؤهم من قبل الطرفين، أما الخبراء المحايدون فلم يقولوا شيئاً! وبعد أيام طويلة بقيت القضية ثابتة في الموضع نفسه: عينا الرضيعة زرقاوان. . . مثل آل فيترال. تمسّك هؤلاء بهذه الجزئية، قبل أن يعثر محامو آل دو كارفيل على قريبة بعيدة بعينين زرقاوين أيضاً!

أعتقد بأنّ القاضي ويبير كان يملك في جيبه قطعة عملة معدنية يتلاعب بها في الخفاء في أثناء جلسات الاستماع اللانهائية.

بذلَ محامو دو كارفيل قصارى جهدهم لدفع الجميع إلى تناسي الخرجات الإعلامية الكارثية لموكّلهم، ومحاولة تغيير تلك الصورة النمطية عنه بما يُساهم في كسب مودّة الرأي العام، لم ينجحوا في ذلك، لكنهم تمكّنوا بشكل أو بآخر من مهاجمة «معسكر فيترال» بشكل علني، وقد قصدوا بـ«المعسكر» العائلة، والحيّ، والمنطقة بأكملها. . .

وجد ليونس دو كارفيل نفسه وحيداً في مواجهة هذا المعسكر والرأي العام غير المتعاطف، وربما نجح محاموه في تصويره على أنه ضحية لا حول لها ولا قوة أمام التحريض الشعبي، وأنه رجل قاسٍ لكنه مستقيم، حاربَ طوال حياته ليحقّق كلّ تلك النجاحات، لكن البعض يرفضون منحه الحقّ في الراحة وفي أن يكون جدّاً، على طريقة الجدّ الذي يرتكب الأخطاء طوال حياته، لكن عندما تدور عليه الدوائر ينجح في استدرار العطف عوض التشفي.

هذا هو الدور الذي لعبه ليونس دو كارفيل في أثناء جلسات الاستماع وأمام الصحافيين: المنكسر! فتنامى الشك بين المتابعين والصحافيين: وماذا لو كان دو كارفيل على حق... ماذا لو أننا بالغنا في تصديقنا للخرجات الإعلامية لآل فيترال... وتأثرنا بحديثهم المستمر عن معاناتهم المادية... وربما بنهدَي نيكول فيترال الكبيرين أيضاً...

كان محامو آل دو كارفيل محترفين، وامتلكوا قدرة هائلة على التعامل مع طبيعة الوضع المعقّد...

بدا أنّ القضية تُدفع نحو التعادل؛ رغم التعامل معها بشكلٍ عاجل، فتهيّأ الجميع للعب أشواط إضافية وربما ركلات الترجيح التي لن تنتهي أبداً.

وسط هذه الأجواء، دخل إلى ساحة المعركة أصغر محام في فريق دفاع آل فيترال، في آخر يوم من أيام جلسات الاستماع، ويُدعى لوغيرن، وأؤكد لكم بأنه اشتهر منذ ذلك الوقت في عموم الأنحاء الباريسية، ويمتلك الآن مكتباً من ثلاثة طوابق في شارع سان هونوري، في الوقت الذي لم يكن يعرفه أحد في تلك الفترة من سنة 1981. كان من بين هؤلاء المحامين الذين تطوعوا للدفاع عن آل فيترال بالمجان، صحيح أن الأمر يرتبط بقناعة، لكن لا تنسوا أن العمل على مثل هذه القضايا المعقَّدة والشهيرة قد يخدم صاحبه بشكلٍ كبير...

اشتغل لوغيرن على القضية بعناية شديدة، وطلب من القاضي ويبير أن يمنحه الكلمة النهائية، كما لو كان سيُخرجُ من كمّه، في الدقيقة الأخيرة، تلك القطعة اليقينية الحاسمة.

- 13 -

مكتبة

2 أكتوبر 1998، العاشرة صباحاً وسبع وأربعون دقيقة، سان-لازار

أدار مارك رأسه مجبَراً بفعل جلبة مفاجئة. انفتحت أبواب المقصورة، فتسابقت أفواج من المسافرين -المحتشدين أصلاً على الرصيف- على الصعود إلى المكان الذي كان فارغاً تقريباً قبل قليل. لا يتعلّق الأمر بالازدحام الصباحي أو نظيره المسائي المعتادَين، لكن كثافة الأجساد الواقفة في كلّ متر مربع أجبَرت مارك على النهوض. اصطدم المقعد الاحتياطي بالجدار الحديدي. تنحّى مارك جانباً، ملتصقاً بالنافذة ومتمسّكاً بالدفتر. وقفَ بثباتٍ، باعَدَ بين ساقيه قليلاً للحفاظ على توازنه. مرّت يد أحدهم -المتمسّكة بالقضيب الفولاذي المثبت- قرب أنفه، فيما انشغل آخر بالتهام صفحات رواية جيبٍ بوليسية باهتمام كبير. استدارَ مارك قليلاً، لربما سمحت له هذه الوضعية بمتابعة القراءة. كانت ارتجاجات المقصورة سبباً في تراقص أحرف خطّ غران-دوك الصغير أمام عينَي مارك، إلّا أنّ قراءته ظلّت ممكنة رغم ذلك.

صعد لوغيرن إلى المنصّة. وذلك بحضور حوالي ثلاثين شخصاً بقاعة المحكمة، صبيحة يوم 22 أبريل 1981، ويتعلق الأمر بالعائلتين المتنازعتين، والأقارب، والمحامين، والشهود ورجال الشرطة. ابتدر لوغيرن رجال الشرطة الحاضرين بسؤاله:

- يا سادة، هل كانت الرضيعة الناجية، بعد العثور عليها، تضع أيّ نوع من المجوهرات؟ عقد على سَبيل المثال، قلادة، أو ربما سلسلة يد؟

أجابه المحقّقون بنظراتٍ ذاهلة، فيما سعلَ المفوض فاتوليي، الجالس في الصف الأول. لا طبعاً! كما لو أنّ الرضيعة التي عثروا عليها كانت تحمل في معصمها سلسلة كُتب عليها ليز-روز أو إيميلي! فيم يفكر هذا المحامي الشاب المغرور؟

- حسناً، تابع لوغيرن. سيدة فيترال، هل كانت إيميلي تضع أيّ نوع من المجوهرات، سليسلة أو سوار؟

- لا، أجابته نيكول فيترال.

- هل أنتِ متأكدة؟

- نعم...

حبست نيكول دموعها، ثم أكملت:

- نعم، كان من المفترض أن نهدي إيميلي في حفل تعميدها سلسلة يد، وذلك بعد عودتها من تركيا، كنّا قد طلبنا إعداد السلسلة عند لوسيرف في أوفرانفيل، لكن شاء القدر ألّا تضعها أبداً.

أنهَت عبارتها مُطلِقة العنان لدموعها هذه المرة، ثم فتّشت حقيبتها للحظات قبل أن تستخرج منها علبة حمراء طويلة، فتحتها

وأخرجت منها سلسلة فضية صغيرة، هشّة وتافهة القيمة، كلّ هذا أمام ناظرَي القاضي ويبير.

ظهر التأثّر على ملامح الحضور، بمَن فيهم المنتمون إلى معسكر آل دو كارفيل.

نُقشت إيميلي على السلسلة بحروف طباعة مائلة، وخط طفوليّ جميل، كما نقش أيضاً تاريخ ازديادها، 30 سبتمبر 1980.

اكتشفتُ فيما بعد أنها كانت تمثيلية! هذا ما اعترفت لي به نيكول فيترال، نعم، كان من المفترض أن يتمّ تعميد إيميلي في الشهر الموالي، لكن أحداً لم يطلب إعداد سلسلة يد بهذه المناسبة. كانت مجرّد مسرحية، فيها الكثير من المخاطرة، لكنها آتت أكلها. إخضاع للخصم قبل توجيه الضربة القاضية.

استدار المحامي الشاب نحو ليونس دو كارفيل قائلاً:

- سيد دو كارفيل، هل كانت ليز-روز تملك أي نوع من المجوهرات، سلسلة يد على سبيل المثال؟

حدج دو كارفيل محاميه بنظرات قلقة، فيما قال القاضي ويبير بنوعٍ من الإصرار:

- سيد دو كارفيل، من فضلك، أجب عن أسئلة المحامي لوغيرن!

كان دو كارفيل على وشك الإجابة، لكن لوغيرن لم يسمح له بذلك، بعدما استخرج من ملفّه الأحمر السميك فاتورة أشهَرَها في وجه الجميع، بخفّة وانتصار. فاتورة من محل بائع المجوهرات فيليب تورنير، في ساحة الفاندوم.

أكّد القاضي ويبير الأمر. هي فاتورة توضح تسليم سلسلة يد من

الذهب الخالص، نُقش عليها اسم «ليز-روز» وتاريخ الازدياد «27 سبتمبر 1980»، وذلك بتاريخ 2 أكتوبر 1980، أي بعد أقل من أسبوع على ولادة ليز-روز.

لم تكُن هذه الفاتورة قادرة على إثبات شيء ما، أيّ شيء، لكنها المرة الأولى، منذ بدء جلسات المحاكمة، التي وجد فيها دو كارفيل نفسه في موقف الدفاع، بلا أيّ دليل مضادّ من تلك الأدلة المتناهية الدقّة التي دأب محاموه على إعدادها.

- سيد دو كارفيل، تابع لوغيرن، هل اعتادت ليز-روز على حمل هذه السلسلة في يدها؟

- كيف لي أن أعرف ذلك؟ لقد أرسلتُ السلسلة إلى ابني في تركيا، أياماً قليلة بعد ولادة ليز-روز، أظنّ بأنها لم تكن تضعها إلّا نادراً... فقط في بعض المناسبات... كانت سلسلة قيّمة، وباهظة الثمن.

- تظن؟ أم واثق؟

- أظن...

- حسناً، شكراً جزيلاً لك.

استخرج لوغيرن نسخة جديدة من ملفه الأحمر، ويتعلق الأمر هذه المرة بنسخة مصوّرة لبطاقة بريدية أُرسلت من جيهان في تركيا.

- سيد دو كارفيل، هل توصلت بهذه البطاقة البريدية من ابنك في تركيا، شهراً واحداً تقريباً بعد ولادة ليز-روز؟

- أين عثرتُم عليها؟! صرخ دو كارفيل.

- هل توصّلتَ بهذه البطاقة البريدية؟ تابع المحامي برباطة جأش.

استسلم دو كارفيل، لم يكن أمامه من خيار آخر.

- نعم، فعلاً...

- «أبي العزيز»... قرأ لوغيرن، سأتجاوز باقي التفاصيل للتركيز على ما يهمنا. «أشكرك على السلسلة... يبدو أنها قد كلّفتك مبلغاً باهظاً من المال، إنها رائعة. لا تترك يد ليز-روز أبداً... إنها الشيء الوحيد الذي يجعل منها فرنسية حقيقية هنا»...

صمت لوغيرن بانتصار، أمام دهشة الجميع.

لم أتمكن من معرفة الخائن الذي غدر بدو كارفيل، قد يكون أحد العمال أو الخدم بلا شك. من الطبيعي أن يدفع لوغيرن مبلغاً كبيراً من المال للحصول على هذه البطاقة البريدية... مبلغ كبير... كل شيء نسبي... مقارنة بعمارة من ثلاثة طوابق في شارع سان أونوري!

- هذا لا يثبت أيّ شيء! صرخ أحد محامي دو كارفيل في هياج. هذا مضحك! ربما أعادوا السلسلة إلى علبتها قبل إقلاع الطائرة، أو أنها فُقدت منها في أثناء الاصطدام...

قال لوغيرن في ظفر:

- هل تمّ العثور على سلسلة أو أيّ مجوهرات مشابهة، بالقرب من الإيرباص، في هذه المساحة التي جرى تفتيش كلّ سنتيمتر مربع فيها بعناية شديدة؟

أجابه الصمت في قاعة المحاكمة. بمن فيهم فاتوليي، الذي وضعَ يديه داخل جيبَي سترته الجلدية مصعوقاً بعدما شعرَ بأنّ هذا المحامي الشاب الطموح بردائه الأسود قد تمكّن من تجاوزه في سباق التحقيق حول هذه القضية.

- لا طبعاً... أليس كذلك حضرة المفوّض؟ هل تمّ العثور

على آثار سلسلة يد في معصم الرضيعة الناجية؟ ولا حتى علامة صغيرة حمراء؟

توقّف لفترة زمنية مدروسة بعناية.

- لا طبعاً، لم يسجّل الأطباء أيّ ملاحظة من هذا النوع... سنذهب أبعد من ذلك، هل تمّ تسجيل وجود آثار شاحبة على يد الطفلة الناجية، من ذلك النوع الذي يخلّفه وَضع سلاسل أو مجوهرات بشكلٍ دائم؟...

بدا كما لو أنّ الزمن قد توقف عند هذه النقطة.

- لا، لا توجد أيّ علامة طبعاً... شكراً لكم، هذا كلّ ما لديّ.

عاد المحامي لوغيرن للجلوس على مقعده، فيما واصل محامو دو كارفيل صراخهم، قائلين بأنها مسرحية، وأن هذه السلسلة التافهة لا تعني شيئاً... لم يُجِبْهم لوغيرن، عالِماً بأنّ هؤلاء المحامين قد أصبحوا في وضعية دفاع، بعدما أَولوا أهمية كبيرة لموضوع بسيط كهذا.

ما دام هذا تفصيلاً تافهاً بلا أهمية، لماذا سكَتَ عنه دو كارفيل في أثناء التحقيق؟

لم تكن مسألة هذه السلسلة بأهمية أكثر أو أقل من باقي عناصر القضية. كانت شكاً، شكّاً إضافياً فقط... ولكن هنا، في هذه اللحظة بالذات من سير الدعوى، تحوّلت السلسلة إلى مصدر هجوم مضادّ ضدّ آل دو كارفيل. عنصر جديد في القضية، العنصر الذي انتظره الجميع منذ بَدء التحقيق، وهو وإن لم يكن بوَزنٍ ذي أهمية، إلّا أنه كان كافياً لتميل إحدى كفَّتي الميزان...

حدج القاضي ويبير ليونس دو كارفيل بنظرات طويلة. لقد كذب رجل الأعمال، غالباً عن إهمال أو سهو، لكنه كذب على أية حال. كان في حالة تلبّس! ألم يكُن الحق في طريقه إلى الخصم، فقط من أجل هذه الكذبة؟

ممكن...

أمّا فيما يخص سلسلة دو كارفيل، فأعترف بأنّ لغزها قد تلبَّسني لسنوات طويلة. عندما أتذكّر تلك الطاقة التي بدَّدتُها في سبيل العثور عليها... عندما أتذكر كيف أنني كنت على وشك العثور عليها وملامستها بأصابعي، كنت قريباً جداً من ذلك... اعذروني مرة أخرى، فأنا أستبق الأحداث، أستبق الأحداث...

ساعات قليلة بعد ذلك، علم الجميع بقرار القاضي ويبير، رضيعة جبل تيريبل هي إيميلي فيترال، كما أصبح جدّاها، بيير ونيكول فيترال أولياء أمرها، هي وشقيقها الأكبر مارك.

ماتت ليز-روز دو كارفيل محترقة رفقة والديها بنيران اللهب الذي التهم طائرة الإيرباص 5403 إسطنبول-باريس.

حاول محامو دو كارفيل الاعتراض والطعن في الحكم، واستعمال كلّ الوسائل الممكنة لتعطيله، لكنه ليونس دو كارفيل نفسه مَن رفض ذلك. كان قد انكسر بشكلٍ فعليّ.

ثم جاءت الأزمتان القلبيتان الحادّتان، المتتاليتان تقريباً، في السنة الموالية، وبفارق زمني لا يتجاوز بضعة أشهر، لتُقعِداه ما تبقّى من عمره في كرسي متحرّك، ويبدو الأمر نهايةً منطقيةً لكلّ ما جرى من أحداث.

- 14 -

2 أكتوبر 1998، العاشرة صباحاً واثنتان وخمسون دقيقة

- قومي بإخفاء جثة غران-دوك!

قالتها ماتيلد دو كارفيل بنبرة مَن لا تنتظر الرفض.

حاولت مالفينا دو كارفيل الاعتراض رغم ذلك:

- ولكن يا جدتي...

- قلتُ لكِ قومي بإخفاء جثة غران-دوك! لا أدري أين، في الخزانة أو تحت الفراش. علينا كسب بعض الوقت. قد يأتي أحدهم إلى منزله. جارته، عاملة النظافة، عشيقته... وعاجلاً أم آجلاً سيصل رجال الشرطة إلى المكان. أيتها الحمقاء الصغيرة، لقد تركتِ بصماتكِ في كلّ أرجاء المنزل، قومي بمسحها فوراً، هيا!

عضّت مالفينا شفتها، كانت جدّتها على حق، لقد تصرَّفت كمغفلة. دارت حول نفسها في الصالة، بين جثة كريدول غران-دوك والمَحيى الذي تلفظ فيه الحشرات أنفاسها الأخيرة. عليها أن تتحرك بسرعة، لا يمكنها البقاء هنا لوقت أطول، وعليها أن تكلِّم جدتها بخصوص ذلك.

سيأتي قريباً.

- هنالك أمر آخر يا جدتي...

صمتت ماتيلد دو كارفيل على الجانب الآخر من الخط الهاتفي، ممسكة بالهاتف بيد، ومواصلةً تقليم صفٍّ طويل من شجيرات الورد بيد أخرى. أشعرتها نبرة حفيدتها بأنّ الأمر مهم.

- ماذا، ماذا هناك يا مالفينا؟

- لقد اتصل مارك فيترال بمنزل غران-دوك منذ خمس دقائق تقريباً، كما ترك رسالة في المجيب الآلي...

امتنعت ماتيلد دو كارفيل عن مقاطعة حفيدتها، قطعت غصناً بحركةٍ ماهرة من مقصّ البستنة.

- يقول بأنه يبحث عن غران-دوك... سيصل إلى هنا بعد نصف ساعة. سيأتي مستقلاً المترو لأمرٍ ما يتعلق بليز-روز. و... و... يقول بأنّ دفتر مذكرات غران-دوك معه، لقد قرأته ليز-روز بالأمس، ثم سلّمته إياه صباح اليوم...

سقط غصن آخر، مقطوعاً من الجذر. تناثرت بتلات ذابلة على فستان ماتيلد دو كارفيل الأسود.

- إذاً، هذا سبب إضافي يا مالفينا، أسرعي. نفِّذي ما أمرتكِ به، امسحي كلّ آثارك وغادري المنزل.

- و... وماذا بعد ذلك يا جدّتي؟

تردّدت ماتيلد دو كارفيل لأوّل مرة. بقيت شفرات مقصّ البستنة الذي يقطع الخشب فاغرة. إلى أيّ مدى يمكنها الاستعانة بمالفينا؟ إلى أيّ مدى يمكنها إبقاء هذه المجنونة تحت السيطرة من دون خشية من تملّص جديد؟

- ابقي... ابقي قريباً من المكان يا مالفينا. مارك فيترال لا

يعرفك. اختبئي في الشارع. راقبيه، تابعيه بعينيك، لكن لا تفعلي شيئاً آخر. اتصلي بي بمجرد تحديدك لموقعه. مفهوم؟ لا تفعلي شيئاً آخر! وقومي بإخفاء الجثة، هذا هو الأهم!

- لقد... لقد فهمت فهمت يا جدتي.

أقفلت الخط.

انطبق الفكّان الفولاذيان على الجذع.

تُدرك ماتيلد دو كارفيل مدى كره مالفينا لآل فيترال، وتعلم أيضاً بأنّ حفيدتها تتسكّع في الشوارع ومعها ماوزر إل 110 معبأ، وفي وضعية مناسِبَة للاستخدام، هي واعية بمدى خطورة الأمر. هل كانت عقلانية في محاولتها منع أيّ لقاء بين مارك فيترال وحفيدتها في شارع بوت-أو-كاي، أمام منزل غران-دوك؟

عقلانية!

لقد نبذت ماتيلد دو كارفيل هذه الكلمة منذ زمن طويل.

الأكثر بساطة من كلّ ذلك هو أن تخضع للقدر، للحكم الإلهي، مثلما فعلت دائماً.

ابتسمت ماتيلد دو كارفيل لنفسها ثم واصلت تقليم شجيرات الورد بمهارة مدهشة. تملك أصابعها الطويلة موهبة غريبة تمكّنها من ملامسة البتلات وما بين الأشواك دون أن تجرح نفسها أبداً، ثم تقطعها بحركة حاسمة من الشفرات الحادة للمقص. كانت ماتيلد دو كارفيل تعمل بسرعة وبحركة ميكانيكية دون أن تخفض بصرها نحو يديها تقريباً، كخيّاطة قادرة على التحكّم بإبرتها دون أن تراها.

تلطّخ فستانها الأسود الأنيق بالتراب والبتلات وآثار العشب الملتصقة، لم تهتم ماتيلد دو كارفيل بذلك، أدارت رأسها نحو

حديقة الروزري الواسعة. كان ليونس دو كارفيل جالساً على كرسيه المتحرّك وسط العشب، تحت شجرة القيقب(*) الكبيرة. مائلاً برأسه. كان يبعد عن ماتيلد بما يفوق الثلاثين متراً، لكنها كانت قادرة على سماع شخيره. تردَّدت في المناداة على الممرضة ليندا حتى تأتي لتُعيد رأسه إلى الوضع الطبيعي وتضع مخدّة تحت عنقه ثم تُدخِله إلى المنزل، لم تعُد درجة الحرارة مرتفعة إلى تلك الدرجة.

هزّت كتفيها...

صار زوجها أسير هذه الحياة الخاملة منذ ما يقارب السبعة عشر عاماً. بالكاد تمكّن من احتمال السداد الأول وتجاوز آثاره لبضعة أسابيع، لكنه عجز عن مواجهة الثاني في أثناء اجتماع الجمعية العامة في الطابق السابع من المقر الاجتماعي، خلف بيرسي. تمكن أطباء المستعجلات من إنقاذ حياته، لكن الدم لم يصل إلى دماغه لعدّة ثوان.

واصلت ماتيلد دو كارفيل تفحّصها لنباتاتها وهي تتابع على الأرض ظلّ الصليب الذي تُحيط سلسلته بعنقها.

الحكم الإلهي، مرة أخرى.

حاول زوجها التحكّم بكلّ شيء -كالعادة- بعد كارثة جبل تيريبل. فاختارت هي التنحّي جانباً لتدعه يفعل ما يريد. كان يملك السلطة، القوة، العلاقات...

كانت مخطئة! فَقَدَ ليونس نفاذ بصيرته بعد وفاة ابنه الوحيد ألكسندر. لم يفعل شيئاً سوى مراكمة الأخطاء! حقيبة الأموال التي عرَضَها على آل فيترال، السلسلة الذهبية التي امتنع عن الحديث

(*) القيقب: شجر ينبت في الغابات معتدلة المناخ. (المترجم)

عنها؛ مالفينا المسكينة التي اصطَحَبها معه لأسابيع، هنا وهناك، لتُدلي بشاهدتها لكلّ مَن هبّ ودبّ.

هذا من دون الحديث عن تفاصيل أخرى لا داعي للإفصاح عنها.

نعم، لم تُظهر ماتيلد نحو هذا العاجز سوى الكثير من الاحتقار، وحده حادث طائرة الإيرباص الذي لم تحمِّل زوجها مسؤولية وقوعه.

تنقلت أصابع ماتيلد بين بتلة وأخرى. لم تُبدِ أشواك الورود، تلك الأسلحة التافهة، أي مقاومة. تساقطت الأغصان الواحدة فوق الأخرى.

أضِفْ إلى ذلك، كانت تلك فكرته، خطّ أنابيب الغاز باكو-تبيليسي-جيهان الشهير. أن يرسل ابنه الوحيد للعيش في تركيا لعدة أشهر، ومعه زوجة ابنه الحامل التي وضعت حفيدته في بلد غريب! كلّ هذا من أجل فكرة وهمية! نحن في عام 1998 ولم يوضَع أنبوب واحد في هذا الخط اللعين.

كان ليونس دو كارفيل مخطئاً في كلّ شيء.

تأمّلت أوراق القيقب الكثيرة الساقطة على زوجها بتقزّز، على شعره، كتفيه، ذراعيه، قبل أن تتجمّع بين ساقيه.

قطعت ماتيلد آخر غصن قبل أن تتراجع إلى الوراء متأمِّلة نتيجة عملها.

العشرات من شجيرات الورد تمّ حفّها. تذكرت ماتيلد نصائح جدتها: «لا تحفّي شجيرات الورد أكثر من اللازم، قومي بحفها دائماً، لمنعها من مقاومة المقصّ، لا يجب أن تتجاوز طولاً معيناً، دائماً عشرة سنتيمترات تحت».

بُنِيَت فيلا الروزري عام 1857، ما زالت السنة منقوشة على الغرانيت فوق المدخل. تعلم ماتيلد أنّ هذه الشجيرات قد زُرِعَت في السنة ذاتها، ليتولى آل دو كارفيل أمر العناية بها بأنفسهم. هم يقومون بتوظيف العشرات من المستخدمين للتنظيف والطبخ والحراسة... لكن الاعتناء بشجيرات الورد كان مسؤولية أجيال متعاقبة من العائلة. تلقّت ماتيلد أساسيات البستنة مذ تعلَّمت المشي. واستطاعت أن تُنشئ -إلى جانب شجيرات الورد- حديقة شتوية، بعيدة بعض الشيء عن الفيلا. تأمّلت نباتاتها لآخر مرة، قبل أن تتقدم نحو الدفيئة، دون أن تُلقي على زوجها أي نظرة.

تذكّرت كلمات مالفينا الأخيرة. إذاً فدفتر مذكرات كريدول غران-دوك، وصيّته، مجمل تحقيقاته، بين يدي مارك فيترال...

يا له من مشهد ساخر!

هل ستستخدم مالفينا مرة أخرى للحصول عليه؟ مواصلة الكذب عليها، وتركها تائهة تبحث عن سراب؟ كلّ الدلائل التي حصلت عليها في وقت لاحق، الدلائل التي توصّل إليها غران-دوك ولم تحدِّث مالفينا عنها أبداً.

قد يُصيبها ذلك في مقتل!

دخلت إلى الدفيئة، وبقيت لوقت طويل -ككلّ صباح- تستنشق ذلك المزيج العجيب من الروائح المتنوعة. هنا ملاذها الأمين، إنجازها الأهم. هنا، في هذه الدفيئة، تشعر ماتيلد بأنها قريبة جداً من الله، من إبداع خلقه، هنا تشعر بأنها تؤدي صلواتها بشكلٍ أفضل بكثير من كلّ الكنائس التي زارتها.

مالفينا...

يا لجنون حفيدتها!

خطأ آخر يتحمّل زوجها مسؤوليته. تذكّرت مالفينا عندما كانت في السادسة من عمرها. طفلة صغيرة محبوبة، بضحكاتها البريئة وهي تصعد درجات السلم الخشبي، باختبائها الماكر في الحديقة، بعينيها المنبهرتين أمام كتب الأعشاب التي كانت تتصفّحها مع جدتها... أمّا الآن، فما الذي يمكنها أن تفعله من أجلها باستثناء الكذب عليها؟ إيداعها في مستشفى للأمراض العقلية؟ الإصرار وحده هو الذي يدفع مالفينا إلى الوقوف وارتداء ملابسها وتناول طعامها: ليز-روز حية، على قيد الحياة، رغم حكم القاضي منذ ثمانية عشر عاماً، وحدها هي، شقيقتها الكبرى، القادرة على إعادتها إلى الحياة، بعد كلّ هذه السنوات.

ستُعيدها إلى الحياة، وبين يديها مسدس ماوزر إل 110...

مالت ماتيلد دو كارفيل نحو باقة من زنابق كافرس، واحدة من آخر النباتات المزهرة في الخريف. تمكنت ماتيلد من جعلها تصمد كلّ سنة تحت دفيئتها حتى شهر ديسمبر، كانت تفتخر بوضعها لتلك الباقة على طاولة الاحتفال بليلة الميلاد، مزيج من الزنابق الوردية وزنابق كافرس، «ماجور» حمراء و«ألبا» ناصعة البياض. كانت تتحكّم بمستوى المياه بدقة شديدة، تفضل الزنابق الرطوبة، وهذا سرّ لمعانها وعمرها الطويل.

قادَها تفكيرها من جديد إلى مالفينا، الذراع المسلّح لانتقامها. هي بحاجة إلى مَن يُدافع عن مصالح آل دو كارفيل. ماذا لو تمّ تسليم المهمة لمالفينا؟

ستتغيّر الكثير من الأمور في الأيام أو ربما الساعات القادمة، خاصة بعدما قرأت ليلي مذكرات غران-دوك، لم تكن مالفينا القنبلة

الموقوتة الوحيدة المتسكّعة في الشوارع. لقد أهدى غران-دوك لليلي هدية عيد ميلاد مسمومة. مسلسل حياته، كلّ أسرارهم العائلية التي جمعها في مئة صفحة.

عائلتان ومعاناة مضاعفة.

تُرك لليلي ما قد يدفعها للجنون هي الأخرى. ستُجنّ من شدّة الغضب.

تقدمت ماتيلد دو كارفيل أكثر. فقدت نبتة النجم «سبتمبر الأحمر» في حديقتها الشتوية آخر بتلاتها، بعض الأشعة الأرجوانية المرتبطة بقلب ذهبي، كما لو أن عاشقة حائرة قد تسلّلت إلى الدفيئة لتنتزع بتلات الورود الضخمة الواحدة تلو الأخرى.

ارتسم مشهد غريب في أعماق ماتيلد.

ما يشبه الحلم، أو الإحساس الداخلي. تخيّلت ليلي وهي تدخل إلى الحديقة في الروزري، مسلّحة بمسدس ماوزر إل 110، إصبعها على الزناد، وتمشي على العشب ببطء شديد.

نعم، تملك ليلي عدة أسباب قد تدفعها للانتقام إذا ما اعترف غران-دوك في مذكراته بكلّ شيء. ابتسمت ماتيلد لنفسها. سؤال محدّد يحيرها. هذا الأصبع على الزناد، هذه السبابة، هل ستحمل الخاتم؟ اللازورد اللامع... هل ستزين الجوهرة المرصعة هذا الإصبع المنتقم؟

غاب المشهد المتخيل شيئاً فشيئاً، لتحلّ محله نبتة النجم بلونها الأقرب إلى البرتقالي، عارية إلّا من ثلاث بتلات. همست ماتيلد دو كارفيل مخاطبة نفسها:

- عيد ميلاد سعيد ليلي.

لو أنها كانت تعلم مآل الأمور لما أدخلت كريدول غران-دوك في هذا العدّ التنازلي السخيف.

تقدّمت أكثر، أدارت رأسها إلى الخلف لتتأكد من وجودها وحدها في الدفيئة. لا أحد يتجسَّس عليها عبر الزجاجيات. مالت نحو حديقتها السرية، أزاحت الزنابق لتظهر بتلات مختفية لورود صغيرة صفراء اللون، بعض سيقان بقلة الخطاطيف(*). تحب ماتيلد دو كارفيل تأمّل البتلات الصفراء الذهبية، على شكل صليب، مصفّفة تحت الظل. «النبتة ذات الثؤلول» كما كانت تسمى في السابق، لكن ماتيلد، الوجه الآخر لبقلة الخطاطيف، تُخفي البتلات الصليبية نبتة قاتلة، سامة، بتركيز عالٍ من القلويات في عصارتها...

جرمها اللطيف.

سيُسامحها الرب.

دارت نصف دورة، وغادرت الدفيئة. ما زال ليونس دو كارفيل جالساً، مفكّك الأوصال، حرَّكه قليلاً اهتزاز الأوراق الحمراء.

جذع ميت. مشوّه...

ألقت ماتيلد دو كارفيل نظرة شاملة على المكان، الروزري، الفيلا، الحديقة...

لا، لم تفقد كلّ شيء بعد. الاسم، السلالة، الشرف.

ليز-روز.

لقد بدأت تفكر بطريقة مالفينا نفسها.

بقي أمل أخير، ذلك الاتصال من كريدول غران-دوك،

(*) بقلة الخطاطيف: نبات بري من الفصيلة الخشخاشية. (المترجم)

بالأمس، الأخير قبل وفاته. والذي يدّعي فيه تمكّنه من الوصول إلى معطى جديد قد يضع كلّ اليقينيات السابقة محلّ تساؤل. لقد أكّد لها بأنّ الومضة التي يبحث عنها تراءت أمام عينيه منذ ثلاثة أيام، دقائق قليلة قبل نهاية عقده، بعد قراءته لصحيفة ليست ريبوبليكان. خمس دقائق قبل منتصف الليل!

هل هي ساذجة إلى هذا الحدّ حتى تصدقه؟ هل هي مغفّلة إلى الحدّ الذي يجعلها تتبع غران-دوك في سخافاته؟

لم يرد غران-دوك أن يضيف شيئاً آخر، قال بأنه يحتاج إلى التأكد من بعض التفاصيل النهائية. تذكّرت مالفينا ومسدسها مرة أخرى. لقد تصرّف غران-دوك مثل هؤلاء الشهود الذين تغصّ بهم معظم الروايات البوليسية، ممّن يبحثون عن المزايدة ليجدوا أنفسهم مقتولين برصاصة في القلب قبل أن يتفوهوا برقم واحد.

تقدّمت ماتيلد دو كارفيل أمام شجيرات الورد المقلّمة، مالت لتجمع الجذوع بقبضة يدها، من دون امتعاض أو معاناة ظاهرية.

لم تمنع نفسها -رغماً عنها- من تصديق الكلمات الأخيرة لكريدول غران-دوك.

مَخرج. أمل أخير.

وكما كان الشأن دائماً في هذه القصة، أن تربح إحدى العائلتين، معناه أن تخسر العائلة الأخرى كلّ شيء.

- 15 -

2 أكتوبر 1998، الحادية عشرة صباحاً ودقيقة واحدة

ميرومينيل

شانزيليزيه-كليمنصو.

توالت المحطات. فرغت المقطورة شيئاً فشيئاً، محطة بعد أخرى. تتزايد سرعة المترو فجأة قبل أن تتناقص تدريجياً، كعداء أعمى لم يتسلّل إليه التعب بعد.

صعدت فتاة جميلة في محطة أنفاليد. لحظة واحدة خيِّل إلى مارك خلالها أنها ليلي، بقوامها المتناسق وشعرها الأشقر المصفَّف بعناية. لحظة واحدة فقط. كان المترو ممتلئاً بالشقراوات الجميلات، وليست الصدفة هي التي ستلقي به في طريق ليلي، ولا حتى الرسائل اليائسة في المجيب الآلي، بل القراءة المتمعّنة لمحتوى الدفتر، ثم مقابلة غران-دوك بأيّ ثمن.

ڤارين.

صار مارك وحده تقريباً في المقطورة. غادرت الشقراء الجميلة المترو. انتبه بشكلٍ غريب إلى أنه من بين أحد عشر شخصاً في المقطورة، كان سبعة من ذوي البشرة السوداء. مَن يصدق أنه في

وقت معين كان القانون يمنع الأفارقة من التجوّل في أرصفة الشوارع في كرينيل، ڤارين، بابيلون. واضح جداً أنّ مارك لم يتعوّد على باريس بمحنته واختلافه ووحدته. اشتاق كثيراً لدييب، الميناء الشيوعي الذي قضى فيه طفولته. تنهّد. لا خيار أمامه. هو مشغول الآن بأمورٍ أكثر أهمية. جلس مرة أخرى، ثم انغمس في القراءة مستسلماً.

مذكرات كريدول غران-دوك

وصلَ قرار القاضي ويبير عبر رسالة رسمية إلى صندوق بريد آل فيترال في بوشول، صبيحة يوم 11 مايو 1981. كنموذج تام.

تحوّل شاطئ دييب خلال الليلة الماضية إلى ما يشبه المسرح الذي احتضن احتفالاً شعبياً ضخماً. غنّوا، شربوا، ضحكوا، رقصوا بأقدامٍ حافية على عشب الساحة. احتفلت مدينة دييب، المدينة الحمراء، ميناء العمال، المدينة المتضرّرة من تناقص عدد المصانع فيها، كما في 14 يوليو عندما انتُخب فرانسوا ميتران لرئاسة الجمهورية الفرنسية؛ والوصول الأسطوري لليسار إلى السلطة، الشيوعيون في الحكومة... التغيير! تناقلت كلّ الشفاه ذلك الشعار، كما قامت عميدة المحطات البحرية الفرنسية بارتداء فستان حفلتها الأولى، والذي حافظَ على أناقته حتى الآن!

شارك بيير ونيكول فيترال في الاحتفال، لكن على طريقتهما. ينتظرون هذا منذ جيل كامل، ناضَلا، شارَكا في المظاهرات، قاما بتوزيع المنشورات في الأسواق... كما بقيت شاحنتهما مفتوحة طوال الليل تقريباً بالقرب من الشاطئ، مقدِّمة الفطائر وحلوى العسل

والمقرمشات التي امتزجت بالشمبانيا وعصير التفاح في فوضى بهيجة... اجتمعت كلّ الأجيال هناك. لكن آل فيترال لم يتحرَّروا بشكلٍ كامل، منتظرين رسالة القاضي، القرار النهائي؛ كانوا يخشون طعناً قد يتقدّم به آل دو كارفيل، انقلاباً أخيراً قد يغيِّر مسار القضية. عجز بيير ونيكول عن الاستمتاع بانتصار كهذا قبل تسلُّم الورقة الرسمية بين يديهما، وقبل احتضان إيميلي -التي بقيت في حضانة مونبليار- بين ذراعيهما.

لم يكونا قادرين على التصديق.

ولكن، بعد كل هذا، مَن كان يصدق، حتى في دييب نفسها، قبل يوم 10 مايو 1981، أن اليسار سينتصر؟

فتح بيير رسالة القاضي في الثامنة من صبيحة اليوم الموالي، لم ينَم سوى ساعتين. لم تترك رسالة القاضي وبيير أيّ مجال للشك. الرضيعة الناجية من كارثة جبل تيريبل تُدعى إيميلي فيترال. صار جدّاها من جهة الأب أولياء أمرها القانونيين، ويمكنهما الذهاب لإحضارها من مونبليار ابتداء من ذلك الصباح نفسه.

لم يقُم أحد في حيّ بوليه بجمع بقايا الشمبانيا وزيت القلي ومعدات الشواء، فتمّ اقتسام البقايا وتمديد الاحتفال يومي 10 و11 مايو 1981.

أجمل يومين في حياة بيير ونيكول فيترال.

انتظرت ماتيلد دو كارفيل قدوم المساء، كان الليل قد أرخى سدوله بالكاد عندما اقتربت من شاحنة آل فيترال. انتظرت بصبرٍ ابتعاد آخر الزبناء. كما تعمّدت الاستفراد بنيكول فيترال، في الوقت

الذي كان فيه بيير قد ذهب إلى بوليه للمشاركة في الاجتماع الأسبوعي لسكان الحي ككلّ يوم أربعاء، كان ذلك يوم 13 مايو 1981، وقد بدأ يفكّر جدياً في التقدّم للترشح لمجالس البلدية في انتخابات 1983. كان الجو صحواً في تلك الفترة من شهر مايو، مع رياح قوية جداً كالعادة.

أعتقد بأن الوقت قد حان لأقدِّم لكم ماتيلد دو كارفيل التي دخلت رسمياً إلى اللعبة يومين فقط بعد نشوة آل فيترال. ليس من السهل عليّ أن أقدِّم صورة نزيهة وموضوعية عنها، وستفهمون سبب ذلك بعد صفحات قليلة. سأتحمّل مسؤولية اللوحة التي سأقوم برسمها، من ناحية الشكل والمعنى. حتى وإن لم أكُن موضوعياً، ثقوا بصراحتي على الأقل. وضعَت ماتيلد دو كارفيل كلّ ثقتها في زوجها في أثناء مراحل التحقيق، أو لنقُل بأنها وضعت ثقتها في زوجها والربّ. لم يسبق لها طوال حياتها وحتى هذه اللحظة أن اعترضت على إرادة الرب، ولا حتى على إرادة زوجها أيضاً. ابنة عائلة نبيلة تنتمي إلى الضواحي الباريسية الراقية. سيدة طيبة القلب، ذكية، إنسانية، مع لمحة دهاء جعلتها أشبه بورومي شنايدر(*)، كانت ماتيلد منذ بلوغها سن العشرين محطّ إعجاب وتودّد وربما غيرة الآخرين. ولكن ليس لوقت طويل، كانت تثق كثيراً بمشيئة الرب. فوقعت في غرام أوّل رجلٍ وضعته السماء في طريقها، فعاهدته على الوفاء الأبدي. كان هذا الرجل هو ليونس، مهندس شاب لامع،

(*) رومي شنايدر (1938-1982): ممثلة أفلام فرنسية من أصل ألماني. (المترجم)

طَموح وفقير. حطّم هذا المهندس -شيئاً فشيئاً- كلّ ما هو جميل وطيب في روح ماتيلد. ربما كانت تلك مشيئة الرب...

قدمت ماتيلد لزوجها هبة لا تُقدر بثمن: اسمها. ماتيلد دو كارفيل. الأصول الراقية، الدم النبيل، السلالة، الانتقال... وهكذا استعار ليونس اسم زوجته العائلي. ألا تعتقدون معي بأنّ الأمر غريب نوعاً ما، أن يكتسب رجل اسم زوجته العائلي! يتطلب الأمر بحثاً مضنياً في الجزئيات وشجرة العائلة وصولاً إلى سان لويس... لكن ماتيلد منحت زوجها اسمها العائلي ودون أن ننسى أيضاً بضعة ملايين كانت كافية لإنشاء شركة دو كارفيل، فيما تكفّل ذكاء ليونس الاقتصادي بالبقية: صارت الملايين الأولى عشرات الملايين، نجحت الشركة اقتصادياً، وقّعت عقوداً كبيرة، أنشأت فروعاً في قارات العالم الخمس. يمكن لماتيلد أن تعتقد بأنّ اسمها العائلي قد استُثمر بشكل جيد...

لم يتسلّل الشك في الإرادة الإلهية إلى روح ماتيلد حتى بعدما فقدت ابنها ألكسندر في حادثة الطائرة. قد يبدو الأمر غريباً، لكنني تعلّمت مع مرور السنين بأنّ التديّن يقوّي إيمان صاحبه، حتى هذا النوع من الظلم قد يدفع صاحبه إلى الخضوع عوض التمرّد، كما يُجبر العقاب على الطاعة، خاصة ذلك العقاب الظالم الذي ينزل هكذا بشكلٍ عشوائي. كانت ماتيلد دو كارفيل واثقة في العدالة الإلهية وعدالة البشر أيضاً، ما دامت العناية الإلهية قادرة على إنارة طريق الموتى أيضاً.

ولكن قرار القاضي ويبير بإعلان وفاة حفيدتها دفعها إلى الشكّ لأوّل مرة في حياتها. لا، لم تشكّ في عدالة الرب، بل في عدالة البشر، وعدالة زوجها على وجه الخصوص.

انهار إيمانها.

لم تهتزّ، بل بالعكس، كانت أقوى بكثير ممّا مضى. لكنها تغيّرت. لم يعُد إيمانها مكتفياً بالتأمّل والخضوع والسلبية. لقد صارت ماتيلد دو كارفيل واعية بأنها أصبحت وسيطاً أرضياً بين الرب وباقي البشر، وأنّ إيمانها القويّ سيوجِّهها نحو الطريق الصحيح، وأنها مكلَّفة بمهمة إلهية تتطلّب منها التحرُّك بأقصى سرعة.

أعلم جيداً إلى أين يمكن أن يقود هذا التفكير من تعصّب. ففي جميع أنحاء العالم قد تجد مَن يقتلون بعضهم بعضاً رغم أنّ الآلهة لم تطلب منهم شيئاً. وقد عاينتُ ذلك بنفسي في حياة سابقة، قبل أن أتحوَّل إلى تحرٍّ خاص.

من حسن حظ ماتيلد دو كارفيل أنّ هذا التحوّل قد تمّ بهدوء، أو هذا ما أعتقده على الأقل. ففي عام 1981، كانت تقدِّر أنّ البشر قد صمّوا آذانهم عن الأوامر الإلهية، وأنّ الرب الذي أعطاها هذا الغنى لم يكن يريد منها أن تسير عكس مشيئته.

وهكذا دفعتها يقينياتها الجديدة إلى اتخاذ قرارين مهمّين، وذلك بعد تفكير عميق. القرار الثاني يتعلق بي أنا. أمّا القرار الأول فكان مقابلة نيكول فيترال، في تلك الليلة من شهر مايو، بالقرب من شاطئ دييب؛ مقابلة تذكُر نيكول فيترال تفاصيلها حتى الآن، كلّ كلمة، وكلّ صمت تخلَّل المحادثة، كما روَت لي ذلك، عندما قابلتها بعد عشرين شهراً تقريباً.

ترقَّبت نيكول فيترال قدوم ماتيلد دو كارفيل بحذرٍ شديد، فقامت بإغلاق سترتها بحركة آلية لإخفاء نحرها وشكل ثدييها العامرين. سبق لهما أن تقابلا وتواجَها في جلسات الاستماع

والمحاكمة. لكن، تغيَّر كلّ شيء الآن. تعرف نيكول فيترال كلّ حقوقها. صارت إيميلي حفيدتها، ولا يملك أحد، حتى لو كان آل دو كارفيل، شيئاً ضد هذا الحكم، فكان ذلك هو السبب الوحيد الذي دفعها إلى الاستماع إلى كلام ماتيلد دو كارفيل.

اعتدلَت ماتيلد واقفة أمام شاحنة السيتروين طراز إتش، أمّا نيكول فقد منَحَها موقعها داخل الشاحنة تفوّقاً يعادل عشرين سنتيمتراً. بدا صوت ماتيلد جافاً خالياً من المشاعر:

- سيدة فيترال، سأكون واضحة في كلامي. نحن الآن أمام جنازتين يصعب تحمّلهما، فقرار القاضي ويبير كان كما تعلمين أشبه بحُكم بالإعدام! فلكي يُعيد الحياة إلى طفلة، كان مضطراً لقتل أخرى...

أصدرت نيكول فيترال حركة دلَّت على انزعاجها، كما لو كانت تهمّ بإغلاق ستارة الشاحنة الحديدية، فرفعت ماتيلد دو كارفيل من حدّة نبرتها قليلاً:

- لا، لا، لا تقاطعيني من فضلك. ربما ابتداءً من الآن، أو ربما بعد أقل من شهر ستتسلمون الرضيعة. وستبقى ليز-روز حاضرة في وجداننا. ولكن ماذا بعد خمسة، عشرة، عشرين عاماً؟ لن يبقى أيّ وجود لليز-روز، لن تلعب، لن تذهب إلى المدرسة... فيما ستعيش إيميلي. سينسى الجميع تلك الكارثة وذلك الشكّ المخيف. ستصبح إيميلي فيترال إلى الأبد وإن لم تكن كذلك في الواقع. سيتناسى الجميع حقيقة ما جرى بعد أشهر قليلة من ولادتها.

أحدثت الرياح القوية قرقعة في المظلة الواقية البرتقالية والحمراء. كانت نيكول فيترال منزعجة لكنها لم تكن قادرة على مقاطعة ماتيلد دو كارفيل:

- نيكول... هل تسمحين لي بمناداتك بنيكول؟ نعم، هنالك نوع من الحداد يصعب تقبّله، أنا لا أملك حتى قبراً أزرع حوله الورود أو أصنع له شاهداً رخامياً، لأنّ الأسوأ يا نيكول هو أن أقوم بذلك وأن أبكي ليز-روز كميّتة وأتلو الصلوات على روحها، ألن أكون هكذا أشبه بالوحوش؟ أن أدفنها في الوقت الذي قد تكون هي فيه على قيد الحياة...

- ها قد وصلنا إلى قصدك منذ البداية! قاطعتها نيكول فيترال بنبرة جافة.

بدا أنّ الرياح الغربية القوية قد عجزت عن هزّ شعرة واحدة في رأس ماتيلد دو كارفيل.

- لا يا نيكول! أنا لا أقصد ذلك. استمعي إلى كلامي حتى نهايته. أنا لا أنوي اختطاف إيميلي. المسألة في غاية البساطة بالنسبة لكم. إن كانت حفيدتكم بالفعل فكل شيء على ما يرام، أما إن لم تكن كذلك، فهذا يعني أنكم ستعتنون بها كطفلة متبنّاة... لم يعد الشك ذا أهمية بالنسبة لكم. ليس أكثر أهمية من شكّ أبٍ لا يدري إن كان ابنه من صلبه أم لا. أما بالنسبة لي، فإنّ الشك...

- ما الذي تريدينه منّا في نهاية المطاف؟ قالت نيكول بنبرة شبه صارخة وقد تطاير صدارها في الهواء وبدا أنّ ثدييها العامرين قد انتفخا أكثر. كانت أكثر ثقة بنفسها مقارنة ببداية القضية، محتمية بالإعلام والمحامين ورجال الشرطة، فتابعت بالنبرة نفسها:

- تريدين من الفتاة أن تناديكِ «جدتي»؟ أن تتصل بكِ من وقت إلى آخر؟ أن تقومي بدعوتها أوّل يوم أحد من كلّ شهر لتناول الحلويات الجافة؟

بقي وجه ماتيلد دو كارفيل جامداً من دون حراك.

- أنتِ لست بحاجة لتكوني شريرة يا نيكول. لقد ماتت ليز-روز. وتشعرين حتماً بما أشعر به... ستطلقون اسم إيميلي على هذه الرضيعة الصغيرة الجميلة، لكنكِ تجهلين الحقيقة في قرارة نفسك. كما هو الشأن بالنسبة لي أنا. لقد تعمَّدت الحياة محاصرتنا.

تنهدت نيكول فيترال.

- حسناً، هيا، ماذا تريدين منا؟

- كلّ ما أريده هو مساعدة هذه الطفلة. إن كانت هي ليز-روز فسوف يكون ضميري مرتاحاً. أمّا إن كانت إيميلي... فلا بأس...

تقدَّمت نيكول فيترال أكثر، بحسب ما تسمح به الطاولة أمامها، ثم قالت وهي تحدج ماتيلد بنظرات نارية:

- أيّ مساعدة؟ أن تَرَوها؟

- لا... أفضِّل ألّا تعرفني، لا أدري إن كنتِ تخططين لإخبارها بكلّ ما جرى فيما بعد. لكنني أفضِّل ألّا تعلم بذلك لأطول وقت ممكن. لا أملك تلك الرغبة في مراقبتها من بعيد في أثناء مغادرتها إلى مدرستها، أو متابعة نموها من خلف زجاج سيارتي وانتظار ظهور شَبَهٍ ما بابني. لا، لست من هذا النوع، هذا فوق قدرتي على التسامح مع المعاناة.

ثم أطلقت ضحكة صغيرة لا تشبهها.

- لا يا نيكول، يملك الأغنياء وسائل أكثر راديكالية لإراحة ضمائرهم...

- المال؟

- نعم، المال. دعي عزّة نفسك جانباً يا نيكول، لم آتِ إلى هنا لشراء الصغيرة كما فعَلَ زوجي. هذه ليست مساومة أو اتفاقاً، لا شيء من كلّ هذا. هذه مجرد هبة للطفلة. ولا أطلب شيئاً بالمقابل.

كانت نيكول فيترال على وشك الردّ، بعدما تصاعدت حدّة غضبها كتلك الرياح القوية التي حاصرت شاحنتها، لكن ماتيلد دو كارفيل لم تمنحها الفرصة للقيام بذلك:

- لا ترفضي يا نيكول... إيميلي معكِ، أنت الرابحة. أنا لا أشتريها منكِ، أنا لا أشتري شيئاً. فكّري ببساطة، لماذا ستحرمين إيميلي من هذا المال الذي سيهبط عليها من السماء...

- لم أقل بأنني أرفضه، أجابتها نيكول فيترال محافِظَة على جفاف نبرتها. كما لم أقُل بأنني سأقبله...

ثم تراجعت حدّة صوتها فجأة:

- ما تقترحينه عليّ معقّد بعض الشيء...

ارتفعت نبرة ماتيلد بالمقابل:

- ستفتحين حساباً بنكيّاً باسم إيميلي، هذا كلّ ما في الأمر...

ارتجفت شفتا نيكول فيترال.

- وماذا بعد ذلك؟

- ستتوصل إيميلي في حسابها هذا بمبلغ مئة ألف فرنك سنوياً، إلى حين بلوغها سن الثامنة عشرة. هذا المال مخصَّص لها فقط، لتربيتها، لرفاهيتها، ولتنال أفضل الحظوظ في حياتها. كما ستتولّين أنتِ أمر التصرّف في هذه الأموال طوال الأعوام القادمة، بالطريقة التي تحلو لك، وبما لا يسمح لكِ بالتذمّر...

تلاعَبت الرياح بصدار نيكول فيترال، مداعِبَة نحرها العاري، ارتجفت قليلاً، لكنها استسلمت بسرعة لصوت الحصى الذي تُلامسه الأمواج.

الـ«مع» و الـ«ضد».

قالت في النهاية:

- سأفتح هذا الحساب يا سيدة دو كارفيل. من أجل إيميلي. وربما لأنني إن رفضتُ ذلك فسوف ألوم نفسي، وقد تلومني هي مستقبلاً. يمكنكِ ضخّ هذه الثروة في حساب الصغيرة إن أردتِ...

- شكراً...

- ... لكننا لن نلمسها!

قالتها نيكول فيترال بما يشبه الصراخ.

- سنربّي إيميلي كما نربي شقيقها مارك، وسننجح في ذلك. سنقدّم كلّ التضحيات الممكنة، لكننا سننجح. وبعد بلوغ إيميلي الثامنة عشرة من عمرها، سن الرشد، يمكنها عندئذٍ أن تتصرف في هذه الأموال كما تريد، لأنها أموالها هي وليست أموالنا. مفهوم؟

ارتسمت ابتسامة خفيفة على طرف شفتَي ماتيلد دو كارفيل.

- أنتِ قاسية جداً يا نيكول، لكني أشكركِ في جميع الأحوال.

تردَّدت لثانية واحدة فقط، قبل أن تكمل:

- هل يمكنني أن أطلب منك شيئاً آخر؟

زفرت نيكول فيترال في ضيق:

- لا أدري، بسرعة، سأغلق المحلّ بعد قليل.

أخرجت ماتيلد دو كارفيل علبة صغيرة زرقاء اللون من جيب معطفها الطويل، ثم فتحتها وتقدَّمت بعد ذلك لتَضعها على الطاولة. لم تمنع نيكول فيترال نفسها من التطلّع إلى خاتم اللازورد اللامع.

- لنقُل إنها عادة قديمة، قالت ماتيلد دو كارفيل بصوت هادئ. أن تتوصّل بنات العائلة في عيد ميلادهن الثامن عشر بخاتم يضمّ حجراً كريماً بلون أعينهن. تلك عادتنا منذ عدّة أجيال. أنا أحمل خاتماً أهدتني إياه أمي منذ أزيد من ثلاثين سنة، لكنني وللأسف الشديد لا أملك الفرصة للقيام بالشيء نفسه مع ليز-روز.

هزّت نيكول فيترال رأسها أخيراً.

- قد أكون مغفّلة بلا شك، لكنني لم أفهم قصدكِ. . .

- سأترك لكِ الخاتم. احتفظي به. ربما بعد ثلاث أو عشر سنوات رفقة إيميلي ستعلمين إن كانت فعلاً حفيدتك أم لا . طبيعي أن تتوصَّلي إلى هذا اليقين مع مرور الوقت. إن كان الأمر كذلك، واقتنعتِ في قرارة نفسك بأنّ الفتاة التي قمتِ بتربيتها ليست حفيدتك الحقيقية، فأنا أعتقد بأنكِ ستحتفظين بهذا السرّ لنفسك. . .

أطلقت زفرة حارّة متأثّرة، ثم أردفت:

- سيكون ذلك أفضل، على الأقل بالنسبة إلى الصغيرة. ولكن إن امتلكت أدلة ويقينيات مع مرور السنين، بأنها ليست حفيدتك، عندئذٍ أطلب منك إهداءَها هذا الخاتم يوم عيد ميلادها الثامن عشر. لا أحد غيرنا سيعلم مغزى ذلك، لكن هذا التصرّف سيعني أنّ العدالة قد تحقَّقت لكلتينا. . .

كانت نيكول فيترال على وشك الرفض ودفع الخاتم بعيداً، والصراخ قائلة بأنها فكرة سيئة وسخيفة، لكن ماتيلد دو كارفيل لم تترك لها أيّ مجال لذلك، بعدما استدارت دون أن تنتظر الإجابة، قبل أن تذوب بمعطفها الأسود في الظلام، فيما بقيت العلبة الزرقاء في مكانها فوق الطاولة.

- 16 -

2 أكتوبر 1998، الحادية عشرة صباحاً وثماني دقائق

دفعت مالفينا النافذة وراءها ويدها ملفوفة بممسحة، ثم كوّمتها في جيب سترتها بعدما مسحت بها كلّ شيء، مَن سيلاحظ أنّ ممسحة تافهة غير موجودة في دُرج مطبخ غران-دوك؟

كانت مزهوّة بنفسها، تسلَّلت إلى الحديقة الصغيرة ببطء لكي لا ينتبه إليها أحد في الشارع. انتظرت مرور سيارتين وهي مختبئة في زاوية المنزل. ثم تسلّقت الحائط الحجري الصغير الذي لا يتجاوز علوه المتر بمجرد اطمئنانها لخلوّ المكان. لم يرَها أحد. لن يعلم أحد بأنها تسلَّلت إلى منزل غران-دوك. هي ليست بذلك الغباء رغم كلّ ما يعتقده الآخرون! استدارت وقد أقلَقَها تفصيل أخير. من موقعها في الرصيف، يمكن لمَن يرى بشكلٍ ممتاز أن ينتبه إلى زجاج النافذة الذي قامَت بتهشيمه، في الأسفل على اليمين، وهو ما مكَّنها من فتح النافذة عبر تمرير ذراعها. هزت كتفيها في لامبالاة. لم يكن الأمر مهماً إلى تلك الدرجة.

تقدّمت في شارع بوت-أو-كاي بخطوات سريعة. لن تبقى مكشوفة هنا. قد يأتي فيترال بين لحظة وأخرى.

كانت تفكّر في انتظار هذا القذر ومحاصرته. تقدّمت قليلاً، ثم التقطت مفتاح السيارة من جيبها وشغلت نظام الفتح الأوتوماتيكي. دسَّت مالفينا كيلوغراماتها الأربعين في السيارة الصغيرة التي تسمح لها بالعثور على مكان للتوقّف في جميع أنحاء باريس، بما في ذلك بضع عشرات من الأمتار بالقرب من منزل غران-دوك. لم تكُن سهلة الإخفاء، لكن يستحيل على فيترال أن يتعرَّف على هذه السيارة.

انحنت مالفينا ثم اندسّت قدر الإمكان بين المقعد الأمامي ودوّاسات الروفر ميني. رغم ضيق السيارة فإنّ المار من هناك لن يشكّ للحظة في وجود شخص ما داخلها، فيما سيسمح هذا المخبأ لمالفينا بمراقبة الشارع بأكمله عبر زجاج المرآة العاكسة دون أن تتحرك من مكانها. الموقع مناسب! إذا أتى فيترال عبر محطة كورفيسار فسوف يظهر عبر مدخل الشارع من دون المرور أمام الميني، أمّا هي فستتمكن في المقابل من تحديد موقعه من بعيد. ممتاز.

تلوَّت وهي تمسك بالماوزر إل 110 بقبضة يدها، ثم وضعته بالقرب منها، تحت مقعد السائق.

مسألة أخرى تُقلق مالفينا: كان شارع بوت-أو-كاي مليئاً بالمارة، خاصة تلك المخبزة التي تبعد عنها بحوالي خمسين متراً، وقد غصَّت بالزبناء الذين لا يتوقفون عن الدخول والخروج، الكثير من الشهود، لكنهم بعيدون عنها بما يقارب الخمسين متراً، ما سيوفّر لها وقتاً للتحرك. تذكَّرت أوامر جدّتها، «راقبيه، اتبعيه، لا تفعلي شيئاً آخر. اتصلي بي بمجرد تحديدك لموقعه». لم تمنع مالفينا يدها من الانزلاق تحت المقعد وملامسة الماوزر، كما لو كانت تتأكّد من وجوده. منحَها ملمس المعدن البارد بعض الاطمئنان. ولكنها فكرت

بتساؤل: هل كانت مجبَرَة على إطاعة أوامر جدّتها وهي شابة في الرابعة والعشرين من عمرها؟

تقدَّم مارك كالأعمى بين الممرات اللانهائية لمحطة مونبرناس باذلاً كلّ ما في وسعه لعدم فقدان اتجاه الخط رقم 6 ببصره.

ليلي تحمل خاتماً، اللازورد اللامع، بلون عينيها.

إذاً فقد أهدتها نيكول الخاتم قبل ثلاثة أيام، بمناسبة بلوغها عامها الثامن عشر. لقد احترمت جدّتها الاتفاق ولم تُخبر أحداً بذلك، أبداً. حتى ليلي نفسها.

لكنها أهدتها الخاتم!

يدرك مارك جيداً ما الذي قد يعنيه ذلك، أيّ اعترافٍ مرعبٍ قد يمثّله هذا الأمر بالنسبة إلى جدّته.

يجب عليه أن يتّصل بها، أن يكلِّمها. سيفعل ذلك، لكن فيما بعد، المهم الآن وبشكل عاجل هو العثور على ليلي. واصلَ مشيه وهو يضغط بيده الحرّة على أزرار هاتفه المحمول محاولاً كتابة رسالة نصية قصيرة:

ليلي. اتصلي بي، اللعنة. مارك.

وعد نفسه بتكرار المحاولة بعد ساعة، سيحاصر ليلي بالرسائل ما دامت مصرّة على عدم الردّ.

أين هي الآن؟ تذكّر الطائرة الصغيرة في حقيبته. هل كانت جادة في كلامها عن القيام برحلة إلى الجانب الآخر من هذا العالم؟ نعم... تملك ليلي -بمجرد بلوغها الثامنة عشرة- كلّ الإمكانات المادية للسفر والعيش في أيّ مكان على سطح هذا الكوكب، وربما البقاء هناك لسنوات طويلة.

اندسّ مارك بين المسافرين وهو يستظهر سطور نص كريدول غران-دوك الأخيرة. حساب ليلي البنكي. هدية ماتيلد دو كارفيل المسمومة. تعرف العجوز ما تفعله. . . اقتنع مارك مع مرور السنين بأنّ المال هو الذي حفرَ تلك الهوّة بينه وبين ليلي، ما يفسّر تلك المشاعر الغريبة، ذلك الانجذاب غير الطبيعي والمستحيل بين فتى وفتاة يجمعهما الرابط الدموي بالأبوين نفسهما.

المال يفسّر كلّ شيء، ورغم ذلك كان ذلك الصوت الغريب يهمس في أعماقه بأنّ المال لا دخل له بالأمر! لا! لا!

كان الصوت الغريب على حق! لا دخل للمال بالأمر. هو الآن يملك الدليل على أنّ جدته تفكّر مثله، وإن لم تُظهر ذلك أبداً!

تحمل ليلي خاتم آل دو كارفيل.

يبدو أنّ جدّته قد اعترفت لها بذلك وهي تسلّمها الخاتم. ليلي ليست شقيقته! هما حرّان إذاً.

شعر مارك بما يشبه النشوة. اندسّ برشاقة في المركبة المتوجّهة إلى العنوان المطلوب. تحرك بين المسافرين للوصول إلى المنتصف باحثاً عن مكانٍ ضيق يسمح له بفتح الدفتر.

خمس محطات قبل كورفيسار، على بُعد خطوتين من بوت-أو-كاي، حيث يوجد منزل غران-دوك.

وقتٌ كافٍ لقراءة صفحات أخرى. . .

مذكرات كريدول غران-دوك

حان الوقت أخيراً لدخولي إلى خشبة المسرح!

كريدول غران-دوك، تحرٌّ خاص.

انتظرتموني طويلاً، أليس كذلك؟ أوافقكم الرأي على أنني أتيتُ بعد انتهاء المعركة. وقد تكون هذه هي مشكلتي الرئيسة.

زارت ماتيلد دو كارفيل مكتبي في بيلفيل، شارع دي زاماندييه، يوماً واحداً بعد لقائها بنيكول فيترال. تركت لديّ انطباعاً بأنها متنكّرة بلباسٍ أسود حتى تنقل معاناتها إلى ملابسها. أعتقد بأنها دفعت ثمن حوارها مع نيكول فيترال غالياً، لقد اتّخذت القرار وحدها، دون أن تستشير زوجها. تعرَّضت ماتيلد دو كارفيل للإهانة بالقرب من شاطئ دييب، لكنها أدركت بأنّ هذه التضحية وحدها قادرة على إخضاع نيكول فيترال. على هذه الأخيرة أن تشعر في تلك الظرفية بتفوّقها، ما سيسهل موافقتها على فتح حساب بنكي باسم ليلي.

لا أعتقد بأنّ ماتيلد دو كارفيل قد تعرَّضت لإهانة مماثلة طوال حياتها، دفعت الثمن غالياً من سلامها الروحي، وهو ما يفوق بكثير قيمة الشيك السنوي بمئة ألف فرنك لليلي. وهكذا صار الجمود لصيقاً بماتيلد دو كارفيل بعد المقابلة العاصفة في دييب. عندما دخلَتْ إلى مكتبي كانت مجرد قطعة ثلج، قطعة سوداء ومؤدبة.

تقدَّمَتْ.

- سمعتُ عنك الكثير، سيد غران-دوك...

نعم؟

قدّمت نفسها، فوجدت صعوبة في الربط بينها وبين هذه القضية التي تناولتها الإذاعات والقنوات التلفزية لبضعة أسابيع، ولم أكُن أعيرها أيّ اهتمام وقتئذٍ.

- سيد غران-دوك، يبدو أن من محاسنك هي: السرية، الصلابة، الصبر، الصرامة... وهذا ما أبحث عنه. القضية التي

أعرضها عليك في غاية البساطة: أن تُعيد فتح ملف حادثة جبل تيريبل من جديد، من البداية، كلّ التفاصيل، الواحد تلو الآخر، وأن تعثر على تفاصيل أخرى إن أمكَن.

صحيح أنني كنت في تلك الفترة مجرد محقق خاص ضمن عشرات آخرين، لكنني كنت أخطو بثبات نحو الحصول على سمعة محترمة. تمكّنت من حلّ القضايا الصغيرة التي عُرضت عليّ، الواحدة تلو الأخرى، قضية كازينوهات الساحل إلى جانب بعض القضايا الأخرى. لم أعرف الفشل، كملاكمٍ لا يفوز إلّا بالنِّزالات الصغيرة فيخيّل إليه أنه ملاكم لا يُقهَر. لا أدري لماذا اختارتني أنا بالذات، ولكن لمَ لا أكون أنا؟ لا يهم، لم أكن لأسمح لهذه الفرصة بأن تضيع من يدي.

تقدّمت ماتيلد دو كارفيل أكثر. بقيت جالساً، لستُ طويل القامة ويبدو أنها تفوقني طولاً بخمسة سنتيمترات. لكنني اعتدلتُ في مقعدي رغم ذلك متّخذاً هيئة المهتمّ.

- هذه قضية معقّدة يا سيدتي. قضية لا يمكن إلّا أخذها على محمل الجدّ... قضية قد تتطلب وقتاً...

- لم آتِ إلى هنا للمساومة يا سيد غران-دوك...

هكذا إذاً...

اعتدلت أمامي وقد حطّمتني بظلها الأسود. فات الأوان على نهوضي...

- سيد غران-دوك، يمكنك القبول بعرضي أو رفضه... لا أعتقد بأنني سأجد صعوبة في العثور على محقّق آخر، لكنني واثقة من موافقتك على عرضي. ابتداء من الآن، ستتسلم مئة ألف فرنك سنوياً، لمدة ثمانية عشر عاماً، إلى حين بلوغ حفيدتي ليز-روز، إن

كانت على قيد الحياة طبعاً، سنّ الرشد. نهاية شهر سبتمبر 1998. الـ 30 وليس 27، ما دامت العدالة قد قرّرت ذلك...

مئة ألف فرنك سنوياً! مضروبة في الرقم ثمانية عشر! عجزتُ عن عدّ الأصفار التي شكّلت في جمجمتي ما يشبه عقداً طويلاً من الجواهر. ثمانية عشر عاماً. إيراد وظيفي حقيقي بالنسبة إلى محقق لن يربطه بصفة «خاص» سوى الاسم...

إلّا إذا... صحيح أنني أحمل هذا الاسم الغبي «كريدول»، لكنني بحاجة أيضاً إلى بعض التفاصيل... نعم، أؤكد لكم ذلك رغم غرابته، «كريدول» هو اسمي الحقيقي(*).

- ما الذي تريدينه مني يا سيدتي مقابل هذا المبلغ؟ إذا افترضنا عدم توصلي إلى شيء ذي قيمة بعد ثمانية عشر عاماً، هل سأكون مطالَباً بإعادة المبلغ؟

سؤال محذّر؟ كنت مطالباً بالمزيد من الحذر. نعم، يبدو أنني أستحقّ هذا الاسم «كريدول»... مالَ الظلّ الأسود نحوي ليحطّمني أكثر فأكثر.

- سيد غران-دوك... هذه القضية تعتمد بالدرجة الأولى على ثقتي بكَ ولا شيء غيرها. أنت لستَ مطالَباً بشيء. لكنني أريد منك أن توظّف كلّ إمكاناتك لحل القضية. أتمنى ألّا تدع شيئاً، أي طريقة أو احتمال ممكن للصدفة، أمامك وقت كافٍ وأموال كافية للقيام بذلك. أريد أن يتمّ اكتشاف أيّ دليل جديد قد يقود إلى معرفة الهوية الحقيقية للرضيعة التي نجت من كارثة جبل تيريبل. سأكون

(*) لفظة كريدول أو Crédule تعني باللغة الفرنسية «ساذج» وهذا ما يجعل اسم المحقق غريباً فعلاً! (المترجم)

واضحة أكثر يا سيد غران-دوك، أريد معرفة الحقيقة، كيفما كانت، حتى لو لم تكُن في صالحي.

انتابني دوار شديد.

- وتعتقدين بأنّ تحقيقاً كهذا يمكن أن يستغرق... ثمانية عشر عاماً؟

- ستتلقى رواتبك لثمانية عشر عاماً. ما يعني أنكَ تملك كلّ هذه السنوات للوصول إلى الحقيقة. لا أطلب منكَ أن تخصّص كلّ وقتك لهذه القضية. أنا فقط أزوّدك بكلّ الإمكانات اللازمة للدفع بالتحقيق إلى أقصى حدّ: الوقت والمال.

- و... إذا تمكنتُ من الوصول إلى هذه الحقيقة في خمسة أشهر؟

«أحمق»، نعم أنا أحمق، هذا هو الاسم الذي كان على والدتي أن تختاره لي.

- ألا تفهم يا سيد غران-دوك؟ لم أكُن واضحة بما يكفي؟ ستتلقى رواتبك لثمانية عشر عاماً، مهما حصل... هذا اتفاق معنوي بيننا سيد غران-دوك. كلّ ما أطلبه منك هو أن تبذُل كلّ ما في وسعكَ لكشف الهوية الحقيقية للرضيعة الناجية، هذا كلّ ما يهمني.

مالت نحوي أكثر ليتراقص الصليب الخشبي المتدلي من عنقها أمام أنفي. تابعَتْ:

- سيد غران-دوك، أحتفظ لنفسي بحقّ فسخ العقد من جانبٍ واحد، إنْ شعرتُ بأنكَ تغدر بي، إن شعرتُ بأنك تستغلّ الوضع لمصالحك الشخصية. لكنني لا أعتقد بأنّ ذلك سيحصل، أليس كذلك؟ قالوا لي بأنك رجل شريف...

لا يوجد عقد! هل تصدّقون ذلك؟ لقد أوقعني الحظّ أمام عجوز لا تعرف كيف تُنفق ثروتها!

المعجزة. إنها مجنونة... إلى أيّ مدى يمكنها الاستمرار؟

- قد يتطلّب التحقيق سفري إلى تركيا. قلت. ولفترات قد تطول...

- كلّ فواتيرك على حسابي، بالإضافة طبعاً إلى راتبك السنوي...

سأذهب أبعد من ذلك...

- أنا... أنا لا أتكلم باللغة التركية. لن أفعل ذلك وحدي...

- يمكنك توظيف مساعدين إن تطلَّب التحقيق ذلك. سأتولى أمر فواتيرهم أيضاً...

يا إلهي...

لم يكن سؤالي اعتباطياً، فقد فكّرت في العمل -في بداية التحقيق على الأقل- مع شخصٍ سبقَ وأن رافقني في بعض الرحلات التي استغرقت عدة أشهر في آسيا الوسطى، اسمه ناظم أوزان، الوحيد في فرنسا الذي أعرفه ويُتقن اللغة التركية، وربما أثق به قليلاً.

سلَّمتني ماتيلد دو كارفيل أوّل شيك، مبلغ ضخم آنذاك، مئة ألف فرنك، ثم غادَرَت مكتبي بالطريقة نفسها التي دخلت بها. لم أنتبه وقتها للجو المثلج الذي خلّفه هذا الزاحف البارد في الغرفة. خيِّل إليّ وقتها بأنني كسبت في مراهنات اللوتو دون أن ألعب أصلاً: كانت أول مرة يتناغم فيها اسمي الشخصي مع اسمي العائلي.

كريدول، لأنني أثق بهذا التحقيق، وبالحظ، ولوح القفز الذي سيقودني إلى الثروة المنشودة...

غران-دوك، كالجولة التي قمتُ بها لثلاثة أيام، محتفلاً بحظي السعيد... دون أن أبذِّر شيئاً من المئة ألف فرنك الأولى.

فواتير عمل...

كيف لي أن أدرك وقتها بأنني كنت أسقط في بئر بلا قرار؟ بأنّ شعاع الضوء كان يجذبني نحو العدم؟

ثقبٌ أسود.

خشبة قفز فوق الفراغ.

- 17 -

2 أكتوبر 1998، الحادية عشرة صباحاً وثلاث عشرة دقيقة

كان شارع جان ماري جيكو مائلاً بطريقة وعرة، يقدَّر فارق الارتفاع بخمسين متراً قبل الوصول إلى قمة بوت-أو-كاي؛ شارع صغير جميل، كتلك الشوارع التي تظهر في البطاقات البريدية، التي تعطي الانطباع بالصعود إلى ساحة بلدة صغيرة، بكنيستها، وبلديتها، وحانتها، وملعبها المظلّل الخاص بلعبة الكرة الحديدية، كلّ هذا وسط باريس! يعلم مارك -وإن بشكلٍ ضبابي- أنّ بوت-أو-كاي هو أحد أقدم الأحياء الباريسية التي بقيت صامدة، وسبق له أن أتى إلى هنا ذات مساء لتناول كأس من النبيذ، هناك في حانة زمن الكرز، رفقة طالب مدلّل، من نوعية الطلبة الذين لا يطيقهم، ابن موظف ديبلوماسي أو شيء من هذا القبيل، وقد شرح له بأنّ هذه المنطقة محمية من هجوم المنعشين العقاريين بسبب وجود مقالع الكلس تحت-أرضية، تمنع بناء عمارات ذات علوّ شاهق. ما فهمه مارك من كلّ هذا الكلام هو أنّ امتلاك منزل في هذا الحي البورجوازي يكلّف صاحبه ثروة حقيقية.

صعد مارك آخر درج مكوّن من عشرين درجة، أفضى به إلى

مدخل الشارع من أعلى. استند إلى الدرابزين ثم أمسك بهاتفه المحمول لإرسال رسالة نصية قصيرة جديدة إلى ليلي.

الرسالة نفسها، بعدما احتفظ بالرسالة السابقة في ذاكرة الهاتف.

ليلي. اتصلي بي، اللعنة. مارك.

تفحص مجيبه الآلي بحركة غريزية، باحثاً عن رسالة جديدة، لكن بلا جدوى، كان المجيب فارغاً تماماً.

كان شارع بوت-أو-كاي هادئاً، باستثناء حركة قليلة حول المخبزة التي يبدو أنها المحل التجاري الوحيد الذي يعرف مثل هذا النشاط الملحوظ. أمّا فيما يخصّ باقي المحلات فما زال الوقت مبكراً، المطاعم فارغة تماماً. تقدّم مارك موجّهاً بصره نحو واجهات المباني، مواصِلاً مشيه حتى وصوله إلى الـ21 ليجد أمامه منزلاً صغيراً، تحيط به حديقة صغيرة رائعة الجمال لا تتجاوز مساحتها عشرين متراً مربعاً... هذا المنزل نموذج لتلك المنازل الصغيرة التي تعجّ بها القرى والبوادي الفرنسية... لكنها بوجودها هنا، في قلب العاصمة باريس، تتحوّل بقدرة قادر إلى مظهر من مظاهر الترف! منزل صغير بلا طوابق وحديقة! رغم حصوله على مئة ألف فرنك سنوياً من طرف ماتيلد دو كارفيل، فإنّ منزلاً كهذا أكبر بكثير من إمكانات غران-دوك المادية...

واصل مارك تفحّصه للمنزل. كانت النوافذ بلونها الأخضر الفاتح مغلقة. ضغط اعتباطياً على الجرس، بين صندوق البريد الأصفر الذي علاه بعض الصدأ والحاجز المقشّر.

لم يُجِبْه أحد.

انتظر لدقيقة أخرى، ثم ضغطَ على الجرس من جديد، لكن بلا

جدوى. مرَّر أصابعه على شعره في تعبير عن الحيرة. يبدو أنّ غران-دوك خارج البيت. ألقى نظرة أكثر تفحّصاً على المنزل والحديقة، باحثاً عن فكرة ما. . . ثم تقدَّم عبر الشارع.

مكتبة

بدا الحلّ واضحاً، كفكرة منطقية مسلَّم بها.

أثار انتباهه في الجانب الأيمن من المنزل وجود نافذة مهشَّمة الزجاج. يمكنه -بقليل من الحظ- تمرير ذراعه والإمساك بالمقبض بما يسمح له بفتحها ومن ثم الدخول إلى منزل غران-دوك. أدار مارك رأسه: لا أحد في هذا الشارع يُعيره أيّ اهتمام. لم يتردَّد في القفز عبر الجدار الحجري الصغير، ليجد نفسه بالقرب من النافذة، بعيداً عن أيّ نظرات متلصّصة. مدَّ يده نحوها فانفتحت بسهولة، كانت موارِبَة فقط!

فوجئ مارك بهذا التوالي الغريب في المصادفات وغياب الحذر من شخص يُفترَض أنه محقِّق خاص. لكن استغرابه لم يدُم سوى لحظة واحدة، ليدخل بعدها إلى منزل غران-دوك.

ابن العاهرة في منزل غران-دوك الآن، فكَّرت مالفينا. راقبت عبر المرآة الارتدادية تقدّم مارك فيترال ثم اجتيازه للحائط الحجري الصغير. يتصرف كالفئران، فكَّرت مالفينا مرة أخرى. يحمل حقيبة ظهر! هذا يعني بما لا يدع مجالاً للشك أنّ دفتر غران-دوك موجود فيها. يسير كلّ شيء على ما يرام. حاولت مالفينا منح نفسها هامشاً للحركة، أن ترفع رأسها قليلاً نحو النافذة، وتمدّ ساقيها قليلاً، آلمها عنقها من طول مدّة انكماشها تحت المقوَد، لكنها تجاهلَت آلامها. يمكنها البقاء على هذا الوضع عدّة ساعات، حتى لو أدّى ذلك إلى تجبير عنقها، المهم بالنسبة إليها أن تتمكن من محاصرة فيترال بعد

مغادرته للمنزل، ومن ثم الحصول على هذا الدفتر اللعين، وانتزاع صفحاته المليئة بالأكاذيب الواحدة تلو الأخرى، كما يتمّ انتزاع أظافر شخص ما لإجباره على الكلام، إصبعاً تلو الآخر. ستُخيف فيترال بمسدّسها وتُجبره هو الآخر على الكلام. عندما تحين اللحظة المنتظرة سترتجل وتخترع قواعد اللعبة السادية اللذيذة.

تسرَّبت رائحة الرماد والدخان إلى أنف مارك، ثم تسرّبت إلى حلقه بسرعة كبيرة، بدا كما لو أنّ المدفأة قد اشتغلت لساعات طويلة دون أن تتمّ تهوية المنزل. بدأ مارك بالسعال. وجد نفسه في مستودع صغير هو أشبه بغرفة مهملات وُضِعَت فيها علب محفوظات وأدوات بستنة وأعمال يدوية. دفع الباب وصعد ثلاث درجات إسمنتية، ثم فتح باباً ثانياً يقود مباشرة إلى ما يُفترض أنه بهو منزل غران-دوك.

شمّ مارك رائحة الدخان القوية، سعلَ مرة أخرى. استقرَّ ناظراه على المدفأة الكبيرة أمامه. المسألة واضحة، لقد تمّ إحراق عدة كيلوغرامات من الأوراق هنا. ألقى نظرة على صناديق الأرشيف الفارغة على الأرضية الخشبية. يبدو أنّ غران-دوك قد قام قبل فترة قصيرة للغاية بتنظيف المكان!

لم يجد الوقت الكافي لتحليل ما رآه، فقد تجمَّدت فقرات ظهره بعدما سمع صوتاً غريباً خلفه على اليمين؛ طرقات مكتومة بفعل تتابع هزات قصيرة، كتلك الأصوات التي تتسبّب بها إوالية لعبة ميكانيكية. استدارَ مارك مترصّداً، ليتفاجأ بالمَحيى الكبير الذي استقرّت معظم اليعاسيب في قعره الرطب بلا حراك. اقتربَ أكثر. وحدها اليعسوبة الأكبر حجماً، ببدنها ذي اللونين الأحمر والذهبي مَن جاهدت في محاولةٍ يائسة للطيران، كما لو أنها أدركت وجود شخص ما في

الغرفة، ما قد يعني إمكانية إنقاذها، حرَّكت أجنحتها ثم ضرَبت بها زجاج المَحيى. بقي مارك للحظات بلا حراك هو الآخر، مفتوناً بالحركات اليائسة لليعسوبة. يعسوبة محتَجَزَة! ربما هي موشِكَة على الموت لتلحق بعشرات قبلها. تقدَّم مارك بلا تفكير، ثم أمسكَ بالغطاء الزجاجي الذي يغلق المَحيى ورفعه رغم ثقل وزنه ثم وضعه أمام الحائط القريب. هربت اليعسوبة الرقعاء من المَحيى بعدما حرّكت جناحيها عدّة مرات متأثّرة بالهواء المنعش. تابع مارك تحليقها ببصره، كان تحليقاً متردّداً قبل أن يستعيد عظمته بسرعة. دارت اليعسوبة في الغرفة لوقت طويل، قبل أن تحطّ على ثريا البهو.

تسارعت دقات قلب مارك بشكلٍ غير طبيعي.

كانت سعادته بتمكّنه من إنقاذ الحشرة الحمراء أشبَه بسعادة الأطفال الصغار.

إنها يعسوبته.

لم يتصوّر أبداً أنّ كريدول غران-دوك يجمع هذه الحشرات الصغيرة. ولكن لماذا تركَها تُحتضر بهذا الشكل؟

تفحَّص مارك مكتب غران-دوك. كلّ شيء مرتب بعناية شديدة: الأقلام، المفكرات، زجاجة الخمر الصغيرة الفارغة، والكأس. يوحي هذا الترتيب بأنّ شيئاً ما غير طبيعي بالمرة. كما لو أنّ غران-دوك قد فكر في تصفيةٍ منظمةٍ لكلّ ما له علاقة بالقضية التي تولى أمرها. الأرشيف المحترق، الحشرات الميتة، وربما وصيته الأخيرة أيضاً، هذا الدفتر الأخضر الذي يحمله في حقيبته، الذي انتهى غران-دوك من كتابته ليلة عيد ميلاد ليلي الثامن عشر، قبل أن يُرسلَه إليها.

نهاية حياة غران-دوك، نهاية جرى الإعداد لها بدقّة متناهية.

ما الذي جرى بعد ذلك؟ لماذا لم يُعثَر لغران-دوك على أثر؟

راوده رغم ذلك شعور غريب بوجود كارثة ما، زجاجة الخمر التي بقيت في مكانها، النافذة المواربة والزجاج المهشّم على سبيل المثال، وتلك الرائحة أيضاً، ليست رائحة دخان المدفأة، بل رائحة أخرى متوارية بمَكر.

شيء ما غير طبيعي هنا...

أشرق وجه مارك فجأة، فجلس على المقعد أمام مكتب غران-دوك، ثم فتح حقيبته وأخرج الدفتر الأخضر، وقلب الصفحات، ليتوقف عند آخر صفحة كتبها غران-دوك بخطّ يده.

من السهل التعرف على طريقة تفكير غران-دوك في اللحظات الأخيرة من حياته من خلال قراءة الصفحات الأخيرة لمذكراته... كرواية بوليسية مثيرة إلى درجة استسلامنا لرغبة تجاوز الصفحات قصد التعرّف على نهايتها، مع إحساس بالخيانة، سرعان ما ننساه على الفور.

استعادَ مارك تركيزه. لا تتضمن الصفحة الأخيرة من مذكرات غران-دوك سوى عشرين سطراً، فيما احتفظ خطّه بدقّته وانتظامه.

حسناً، لقد دوّنت كلّ شيء هنا.

نحن اليوم في 29 سبتمبر 1998، عشرون دقيقة قبل منتصف الليل. كلّ شيء في مكانه. انتهى كلّ شيء. ستبلغ ليلي عامها الثامن عشر بعد دقائق قليلة. سأعيد قلم الحبر إلى مكانه أمامي، سأجلس خلف المكتب، وأفرد نسخة صحيفة ليست ريبوبليكان ليوم 23 ديسمبر 1980، العدد الصادر في هذا اليوم المشؤوم، ثم

سأطلق رصاصة على رأسي بهدوء شديد. سيسيل دمي على ورق الصحيفة المصفر. لقد فشلت...

سأكتفي بترك هذه المذكرات ورائي، من أجل ليلي، ومن أجل كلّ مَن يريد الاطّلاع عليها.

لقد أحصيتُ في هذا الدفتر كلّ الأدلة، كل الآثار، كل الاحتمالات. ثماني عشرة سنة من التحقيقات. كلّ شيء مدوّن في هذه الصفحات المئة. إذا ما طالعتموها بتمعّن ستعرفون كل شيء، وبقدر معرفتي. ربما ستكونون أكثر ذكاء؟ ربما ستتبعون وجهة أهمَلتُها أنا؟ ربما ستعثرون على مفتاح اللغز، إن كان موجوداً أصلاً؟ ربما...

لمَ لا؟

انتهى كل شيء بالنسبة لي.

من المُبالَغ فيه القول إنني لا أشعر بأيّ ندم أو تأنيب للضمير، لكنني بذلتُ كلّ ما في وسعي.

قرأ مارك السطر الأخير ببطء، **لكنني بذلتُ كلّ ما في وسعي.** بقي مسمّراً في مكانه للحظات، باحثاً عن السيطرة على شعوره المتصاعد بالقلق. قبل أن يُعيد قراءة سطور أخرى.

سأطلق رصاصة على رأسي بهدوء شديد. سيسيل دمي على ورق الصحيفة المصفرّ. لقد فشلت...

رفع مارك عينيه.

لقد تحدّث غران-دوك عن انتحاره المنتظَر.

لماذا لا توجد إذاً أية آثار للدماء على المكتب؟ ولا وجود لصحفٍ أيضاً، ولا أسلحة. إذاً فقد تراجع غران-دوك عن انتحاره

قبل يومين، بين الحادية عشرة مساء وأربعين دقيقة ومنتصف الليل. . .

لماذا؟ لماذا أعدَّ كلّ شيء بعناية ثم تراجع في نهاية المطاف؟

هل افتقر غران-دوك للشجاعة اللازمة؟ أم أنه أطلق النار على رأسه بعد ذلك في مكان آخر؟ أم أنه كذب في مذكراته هذه. . . حديثه عن التضحية؟ وكلّ هذا الكلام؟ أم أنه. . . يا له من سيناريو مجنون! اكتشف شيئاً ما قبل منتصف الليل؟ فكرة، ومضة، تفصيل ما. . .

أعاد مارك قراءة السطور الأخيرة في المذكرات ببطء شديد.

لم يترك غران-دوك أي دليل. اليقين الوحيد: لم يمُت منتحراً على سطح مكتبه برصاصة في رأسه.

أغلق مارك الدفتر وسعلَ ثانية. دائماً تلك الرائحة المقزِّزة التي صارت أكثر قوة، كما أجبره صوت ميكانيكي جديد على الالتفات. عشرات اليعاسيب التي تحرَّرت من قعر المَحيى بعدما أنقذها الهواء المنعش بدأت بالتحليق في البهو، طيران ضعيف لكنه متوازن، من مكان إلى آخر، من مقعد إلى طاولة، من ستارة إلى عصاها القابضة. يبدو أنها لم تمُت بعد. حشرات أكثر قدرة على المقاومة ممّا يتصور. ابتسم مارك بعدما قاده التفكير إلى ليلي، يعسوبته، الوحيدة التي يريد إنقاذها فعلاً، لكن بطريقة معاكسة، أن يُخفيها عن الأعين بإغلاق غطاء المَحيى. شعر مارك بنوع من الضبابية في أفكاره. كانت هذه الحشرات تطير حول عينيه، كذلك الذباب الوهمي الذي يسبق أي شعور بالدوار.

نهض، عليه أن يتحرَّك بسرعة.

يا إلهي، ما مصدر تلك الرائحة!؟

تقدّم ببضع خطوات، كلما اقترب من المطبخ زادت حدّة الرائحة. كان المطبخ نظيفاً، مرتباً، حتى سلّات المهملات فارغة تماماً، لكن مصدر الرائحة بلا شك هو خزانة مستقيمة بالقرب من حوض المطبخ.

فتح مارك الباب ببطء.

سقطت الجثة أمام قدميه مباشرة في صوت مكتوم.

متصلّبة، كتمثال شمعي.

تراجع مارك مصدوماً، شاحباً، مرعوباً.

كانت الجثة أمامه وقد لطّخت القميص بقعة حمراء داكنة.

كريدول غران-دوك.

ميتاً، كما أعلن عن ذلك في مذكراته.

ولكن لم يسبق لمنتحر أن أطلق النار على قلبه ثم أخفى سلاحه ونظّف الدم المسفوح وأخفى نفسه في خزانة.

تراجع مارك بخطوة أخرى.

كريدول غران-دوك لم ينتحر، بل قُتِل.

- 18 -

2 أكتوبر 1998، الحادية عشرة صباحاً وسبع وعشرون دقيقة

أمسكت مالفينا دو كارفيل بهاتفها المحمول، بأطراف أصابعها، دون أن ترفع رأسها، ومن دونّ أي علامة قد تدلّ أحداً خارج سيارة الروفر الميني على وجود مخلوق بشري داخلها.

بالكاد رنّ الهاتف.

- إنه هنا، قالت مالفينا هامسة. لقد دخل فيترال إلى منزل غران-دوك.

- توقّعت ذلك. لم تتركي آثاراً هناك؟

- لا، لا يا جدتي. لا تقلقي. لقد حاولتُ أيضاً تنظيف رموش وشعر وجلد وجه غران-دوك التي أحرَقتها المدفأة.

أنهت كلامها بضحكة مرتفعة. طبيعي أن تُعاملها جدّتها دوماً على أنها مجنونة.

- جدتي؟

- ماذا؟

- من المحتمل أن يعثر على جثة غران-دوك. لقد أخفيتها ولكن... إن... إن... إن رائحته الكريهة قوية للغاية...

لاحظت أنّ جدتها قد صمتت مفكِّرة على الجانب الآخر من الخط الهاتفي.

- جدتي؟

- نعم، أجابتها ماتيلد دو كارفيل أخيراً... حسناً، إن عثرَ على الجثة... فهذا شأنه. وقد يكون ذلك جيداً في نهاية المطاف. لقد دخل إلى البيت كلصّ، كثيرون هم الشهود الذين رأوه في الشارع. سيترك الكثير من البصمات هنا وهناك... لم نكن لنتوقع ما هو أفضل من هذا، أليس كذلك؟

سَرَت في جسد مالفينا رعشة استمتاع. كانت جدّتها مُحقَّة كالعادة. سيدفع مارك فيترال الثمن. كان تصرّفها في محلّه!

- جدتي؟ إنه يحمل حقيبة على ظهره. أعتقد بأنّ دفتر غران-دوك موجود بداخلها. أتظنّين بأن...

قاطعتها ماتيلد دو كارفيل بنبرة جافة:

- لا يا مالفينا، لا تفعلي شيئاً، ستتبعينه فقط، هذا كلّ ما في الأمر. لا تقومي بأيّ تصرف هكذا في الشارع وفي وضح النهار. أتسمعينني جيداً؟

- حاضر يا جدتي، مفهوم، سأتصل بكِ فيما بعد.

وضعت مالفينا مسدس الماوزر تحت المقعد. نعم، كانت جدتها دوماً على حق، تقريباً. لكن ليس هذه المرة...

حلّقت بعض اليعاسيب حول جثة غران-دوك.

أحسَّ مارك بالغثيان. اعتراه شعور بالقلق والخوف، وإن كان مطالَباً بتمالكِ أعصابه. ليس هذا الوقت أو المكان المناسبين للإصابة بنوبة من نوبات رهاب الخلاء...

الاتصال بالشرطة؟

فكّر مارك بسرعة. لقد دخل إلى منزل غران-دوك عبر نافذة مكسورة، كما ترك الكثير من البصمات. لم تكن هذه فكرة جيدة. خاصة أن رجال الشرطة سيحاصرونه بالأسئلة، كما سيحتجزونه في مخفر الحيّ، وقد يمتدّ ذلك لساعات طويلة في أفضل الأحوال، وهو لن يسمح بذلك! حالياً على الأقل. ليلي بحاجة إليه فوراً. الاتصال بالشرطة ليس فكرة جيدة.

ماذا سيفعل؟

وجَّه بصره نحو الجثة. هو لا يفقه شيئاً فيما يخصّ التشريح الطبي، لكنه فكَّر بأنه من المنطقي اعتبار الوفاة حديثة. الصلابة، الرائحة، كلّها تدفع إلى الاعتقاد بأنّ الجثة تتعفّن هنا منذ ساعات قليلة فقط. تذكّر مارك كلمات غران-دوك الأخيرة التي دوَّنها في دفتره. وإعلانه عن عزمه وضع حدّ لحياته. ما علاقة ذلك بهذه الجريمة؟ ما الذي اكتشفه وكان سبباً في إسكاته إلى الأبد؟

تحرّك مارك في الغرفة بخطى مهتزّة، وأبعد بحركة منزعجة من يده تلك اليعسوبة التي حرَّكت جناحيها بإصرار تحت أنفه.

لا مجال للصدفة هنا، لقد قُتل غران-دوك منذ بضع ساعات، وليس ثلاثة أيام، ليس في ليلة عيد ميلاد ليلي. وجَّه بصره من جديد نحو الغرفة، والمكتب، والمدفأة والمَحيى.

كان يعاين مشهداً سريالياً! واصلت اليعاسيب استيقاظها، الواحدة تلو الأخرى، مستعيدة ثقتها وشعورها بالأمان، ثم حلّقت في الغرفة مصطدِمَة بالنوافذ، منجذبة نحو النهار الذي اخترق المصراع بأسهم من الضوء.

تجوّل مارك قليلاً في المنزل، متفقّداً الغرف المتبقية بدافع من

صفاء الضمير. لم يلاحظ وجود شيء ذي أهمية، لكن بحثه المنهجي ساعده على الأقل في استعادة بعض من هدوئه وانتظام تنفّسه بشكلٍ طبيعي. تقدّم نحو البهو فاندفعت الدماء مباشرة في عروقه من جديد، كتيار نهر في اللحظات التي تتبع عاصفة هوجاء. احمرّت أصابعه، صدغاه، وعنقه. غطّت الصور حائط البهو. ناظم أوزان، ليلي، جبل تيريبل...

تسمّر أمام صورة معينة: جدته! يحتفظ غران-دوك في مدخل منزله بصورة لنيكول. كانت أصغر بكثير ممّا هي عليه الآن، ربما كانت في الخمسين من عمرها تقريباً آنذاك، واقفة أمام شاطئ دييب. تسارعت دقات قلب مارك، في مزيج من الغضب والدهشة. لا يتذكّر مارك جدته سوى على هيئتها الحالية، امرأة في الخامسة والستين من عمرها، ذابلة ذاوية بعد سنوات طويلة من التضحيات. لا يحتفظ ذهنه تقريباً بأيّ ذكرى عن هذه المرأة المبتسمة، والموسرة، وربما المثيرة أيضاً.

أشاحَ ببصره في محاولة لتهدئة توتّره. شعر بغصّة في حلقه، عليه مغادرة المكان في أسرع وقت ممكن. الجزع، رهاب الخلاء... النوبة التي قد تداهمه في أيّ لحظة. فكّر في ارتباك أنه كان مطالَباً بعمل جولة أخرى لمسح بصماته على كلّ ما لمَسَه بيديه، غطاء المَحيى، مقعد المكتب، المزلاج، النافذة، قبل مغادرة منزل غران-دوك... لكنه لم يكن يملك لا المزاج ولا الوقت للقيام بذلك.

عليه أن يهرب، أن يغادر هذا المنزل بأجوائه العفنة ويعود إلى الشارع.

أيّ سبب ذاك الذي قد يدفعه للشعور بالخوف؟ هو لم يقتل

غران-دوك. لقد مات المحقق منذ ساعات طويلة. كان بعيداً عن بوت-أو-كاي آنذاك.

تجاوز مارك النافذة، باحثاً عن جرعات من الهواء النقي.

نعم، ليس هذا وقت التنظيم، هنالك ما هو أكثر أهمية.

العثور على ليلي، قبل كلّ شيء.

الاتصال بجدته أيضاً، هناك في دييب. فَهْمُ حقيقة ما جرى واكتشاف سبب قتل غران-دوك.

كان يملك تصوّره الخاص بشأن السؤال الأخير. تصوّر يرتبط مباشرة بوجهته القادمة.

كان خارج المنزل، يتمشى في الحديقة.

لم ينتبه خلفه لتحليق اليعاسيب عبر النافذة نحو الأفق.

انكمشت مالفينا داخل سيارتها الروفر ميني أكثر فأكثر. تمكّنت بسهولة من تبيّن خيال مارك فيترال عبر المرآة الارتدادية، كان الأبله يقترب بلا انتباه، وحقيبته على ظهره. تسلّلت يد مالفينا إلى أسفل مقعد السائق متلمّسة، قبل أن تمسك بالماوزر إل 110. أمتار قليلة إضافية وسيكون في متناولها. ستُلصق الفوهة الفولاذية ببطنه، لن يكون أمامه خيار آخر، سيسلّمها حقيبة ظهره وداخلها دفتر وصايا هذا المحقق الحقير.

سترى ما الذي يمكنها فعله بعد ذلك، ربما ستطلق عليه النار، لم تحسِم أمرها بعد.

ها هو يقترب...

أقل من عشرة أمتار.

رفعت مالفينا رأسها، متشبِّثة بالمسدس. بعض العجزة يتجاذبون أطراف الحديث في المخبزة، هناك في نهاية الشارع. لا يهمّها ذلك. هم مجرد مجموعة من المخرّفين الذين يبعدون عن المكان، لن يفهموا شيئاً. أدارت رأسها نحو الرصيف على اليمين. مَن يدري. اشرأبّت بعنقها أكثر.

تجمّدت في موضعها بعد ثانية واحدة.

ثلاثة أطفال في الثالثة أو الرابعة من العمر يجذبون ألسنتهم في جذل! يتابعونها برؤوسهم الغبية عبر زجاج النافذة، كما لو كانت تلعب الغميضة، محصورة بين المقود ومقعد السائق. مرحباً. لقد عثرنا عليك...

فجأة ظهرت معلمة جميلة شابة وأمسكت بالمهرجين الثلاثة، فاعتدلت مالفينا في مقعدها بشكلٍ تام.

يا لهم من صبية بلهاء!

قسم كامل من أقسام الحضانة يجتاز الرصيف الآن، ثلاثون طفلاً على الأقل، للذهاب إلى المطعم المدرسي، أو حديقة الألعاب المقابلة، أو أيّ مكان آخر.

في اللحظة الموالية، قابلَ مارك فيترال أطفال الحضانة المتوسطة التابعة لمدرسة سان آن بتهذيب كبير، ابتسم للمعلمة ثم ابتعد بسرعة، غارقاً في أفكاره، دون أن ينتبه للروفر ميني المتوقفة على طول الرصيف.

- ألو، جدتي؟ مالفينا معك. لقد ضيّعته يا جدتي...

- ماذا تقصدين؟! مارك فيترال؟ تريدين القول بأنك أطلقتِ عليه النار...

- لا . . .لم أجد الوقت الكافي لذلك.

شعرت مالفينا دو كارفيل بأنّ جدتها قد أطلقت زفرة ارتياح.

- حسناً، ما الذي يفعله الآن؟

- إنه يبتعد، ربما سيعود إلى محطة المترو. هل تريدين مني أن أتبعه؟

- لا تغادري مكانك يا مالفينا. . .

- ولكن. . .

ألا تغادر مكانها؟ هل جنّت جدتها أم ماذا؟

- . . . ولكن يا جدتي؟ دفتر غران-دوك؟

- قلت لكِ لا تغادري مكانك!

- ولكن. . .

تعلم مالفينا بأنها قادرة على الركض خلفه، والماوزر في قبضتها، ثم محاصرته في ممرّ المترو وانتزاع الحقيبة منه ثم دفعه للسقوط على السكة الحديد. . .

- عودي يا مالفينا، عودي إلى الروزري. هذا أفضل. . .

- أنا قادرة على الإمساك به يا جدتي. . . أؤكّد لكِ ذلك. . .

كان صوت جدتها هادئاً وحازماً في الآن نفسه، كصوتها عندما تتلو على مسامعها في المساء مقاطع من الإنجيل وهي على سريرها.

- اسمعيني يا مالفينا. لقد قرأ فيترال دفتر غران-دوك بلا شك. ردّ فعله منطقي للغاية، لقد ذهب إلى منزل غران-دوك. ربما عثرَ على جثة المحقّق، ردّ فعله الموالي متوقّع أيضاً. . .

لم تعُد مالفينا قادرة على متابعة جدّتها. ما الذي ترمي إليه؟

- يمكنك العودة إلى البيت يا مالفينا. وجهة مارك فيترال القادمة هي منزلنا في كوبفراي، في الروزري.

شعرَت مالفينا بالاستياء، كانت غاضبة من غبائها.

استقرَّت نقطة سوداء على المرآة الارتدادية، ثم تضخّمت شيئاً فشيئاً، تظهر ثم تختفي متلاعبة بأعصابها.

بعد عدّة حركات حلزونية الشكل، استقرّت اليعسوبة بألوانها الذهبية والحمراء على الغطاء المعدني الأزرق للروفر ميني.

- 19 -

2 أكتوبر 1998، الحادية عشرة صباحاً وإحدى وثلاثون دقيقة

توقف مارك ليستريح. اتكأ على الدرابزين الكرومي الذي يفصل الدرج شديد الانحدار -المتجه نحو جادة بلانكي- إلى قسمين. تجمّدت يده بعد ملامستها للفولاذ البارد.

يعرف مارك خط سيره جيداً. المترو خط 6، تغيير المركبة ثم الخط أ4 نحو مارن-لا-فالي. خارج فال-دو روب، المحطة ما قبل الأخيرة. سيكون في كوبفراي بعد ساعة واحدة على الأكثر. لن يجد أيّ عناء في العثور على عنوان آل دو كارفيل الصحيح بعد الاتصال بزميلته جينيفر -التي حالفه الحظّ بعملها ضمن فريق مناوبة اليوم- كما فعل بالنسبة إلى عنوان غران-دوك.

لا حاجة له بإخبار آل دو كارفيل بقدومه، سيجد بالتأكيد مَن يجيب عن أسئلته، الجد في كرسيه المتحرّك والجدة الملكة في برجها العاجي، هما لا يغادران منزلهما... ولو تعلّق الأمر بالذهاب إلى التسوق... هم أيضاً يدفعون رواتبَ لمَن يقوم بذلك.

ابتسم مارك لنفسه. سيفاجئهم! يعمَل هو وآل دو كارفيل للوصول إلى الهدف نفسه: أن يثبت بأنّ ليلي ليست شقيقته، وأنّ

دماء فيترال لا تجري في عروقها... أرضية التفاهم موجودة إذاً.

أرضية التفاهم...

اقشعرّ بدن مارك وهو يتذكّر جثة غران-دوك.

أمسك بهاتفه المحمول. سيتّصل بديبب كما وعَدَ نفسه.

المُجيب الآلي مرة أخرى!

اعتاد -منذ زمن طويل- على مناداة جدّته باسمها «نيكول». كان ذلك أسلوبه الخاص في حسم التردّد الذي لاحقه خلال سنواته العشر الأولى: هل يقول «أمي» أم «جدتي»؟

- نيكول؟ أنا مارك. هل من أخبار بخصوص ليلي؟ أقصد جديدها منذ التاسعة من صباح هذا اليوم؟ اتصلي بي، المسألة في غاية الأهمية.

صَمَتَ للحظات، ثم أكمل:

- بالمناسبة، صحيح أنني لا أتذكر شيئاً، لكنك كنت جميلة جداً وأنتِ في الخمسين من عمرك! قبلاتي.

قبضت يد مارك اليسرى على معدن الدرابزين البارد بقوة، كمَن يريد إلصاق راحته بها وترك أجزاء من لحمه الممزّق بعد انتزاعها. تراقَصَت أصابع يده الأخرى على أزرار الهاتف المحمول.

سبع رنّات.

- أين أنت يا ليلي؟ ردّي عليّ! أجيبيني! لا ترحلي. لقد غادرت منزل غران-دوك. لم ينتحر. لقد... لقد... لقد توصّل إلى شيء ما، يمكنني الوصول إليه أيضاً. سأصل إليه. اتصلي بي. مارك.

دخلَ إلى محطة المترو. كانت الأرصفة فارغة تقريباً في ساعةٍ كهذه. بالكاد ألقى نظرة على الجانب الآخر من السكة الحديد، ليجد إعلاناً ضخماً عن السياحة في دولة الإمارات العربية المتحدة. القطار الذي يصل إلى الرمال الذهبية، أمام القصر الشرقي، تحت نجوم ألف ليلة وليلة.

ثماني محطات، بين كورفيسار وناسيون.

مذكرات كريدول غران-دوك

إذاً فقد تمّ توظيفي للعمل على تحقيق طويل مدّته ثمانية عشر عاماً! أتتصوّرون ذلك؟ ثمانية عشر عاماً وهذه القصة تضغط على أعصابي، كقطعة لُبان صغيرة جرى مضغها مراراً حتى فقدت طعمها. كونوا حذرين، يا قرّاء هذه الصفحات، فقد تلتصق قطعة اللبان هذه بذاكرتكم، لتعجنها مخيّلتكم، ويتلاعب بها منطقكم، بلا نهاية...

كانت الأيام والشهور الأولى من التحقيق مثيرة بشكلٍ لافت. صحيح أنّ أمامي ثمانية عشر عاماً للعمل، لكنني كنت مسكوناً بعجلة لاشعورية. راجعتُ كلّ تفاصيل الملف، مئات الصفحات، في أقل من خمسة عشر يوماً. وخلال الشهور الأولى قمتُ باستجواب عشرات الشهود، رجال الإطفاء الذين عملوا في موقع الحادث بجبل تيريبل، الطاقم الطبي في المركز الاستشفائي بيلفور-مونبليار، الدكتور مورانج، أقارب آل دو كارفيل، أقارب آل فيترال، رجال الشرطة، المفوض فاتوليي، المحامون، لوغيرن والآخرون، القاضيان لو دريان وويبير... إلخ.

لم أكُن أنام بشكلٍ كافٍ، أعمَل خمس عشرة ساعة يومياً، أستيقظ ثم أنهض وأنا أفكر في القضية بحماس شديد، كما لو كنت راغباً في حلّها في أسرع وقت ممكن، لتكون مشغِّلتي راضية عني وتؤمّن لي عقداً مدى الحياة... كَسْبُ رضا الزبونة، كما قد يقول أيّ بَقال.

في الواقع، لم أكُن أعدّ الأرقام. كنت مفتوناً بهذه القضية وواثقاً بأنني سأصل إلى معطى جديد، دليل أغفَلَه الجميع. قمتُ بتجميع الملاحظات، الصور، التسجيلات الطويلة... عمل مجنون... كنت أجهل وقتئذٍ بأنني كنت أبني بدقّة متناهية أساسات عصابي النفسي.

بعد أسابيع طويلة قمتُ خلالها بتحليل كلّ عناصر الملف، توصّلت إلى يقيني الأول. خيِّل إليّ وقتها أنها كانت فكرة عبقرية.

سلسلة اليد!

هذه السلسلة الذهبية الشيطانية التي كانت تحملها ليز-روز دو كارفيل في الطائرة، التي أهداها إيّاها جدّها ليونس. الحلية التي غيّرت يقينيات القاضي ويبير، ذرة الرمل في ميزان العدالة، السلاح الفتاك الذي استخدمه آل فيترال والمحامي لوغيرن. كنت موقناً بأنّ هذا السلاح الفتّاك هو في الوقت نفسه شفرة بحدّين قاطعين. من دون سلسلة كان كلّ شيء يقود إلى الاعتقاد بأنّ الرضيعة الناجية هي إيميلي فيترال... أمّا إن كانت الرضيعة التي قذفت من الطائرة هي ليز-روز، فلا شيء يمنع من الاعتقاد بأنّ سلسلة اليد قد كُسرت في أثناء الاصطدام. انطلاقاً من هذه الفرضية، إذا تمّ العثور على السلسلة في محيط موقع تحطّم الطائرة سينقلب كلّ شيء رأساً على عقب. سيكون ذلك دليلاً لا جدال فيه على أنّ ليز-روز هي الرضيعة الناجية!

أنا شخص صبور، مهووس، عنيد. أؤكد لكم بأنني قد أكون استحواذياً عندما يتعلق الأمر بالعمل. حتى وإنْ قام رجال الشرطة بتمشيط محيط موقع الإيرباص المتفحمة في جبل تيريبل لساعات طويلة، فقد بدأتُ من جديد. متسلّحاً بجهازٍ لكشف المعادن. قضيت سبعة عشر يوماً في جبل تيريبل، نهاية شهر أغسطس 1981، أمشّط الغابة، سنتيمتراً تلو الآخر... شهدت ليلة الحادث هبوب عاصفة قوية. ربما سقطت سلسلة اليد ودُفِنَت تحت الثلوج أو الأرض الموحلة... لا أعتقد بأنّ الشرطي الذي جرى تكليفه بهذه المهمة بعد الحادث قد امتلك الحماس للبحث عن السلسلة بأصابع متجمِّدة وأقدام مغمورة في الوحل.

أمّا أنا فكنت أملك هذا الحماس.

من أجل لا شيء!

لن أحدِّثكم عن سدادات قناني البيرة، وعلب المشروبات الغازية، والقطع النقدية، وباقي النفايات المعتادة التي استخرجتُها من تحت التراب... حتى اعتاد عليَّ المكلّف بالمنتزه الطبيعي هوت جورا في جبل تيريبل، يُدعى غريغوري موريز، وسيم بلحية غير مشذّبة وعينَي عسبور(*)، وجه مسمر ومليء بالأخاديد كما لو كان يصعد إلى جبل كيليمنجارو كلّ عطلة نهاية أسبوع قبل العودة إلى منزله... انتهى بنا المطاف إلى التعاطف بعضنا مع بعض...

ثلاثة أكياس من جميع أنواع النفايات التي تمّ العثور عليها في الجبل، ولا أثر لأية سلسلة يد!

لم يخِبْ أملي رغم ذلك. قلتُ لكم بأنني شخص عنيد. لم أكُن

(*) عسبور: سلالة من الكلاب تتميز بقوتها وسرعة فهمها. (المترجم)

أطيع سوى أوامر ماتيلد دو كارفيل، وهذا يناسبني للغاية، «لا تهمل أيّ تفصيل»، التقدم خطوة خطوة. أن آخذ ما يكفيني من الوقت.

يقيني الحقيقي كان مختلفاً تماماً.

إذا ما سقطت سلسلة اليد في مكان ما بالقرب من الرضيعة الناجية، ليلة المأساة، فمن الممكن أن يكون أحد ما قد عثرَ عليها، رجل إطفاء، شرطي، ممرض، وربما وضعها في جيبه... أو أنّ أحد سكان المنطقة قد عاد إلى الموقع للبحث بعدما خمدت نيران الطائرة المنكوبة... هي حلية من الذهب الخالص، يقدَّر ثمنها آنذاك بأحد عشر ألفا وخمسمئة وستين فرنكاً بالضبط، والفاتورة تثبت ذلك، مع ختم تورنير، ساحة الفاندوم. قطعة ثمينة قد تُثير الأطماع. من المعتاد أن يحوم بعض الاستغلاليين حول مخلّفات الحوادث بحثاً عن شيء ما ذي قيمة، خاصة أن أحداً لم يكُن ليشكّ في الأهمية التي ستتخذها هذه الحلية اللعينة فيما بعد...

كانت فكرتي بسيطة وسهلة أيضاً: أن أغرِقَ المنطقة بإعلاناتٍ صغيرة. مكافأة كبيرة لمن يعثُر على الحلية ويُعيدها. وعلى قيمة المكافأة أن تتجاوز بعدة أضعاف قيمة الحلية نفسها... وهكذا، اتفقت مع ماتيلد دو كارفيل على الرفع من قيمة المكافأة بشكلٍ تدريجي. بدأنا بهدوء شديد، وبعشرين ألف فرنك... صيد كهذا يتطلب الكثير من الصبر والوقت والخفّة قبل أن تبتلع السمكة الطعم. كنت واثقاً... إذا ما تمّ العثور على سلسلة اليد، وكانت ترقد في دُرجٍ منسيّ، أو قامَ لصّ مستغل للفرص بإخفائها، كما احتفظ كولوم بخاتم فرودون(*)، فستظهر عاجلاً أم آجلاً، سيتسرّب دليل ما.

(*) كولوم وفرودون: أبطال سلسلة سيد الخواتم الشهيرة. (المترجم)

كنت محقّاً. كنت محقّاً في هذه النقطة على الأقل.

انشغالي الآخر طوال الأشهر الستة الأولى كان ما أطلقتُ عليه «عطلاتي التركية». قضيت ما يقارب الثلاثين شهراً في تركيا. معظمها في السنوات الخمس الأولى.

كنت مدعوماً بناظم أوزان الذي قَبِلَ مساعدتي في التحقيق على الفور. كان يشتغل وقتها في بعض الأعمال تحت الطلب، وبطريقة غير شرعية. يقترب هو الآخر من الخمسين، لم يعُد يناسبه العمل مرتزقاً في نقاط ساخنة من العالم، محاطاً بانتحاريين متعصّبين. كما أنه وقعَ في الحب. كان يعيش في باريس رفقة امرأة ممتلئة قليلاً لكنها جميلة رغم ذلك، تركية مثله، وتُدعى آيلا. لا يفترقان أبداً ولن يفهم أحد السبب الحقيقي لذلك... كانت آيلا امرأة مسيطرة، غيورة كنمر، وكنت مضطراً لمفاوضتها عدّة ساعات كلما كنت بحاجة لاصطحاب ناظم معي إلى تركيا، وبمجرّد وصولنا إلى هناك كان عليه الاتصال بها يومياً... لا أعتقد بأنها فهمت يوماً حكاية هذا التحقيق، وربما لم تكن تصدِّقنا أيضاً، وهذا أسوء... لكنها لم تحمِّلني المسؤولية أبداً، بل إنها أصرّت على أن أكون شاهداً على زواجهما في يونيو 1985...

كنت أصطحب ناظم معي إلى تركيا رغم امتناع آيلا، إنه مترجمي. كنت أنزل في فندق أسكوك المطلّ على القرن الذهبي(*)

(*) القرن الذهبي: شبه جزيرة في القسم الأوروبي من مدينة إسطنبول، يوجد بها قصر الباب العالي ومسجد السلطان أحمد وآيا صوفيا. (المترجم)

في إسطنبول، بالقرب من جسر غلطة سراي، أما ناظم فكان مجبَراً على المبيت عند أقارب آيلا في أيوب بضواحي إسطنبول! كنا نلتقي في حانة أمام الفندق، مقهى ديز آنج، آيهان إيسيك سوكاك. يستغلّ ناظم الفرصة لاحتساء كؤوس من العرق محاولاً في الوقت نفسه تعليمي تدخين النارجيلة.

عطل تركية، كما سمَّيتها.

أعترف لكم على سبيل الدعابة أنني كنت وقحاً دائماً في تعاملي مع عادات وتقاليد الشعوب، والاغتراب، وكلّ هذه الأمور. كان ذلك نوعاً من العنصرية إنْ صَحّ التعبير، لكنها عنصرية تجاه الجميع، لا أقصد بها أحداً بالذات، نوع من الارتياب العام تجاه الجنس البشري، ربما ورثت ذلك من عملي السابق كأجير مهمّته إفراغ سلة مهملات العالم؛ كنت -بتعبير آخر- بقالاً مكلّفاً بمخازن البارود والمتفجرات.

بدأت الحياة التركية تنفذ من عيني، وأنفي، وأذني بعد أسبوعٍ واحد فقط. جلبة المآذن، صخب الشوارع، النساء المحجبات، الشاي، رائحة التوابل، سيارات التاكسي التي تسير بسرعة جنونية، الاختناق المستمر لحركة المرور حتى البوسفور... كلّ شيء! كان شارب ناظم الشيء الوحيد الذي كنت قادراً على احتماله حتى النهاية.

على أيّ حال، أعتقد بأنكم تسخرون من إناستي هذه. لكنكم محقّون، ليس هذا موضوعنا الآن. أردتُ فقط إعطاء لمحة عن «العطل المتوسطية». كنت أعوّض امتعاضي بالانكباب على العمل. صدّقوني. لقد اشتغلنا أنا وناظم كالمجانين، خاصة خلال الأشهر الأولى. قضينا ساعات طويلة في استجواب تجار البازار الكبير

للعثور على مَن باع تلك الملابس التي كانت ترتديها الرضيعة الناجية. لباس قطني، فستان أبيض مزيّن بورود برتقالية، كنزة جاكار صوفية... هل تتخيلون ذلك؟ بازار إسطنبول الكبير، أكبر سوق تجاري في العالم، ثمانية وخمسون شارعاً داخلياً، أربعة آلاف محل... معظم الباعة يتكلمون بالإنجليزية والفرنسية، ويحاولون تجاوز ترجمة ناظم، متوجّهين بالكلام إليّ مباشرة، كما لو أنّ العلم ثلاثي الألوان كان مطبوعاً على جبهتي:

«رضيع، أخي؟ تبحث عن ملابس رضيع؟ لديّ كلّ ما تبحث عنه. هل كنزك الصغير ولد أم بنت؟ قلْ لي أنت السعر الذي تريد...».

أربعة آلاف محل، صدّقوني! مع ضعفَي أو ثلاثة أضعاف هذا العدد من الباعة القادرين على تحديد الحمامة الغربية على بُعد خمسين متراً. لكنني تمالكتُ نفسي حتى النهاية. قضيتُ أكثر من عشرة أيام في التجوّل بين أرجاء هذه المتاهة التجارية بسقفها ذي الفسيفساء المذهبة، عثرت في النهاية على تسعة عشر محلاً يبيع اللباس القطني، الفستان الأبيض والكنزة الصوفية، ثلاثتهم على السواء، الملابس نفسها... ولا أحد من الباعة يتذكّر بيعه لهذه الملابس الثلاثة مجتمعة لعائلة غربية.

رهان خاسر.

طريق مسدود في متاهة واسعة.

بقي لي أن أعرف المزيد حول ليز-روز ووالديها، ألكسندر وفيرونيك دو كارفيل. لم يعتمد التحقيق الرسمي في تحديده لهوية ليز-روز سوى على نقطتين: صورة الظهر، التي توصَّل بها الجدان

دو كارفيل، وشهادة مالفينا. ما تطلَّب مني البدء من جديد، هناك في تركيا، في إقامتهم الساحلية الفخمة في جيهان. كان تفاؤلي عقلانياً. بالتأكيد قابلت ليز-روز الكثيرين في ثلاثة أشهر!

لكن أوهامي تبدَّدت بسرعة كبيرة.

يبدو أن ألكسندر وفيرونيك دو كارفيل لم يكونا اجتماعيين، لم يكونا من هواة الاختلاط بالجموع أو التواصل الأخوي مع الشعب الغريب عنهما. كانا من النوع الذي يفضِّل الانزواء في الفيلا البيضاء المطلّة على البحر الأبيض المتوسط، حتى أنهما كانا يملكان شاطئاً صغيراً خاصاً بهما!

لنقل -بمزيد من الدقّة- إن فيرونيك هي التي كانت تبقى في برجهما العاجي، بينما يعمل ألكسندر في إسطنبول طوال الأسبوع تقريباً. طبيعي أن يستقبلا بعض الأصدقاء أو الزملاء الفرنسيين من وقت إلى آخر، لكن، هذا قبل ولادة ليز-روز! فبعد ولادة الطفلة قلّلت فيرونيك من مساهمتها في مثل هذه المناسبات الاجتماعية. تمكنتُ بوسائل مختلفة من الوصول إلى سبعة أشخاص، وأربعة أصدقاء، وثلاثة متعاملين مع شركة دو كارفيل، تمت دعوتهم لفيلا جيهان بعد ولادة ليز-روز. في كلّ مرة كانت ليز-روز نائمة، ولا يتذكّر المدعوون سوى كتلةٍ من اللحم لا تغادر سريرها إلّا في فترات متباعدة.

وحده عميل هولندي مَن رأى ليز-روز مستيقظة... ولبضع ثوانٍ فقط. انسحبت فيرونيك بعد ذلك لإرضاعها، وهو ما لن تقوم به أمام رجل الأعمال الهولندي الذي واصل احتساء كؤوس العرق في البهو موقِّعاً في الوقت نفسه على بعض العقود مع ألكسندر. أكَّد لي المدير التجاري للفرع التركي لشركة شل أنّ التعرف على ملامح

ليز-روز صعب جداً، ربما بقدر صعوبة التعرّف على ثديَي والدتها. . .

يولَد في باكركوي، مستشفى الولادة الإسطنبولي الذي وضعت فيه فيرونيك وليدتها، أكثر من ثلاثين طفلاً أسبوعياً. . . كانت عيادة خاصة على آخر طراز، وتمّ استقبالي بحفاوة ملحوظة. كان طبيب الأطفال الوحيد الذي تابع حالة ليز-روز - قد فحصها ثلاث مرات، منبِّهاً إلى أنه يتابع حالات عشرين رضيعاً حديث الولادة يومياً. . . راجع دفتراً دوَّن فيه المعلومات الأساسية المرتبطة بولادة ليز-روز. الوزن: ثلاثة كيلوغرامات ومئتان وخمسون غراماً؛ الطول: تسعة وأربعون سنتيمتراً.

هل بكَت الطفلة؟ نعم.

هل كانت عيناها مفتوحتين؟ نعم.

غير ذلك؟ لا شيء.

علامات خاصة؟ لا.

الطريق المسدود مرة أخرى!

يبدو أنّ فيرونيك دو كارفيل كانت تجد صعوبة بالغة في الاعتناء بالفيلا! كان عدد الخدم قليلاً. نجحت فقط في العثور على بستاني مسنّ بعض الشيء، وربما حسير النظر بما لا يوافق تحقيقي، رأى ليز-روز مساء يومٍ ما، تحت أشجار النخيل، لكنها كانت محتمية بكلّة سميكة! لا معلومات يمكن استخلاصها من وصفٍ ضبابيّ كهذا، وصف قد يكون أقل إفادة من هذيان مالفينا.

لا داعي لإعداد قائمة مفصَّلة بكلّ الشهادات الفاشلة، الضبابية، متعذّرة الاستغلال، التي راكمتها طوال هذه الأشهر. لا تهمل أيّ تفصيل، هذا ما قالته ماتيلد دو كارفيل. كنت مطيعاً ومبهوراً في الآن نفسه؛ فبَعد كلّ هذا، قد تكفي شهادة، شهادة واحدة، للفوز بالجائزة.

أمّا في مطار أتاتورك الدولي في إسطنبول فقد تذكرت مضيفة طيران أنها دغدغت ذقن رضيع ثلاث مرات، قبل إقلاع الإيرباص المتوجّهة إلى باريس.

«رضيع واحد، وليس اثنان؟

- لا، رضيع واحد».

هذا ما قالته، لم تكُن متأكّدة من اليوم أو الرحلة. طفل واحد على الأقل، هذا ما تذكُره...

لقد دسَّت هذه المضيفة اللعينة شكاً آخر داخل جمجمتي التي اختلط فيها كلّ شيء.

رضيع واحد في الطائرة؟

طيب، بعد كلّ هذا، مَن يمكنه تحديد هوية كلّ ركاب الإيرباص في تلك الليلة؟ قائمة الركاب معروفة للجميع، لكن ماذا لو أنّ أحد المسافرين قد تخلَّف عن اللحاق بالرحلة في آخر لحظة؟ رضيع على سبيل المثال. لمَ لا تكون ليز-روز؟ تأخير، سبب قاهر في آخر لحظة، حيلة من والدتها، اختطاف، تمثيلية، أو أيّ شيء قد يقودني إلى التفكير في أنّ ليز-روز لم تكن في الإيرباص 5403، وأنها لا تزال حية، في مكانٍ ما من تركيا...

أو خارجها!

فرضية مجنونة للغاية!

فرضية يمكنها أن تغيِّر كلّ شيء... ألم يكن غريباً، في نهاية المطاف، توفّر معلومات قليلة حول ليز-روز، هذه الرضيعة التي لا يتجاوز عمرها ثلاثة أشهر؟ شهادات قليلة، لا أصدقاء لمعانقتها، لا مربية لاحتضانها، لا وجود لصور لها، لا شيء تقريباً. كما لو أنّ هذه الرضيعة لم تكن موجودة أبداً، أو بعبارة أكثر دقة، أريدَ لها أن تبقى بعيدة عن الأعين...

قادني هذا التقليب المستمر للعناصر في رأسي إلى ما يشبه الهذيان، إذا لم تركَب ليز-روز الطائرة فربما لأنها ماتت قبل ذلك! حادثة عائلية؟ مرض عضال رافَقَها منذ ولادتها؟ جريمة؟ رحل ألكسندر وفيرونيك ومعهما سرهما.

قد تكون مالفينا على علم بالحقيقة، وربما قادها ذلك إلى الجنون.

أثارت كلّ هذه الفرضيات سخرية ناظم عندما كنتُ أعرضها عليه في مقهى ديز أنج. كان يغمس شاربه في كأس العرق.

- جريمة؟ لقد جُننت تماماً يا كريدول!

أعادتني سخريته إلى أرض الواقع، كان يقول، بين نفسَي نارجيلة، إنه لا يؤمن سوى بالدلائل والبراهين المادية المحسوسة.

- لم تكن هذه الرضيعة معزولة في حبس انفرادي طوال ثلاثة أشهر يا كريدول، طبيعي أن يتمّ إخراجها إلى الشارع، وربما رآها أحد المارة أو السياح والتقط لها صورة، أو سجل شريط فيديو بالصدفة... مَن يدري.

- ما الذي تقصده بالضبط؟

- لا أدري. بما أنك تملك أموالاً كافية. يمكنك نشر إعلانات

صحفية صغيرة في عموم تركيا، تضمّ صورة الطفلة الناجية، تلك الصورة التي نشرتها ليست ريبوبليكان. وسترى.

كان ناظم على حقّ! فكرة عبقرية... وزّعنا الإعلانات على الصحف التركية، ما نبحث عنه وما نعرضه في المقابل، مبلغ ضخم بالليرة التركية.

27 مارس 1982، سأتذكر هذا التاريخ دائماً، كان الوقت مبكراً، وجدت رسالة بانتظاري في استقبالات فندق أسكوك. يبدو أن شخصاً ما قد أحضَرَها مباشرة. كانت الرسالة مقتضبة، الاسم: أونال سيركان. مع رقم هاتفي... و -وهذا هو الأهم- نسخة من صورة.

تجاوَزتُ آيهان إيسيك سوكاك كالمجنون وسط السيارات. كان ناظم بانتظاري في مقهى ديز أنج.

- ما المشكلة يا كريدول؟

دسستُ الصورة بين أصابعه الضخمة المشعرة. ركَّز ناظريه على الصورة، كما فعلتُ أنا قبل دقائق قليلة.

صورة في شاطئ البحر.

في الواجهة فتاة سمراء مبتسمة، متناسقة القوام، ترتدي بيكيني محتشماً بعض الشيء، على الطريقة التركية، ويمكن التعرّف في الخلفية على تلال جيهان، ووسطها الجدران البيضاء لفيلا آل دو كارفيل.

بينهما على الشاطئ، خلف الفتاة بأمتار قليلة، كانت طفلة رضيعة ممدَّدة على غطاء بالقرب من امرأة لا يظهر سوى ساقيها.

رضيعة لا يتجاوز عمرها بضعة أسابيع. بقي ناظم مصدوماً، كانت الصورة على وشك السقوط من يده.

الرضيعة هي ليلي، اليعسوبة، الناجية من مأساة جبل تيريبل، لم يكُن هنالك أيّ مجال للشك. العينان نفسهما، الملامح نفسها...

لم يسبق لباسكال وستيفاني فيترال أن زارا جيهان خلال وجودهما بتركيا، كانا بعيدين عنها بما يفوق مئتي كيلومتر. نعم، لم يكن هنالك أيّ مجال للشك، كان هذا الدليل الذي نبحث عنه. أخيراً. لقد فُزنا!

الرضيعة الناجية التي تمّ العثور عليها في ثلوج جبل تيريبل هي ليز-روز دو كارفيل.

كدتُ أبكي من شدّة الفرح. ابتسم شارب ناظم الضخم مطمئناً. لقد فهمَ أيضاً. سعيداً كطفل صغير.

2 أكتوبر 1998، الحادية عشرة صباحاً وأربع وأربعون دقيقة

رنة واحدة. يصعُب سماعها وسط هذا الضجيج تحت الأرض. ليست رنة اتصال، بل رنة مَن تَرك رسالة في العلبة الصوتية. دسَّ مارك أصابعه المرتجفة في جيبه.

- 20 -

2 أكتوبر 1998، الحادية عشرة صباحاً واثنتان وأربعون دقيقة

قطَّعَت آيلا أوزان لحم الخروف المشوي إلى رقاقات دقيقة سقطت على صفيحة إينوكس مقاومة للصدأ. كانت آيلا تفكِّر في أمر آخر. لم يؤخّرها ذلك عن عملها، بل العكس، كان إعدادها للكباب أكثر فعالية عندما تكون غارقة في أفكارها، مقارنة بالوقت الذي تبدِّده في الثرثرة أو المزاح مع الزبائن.

بدأ صف المنتظرين يطول شيئاً فشيئاً، كما كلّ يوم قبل منتصف النهار. يملك محلها الصغير في جادة راسباي زبناءه الأوفياء.

كانت آيلا قلقة، وإن لم تُظهِر ذلك. قلقة بشكلٍ مرعب. لا أخبار عن ناظم منذ يومين، وهذا ليس من عادته!

واصلت السكين تقطيع شرائح اللحم، فيما تخيّلت آيلا نفسها وهي تمرّر آلة الحلاقة على قفا، وعنق، وصدغ ناظم. كانت تعشق لعب دور الحلاقة لعملاقها. ارتجفَت يد آيلا قليلاً، لم تكن يدها ترتجف أبداً عندما تحلق شعر ناظم.

ليس من عادة آيلا أن تشعر بالخوف، عايشت ما يكفي من الرعب في أثناء هروبها من تركيا إلى باريس، رفقة والدها، بعد

انقلاب 12 سبتمبر 1982. كان والدها عهدئذٍ أحد كبار مسؤولي حزب ديموكراتيك سول بارتي، وقد أفلتا من قبضة الجيش بأعجوبة... ثلاثون ألف عملية اعتقال في بضعة أيام! كلّ أفراد عائلتها تقريباً وجدوا أنفسهم خلف القضبان.

كانت قد وصلت إلى باريس بلا أمتعة، بلا أصدقاء، بلا أيّ شيء... كانت في الثامنة والثلاثين من عمرها، لا تُتقن الفرنسية، ولا تحمل أيّ شهادات جامعية.

لكنها بقيت على قيد الحياة! نحن نبقى دائماً على قيد الحياة، إن نحن أردنا ذلك حقاً.

افتتحت في جادة راسباي أحد أول محلات الكباب في باريس. في وقت لم يكن يرغب أيّ فرنسي في تناول لحم مشوي، هكذا في الهواء الطلق، أمام الجميع، وسط الذباب وتلوّث المدينة. كانت تقدم خدماتها للأتراك، اليونانيين، اللبنانيين، اليوغوسلافيين... وهكذا قابلت ناظم.

كان يأتي منتصف كلّ يوم، دون أن تتمكن من تجاهل شاربه الضخم! استغرق الأمر منه ما يقارب السنة، ثلاثمئة وستة أيام كما عدّتها آيلا، قبل دعوتها إلى الغداء... في مطعم تركي أكثر أناقة، شارع آليزيا. لم يفارقا بعضهما أبداً، أو تقريباً، منذ تلك اللحظة.

زوجان، مدى الحياة.

ارتعدت آيلا رغماً عنها.

لم يفارقا بعضهما أبداً، أو تقريباً.

باستثناء رحلاته الغبية إلى تركيا، رفقة غران-دوك، المتعلقة بتلك الحكاية الكريهة عن حفيدة الأغنياء التي قتلت في حادث تحطم

طائرة. تحقيق خاص لمليارديرات. أمسكت بثلاث شرائح كباب ساخنة مغلفة بورق ألومنيوم، ثم صرخت:

- الرقم أحد عشر! الرقم اثنا عشر! الرقم ثلاثة عشر!

رفع الزبائن أياديهم، كما لو كانوا تلاميذ في مدرسة، كلّ زبون بتذكرته. لا تملك آيلا أكثر من يديها هاتين، ولا يمكنها الإسراع أكثر من ذلك. ألقت بمحتوى كيس بطاطس مجمّدة في الزيت الساخن.

اعتقدت في وقت من الأوقات أنّ هذه الحكاية قد انتهت. تمكَّنَت بفضل مطعمها -إنْ كان بإمكانها اعتبار محلّها الصغير هذا مطعماً- من جَمع مبلغ من المال، شيئاً فشيئاً، يوماً بعد يوم، مبلغ محترم من المال في نهاية المطاف.

لم تعُد تملك القدرة، في سنّها هذا، على حمل أكياس اللحم وإحراق يديها بزيت القلي. كانت تحلم بالعودة إلى تركيا رفقة ناظم، للاجتماع مجدداً بعائلتها وأقاربها. كانت تملك الإمكانات -تقريباً- لذلك، دقّقت حساباتها مرة بعد أخرى، إذ عثرت على منزل يحتاج بعض الترميم والإصلاحات، على ساحل، قريباً من أنطاكية، فرصة لا تعوّض. الطقس جميل دائماً هناك. سيكون بحوزتهما، هي وناظم، سنوات طويلة أخرى ليعيشاها معاً! أجمل سنواتهما معاً على الإطلاق.

ما الذي يفعله هذا الحمار؟ هل جرّه غران-دوك إلى دوامة جديدة؟

ثلاث لفافات جديدة، قامت بتغليفها كهدايا فضية.

الرقم أربعة عشر. الرقم خمسة عشر. الرقم ستة عشر...

«آخر مرة، كما قال لها ناظم. آخر مرة فعلاً!» كان متحمّساً من

جديد، عندما اتصل به كريدول قبل يومين. لمعت عينا ناظم كطفل صغير. احتواها بين ذراعيه وحملها كريشة.

ناظم هو الوحيد القادر على فعل ذلك.

«سنصبح أغنياء يا آيلا. آخر عملية قبل أن نصبح أغنياء!».

أغنياء؟ لم تكن آيلا مهتمة بذلك. كانا أغنياء بما يكفي، على الأقل بما يسمح بالحصول على ذلك المنزل في أنطاكية.

«آخر عملية؟ أتعدني بذلك؟».

ارتجفت يدا آيلا. لم تعُد السكين تقطع شرائح لحم متراصّة، بل تمزّقها إلى قطع غير صالحة للأكل...

كلما فكرت في الأمر إلّا وازداد خوفها. هذا الصمت، انقطاع الأخبار المفاجئ. كان ناظم حريصاً على الاتصال بها يومياً، حتى في أثناء سفره إلى تركيا. وكريدول الذي لا يردّ على اتصالاتها. لا أحد في المنزل، تتصل به منذ يومين، لكن بلا جدوى. لم تعُد قادرة على تحمّل وطأة الدقائق التي تمرّ، لا تشعر بأنها على ما يرام. لولا هؤلاء الزبائن لركضَت كالمجنونة نحو شارع بوت-أو-كاي، عند غران-دوك. هذا ما سوف تقوم به، بمجرد إغلاقها للمحل.

الرقم سبعة عشر. الرقم ثمانية عشر...

هي تعلم بأنّ ناظم ليس ملاكاً. كان قد اعترف لها بأمور رهيبة، بعد كلّ هذه السنوات، في أثناء أوقاتهما الحميمة... في هذه الأوقات كان يحكي لها كلّ شيء، لم يكن يقاوم تلك الرغبة في الحديث، لم يخفِ عنها أيّ شيء أبداً. كانت تعرف كلّ الأسماء، والأماكن، وأين يُخفي ناظم أدلته. كانت بوليصة تأمين على حياته! تحقيق مليارديرات... كان مطالَباً بأخذ احتياطاته، حتى وإن تدفّقت

الأموال بسهولة، طوال هذه السنين، فإن الحساب آتٍ، عاجلاً أم آجلاً.

ربما لهذا السبب أيضاً كانت ترغب في الرحيل إلى أنطاكية. لعلّ ناظم يترك كل هذه القصص خلفه، هنا في باريس.

الرقم تسعة عشر.

تنهّدت. لا، لم يكن ناظم صبي مذبح. لم يكن قادراً من دونها على القيام باختيارات صحيحة. والتفريق بسهولة، بين الخير والشر.

- 21 -

2 أكتوبر 1998، الحادية عشرة صباحاً وخمس وأربعون دقيقة

خفّف المترو من سرعته بعد وصوله إلى محطة ساحة إيطاليا، مخترقاً الظلام بألف شرارة اصطناعية. أمسك مارك هاتفه المحمول بعصبية، لم يكن قادراً على ضبطه، ثم ألصقه بأذنه.

«أنت غير قابل للتقويم يا مارك، طلبتُ منك ألّا تتّصل بي، ألّا تبحث عن وسيلة للتواصل معي، ألّا تبحث عني. قلتها في السابق، لقد اتخذت قراراً مهمّاً أول أمس. كان ذلك مؤلماً، وقد تردّدتُ في البداية، لكنني اتخذتُ قراري، وحدي. أعلم أنك سترفضه يا مارك، لأنني أعرف مشاعرك، طيبة مشاعرك. لا تفسِّر الأمر بطريقة سيئة، بالعكس، فأنا أعتبر ذلك نوعاً من الإطراء بحقك عندما أتحدّث عن طيبتك وإخلاصك وضميرك الأخلاقي أيضاً. أعلم أنكَ ستوافقني على كلّ ما أقوم به، ستسامحني، إنْ أنا طلبتُ منك ذلك. لكنني لا أريد أن أطلب منك ذلك، لم أكُن أكذب عليك في رسالتي عندما حدَّثتكَ عن رحلة، الرحلة الكبرى تقرَّر موعدها في الغد، رحلة كبرى بلا عودة. لا شيء يمكنه إيقافها الآن... هكذا. اعتنِ بنفسك. إيميلي».

انهار مارك أثناء استماعه للرسالة الصوتية، وكان على وشك رمي الهاتف بعيداً، نحو مؤخّرة المقطورة. لا تغطية لشبكة المحمول تحت الأرض إلّا في أوقات متقطعة، ربما محطة واحدة فقط من اثنتين.

لقد اتصلت به ليلي...

لكنه خارج التغطية! اللعنة! لم تعثُر ليلي سوى على المجيب الآلي!

انزلق الهاتف المحمول بين يديه الدبقتين كقطعة صابون رطبة. كان يرتجف.

ما الذي أرادبت ليلي قوله؟

«الرحلة الكبرى تقرِّر موعدها في الغد...»

«رحلة كبرى بلا عودة...»

«لا شيء يمكنه إيقافها الآن...»

ماذا لو؟

لم يكن مارك قادراً على التفكير في ذلك الاحتمال.

احتمال مظلم ومرعب كهذا.

لن ترتكب ليلي جريمة كهذه!

ولكن تفكيره المتواصل قاده إلى تبيُّن ما كشفته ليلي بين طيّات كلامها بوضوح.

رحلة كبرى بلا عودة...

صار متأكداً من ذلك بشكلٍ مرعب الآن.

الطائرة اللعبة الصغيرة، لقد اتخذت قرارها يوم بلوغها الثامنة عشرة من عمرها.

كلّ التفاصيل مترابطة بعضها ببعض.

قرَّرت ليلي إنهاء شكوكها، وساوسها، ماضيها.
لقد قرّرت وضعَ حدٍّ لحياتها.
غداً.

قامت ليلي برَمي الكباب الملفوف بورق ألومنيوم في سلة المهملات، بالقرب من البحيرة، لم تلمسه حتى، لم تكن جائعة.

تمشَّت قليلاً، مقتربة من البحيرة. تعتقد بأنّ منتزه مونتسوري - الذي يزعمون أنه الأكبر في العاصمة باريس- هو الأكثر كآبة، في أكتوبر على الأقل... بمياهه الباردة، والكئيبة والقذرة. بأشجاره العارية كجيشٍ من الهياكل العظمية، بإطلالته التي لا تُحجَب على شارع رايل بمبانيه الرمادية مختلفة الارتفاعات، كسياج من الخرسانة سيئة النحت...

كانت طيور البط قد تركت البحيرة منذ زمن بعيد، فيما ارتجفت التماثيل الحجرية للعشاق العراة على قواعدها الرخامية، كما لو أنه لم يعُد لهؤلاء العشاق سوى رغبة واحدة: ارتداء ملابسهم من جديد والرحيل أيضاً عن هذا المكان.

واصلت ليلي مشيها بمحاذاة البحيرة مفكِّرة. ما أغرب هذا الأمر، أن تتغيّر طبيعة الأماكن بحسب مزاجك الشخصي، كما لو أنها تدرك ما تفكر فيه وترافقك على هذا الأساس. كما لو أنّ الأشجار قد أدركت أنها ليست على ما يرام فقرّرت الاحتشام والانكماش على نفسها، مُسقِطَة أوراقها في نوع من التضامن، وربما الشفقة تجاهها. كما لو أن الشمس قد اختبأت هي الأخرى، في نوع من الحياء أو ربما الخزي من مدّ أشعتها نحو منتزهٍ تتجوّل فيه فتاة دامعة العينين.

أطفأت ليلي هاتفها من جديد، كانت قد استسلمت قبل دقائق قليلة، متّصلة بمارك، الذي ترك لها عدّة رسائل في هاتفها المحمول، طبيعي أن يقلق بشأنها، هذا من حقّه. أراحَها ردّ المجيب الآلي، لم تكُن قادرة على مواجهة أسئلته. يبدو أنّ هذه التكنولوجيا الحديثة -بذبذباتها القادرة على ربط آلاف الهواتف اللاسلكية- قد أدركت أيضاً بحدسٍ ما أنها لا ترغب في إجراء هذه المكالمة.

استدارت ليلي متّجهة نحو ممشى لامير، ثم جلست على أحد مقاعد المنتزه، لتُجبرها ضحكات طفولية قادمة من حديقة الألعاب الصغيرة على الالتفات.

طفلتان في الثانية من عمرهما تقريباً تلعبان، تحت مراقبة متقطّعة من والدتهما الجالسة على مقعد آخر، مركّزة بصرها على كتاب جيب بغلاف أزرق وأبيض.

توأم ترتديان ملابس متطابقة تماماً، السروال الخام نفسه والسترة الحمراء نفسها بأزرارها الأمامية، وأحذية كيكرز نفسها في القدمين.

يستحيل التفريق بينهما!

ولكن، كلما رفعت الأم عينيها نحوهما إلّا وأصدرت أوامر محدّدة: «ابقي جالسة على الأرجوحة يا جولييت» أو «لا تدفعي أختك على الأسطوانة الدوارة يا آناييس»، «اصعدي على المزلقة من الاتجاه الصحيح يا جولييت». . .

تذهب الطفلتان ثم تعودان، تنتقلان من لعبة إلى أخرى، تمسكان بيدي بعضهما، ثم تفترقان، كلعبة جرى الاتفاق عليها بينهما. مَن منهما مَن؟ تابعت ليلي حركتهما بعينيها كمتابعتها ليدي

لاعب الورقات الثلاث في الأحياء. كانت تخسر الرهان في كلّ مرة، عاجزة عن كشف مَن منهما جولييت ومن آناييس. لا تحتاج والدتهما سوى لربع ثانية بعد رفع رأسها، ومن دون ارتكاب أي خطأ: «رباط حذائك يا آناييس!»، «تعالي يا جولييت لأمسَح لكِ أنفك»...

شعرت ليلي المقهورة بإحساسٍ غريب لم تتبيَّن كنهه بالضبط، لمجرد متابعتها المتواصلة للطفلتين المتشابهتين والمتطابقتين في كلّ شيء... وإن كانت كلّ واحدة منهما تعرف مَن هي، آناييس ليست جولييت، وجولييت ليست آناييس... ليس لأنهما تشعران باختلافهما، لا، فقط لأنّ والدتهما قادرة على التفريق بينهما، الواحدة عن الأخرى، وتتعرف على اسميهما من دون عناء، اسمهما الوحيد.

واصلَت ليلي تأمّلها للطفلتين طويلاً، قبل أن تُغلق الأم كتابها أخيراً وتنهض منادية:

- اخرجي من قفص السناجب يا جولييت، انزلي عن سلّم الحبال يا آناييس. سنعود إلى المنزل، والدكما بانتظاركما لتناول وجبة الغداء.

وضعت الأم يدها بحرص على بطنها المنتفخة. كانت حاملاً، بضعة أشهر.

توأم؟

طفلة أخرى؟

أغمضت ليلي عينيها. كانت ترى رضيعة، رضيعة لا يتجاوز عمرها بضعة أشهر، باكية، وحيدة في قمة العالم. تضيع صرخاتها في الغابة الواسعة والمحيط الصامت للثلوج التي انهمرت بقوة.

لم تتمالك ليلي نفسها، فانهارت باكية.

- 22 -

2 أكتوبر 1998، الحادية عشرة صباحاً وثمان وأربعون دقيقة

مكتبة

دوغومييه.

دومينيل.

ولا وجود لتغطية هاتفية!

كان مارك مصدوماً بفعل رسالة ليلي، قلقاً، عاجزاً.

هل من خيار أمامه، سوى مواصلة مسيره العشوائي كالأعمى في باريس، ومواصلة قراءة محتوى دفتر غران-دوك؟

يتوفر مارك على دقائق إضافية قبل الوصول إلى محطة الأمم.

بيل إير.

فرمَلَ المترو، توقف، ارتجّ، ثم واصل طريقه من جديد. لا وجود لركاب، ولا لتغطية هاتفية!

سيقرأ، سيواصل القراءة.

أن يفهم، ثم يعثُر على ليلي.

في الوقت المناسب.

أصيب ليونس دو كارفيل بأزمته القلبية الأولى عندما كنت في تركيا، 23 مارس 1982، أياماً قليلة قبل إرسال أونال سيركان لصورة ليز-روز دو كارفيل الملتقَطَة في شاطئ جيهان.

لا علاقة إذاً بين الحدثين.

سأكون صريحاً إن قلتُ بأنني لم أهتم كثيراً بأزمة ليونس دو كارفيل القلبية. سبق وأن قابلته أكثر من مرة بعد بداية التحقيق، لكنني أعتقد بأنه كان يوليني اهتماماً مطابقاً تماماً لاهتمامه بحلية صغيرة تافهة قامَت زوجته بشرائها. لنقل بعبارة أخرى إنه لم يتحمَّل فكرة قيام زوجته بمبادرة كهذه، أن تستعين بخدماتي من دون استشارته. كنت دليلاً قاطعاً على فشل استراتيجيته المباشرة. كان يتعاون معي على مضض، مبتسماً، ويزوّدني بالمعلومات المطلوبة عن طريق سكرتيراته المشغولات دائماً. قد تفهمون الآن سبب عدم اهتمامي بانهياري على عشب الروزري، ولا ننسى في نهاية المطاف أنني كنت أتوصّل بالشيكات من زوجته، لا منه هو!

حسناً، أنتم غير مهتمين بسخريتي هذه. وما يهمكم الآن هو قصة صورة شاطئ جيهان؟ تريدون معرفة نهايتها؟ حسناً، أنا قادم، أنا قادم...

كان أونال سيركان أفعوانياً حقيقياً. اتصلتُ به أكثر من مرّة عبر الهاتف، وعرضت عليه ثروة، مئتان وخمسون ألف ليرة تركية، للحصول على الصورة الأصلية لشاطئ جيهان. بقيت القضية متوقّفة لما يقارب الأسبوع، وقد شعرت بأنّ سيركان يخطط للحصول على مبلغ أكبر، وينتظر رفعنا لقيمة المكافأة المقترحة.

انتهى به المطاف يوم 7 أبريل ليطلب مقابلتي في شارع كينيدي بالقرب من توبكابي، أمام البوسفور. كان شخصاً ضئيل الجسم لا يمكن توقّع حركاته، وبنظرات منحرِفَة. عين في آسيا وعين في أوروبا. رافقَني ناظم مترجماً. أراد سيركان عربوناً قدره خمسون ألف ليرة، وبلا نقاش، وإلّا أقدم على بيع الصورة لشخص آخر.

شخص آخر؟ مَن؟ آل فيترال؟ كان يستخفّ بذكائنا.

لم أخضَع لرغباته. إنْ لم يسلِّمني النسخ السلبية، فلن يتسلم ليرة تركية واحدة، لكنه لم يتنازل أيضاً، كنّا على وشك التشابك بالأيدي، بالقرب من تمثال أتاتورك، قبل أن يتدخل ناظم.

اعتراني شعور غريب بعد عودتي إلى الفندق، ليس شعوراً بارتكابي خطأً فادحاً، بل بالعكس، شعرت بأنني نجوتُ بأعجوبة. اتّصلت بفرنسا لكي يرسلوا لي كلّ الصحف والمجلات التي نشرت مقالات عن قضية جبل تيريبل. توصّلتُ بها بعد ثلاثة أيام، يوم 10 أبريل. وامتلكتُ الإجابة بعد ساعة واحدة فقط. فتهشَّمت المزهرية الزرقاء بالقرب من سريري بعد اصطدامها بالبساط القرمزي المعلَّق في جدار الغرفة.

لم يستغرق أونال سيركان وقتاً طويلاً في البحث! كانت صحيفة باري ماتش عدد 8 يناير 1981 قد نشرت عدّة صور لليلي، في مهدها، وفي حضانة مستشفى بيلفور- مونبليار. وفي إحدى الصور كانت ليلي في وضعية صورة الشاطئ نفسها في تركيا، والتي جرى التقاطها قبل شهر واحد تقريباً. مائلة على جنبها، مبتسمة، ساقها اليمنى مطوية، ذراعها اليسرى تحت رأسها؛ وضعية مطابقة تماماً، حتى عينها التي ترمش والمسافة بين أصابعها.

كانت صورة أونال سيركان مزوّرة! لم تكن مهمّة صعبة، فقد

اكتفى باستبدال أغطية مهدها بمنشفة شاطئ من اللون نفسه، فيما تكفّلت صورة لإحدى صديقاته بالبقية.

كنت أرغب في نزع البساط المعلّق على جدار الغرفة، ذلك البساط التركي الذي يريدون بيعك مثله كلما فكّرت في الخروج للتجوّل في شوارع هذه المدينة اللعينة. أن يبيعوا بساطاً أو لحماً مشوياً أو أيّ شيء آخر، حتى لو كان منزلهم بأكمله، بعد تفكيكه وعرضه على الرصيف، قد يبيعون أطفالهم ونساءهم وربما أنفسهم أيضا، ذراع، ساق، عضو، قلب... شعب ملعون من البقالين!

ساعتان وأنا أذرع الغرفة جيئة وذهاباً. استعدت هدوئي بشكل تدريجي؛ لم أفكِّر حتى في محاسبة أونال سيركان... كان فخّاً مُحكَماً، وكان من الممكن أن ينجح. خدعة ثمنها مئتان وخمسون ألف ليرة تركية، فقط من أجل صورة مزوّرة. لم أقابل أونال سيركان مرة أخرى، كنت مشغولاً بما هو أهم من ذلك.

قضيت الأسابيع الموالية في تركيا محاولاً التحقيق في فرضيات أخرى، كان ناظم يعتبرها -ونحن جالسان في مقهى ديز أنج- ضبابية وغامضة أكثر من اللازم. كان على حق. ومع مرور الوقت تعلّمت تدخين النارجيلة، وتعوّدت عليها بالإضافة إلى العَرق والكييف، والشاي الذي يقدِّمونه على أطباق من فضة، في كؤوس زجاجية قد تحرق أطراف أصابعك بسرعة قياسية.

– ناظم، وماذا لو لم تكن ليز-روز ابنة ألكسندر دو كارفيل؟

– وماذا بعد، تنهّد ناظم وهو ينفخ على كأسه، هل سيغيِّر ذلك شيئاً ما يا كريدول؟

– كل شيء! تخيَّل معي، أنه لسبب أو آخر، لم يكن ألكسندر

دو كارفيل والد ليز-روز الحقيقي... وأنّ فيرونيك كانت تقابل عشيقاً ما... عشيقاً أزرق العينين... قد يقلب ذلك كلّ فرضيات علم الوراثة ولون البؤبؤ وكلّ أوجه التشابه التي كنا نبحث عنها... ما رأيك؟

- تتحدث عن عشيق مفتَرَض يا كريدول؟

حدَجَني ناظم بنظرةٍ خبيثة مستمتعة، قد تكون واحدة من تلك النظرات التي تعشقها حبيبته آيلا.

يعتقد البعض أنّ قضايا العشاق والخيانات ليست سوى قضايا هامشية وثانوية بالنسبة إلى المحقّق الخاص... خطأ! سأكون صريحاً إن قلت بأنّ الدخول عنوة في تفاصيل الحياة الجنسية للزبناء يبقى أحد أفضل جوانب هذه المهنة...

لم أجد صعوبة بالغة في اكتشاف بعض التفاصيل المتعلّقة بحياة ألكسندر الشخصية، لم يكن نموذجاً للاستقامة. ولم أشكّ في ذلك... أن تملك السلطة، المال، الشباب، في مدينة لم تتخلّص بعد من نظرتها القديمة للحريم، وبوجود زوجة تبعُد عن مقرّ عملكَ بخمسمئة كيلومتر... ما مكّنني من إثبات تورّط ألكسندر في ست مغامرات نسائية على الأقل. المثير للتأمّل هنا هو سهولة اعتراف النسوة بوجود مغامرات مع عشيق وافَته المنية... كما تزداد تلك السهولة في حالة وفاة زوجة العشيق أيضاً...

غريبة هي لعبة المشاعر.

كانت طريقة ألكسندر دو كارفيل كلاسيكية جداً، علاقة مألوفة مع السكرتيرة فوق المكتب الزجاجي في مقرّ الشركة بإسطنبول، شارع يانيكابي؛ وقد رأيت الاثنين، السكرتيرة والمكتب الزجاجي.

أنيقان وباردان. كما ربط علاقة لمدّة ثلاثة أشهر مع إسطنبولية مثيرة، راشدة بالكاد، كانت تتجوّل في شوارع غلطة سراي بتنورة قصيرة وسرّة مكشوفة، تحت الأنظار الفضولية للنسوة المحجّبات. كانت تتجوّل معه من حانة إلى حانة. عثرتُ عليها وعلمتُ بأنها قد تزوّجت وأنجبت طفلين. لم ترتدِ الحجاب لكنها أقلعَت عن ارتداء التنانير القصيرة. ولا داعي للحديث عن مغامرات الحمامات والراقصات والمتخصّصات في ممارسة الجنس، المرفوقات غالباً بزبائنهن. وبحسب التحقيقات التي أجريتها، كانت عشيقته الأكثر إخلاصاً فرنسية تُدعى بولين كولبيرت، عازبة، تعمل مسؤولة مبيعات في شركة توتال، وتقول إنها آخر مَن مارست الجنس مع ألكسندر دو كارفيل يوم 22 ديسمبر 1982، أي في اليوم نفسه لإقلاع الإيرباص 5403... كانت فكرة مساعدة ألكسندر على بلوغ نشوته عدة مرات قبل أن ينتهي به المطاف محترقاً في طائرة بعد أقل من أربع وعشرين ساعة تُرعبها بشدة. اعترفت لي بلا حياء أنها استمتعت بمغامرتها مع فحل كألكسندر. كانت تملك ملامح عادية وجسداً مثيراً. كما لاحظتُ بأنها لم تكُن لتتورّع عن إضافة محقّق خاص إلى قائمة صيدها.

وهكذا يطرح السؤال الأول: هل كانت فيرونيك دو كارفيل على علمٍ بخيانات زوجها؟

يصعب عليّ توقّع العكس! وهذا يقودنا إلى السؤال الثاني، وهو الأهم: هل كانت تفعل الشيء نفسه؟ لم أجد أيّ دليل يؤكد ذلك. بدا أنّ فيرونيك كانت مكتئبة بشكلٍ دائم، تعيش وحدها مع ابنتيها، مالفينا، وليز-روز... لم تكن تقابل الآخرين كثيراً كما أسلفت الذكر... حاولت العثور على عشاق أو آباء مفترضين لليز-روز في

محيطها. كان هنالك ابن البستاني، شاب وسيم وطيب جداً كان يعمل بصدرٍ عارٍ تحت أنظار فيرونيك، من ذلك الطراز الذي قد يثير غرائز الغربية المكتئبة، قارئة عشيق الليدي شاترلي المضطربة. لكن الشاب لم يعترف بوقوع شيء ما، كما أنّ عينيه السوداوين لا تخدمان الفكرة التي أقصدها، من وجهة نظرٍ وراثية...

ركزت بحثي على الأعين الزرقاء في محيط فيلا دو كارفيل في جيهان. كانوا قلة. عثرت على ثلاثة، من بينهم مشتبه به مفترض، وهو ألماني وسيم كان يقوم بتأجير مراكب البيدالو. التقطت له عدداً من الصور، مترقّباً مع مرور السنوات تشابهاً مستقبلياً مع ليلي، فيما يشبه لعبة العثور على الاختلافات السبعة، لم يقُدني ذلك إلى أيّ نتيجة مقنعَة حتى الآن، وهذا أفضل بكثير من أن يأتي يوم أجد فيه نفسي أمام ماتيلد دو كارفيل لأخبرها بأنها دفعت ثروة طوال كل هذه السنوات حتى أثبت لها بقاء ليز-روز على قيد الحياة بعد الحادث، ولكنها ليست حفيدتها، ولا تنحدر من آل دو كارفيل، بل كانت ابنة مؤجِّر مراكب بيدالو!

في تلك الأثناء، كانت المكافأة المخصّصة لسلسلة اليد في فرنسا قد ارتفعت لتبلغ خمساً وأربعين ألف فرنك، ورغم ذلك لم تبلع أية سمكة الطعم. وهو ما يؤكد صعوبة تزييف سلسلة يد ذهبية صُنعت في تورنير...

ودائماً مع سلسلة «عدم إهمال أية فكرة»، واصلت إثارة عصبية ناظم بين نفَسَي نارجيلة وثلاث رشفات من الشاي الساخن:

- ناظم، ماذا لو كان تحطّم الإيرباص 5403 مدبّراً؟

كان ذلك وقت الظهر، وقد امتلأ مقهى ديز أنج بأتراكٍ يرتدون

ربطات العنق ويحتسون كؤوس العرق وقت الصلاة. قفز ناظم من مكانه وقد أوشكَ على إسقاط الصينية التي أحضَرَتها النادلة.

- ماذا تقصد يا كريدول؟

- حسناً... لو أعدنا التفكير في ذلك، فإنّ أسباب حادث جبل تيريبل لم تُعرف بشكلٍ واضح. العاصفة الثلجية، قلّة خبرة الربان، كل هذا ليس مقنعاً، أليس كذلك؟ لمَ لا نبحث عن أسباب أخرى؟

- أنا أثق بك... وضّح كلامك أكثر...

- عملية على سبيل المثال. عملية إرهابية!

اهتزّ شارب ناظم.

- ضدّ مَن؟ آل دو كارفيل؟

- لم لا؟ عملية تستهدف العائلة، ووريثها الوحيد ألكسندر... لا أعتقد بأنّ تحليلي سخيف إلى تلك الدرجة. عمل ألكسندر على مشروع محفوف بالمخاطر، خط أنابيب باكو-تبيليسي-جيهان الذي يمر من كردستان. كان ألكسندر يتفاوض مباشرة مع الحكومة التركية، في الوقت الذي ضاعف حزب العمال الكردستاني(*) من عملياته على امتداد التراب التركي...

انفجر ناظم ضاحكاً.

- الكرد! لنقل بأنكم هناك في الغرب تعتبرون الجميع إرهابيين... الكرد! هؤلاء القرويون الذين...

- أنا جادّ في كلامي يا ناظم. لن يتحمّل حزب العمال الكردستاني فكرة مرور الذهب الأسود أمام ناظريه دون أن يتوقف في

(*) حزب العمال الكردستاني: جماعة مسلّحة كردية يسارية تسعى لإقامة دولة كردستان، تأسست عام 1978. (المترجم)

مناطق نفوذه، كما لن يتحمّل فكرة غزو جرافات دو كارفيل المحتمية بالدبابات التركية لمنطقة كردستان...

- حسناً يا كريدول، ولكن الذهاب حدّ تفجير طائرة إيرباص يستقلّها ابن دو كارفيل... ماذا سيغيِّر فعل كهذا؟

- ماذا لو تعلّق الأمر بعملية تجسّس ملتوية؟ اختطاف ليز-روز قبل إقلاع الإيرباص، أو ركوب أشباه آخرين للطائرة عوض آل دو كارفيل الذين علموا بخبر وقوع العملية قبل ذلك...

انفجر ناظم ضاحكاً مرة أخرى، ثم ربّت على ظهري بقوة وهو يطلب كأسين آخرين من العرق. قضينا الليلة بكاملها نتابع مرور السفن عبر القرن الذهبي، ونتحدّث عن تفاصيل القضية. أتذكّر تلك الفترة فأجد أنها كانت أجمل أيام التحقيق. تلك الأشهر الأولى في تركيا. أفضل ذكرياتي. قبل أن تتناقص رحلاتي إلى هناك، ابتداء من صيف عام 1982.

في 7 نوفمبر 1982، كنت لا أزال في تركيا منذ خمسة عشر يوماً. وقد علمت بالخبر ثلاثة أيام بعد ذلك عن طريق ناظم. فيما لم تكلّف ماتيلد دو كارفيل نفسها عناء إخباري. فقد تعرّض بيير ونيكول فيترال لحادثة في تريبورت قبل طلوع الفجر بقليل، ليلة السبت. حادثة لم يستيقظ بيير بعدها أبداً، فيما كانت نيكول تصارع الموت.

كان من الصعب عليّ -وأنا هناك في إسطنبول- تصديق احتمال تعرّضهما لحادثٍ عَرَضي.

هل كان ذلك استنتاجاً أَمْلَتْه الخبرة أم مجرّد يقين ذاتي؟

اعتراني توتر قوي وأنا في غرفتي بفندق أسكوك. كانت تلك أوّل مرة أعي فيها أنّ مواصلة العمل على هذه القضية لحساب آل دو

كارفيل، ولسنوات طويلة من حياتي... كان ذلك يعني فقدان سنوات من عمري... وربما كلّ ما تبقى منه.

لكنني تابعت التحقيق رغم كلّ شيء.

2 أكتوبر 1998، الحادية عشرة صباحاً واثنتان وخمسون دقيقة

محطة الأمم.

رفع مارك عينيه وقد بلّل العرق ظهره.

سيغيّر محطته هنا.

وقف على الرصيف، حاملاً الدفتر في يده، لاهثاً، شاحباً.

جلسَ على المقعد الطويل أمامه، ثم أغلقَ الدفتر وفتحَ حقيبته.

7 نوفمبر 1982...

بقي هذا التاريخ محفوراً في ذاكرته. لقد قرأه أكثر من مرة خلال هذه السنوات، كان منقوشاً على شاهد قبر جدّه، وقد تعوّد على مرافقة جدّته الباكية إلى المقبرة، بشكلٍ شبه يومي، وأيضاً خلال أيام العطل. كان مارك يتبع جدته، وهو يدفع العربة التي تنام فيها ليلي. طريق ساحلية طويلة للوصول إلى المقبرة، وجدّته نيكول التي تسعل بلا توقف.

7 نوفمبر 1982...

وقفَ مارك ثم تمشى قليلاً في ممّر المترو، باحثاً عن الخط الأول بين الاتجاهات المتشابكة في المحطة الواسعة. استعاد تنفّسه الطبيعي شيئاً فشيئاً، وانشغل بالتفكير وقد تراءى أمامه خط السير الواجب اتباعه، فينسين، نوزي لوكران، بوسي سان جورج...

تباطأت خطواته، ما كان عليه الاستسلام لسرعة الأحداث، دفتر غران-دوك واعترافاته، مقتل المحقّق، اختفاء ليلي، ثم الحادثة التي أودَت بحياة جدّه.

جمَّدَ هواء ممرات المترو البارد ظهره.

لم يكن مغفلاً، لن يرمي نفسه هكذا في فم الذئب، من دون الأخذ باحتياطات كافية. ابتسم، كان أكثر ذكاء من أن يفكّر في العودة عبر الاتجاه المعاكس، أن يفقد بضع دقائق كافية لإخفاء ما قام بكشفه.

وصل إلى محطة ليون بعد أقل من دقيقتين. ذاب في سيل الركّاب المتدفّقين على ممرات المحطة، وقد مرّت عدّة صور أمامه، إعلانات أفلام جديدة: **الرجل الذي يهمس في آذان الخيول، إنقاذ الجندي ريان...**

آخر الكتب الصادرة، ومواعيد الحفلات الغنائية القادمة.

أدار مارك رأسه ببطء. أشارت لوحة إعلانية إلى حفل **شارليلي كوتور في مسرح الباتاكلان**.

ذكّره ذلك بليلي.

آه، أيتها اليعسوبة،
أنت، تملكين أجنحة هشة،
أنا، أنا، جسمي مدعوك...

أخرجَ مارك هاتفه، كانت شبكة التغطية متوفّرة. بحثَ عن رقم هاتف ليلي.

سبع رنات كالعادة.

المُجيب الآلي.

- انتظريني يا ليلي، انتظريني! اتصلي بي. أنا على الطريق الصحيح. سأصل إلى الحلّ.

سيصل إلى ماذا؟

لن يتردد، سيواصل بحثَه.

وصل مارك إلى خطوط الانطلاق. كانت القطارات فائقة السرعة برتقالية اللون متراصّة على خطّ الانطلاق. وبسرعة خمسمئة كيلومتر نحو الجنوب. كان مكتب إيداع الأمتعة على يمينه، خلف مصلحة الإعلام. فتح مارك باباً فولاذياً ثقيلاً ثم دسَّ حقيبته داخل مكعّب رمادي اللون. لن يذهب إلى الروزري، منزل آل دو كارفيل، وبين يديه دفتر غران-دوك. لقد قام بتسليمه لليلي، لا إلى مَن عمل لحسابهم. وقد فعل لذلك لسبب ما. سيقابل آل دو كارفيل، ليتحدث معهم ويفاوضهم، ثم يقرِّر بعد ذلك...

كان مطالَباً بإدخال رقم سري. 5 أرقام. ضغط بلا تفكير: 7 11 82.

أغلقت الخزانة بصوت حادّ. أطلق مارك زفرة ارتياح، ثم وقف لأقل من دقيقتين في طابور أمام كشك يبيع شطائر ومشروبات. اشترى شطيرة لحم بالزبدة، وقنينة ماء.

لقد اتخذ القرار الصحيح. أن يفارق هذا الدفتر مؤقتاً، وإن كان يتحرّق شوقاً لمتابعة القراءة. وتتبع تحليل حادثة 7 نوفمبر 1982 من وجهة نظر غران-دوك.

كان مارك في الرابعة من عمره آنذاك، ولا يتذكر عن تلك الفترة سوى أقل القليل. وإن كانت الكلمات التي دوّنها غران-دوك في دفتره واضحة جداً.

«كان من الصعب عليّ -وأنا هناك في إسطنبول- تصديق احتمال تعرّضهما لحادث عرضي. هل كان ذلك استنتاجاً أمْلَته الخبرة أم مجرد يقين ذاتي؟».

يريد أن يعرف الحقيقة!

لا بأس.

استدار فجأة، ثم عاد إلى مكتب إيداع الأمتعة وضغط على أزرار كلمة السر.

7 11 82.

فتش مارك حقيبته بعصبية، ثم أخرج الدفتر، تتابعت الأسطر والصفحات أمام عينيه.

كان ذلك يعني فقدان سنوات من عمري... وربما كل ما تبقى منه. لكنني تابعت التحقيق رغم كل شيء.

هنا.

أمسك مارك ببعض الصفحات، ثم انتزعها بحركةٍ عنيفة. خمس ورقات موالية للصفحة التي توقّفت قراءته عندها. الحادثة التي تعرّض لها جده وجدَّته في تلك الليلة بتريبورت، كما رواها غران-دوك من وجهة نظره.

طوى مارك الأوراق، ودسَّها في الجيب الخلفي لسروال الجينز، ثم أغلق صندوق مكتب إيداع الأمتعة، وانطلق مكمّلاً طريقه بين ممرات محطّة القطار في ليون.

- 23 -

2 أكتوبر 1998، الحادية عشرة صباحاً وخمس وخمسون دقيقة

تمشّت نيكول فيترال على رصيف شارع لابار ببطء شديد، وبوصولها إلى تقاطع مدرسة سيفينيي توقفت وسعلت. نوبة لعينة قوية من السعال. عليها أن تصعد شارع مونتينيي وصولاً إلى مقبرة جانفال. ما يفوق الكيلومتر. ليس هذا مهماً، فأمامها كلّ الوقت لذلك. منذ تقاعدها وهي لا تجد شيئاً آخر تفعله -تقريباً- سوى هذا، الحج اليومي إلى قبر زوجها، ثم ابتياع الخبز من عند جيزلان في أثناء عودتها، وشراء اللحم مرّة كلّ يومين، ثم العودة إلى بولي. يبدو أنّ قدميها لم تعودا قادرتين على حملها كما في الماضي.

اخترقت نيكول أسفل شارع مونتينيي بشجاعة، من الزاوية الأكثر وعورة. تجاوزتها شاحنة تابعة للبلدية بالقرب من المسبح، قبل أن تتوقّف أمامها، متجاوزة حاجز الرصيف بقليل.

ظهر عبر نافذة السيارة الوجه البشوش لسيباستيان، أحد أعضاء المجلس البلدي.

- نحن ذاهبون إلى صالة الألعاب الرياضية سيدة فيترال! أنوصلك معنا إلى المقبرة أثناء مرورنا من هناك؟

كان سيباستيان أحد الشباب العاملين في البلدية، أو الكوادر كما يلقّبونهم الآن، لكنه شيوعي رغم كلّ شيء، ويعتزّ بانتمائه أيّما اعتزاز.

كبر أمام عيني نيكول، هو شخص جيد، مناضل، يملك رأس بغل، لكنها رأس مثبتة جيداً على كتفيه، ورغم كلّ ما يقولونه على شاشات التلفاز، فإنّ الحزب ما زال بخير، بوجود شباب مثل سيباستيان. سيحتفظون ببلدية دييب في الانتخابات القادمة، هذا مؤكد!

لم تترك لهم نيكول فيترال مجالاً للتوسل، فقد صعدَت إلى المقاعد الأمامية للشاحنة. كان سيباستيان مرفوقاً بتيتي، أحد عمّال البلدية، كبر أيضاً أمام عيني نيكول، صحيح أنه لم يخترع مياهاً ساخنة، كان من الممكن أن تكون مفيدة بشدّة، هناك على شاطئ دييب، لكنه يعتني بحدائق الورود ويساهم بشكلٍ كبير في رواج حانات المدينة. للمشاريع التجارية الصغيرة مكانتها في دييب.

- ما زلت بصحة جيدة على ما يبدو يا سيدة فيترال!

- ليس إلى هذه الدرجة... عليكم مدّ خطوط الحافلات إلى المقبرة يا سيباستيان، من أجل الأرامل العجائز مثلي...

ابتسم عضو المجلس البلدي.

- نعم، هي فكرة جميلة. سنبرمجها في مخططاتنا المستقبلية بلا شك! أحوال مارك ما زالت جيدة، هناك في باريس؟

- نعم، نعم، ما زالت...

لم تمنع نيكول نفسها من الغرق في دوامة أفكارها، واستعادة كلمات مارك الأخيرة في مجيبها الآلي هذا الصباح، قبل مغادرتها للمنزل. ماذا ستقول؟ بمَ ستُجيبه؟ هي تعرف طبعاً مكان وجود

إيميلي، وفهمت طبيعة الفعل الذي لا يمكن إصلاحه، الفعل الذي كانت إيميلي على وشك القيام به. سنوات طويلة وهي تدعو الله لكي لا يحصل ما حصل. كان رهاناً خاسراً. يا لقذارة هذا القدر.

أخرجها صوت تيتي الحاد من غفلتها، مفسِداً الأجواء.

- أما زال مارك مصرّاً على لعب دور الكلب المطيع أمام إيميلي؟ هو حتى لا يعود إلى دييب في الآحاد للعب الريكبي مع الفريق... ولكن سأقولها صراحة يا نيكول، وإن كان حفيدك، لم يشكل غيابه خسارة كبيرة لفريقنا، فيداه مربعتان، وليس من السهل الإمساك بكرة بيضوية الشكل بيدين مربعتين...

قالها ثم انفجر ضاحكاً.

- اصمت يا تيتي، قاطعه سيباستيان.

- لا بأس، قالت نيكول مبتسمة.

التفتت إلى الخلف، فوجدت مئات الأوراق المكدّسة في علب كرتونية.

- كالعادة يا سيباستيان؟

- نعم كالعادة! لقد فك شيراك تحالف اليمين والتجمّع، وما زلنا بانتظار التغيير القادم... وإن تعلّق الأمر برفاق لنا في الحكومة!

- ما هذا؟

- منشورات لإنقاذ الميناء التجاري... يريدون تخريب الخطوط مع أفريقيا الغربية، الخطوط الأخيرة التي لم تتوصّل منها لوهافر وآنفيرس بشيء. الموز، الأناناس... كما ترين. إذا حدث وفَقَدنا هذه الصفقة فإنّ الميناء سيموت جوعاً، ولا داعي لتخيّل ما الذي يمكن أن يحدث... سنتظاهر يوم السبت المقبل أمام مقر الولاية في روان.

وجّه تيتي ضربة خفيفة بمرفقه إلى نيكول.

- نعم، قد نفقد الموز والأناناس، لكننا سنحتفظ بالسمك، أليس كذلك؟

تنهد سيباستيان، فيما حدجته نيكول بنظرة متفهمة.

- يمكنك إعطائي بعضاً من هذه المنشورات إن أرَدت... اترك لي علبة كرتونية في بولي. لا أعدك بشيء فيما يخصّ المظاهرة يوم السبت القادم، لكنني سأحاول نشر الخبر بين سكان الحي، تعلم أنني أحب القيام بذلك، ما زال في ديبب بعض ممّن يعرفونني، وربما يستمعون لي أيضاً...

كان تيتي على وشك القفز من مقعده.

- هذا صحيح يا نيكول! كنت أهوى متابعتك على شاشة التلفاز، وأنا في الخامسة عشرة من عمري آنذاك، كنت تبالغين في إخفاء بروز نهديك، لكن بلا جدوى!

ضرب سيباستيان المقود بعصبية مفاجئة.

- يا لكَ من أبله يا تيتي...

- ماذا؟ قال تيتي مصدوماً. هل قلت شيئاً سيئاً؟ لن تعتقد نيكول بأنني أتغزّل بها في سنها هذا... هذا مجرد إطراء لإسعادها فحسب.

وضعت نيكول يدها على ذراع تيتي بهدوء.

- أنت محق يا تيتي، هذا يسعدني.

استغلت نيكول لحظات الصمت القليلة الموالية للتفكير في إيميلي مرة أخرى. كم تمنّت لو كانت بجانبها الآن. ليس بغرض حثّها على تغيير رأيها، وإنما لتكون بقربها فقط. تعلم نيكول أن

إيميلي ستفقد براءتها من الآن. سيلاحقها طعم الموت إلى الأبد. الذكريات. الندم.

توقفت الشاحنة.

- المحطة النهائية، قال سيباستيان. محطة المقابر. هل أحضر لك العلبة الكرتونية مساء اليوم؟

- نعم، إن أردتِ ذلك.

- ستخدميننا كثيراً بمساعدتكِ هذه. كان من المفروض أن تكوني ضمن قوائمنا...

- إنه بيير، كان يعتزم القيام بذلك عام 1983.

صمت سيباستيان محرجاً.

- أذكر ذلك، قال متمتماً. كانت خسارة كبيرة لنا... اللعنة...

ثم أردفَ بتردّد:

- ال... الشاحنة، السيتروين، ما زالت بحوزتك؟

ابتسمت نيكول في استسلام:

- نعم، كنتُ مطالبَة بمواصلة عملي، خاصة مع وجود إيميلي ومارك.

- أفضِّل بطاطس محمرة في ساحل ألباتر، أضاف تيتي، صدقيني يا نيكول، لم يكن قدومي إلى شاحنتك بهدف تأمّل جمال نهديك البارزين فقط!

ضحك سيباستيان رغماً عنه، فيما رسمت نيكول على وجهها ابتسامة حزينة، وغطت الدموع عينيها الزرقاوين.

- ما زالت الشاحنة في الحديقة، لم يعُد أحد يطلب مني نقلها

للتمكّن من اللعب في الساحة. ها هي في مكانها الآن، تصدأ بهدوء تام.

فتحت نيكول باب الشاحنة.

- هيا، سأترككم تباشرون أعمالكم.

ساعدها تيتي على النزول، وتابعاها ببصرهما للحظات، في موقف السيارات المقفر.

دفعت نيكول البوابة الحديد، غارقة في أفكارها من جديد.

سيتصل بها مارك مرة أخرى، وقد يعود إلى دييب ربما. ماذا ستقول له؟ هل كانت مطالبة بمنح حكايتهما المستحيلة، حكاية إيميلي ومارك، فرصة ما؟

كانت مطالَبَة باتخاذ قرار عاجل. إمّا أن تتكلم، أو تصمت. وهي واعية بذلك، عليها أن تختار قبل هذه الليلة.

أغلقت نيكول بوابة المقبرة.

ستطلب النصيحة من بيير، فقد تعوّد على اتخاذ القرارات الصحيحة.

- 24 -

2 أكتوبر 1998، الثانية عشرة زوالاً واثنتان وثلاثون دقيقة

استقبلَ شعاع شمسي ضعيف مارك عند خروجه من محطة فال دوروب، جادة آريان. كانت هذه أول مرة تطأ فيها قدم مارك المدينة الجديدة التي جرى تدشينها قبل أشهر قليلة. فاجأته الساحة الدائرية الواسعة. اعتقد بأنه سيجد مدينة عصرية تواكب آخر صرعات التكنولوجيا، على طراز سيرجي أو إيفري... لكنه وجد نفسه وسط ساحة هوسمانية، مطابقة تماماً للدوائر الباريسية الأولى، مع استثناء بسيط، فعُمر هذه ليس مئة سنة، بل أقلّ من مئة يوم! الجديد في محاولة لتقليد القديم بشكلٍ أفضل.

وجدَ أمامه -فوق الميزاب والمزراب المقلد- عدّة رافعات. آرلينغتون بيزنس بارك، هذا ما أشارت إليه إحدى اللوحات الإرشادية. تجاوزت أبراجٌ زجاجية غير مكتملة الساحةَ القديمة في باكوتي بعشرات الأمتار. أدار مارك رأسه، بعيداً خلف الطريق الثانوية، تمكَّن من تبيّن قمم ديزني لاند، جرس قلعة الجميلة النائمة، الصخور الحمراء في قطار المناجم، قبة سبايس مونتان...

مشهد سريالي!

هذا ما تمناه المهندسون بلا شك، فكّر مارك.

استعادت ذاكرته أجزاء من حوار قديم مع نيكول، هناك في بولي. ذات ليلة قبل عدة أشهر، بعد تقريرٍ تلفَزي إخباري عن المدينة الجديدة التي تبنيها رابطة ديزني، بمناسبة تدشين المركز التجاري. كانت نيكول في المطبخ عندما قالت مُظهِرَة استياءها:

«أنا لا أفهم أصلاً كيف يقومون باصطحاب الأطفال إلى ديزني للمساهمة في إغناء هذا الفأر الرأسمالي المسمّى ميكي! ثم لم يكفهم ذلك، فأمدّوهم بقطع أرضية لبناء مدنهم عندنا!».

كانت ليلي تنظّف الطاولة، هي تعرف أكثر منهم، كعادتها.

«إنها يوتوبيا يا جدتي. أتعلمين بأنّ والت ديزني نفسه كان يحلم بمدينة مثالية في فلوريدا، من دون سيارات أو تمييز، تحت قبة شاملة يمكن عبرها التحكّم بالطقس؟ لكن الموت عاجَلَه ولم يهتمّ ورثته بتنفيذ المشروع... فال دوروب هي ثاني مدينة تبنيها ديزني في العالم، الوحيدة في أوروبا، أصغر مدينة في فرنسا، عشرون ألف نسمة...

- تقولين يوتوبيا! علّقت نيكول على كلامها. منازل صغيرة بثلاثة ملايين! ملعب غولف. مدارس خاصة...».

لم تُجبْها ليلي. شكّ مارك في رغبتها بإضافة تعليقات حول تصوّر المدينة، المعمار، المساحات الخضراء، التحديات الهندسية، التحكّم الناعم بالتنقل داخل البلدة. لكن ليلي صمتت كالعادة. ابتسمت وهي تمسك بممسحة لمساعدة نيكول، ثم تحدّثت في المساء مع مارك بشأن الموضوع نفسه، وإن باقتضاب شديد. يعلمون جميعهم أن آل دو كارفيل يقطنون بكوبفراي، واحدة من البلدات الصغيرة الجميلة المجاورة لفال دومارن، يبدو أنّ التقاليد الفرنسية قد

اندمجت بشكلٍ جيد في المشروع الأميركي لفال دوروب، ما ألهب أسعار العقار. أصالة ومعاصرة.

لاحظ مارك في أثناء مشيه أنّ الحي قد صمّم خصيصاً للراجلين، هذا ممّا لا شك فيه. لا تبعد عنه كوبفراي سوى بكيلومترين. وصل إلى جادة توسكان. ابتسمَ عند رؤيته للينبوع المنحوت، والساحات والمقاهي بلون تراب سيينا. لم يسبق له الذهاب إلى إيطاليا، لكنه تخيّل ساحة رومانية في فلورنسا على هذه الشاكلة بالضبط، ولو في فصل الشتاء. خيِّل إليه أنه قد يجد الجميلة والوحش وهما يتناولان معجنات السباغيتي على إحدى الطاولات هنا. واصلَ تقدّمه بخطوات واسعة. صحيح أنه جرى تصميم هذه المدينة لتُناسب الراجلين أكثر، لكنهم قليلون جداً. تجاوز مارك حياً آخر. كانت الموضة هنا على طراز المنازل الريفية الإنجليزية. خشبٌ بألوان خضراء وأرجوانية، حديد مطرق، شعَر مارك بأنه عبر أوروبا الظاهرة في بطاقة بريدية، في أقل من كيلومترين.

كانت بعض المنازل الكلاسيكية الصغيرة، المرفّهة إن صحّ التعبير، علامة على اقترابه من كوبفراي. تأمّل سلسلة من اللوحات الإرشادية المألوفة: بلدية، مدرسة، قاعة حفلات، مكتبة، متحف المنزل الذي ولد فيه لويس برايل(*). كانت جينيفر قد أمدَّته بعنوان آل دو كارفيل، طريق شو دو سولاي، وسط غابة كوبفراي. البلدة التي تطوّرت كثيراً في منعرج نهر المارن، محصورة في سلسلة من

(*) لويس برايل (1809–1852): مطوّر كتابة برايل، نظام القراءة الذي يستخدمه المكفوفون والمعانون من نقص حاد في البصر. (المترجم)

الغابات المحمية. شكلت القناة من مو إلى شاليفير ما يشبه الحدود بالنسبة إلى البلدة الصغيرة، كخطٍّ مستقيم يقلّص من المارن. أضاف مشهداً رائعاً لهذه الجنة الريفية، على بُعد كيلومترات من العاصمة. كان ثلاثة صيادين جالسين على الحائط الحجري الصغير في القناة. سد دوليش، قرأ مارك على اللوحة الإرشادية. لم يستطعْ الاحتمال أكثر من ذلك. بدا له المكان مناسباً للاستراحة، للجلوس، ليُخرج من جيب سرواله الجينز خمس صفحات انتزعها من دفتر غران-دوك.

لم يملك مارك الشجاعة الكافية لقراءتها في المركبة الصاخبة، بالقرب من غرباء متلصصين فوقه.

خاصة هذا الجزء من الحكاية، الجزء الخاص به.

لقد قام بتأخير مصيره. ألقى نظرة على هاتفه. لم تبعث جدّته أي رسالة. الشيء نفسه بالنسبة إلى ليلي.

لا أعذار أمامه الآن. فَرَدَ الورقات الخمس.

مذكرات كريدول غران-دوك

في هذا الأحد، 7 نوفمبر 1982، كنت أقضي عطلة نهاية الأسبوع في أنطاليا، على ضفاف البحر الأبيض المتوسط، الريفييرا التركية. ثلاثمئة يوم مشمس في السنة، عند موظّف سام في وزارة الداخلية التركية استضافني في إقامته الثانية، بعدما طاردته لأسابيع، كنت أرغب في التأكّد إن كان أحد ما قد رأى شيئاً مثيراً للانتباه في مطار أتاتورك بإسطنبول يوم 22 ديسمبر. مَن يدري، كاميرا المراقبة، حادث اعتباطي؛ كان المطار غاصّاً آنذاك بالجنود، ربما لاحظَ

أحدهم شيئاً ما. كنت أطمح لإجراء استجواب سريع في الثكنات، فكان من الطبيعي أن يتعاملوا معي على أنني مجنون. انتهى المطاف بالموظف المذكور بدعوتي إلى إقامته التي يستقبل فيها أبرز قادة الأمن الوطني التركي. كانت هذه أول مرّة لا يرافقني فيها ناظم، بعدما أصرَّت آيلا على عودته بسبب مرضها، أعتقد بأنني أذكر ذلك. . . لم يناسبني هذا الوضع، بالعكس، فقد قضيت عطلة نهاية الأسبوع بكاملها في محاولةٍ لشرح ما أريد من دون مترجم، بخاصة وأن المعنيين بالأمر كانوا هنا للاستمتاع بأشعة الشمس رفقة زوجاتهم. . . غير مقتنعين بطلباتي الغريبة. ربما كنت مثلهم، غير مقتنع أيضاً.

بعد ثلاثة أيام علمتُ بأمرِ حادثة تريبورت. كنت ساعتها في فندق أسكوك. ناظم هو الذي أخبرني. وهكذا تحدّثت مع نيكول فيترال طويلاً. شرحَت لي كلّ التفاصيل، في عطلة نهاية الأسبوع من شهر نوفمبر 1982 كانت ثلاث مدن نورماندية: «تريبورت» و «أو» و«ميرس لي بان» تنظم -مثل كلّ سنة- احتفالاً بحرياً، ما يشبه كرنفال دونكيرك وإنْ بشكلٍ محتشم، على الطريقة النورماندية. بطاطس محمرة في متناول الجميع، جولات بحرية، استعراضات في الشوارع. . .عالم مجنون، لا تدري من أين أتى كلّ هؤلاء. . . يشارك بيير ونيكول فيترال في احتفالات تريبورت كلّ سنة، كما يحاولان متابعة التظاهرات الأخرى في موانئ المانش، دونكيرك ولوهافر. كانت عطل نهاية الأسبوع الاحتفالية هذه فرصة مناسبة لكسب مداخيل إضافية خارج فترة فصل الصيف. كانا يتركان إيميلي ومارك عند الجيران ويذهبان لقضاء تلك الليلة هناك بشاحنتهم

الصغيرة سيتروين طراز إتش بلونيها الأحمر والبرتقالي، يوقفان الشاحنة في مواقع استراتيجية، أقرب ما يمكن من شاطئ البحر، يفتحان طاولة المأكولات والمشمع الواقي من الرياح إن اقتضى الأمر، ليشرَعا بعد أقل من ساعة في تقديم البطاطس المحمرة، الفطائر، حلويات العسل... إلخ. كانا يعملان بشكلٍ عام حتى وقتٍ متأخر من الليل... ورغم الجو المتقلّب، كانت حفلات الشمال تستمر في معظم الأحيان حتى الفجر، وكسباً للوقت والمال، كان بيير ونيكول يغلقان الشاحنة الصغيرة، يفردان فراشاً في مكان ضيق بين فرن الغاز والثلاجات، وينامان هناك لبضع ساعات قبل مواصلة العمل يوم الأحد. كان الأمر قاسياً، لكنهما كانا يكسبان في عطلة نهاية الأسبوع هذه ما يعادل مكسب عشرة أيام عادية من العمل.

يوم الأحد 7 نوفمبر 1982، أغلق بيير ونيكول فيترال الشاحنة الصغيرة في الثالثة صباحاً ولم يفتحاها بعد ذلك أبداً. وحده شخص يتجوّل رفقة كلبه في تريبورت مَن شعر بشيء ما. كانت رائحة الغاز قوية خارج الشاحنة رغم ندى الضباب الصباحي. أو لنقل إنها رائحة المركَّب الكيميائي الكبريتي الذي تتمّ إضافته للبوتان، ما دام هذا الغاز الطبيعي اللعين منعدم اللون والرائحة. حطّم رجال الإطفاء باب الشاحنة من الخلف مستخدمين البلطات ليجدا جسدين بلا حراك. كان البوتان قد تسرَّب منذ خمس ساعات على الأقل، في مساحة لا تتجاوز تسعة أمتار مربعة. لم يكُن بيير فيترال يتنفّس، ولم يحاول رجال الإطفاء إنقاذه، فهم يتعرفون بسهولة على العلامات الأولى للوفاة، أمّا نيكول فيترال فكانت على قيد الحياة. تمّ نقلها

إلى أبفيل على وجه السرعة. لم يعلن الأطباء عن نجاتها بشكل تام إلّا بعد خمس عشرة ساعة، وقد تآكلت رئتاها حتى آخر يوم في عمرها.

لم يقُد التحقيق إلى شيء ذي قيمة. أحد أنابيب الفرن الأربعة كان مثقوباً. حادث غبيّ ومتوقع. بقيت التأمينات وفية لسمعتها الإنسانية العميقة: النوم داخل الشاحنة بين قنينات البوتان والأفران الساخنة كان حماقة حقيقية؛ التجهيزات قديمة جداً، صحيح أنّ استخدامها مسموح به من قبل المصالح الصحية، لكن الخبراء كشفوا عن عيوب أخرى... باختصار، وجدت التأمينات كلّ الأعذار المُمكنة لعدم تعويض نيكول فيترال.

فقدت كلّ شيء باستثناء الشاحنة... مع أنبوب بلاستيكي وباب خلفي يتوجّب عليها إصلاحه... وطفلين لتربيتهما.

ربما ساهم ذلك في تقربي من آل فيترال.

الشفقة. نعم، قد نسميها هكذا. الشفقة، ولست نادماً على قول ذلك.

الندم، والشك أيضاً.

عندما اتصل بي ناظم ليطلعني على تفاصيل ما جرى في تريبورت، كان رد فعلي الأول هو عدم تصديق فرضية الحادث. حسناً، صحيح أنّ القدر يشبه كثيراً أطفالاً في ساحة استراحة، لا يستأسد إلّا على الضعفاء، لكن لكلّ شيء حدوده! قابلت فريق المحامين الذين يعملون لحساب دو كارفيل بعد أسابيع قليلة من وقوع الحادث، واعترفوا لي -بلا أدنى افتخار- أن ليونس دو كارفيل قد طرح عليهم سؤالاً تقنياً خالصاً قبل إصابته بالجلطة الثانية: «ماذا لو مات فيترال وزوجته، ما الذي سيحدث؟ هل ستواصل ليلي حمل

اسم فيترال ويتمّ إيداعها داراً للأيتام، أم أنه من الممكن إجراء طعن قانوني؟ وعلى ضوء هذا المعطى الجديد، هل سيتجدّد الأمل في منح حق رعاية الطفلة لآل دو كارفيل؟».

كان السؤال معتلاً ومعقداً في الوقت نفسه. لم يكن المحامون متفقين فيما بينهم، لكن الفكرة العامة كانت واضحة: إذا توفي فيترال وزوجته، ولم تبلغ ليلي عامها الثاني بعد، قد يكون من الممكن انتظار حُكم جديد. أكدوا أنه «مجرد احتمال تقني»، ويمكنهم المناورة واللّعب على الشكّ المرتبط بهُوية الطفلة وبمصلحتها العليا. . . لن يتطلب الأمر بحثاً طويلاً عن عائلة تحتضن اليتيمة الصغيرة، سيكون آل دو كارفيل جاهزين لذلك!

ها قد أخبرتكم بما جرى، ولكم كامل الحرية في فَهم المقصود كما تشاؤون.

إذا كانت ماتيلد دو كارفيل مجنونة إلى الحدّ الذي قد يدفعها إلى توظيف محقّق خاص بعقدٍ يمتد لثمانية عشر عاماً، فإنّ زوجها كان أقل صبراً، وربما فكَّر في الحصول على خدمات مجرم قاتل يثقب أنبوب الغاز في الشاحنة، عملية سهلة يمكن لأيّ مجرم منعدم الضمير أن ينفذها. لا أظنّ بأنّ ماتيلد دو كارفيل ستكون على علم بذلك، فما بالك بالمشاركة في الجريمة. سيمنعها تديّنها القوي من ذلك بلا أدنى شك. أما ليونس دو كارفيل فكان قادراً على ذلك. لكن الأزمة القلبية الثانية حطمته تماماً، ثلاثة وعشرين يوماً بعد ذلك. قد يدفعنا هذا للربط بين السبب والنتيجة. بقيت نيكول فيترال على قيد الحياة. ربما علم بوفاة بيير فيترال، من أجل لا شيء. أمّا ليز-روز فقد رحلت إلى الأبد. . .

إذاً فأنتم تعرفون الآن كلّ شيء، تحوّل ليونس دو كارفيل إلى جثة حية ستحتفظ بالسرّ إلى الأبد.

والشك؟

يا له من سؤال!

2 أكتوبر 1998، الثانية عشرة زوالاً وأربعون دقيقة

راقب مارك شمس الخريف الباهتة وقد تعاونت سحبٌ منتظمة على إخفائها.

الشك...

كان في الرابعة من عمره سنة وقوع الحادث، لا يتذكر مارك شيئاً، باستثناء الحزن العميق للكبار حوله، فيما كان هدفه الوحيد وقتها حماية ليلي، أن يمسك يدها بقوة وألّا يتركها، ألّا يتخلى عنها.

لم تُطلعه جدته على التفاصيل أبداً، وهو يتفهم ذلك. لا يمكن الحديث عن أمور كهذه. ما ذكره غران-دوك أوضح بكثير من كلّ المعلومات المنقوصة التي سمعها طوال هذه السنوات.

تأمل مارك الصيادين الثلاثة أمامه، شبان، ثابتون بلا حراك، شبه نائمين. أي مصلحة يجدها هؤلاء في قضاء ساعات طويلة منتظرين سمكة قد لا تأتي؟ ربما هم ينتظرون نهاية العالم، في هذه الجنة الريفية المعزولة.

الشك...

الجنة التي يسكن فيها الشيطان؟

أرهق مارك عقله بالتفكير، لسبب لا يعلَمه بالضبط، لقد دقّت

كلمات غران-دوك ناقوس الخطر لديه. هنالك تفصيل مرعب، شاذ...

شيئ ما غير طبيعي!

حاول مارك استعادة تركيزه، لكنه تأكّد من أن هذا التفصيل محفور في مكان ما من ذاكرته الميكانيكية، شيء ما حفظه عن ظهر قلب، يعرفه، لكنه لن يتذكره إلّا إذا أمسك بطرف الخيط، بنقطة البداية، بكلمة.

واصل بحثه لكن بلا جدوى، تأكّد فقط من أنّ هذا التفصيل موجود بين أغراضه في غرفته، هناك في شارع بوشول، بولي، مدينة دييب. وسيعثر عليه إن بحث عنه...

هل كان الأمر عاجلاً إلى هذه الدرجة؟ ما علاقته بالبقية؟ رحلة ليلي الكبرى، بلا عودة.

ساعتان عبر القطار كافيتان للوصول إلى دييب... يجب عليه أن يكلّم نيكول أيضاً.

كلّ هذه الأمور ستنتظره.

قلَبَ الورقة الممزّقة بيده ثم قرأ الصفحة الممزّقة باضطراب شديد.

- 25 -

مذكرات كريدول غران-دوك

عادت نيكول فيترال إلى خدمة الزبائن في محلّها المتنقل لبيع البطاطس، شهراً واحداً فقط بعد مأساة تريبورت. لم يكُن أمامها خيار آخر. كثيرون اعتبروا أنه من المثير للدهشة وربما من الجنون أيضاً أن تُواصل العمل في هذا التابوت المتنقّل، في فخّ الفولاذ والغاز الذي اختطف زوجها، نائماً إلى الأبد على الأرضية التي واصلت هي المشي فوقها طوال اليوم.

كانت نيكول تُجيب عن التساؤلات مبتسمة: «نحن نواصل العيش في المنازل نفسها التي توفي فيها أقاربنا، نواصل النوم على الأسرة نفسها، نتناول طعامنا في الصحون نفسها التي تناولوا فيها طعامهم، الكؤوس نفسها التي شربوا منها... لا مسؤولية للأشياء عمّا حصل، سواء الشاحنة أو غيرها».

فهمت بعد سنوات طويلة أن نيكول كانت تحب هذا العمل، خدمة الزبائن في شاحنتها سيتروين طراز إتش، بالقرب من شاطئ دييب، كما كانت تفعل ذلك منذ سنوات رفقة بيير، رغم أنّ دخان القلي ومزيج الروائح في الفضاء الضيق قد واصلا تمزيق رئتيها،

ودفعاها إلى السعال إلى ما لا نهاية. نامَ بيير نومته الأبدية في هذه الشاحنة، دون أن يتمكن من مغادرتها يوماً، الشيء نفسه بالنسبة إلى نيكول، التي بقيت وحيدة، لكنها لن تغادر محلها المتنقّل، إلّا إذا تعلّق الأمر ربما بمقبرة جانفال.

تقرّبت من نيكول وأحفادها في هذه الفترة تقريباً، أواسط عام 1983. قابلتُها لأول مرة صبيحة أحد أيام شهر أبريل، كان مارك في المدرسة، فيما كانت ليلي نائمة.

وقفت نيكول أمام باب منزلها لتمنعني من الدخول. بدأتُ كلامي بخجل:

- كريدول غران-دوك. محقِّق خاص، أنا... أنا أحقق في...

- أعرف مَن أنت، سيد غران-دوك، منذ أشهر وأنت تبحث في هذه الأرجاء... تعلم جيداً أن الأخبار تنتشر بسرعة هنا...

- نعم... حسناً... على الأقل سيساعدنا ذلك على كسب بعض الوقت... لقد كلّفتني ماتيلد دو كارفيل ببدء التحقيق من جديد، قضية تحطّم طائرة جبل تيريبل...

- أتوقّع على الأقل بأنها تدفع لك مقابلاً مُجزياً نظير ذلك...

- لنقل بأنني لا أشكو من شيء، المقابل مريح للغاية...

- كم؟

اضطربت نظرات نيكول فيترال. كانت تلعب معي لعبة القط والفأر. لماذا سأكذب؟

- مئة ألف فرنك سنوياً.

- كان من الممكن أن تدفع لكَ أكثر، أكثر بكثير من ذلك.

كانت نيكول فيترال ترتدي كنزة مثلّمة رفيعة، مزيج من اللونين الرمادي والأزرق. الياقة على شكل حرف V تكشف عن رقبتها ونحرها. كنت مرتبكاً بشكلٍ مرعب. فيما تابعت هي دون أن تتحرك قيد أنملة:

- وما الذي تريده مني؟

- أن تسمحي لي بالتقرّب من ليلي، مراقبتها، التكلّم معها، متابعتها وهي تكبر...

- كلّ شيء إلّا هذا...

شعرت بأنّ المفاوضات معها ستطول. لم أعرف إلى أين سأوجّه ناظري، إلى عينيها اللامعتين أو إلى صدرها. رفعت نيكول فيترال كنزتها إلى أعلى بحركة آلية.

- كما ترى فأنا -عكس ما تظن- لا أملك شيئاً لأخفيه، أنا أيضاً يهمني أن أعرف الحقيقة... هل توصّلت إلى شيء ما؟

كنت متردّداً. هل أمسك بزمام المبادرة؟ ليس طويلاً، بعدما عادت الكنزة إلى مكانها الأول.

- اقتفيتُ عدّة آثار قادَتني معظمها إلى طُرقٍ مسدودة، لكنني اكتشفتُ أيضاً بعض التفاصيل المثيرة...

بدا على نيكول فيترال التردّد. ألقت نظرة على شارع بوشول.

- هل دفعتكَ ماتيلد دو كارفيل إلى التوقيع على شيء ما؟ شرط خصوصي؟ كشف حصري بالنتائج؟

- لا شيء من ذلك. هي تدفع لي فقط للعثور على دليل.

- دليل؟ كلّ شيء إلّا هذا. إمكاناتي لا تسمح لي بذلك... أمّا ماتيلد دو كارفيل فيمكنها أن تكون كريمة جداً مع كِلَينا.

ابتسمت وهي ترفع كنزتها من جديد.

- اتفقنا؟ ادخل، سنتناول فنجاناً من القهوة وستحكي لي كلّ شيء في انتظار استيقاظ ليلي من نومها.

نيكول فيترال وثقت بي. لماذا؟ لا أدري!

كنت أعلم بأنني ألعب لعبة خطرة: إذا ما توصّلت إلى شيء ما فسيكون وضعي صعباً بين الأرملتين (إن صحّ التعبير)، حتى وإن حافظت على حياديتي... وهو ما لا أضمَنه! بين بساطة عائلة فيترال وازدراء عائلة دو كارفيل، لا توجد صور. يملك ليونس دو كارفيل ماء مكان عضلاته، تملك مالفينا بخاراً مكان عقلها، فيما تملك ماتيلد قطعة ثلجٍ باردة مكان قلبها، كنت الموظف الذي يدفعون راتبه، كلبهم الوفي، لكن تعاطفي كان بلا شك مع آل فيترال.

كان مارك وليلي طفلين جميلين، وقد تعوّدت على زيارتهما من وقت إلى آخر، على الأقل في حفلات عيد ميلاد ليلي كلّ سنة. كنت أذهب أحياناً إلى دييب رفقة ناظم. كان يخيفهما بشاربه الضخم، لكن نيكول كانت تثير إعجابي بنشاطها وحسّها الكوميدي ورغبتها العارمة في تربية مارك وليلي بنفسها. وقد نجحت في ذلك، ولم تلمس سنتيماً واحداً من أموال ليلي في حسابها البنكي، الثروة التي دفعتها ماتيلد دو كارفيل.

كانت نيكول ذات تصميم ووفاء، امرأة رائعة لا مثيل لها، وهكذا مرّت الشهور والسنين على هذا المنوال.

أنا أيضاً كنت وفياً لحجي السنوي الذي حان الوقت للحديث عنه. قد لا تتصوّرون مدى أهمية ذلك بالنسبة لي. كلّ سنة، في 22 ديسمبر تقريباً، أعود إلى جبل تيريبل. أنام في مأوى قريب في

كليربييف، بالقرب من نهر دوبس، ثم أمضي وقتي في الأعلى، في موقع التحطّم بالضبط. كلّ سنة أبقى هناك لعدّة ساعات على الأقل، أتمشى، أفكّر، أعيد قراءة الملاحظات التي كتبتها.

كما لو أنّ الموقع سيكشف عن سرّه في النهاية...

كنت أذهب وحدي، من دون اصطحاب ناظم.

كنت أعرف كلّ الطرق، كلّ حجر، كل شجرة تنوب. شعرتُ بأنّ عليّ الاستئناس بهذا الموقع البري المهجور من الجبل، أن آخذ الوقت الكافي للإنصات له، ما يشبه الصدمة النفسية، كما هو الشأن بالنسبة إلى تعامُلي مع آل فيترال في النهاية.

لن تصدّقوني بلا شك. لكن هذه الطريقة نجحت! لقد منحني الجبل ثقته، ثلاث سنوات بعد ذلك بالتحديد. ثلاث زيارات، في ديسمبر 1986، كشف الجبل عن سرّه. السر الذي أعتقد بأنه الأكثر إثارة طوال ثمانية عشر عاماً من التحقيقات.

في 22 ديسمبر 1986، فاجأتني عاصفة قوية ومباغِتَة، بعد زوال ذلك اليوم، وأنا في قمّة الجبل. تطلَّب الهبوط سيري لساعتين تحت الأمطار والبرق. بحثت عشوائياً عن ملجأ أو أيّ شيء. لم تكُن الأشجار التي أعيد زرعها في موقع التحطّم قادرة على حمايتي من الأمطار القوية.

واصلت المشيء كشخصٍ أعمى، لكيلومتر واحد أو اثنين، قبل أن أجد نفسي في مواجهة مباشرة مع أكثر الاكتشافات غرابة. كنت مغموراً بمياه الأمطار، وحسبت أنه مجرّد حلم مزعج، أو ربما تهيؤات. واصلت التقدّم عبر الأوحال، قبل أن تتّضح الصورة أمامي أكثر فأكثر.

تجاهلتُ المطر، تسارعت دقات قلبي بعنف، واصلتُ التقدم في حيرة حتى

* * *

أرغى مارك وأزبد في حنق.

انتهت الصفحة الممزّقة على هذا المنوال.

واصلت التقدم في حيرة حتى

ضربَ الحصى أمامه في حركة عصبية. رفع الصيادون رؤوسهم، متفاجئين، وفي نظراتهم نوع من العتاب. تتمة الجملة موجودة في الصفحة الموالية للدفتر، في الصندوق المصفّح الذي لا يعرف أحد غيره رمزَه السري، هناك في مستودع محطة القطار بمدينة ليون.

وضع مارك الأوراق في جيبه ثم نهضَ، غاضباً من نفسه، غاضباً من الأسلوب الغامض لغران-دوك الذي يفضِّل التذاكي والحديث عن تحقيقه كما لو كان يكتب رواية بوليسية...

اجتاز القناة عبر جسر صغير. كانت شوارع كوبفراي هادئة. في ظلّ ديزني سيتي، البلدة الجميلة وإن بروحٍ مصطنعة، كما لو أنه بناء من ورق. مجرّد ديكور. طريق شوسولاَي هو الأول على اليمين وصولاً إلى البلدة. طريق أكثر من كونه شارعاً، مظلم، يخترق الغابة. تقدّم مارك بحذر. مَن هم آل دو كارفيل في الواقع؟ ضحايا القدر مثله؟ عائلة ليلي الحقيقية كما يتمنى؟ أم أنهم المسؤولون أيضاً عن مقتل جدّه؟

أعداء؟ حلفاء؟ الاثنان معاً؟

بذلَ مارك جهداً للتنفس بشكلٍ طبيعي.

لا يجب عليه أن يتردَّد الآن. يمكن لنوبة رهاب الخلاء أن

تداهمه في أيّ لحظة، ربما هنا، وسط هذا الصمت، وسط هذه المساحات الخضراء...

كانت بعض السيارات متوقِّفة في الردب، سيارات فخمة: مرسيدس، ساب، أودي. ضخمة الحجم، باستثناء واحدة أصغر منهم. روفر ميني زرقاء. تجمّد مارك في مكانه كما لو أنّ جرساً مفاجئاً قد رنّ في أعماقه.

لقد رأى هذه السيارة من قبل، ومنذ وقت ليس بالطويل!

أين؟

لم يجد صعوبة في التذكّر، لقد قضى اليوم بأكمله تقريباً في المترو تحت الأرض. المرة الوحيدة التي كان في الخارج كانت هنا في كوبفراي، و...

عند غران-دوك!

شعرَ بيدٍ توضع على كتفه.

استقرّت فوهة فولاذية أسفل ظهره. سلاح ناري بلا شك.

تكلّم صوت حاد مضيفاً المزيد من الرعب للحظة:

- هل تبحث عن شيء ما أيها الأبله؟

- 26 -

2 أكتوبر 1998، الثانية عشرة وخمسون دقيقة

لم يشعر مارك بأعراض النوبة، وهو ما أدهشَه إلى حدٍّ كبير. لم تتضاعف وتيرة تنفسه أو اختلاجاته، أحسَّ فقط بتسارع نبضات قلبه.

عليه أن يهزم قلقه.

أن يستدير.

كان طريق شو دوسولاي خالياً. ألقَت الأشجار العالية بظلالها على الأرضية الرمادية. استغرق مارك وقتاً للالتفات، ورفع ذراعيه علانية كدليل على عدم تفكيره في مقاومة مهاجمه.

- لا تتظاهر بالذكاء يا فيترال.

قطّب مارك جبينه بعدما وجد أمامه فتاة لا يتجاوز طولها مئة وخمسين سنتيمتراً، ووزنها أربعين كيلوغراماً على الأكثر، ترتدي ملابس جعلتها أشبه بفتيات المدارس الداخلية... وإن كانت تملك ملامح شابّة في الثلاثين من عمرها.

مالفينا دو كارفيل!

لم يسبق لمارك أن قابَلَها أبداً، ولم يرَ حتى صورها، لكنها هي من دون شك. حاصرته، متمسِّكة بمسدّسها، وقد لمعت عيناها من

شدّة الغضب. حاولَ عقل مارك تحليل الأحداث المتعاقبة بأقصى سرعة ممكنة. إذاً فسيارة روفر ميني الزرقاء المتوقفة على بُعد بضعة أمتار في طريق شو دوسولاي وشارع بوت-أو-كاي قبل ساعة من الآن كانت سيارة مالفينا دو كارفيل، كانت الفتاة في منزل غران-دوك قبل عدة ساعات. . . ومعها مسدس.

هي التي قتلت كريدول غران-دوك، وربما حان دوره الآن.

تأمَّلَته مالفينا، من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

- ما الذي تفعله هنا يا فيترال؟

كانت نبرة صوتها مضحكَة إلى حدٍّ ما، كصرخة حادّة لكلب صغير ينبح خلف قضبان قفص ضيق. يعلم مارك بأن عليه أن يحذَر منها. هذه الفتاة قادرة على فعل أي شيء، بما في ذلك تزيين جبهته برصاصة وهي تضحك. ولكنه عجز رغم ذلك عن أخذ هذه الفتاة التي ترتدي ملابس قديمة الطراز على محمَل الجدّ، وقد استغرب في قرارة نفسه عدم ظهور أعراض رهاب الخلاء المألوفة، لم يشعُر بالخوف أو القلق.

- لا تتحرك يا فيترال، قلتُ لك لا تتحرك.

تقدَّم مارك لنصف متر دون أن يخفض ذراعيه، وقد رسم على وجهه ابتسامة.

- لا تنظر إليّ بهذه الطريقة! صرَخَت مالفينا متراجعة. حركاتك الغبية هذه لا تُثير إعجابي. أعرف كلّ شيء عنك، وأعلم بأنك تنام مع شقيقتك. . . أنت تضاجع شقيقتك، أليس هذا مقرّزاً؟

لم يمنع مارك نفسه من الابتسام مرة أخرى. كان سباب مالفينا سخيفاً، شبيهاً إلى حدّ ما بسباب الأطفال في مركب دييب، سباب أطفال في الثامنة يحاولون مغالبة خَجَلهم بطريقة أو بأخرى.

- لو حلَّلنا الأمور من وجهة نظرك، لقُلنا بأنني أنامُ مع شقيقتك أنتِ. . .

فوجئت مالفينا بإجابته. بدا كما لو أنّ روحها تعمَل كحاسوب تنقصه ذاكرة حية. استغرقَت وقتاً قبل أن تجد إجابة مناسبة:

- معكَ حق، أنت تضاجع شقيقتي أنا، لأنها جميلة جداً، أجمل من أن تكون فرداً في عائلة فيترال القذرة، لكن ليز-روز بلغت الثامنة عشرة الآن، ولم تعُد بحاجة لبئيسٍ مثلك. . .

لم ينجح سباب مالفينا في النفاذ إلى أعماق مارك، بدا المشهد بالنسبة إليه كاريكاتورياً، غير حقيقي. لم يكن يرغب حتى في الدفاع عن نفسه، أو نفي مسألة مضاجعته لليلي. تقدَّم بلا تردّد أو خوف من مالفينا، التي صوَّبت الماوزر نحوه.

- قلتُ لكَ لا تتحرك.

واصل تقدُّمَه من دون التفات.

- آسف، لم آتِ من أجلك، بل من أجل مقابلة جدَّتكِ. اعذريني، هل الروزري هو اسم منزلكم؟

- ألا تفهم؟ خطوة أخرى وأطلق النار عليك. تظاهرَ مارك بعدم سماعها مديراً ظهرَه إياها. هل هذا هو الخيار الأمثل؟ هل يتبع حدسه، مطمئناً لغياب أعراض النوبة؟ ألن يؤدي ذلك إلى قتله، كما فعلت هذه المجنونة مع غران-دوك، وبرصاصة في القلب؟ توقّف أمام بوابة الروزري الضخمة وهو يشعر بقطرات من العرق تبلِّل أسفل ظهره.

- ماذا تفعل هنا؟ سأقتلك!

قفزت مالفينا فبدت كطفلة سعيدة تلعب في ساحة واسعة، وواصلت تصويب الماوزر نحوه، وهي تتأمل هيئته من جديد.

- هل تبحثين عن شيء ما؟ قال مارك بنبرة حاولَ أن يجعلها ساخرة.

- هل أتيتَ بلا حقيبة؟ متأكِّد من أنك لا تخفي شيئاً بين ملابسك؟

- تريدين مني أن أنزع ملابسي أمامك، أليس كذلك؟

- ارفَع يديكَ إلى أعلى وإلّا!

- تفكرين في نزع ملابسي بنفسك؟ أن تفتشيني بيديك الصغيرتين؟

تردَّدت، فخشي مارك أن يكون قد تمادى في سخريته كثيراً، بعدما بدت العصبية على تصرفات الفتاة، واستقرَّ أصبعها على زناد الماوزر؛ أصبع يحمل خاتماً فضياً يزينه حجر كريم بني اللون، كلون عينيها. واصلت مالفينا تفحُّص هيئة مارك. هي تبحث عن دفتر غران-دوك بلا شك. وقد كان مارك على حق عندما اتَّخذ احتياطاته.

واصل لعبته الخطرة بقوله:

- آسف يا مالفينا، فأنا أفضِّل شقيقتكِ.

تقدَّم ليضغط على الجرس بأصبعٍ مرتجف، غير آبهٍ بردَّة فعل مالفينا، وإن كان عاجزاً عن تبيّن طبيعة تصرّفها خلف ظهره.

- أيها الأبله، سوف...

قاطعها صوت أنثوي صادر عن جهاز الاتصال الداخلي في الجرس:

- نعم؟

- مارك فيترال، أتيتُ لمقابلة ماتيلد دو كارفيل.

- ادخُل.

انفتحت البوابة فتردَّدت مالفينا بعدما صار المسدس مزعجاً بالنسبة إليها، لكنها صوّبته نحوه رغم ذلك.

- فهمت؟ ماذا تنتظر إذاً؟ هيا ادخلْ!

مكتبة

كان مارك حذراً، يعلم أنه سيدخل إلى منزل فخم، واحد من بين أكبر منازل هذا الحي، لكنه فوجئ رغم ذلك بمدى شساعة الحديقة التي تحفّها الأشجار متنوّعة الأشكال وإن كان الأمر يتعلق بفصل الخريف، كما هو الشأن بالنسبة إلى الروضة التي ملأتها الورود وشجيرات الورود المقطوعة بعناية شديدة. كم تبلغ مساحة هذا الفضاء؟ عشرة آلاف متر مربع؟ خمسة عشر ألفاً؟ واصلَ تقدّمه عبر الممرّ الحجري، محاصَراً بالجسد الذي لا يتجاوز طوله متراً وخمسين سنتيمتراً.

- أنت منبهر بمدى شساعة المكان يا فيترال! الروزري! أكبر حديقة في كوبفراي، كما يمكّنكَ الطابق الثاني للمنزل من إلقاء نظرة شاملة على نهر المارن. ألا ترى يا فيترال بأنكم حرَمتم ليز-روز من كلّ هذا؟

كاد أن يصفع هذه الحشرة، صحيح أنها ترمي بسهامها المسمومة بشكلٍ عشوائي، لكنها قد تُصيب هدفها من حين إلى آخر. لم يستطعْ منعَ نفسه من المقارنة بين حديقة الروزري وحديقة منزله في حي بوشول، بطول خمسة أمتار وعرض ثلاثة، كما أنها تختفي تماماً عندما تكون السيتروين متوقّفة. مرّ سنجاب بالقرب من الدفيئة، ملقياً نظرة خائفة على الزوار.

- أعتقد بأنك نادم الآن بعدما فهمتَ كلّ شيء!

الندم؟

تردَّد صدى ضحكات ليلي في أذن مارك. ضحكات طفولية سعيدة، خاصة عندما تقوم نيكول بإخراج الشاحنة للذهاب إلى عملها في شاطئ دييب، بما يسمح له هو وليلي بلعب الحجلة أو كرة المضرب في الحديقة الصغيرة، الأكثر اتساعاً من أيّ حديقة أخرى، في عيونهما هما كطفلين صغيرين.

ثلاث خطوات، قبل أن تسبِقَه مالفينا لفتح الباب الخشبي، دون أن تتخلى عن مسدّسها، فلحقَ بها مارك.

ألم يكُن دخوله إلى هذا المنزل بكامل إرادته فكرة مجنونة؟ لقد تصرّف وحده. لا يعلم أحد بزيارته هذه. دلَّته مالفينا على ممرّ واسع، ليجد أمامه لوحات لمناظر طبيعية معلّقة على جدران الرواق؛ معاطف من الفراء معلّقة على مشجبٍ حديد، كما قدمت مرآة بيضوية الشكل خداعاً بصرياً يوحي بالعمق.

أشارت فوهة الماوزر إلى الباب الأول على اليمين، باب ثقيل مزيَّن بناتئة حمراء.

دخلا.

وجد مارك نفسه في بهو كبير، كان معظم الأثاث من أرائك وخزانات مغطى بملاءات بيضاء قد يكون هدفها بلا شكّ حمايتها من التلف عندما لا يستقبلون ضيوفاً. شغلت مكتبة ضخمة مفتوحة معظم مساحة الجدار المقابل، فيما قطع الغرفة من الجهة الأخرى جهاز بيانو أبيض اللون، من طراز بيتروف، واحدة من بين الماركات باهظة الثمن، يملك مارك فكرة عن الأثمنة.

وقفت ماتيلد دو كارفيل أمامه، مستقيمة، طويلة، متصلّبة، مع صليب يتدلّى من عنقها وبعض آثار الوحل على فستانها. كان ليونس دو كارفيل نائماً، غير واعٍ بما يجري حوله، بغطاء على ركبتيه وبعض

أوراق الأشجار الميتة بين ذراعيه. المشلول والأرملة السوداء، مشهد يليق بفيلم رعب سيئ.

لم تتحرّك ماتيلد دو كارفيل، مكتفية بمنحه ابتسامة غريبة.

- مارك فيترال... يا لها من زيارة مفاجئة... لم أكن أتوقّع قدومكَ إلى هنا يوماً ما...

- لم أكُن أتوقع ذلك أيضاً...

اتّسعت ابتسامتها أكثر، فيما ابتعدت مالفينا لتقف بجانب البيانو.

- أبعدي هذا المسدس يا مالفينا.

- ولكن يا جدّتي...

حدجتها ماتيلد دو كارفيل بنظرة لا تحتمل أيّ نقاش، فهمَّت بوضع المسدس على البيانو، يبدو أنها لا تنتظر سوى الفرصة للإمساك به واستخدامه.

بقيت نظرات مارك مسمَّرة على البيانو. طبيعي أن يوجد بيانو في منزل آل دو كارفيل وهو ما كان متأكداً منه وإنْ لم يسبق له القدوم إلى هذا المنزل، هكذا تسري الأمور. لا أحد في آل فيترال يملك روحاً موسيقية، لم يسبِق لوالديه أو جدّيه أن امتلكا أي آلة موسيقية، حتى شرائط الموسيقى كانت نادرة جداً في بولي. أحاطَت الأصوات بليلي منذ الأشهر الأولى التي قضتها في حي بوشول، وهو ما بدا أقرب لمفعول السحر، كل أنواع الأصوات، أصوات في الحضانة، كانت مفتونة بالألعاب الموسيقية، كما أنّ تسجيلها في مدرسة الموسيقى جاء منطقياً ومجانياً تقريباً؛ لم يكُن أستاذها يبخل عليها بالمديح، وهو ما يتذكّره مارك بكبير افتخار.

- بيانو جميل، أليس كذلك؟ قالت ماتيلد دو كارفيل. إنه

أصلي، اشتراه والدي عام 1934. يفاجئني أن تكون مهتماً بالبيانو يا مارك.

لم يُجِبْها بعدما تاه وسط ذكرياته. بدأ إصرار أساتذة الموسيقى مع بلوغ ليلي عامها الثامن، كانت أفضل تلاميذهم، وأكثرهم شغفاً. تعزف على كلّ الآلات بسعادةٍ وسهولة، مع ميلٍ كبير إلى البيانو. عليها أن تتدرّب بشكلٍ متواصل، فبضع ساعات -وهي مدّة كل الدروس الأسبوعية- لم تكن كافية، عليها أن تتدرب يومياً في منزلها، كما تجاوز أساتذة الموسيقى في دبيب مبرِّر ضِيق المكان بحديثهم عن توفر أجهزة بيانو حديثة جرى تصميمها لتناسب المنازل صغيرة الحجم. بقي مبرّر الثمن. ثمن بيانو جيد، وإنْ كان مستعملاً، يُعادل مرتّب أشهر طويلة من العمل بالنسبة إلى نيكول، وهو ما يجعل الفكرة غير قابلة للنقاش. شرحت نيكول لليلي أنّ ذلك يفوق إمكاناتهم بكثير، فصمتَت ولم تعلّق...

انتزعه صرير مفاجئ من أفكاره، بعدما حاولت مالفينا الإمساك بالماوزر المستقرّ على السطح الخشبي لبيانو البيتروف.

- دعي هذا المسدس من فضلكِ يا مالفينا! أمرَ صوت ماتيلد دو كارفيل الهادئ. أنا أيضاً كنت أعزف على البيانو... على الأقل عندما كنت أصغر سناً... وبشكل سيئ صراحة، لكن ابني ألكسندر كان أفضل مني بكثير... على أيّ حال، لا أعتقد بأنكَ أتيتَ إلى هنا لنتحدث عن الموسيقى الكلاسيكية...

يعلم مارك جيداً أنّ ماتيلد دو كارفيل لا تتفوه بأيّ كلمة مجانية.

- معكِ حق... أجابها. سأدخل في الموضوع مباشرة. لقد أتيتُ إلى هنا لنتحدّث عن تحقيق كريدول غران-دوك، لا أخفي

عنكِ، لقد تسلَّمتُ دفتر مذكّراته، مُجمَل تحقيقاته طوال ثمانية عشر عاماً، لنقُل بأنه سلّمه إلى. . .

تردَّد قليلاً قبل أن يكمل:

- . . . لقد سلمه إلى ليلي، التي أصرَّت على أن أقرأه صباح هذا اليوم.

- لكنكَ أتيتَ إلى هنا بيدين فارغتين، قاطعته ماتيلد دو كارفيل. يبدو أنكَ حريص جداً يا مارك. أمّا فيما يتعلق بالدفتر، فأنا لم أجبر كريدول غران-دوك على اعتماد السرية أو الحصرية في تحقيقه، كما أنّ معرفة ليلي بالحقيقة أمرٌ جيد جداً في نهاية المطاف. تبقى الشكوك أفضل بكثير من يقينيات خاطئة. أعتقد بأنني أعرف جيداً محتوى هذا الدفتر. كان غران-دوك مستخدماً وفياً.

تأمَّل مارك وجه مالفينا عبر انعكاس الخشب المصقول للبيانو، قبل أن يقول بنبرة حاولَ أن تبدو مصدومة:

- «كان»؟

أجابته ماتيلد بسخرية واضحة:

- نعم، «كان». كان غران-دوك تحت إمرتي لمدة ثمانية عشر عاماً. . . لكنه تحرَّر من التزامه معي منذ ثلاثة أيام. . .

شعرَ مارك بالغضب، تحاول ماتيلد دو كارفيل بتعامُلها الاستعلائي التحكّم به! هي تعلم طبعاً بوفاة غران-دوك. مقتولاً على يد حفيدتها، وربما هي التي أصدَرَت أوامرها بذلك. . . اهتزت يدا مارك رغماً عنه. ماذا يفعل هنا؟ بين هذه الساحرة العجوز الساخطة وهذه المجنونة التي تنتظر فقط أوامر جدّتها لقتله. من دون الحديث عن العجوز المشلول الجالس على كرسيه المتحرك. مشهد كابوسي. ما الذي كان ينتظره أصلاً من وضعه لقدميه هنا؟

تقدم مارك ببضع خطوات، ربما في محاولة لطمأنَة نفسه. أمسكَت مالفينا بمقبض الماوزر، لا خيار أمامه، لن يخسر شيئاً، عليه أن يتصرف بسرعة.

- حسناً، لننهِ هذا السيرك السخيف، سأكون واضحاً! ثمانية عشر عاماً والعائلتان رهينتان لهذه الشكوك. يعتقد آل دو كارفيل بأنّ ليز-روز هي التي بقيت على قيد الحياة، فيما يصرّ آل فيترال على أنها إيميلي، وهذا ما أقرَّه القاضي أيضاً.

تنهّد، باحثاً عن الكلمات المناسبة.

- سيدة دو كارفيل، لقد كبرت طوال هذه السنوات إلى جانب ليلي، وقد أكسبني ذلك يقيناً معيّناً.

تردَّد قليلاً، ثم أكمل:

- سيدة دو كارفيل، ليلي ليست شقيقتي! هل تسمعينني؟ لا يجمع بيننا رابط الدم... ليز-روز هي التي بقيَت على قيد الحياة ليلة الحادث.

أصدر الماوزر المستقرّ فوق البيانو صوتاً حاداً، لمعت عينا مالفينا من شدّة المفاجأة والفرحة، كما لو أنّ مارك قد تحوَّل بسرعة فائقة إلى حليف لها، أو جاسوس يرفع قناعه ليكشف عن هويته الحقيقية.

واحد منهم!

على العكس من ذلك، بقيت ماتيلد دو كارفيل متجمِّدة في مكانها. محافِظَة على صمتها، قبل أن تتفوّه ببضع كلمات:

- مالفينا، رافقي جدّك في نزهة بالحديقة.

- ولكن يا جدتي...

ملأت الدموع عينَي الشابة.

- نفِّذي أوامري يا مالفينا. رافقي ليونس في جولة بالحديقة.

- ولكن...

فشلت مالفينا هذه المرة في ضبط دموعها.

غادرت البهو وهي تدفع أمامها الكرسي المتحرك، الذي يجلس عليه جدّها بلا حراك، مواصلاً نومه.

- 27 -

مكتبة

t.me/ktabrwaya

2 أكتوبر 1998، الثانية عشرة زوالاً وخمس وخمسون دقيقة

تمايلت ليلي بطريقة بالغة الخطورة. يبدو أنّ مقعد الحانة بقوائمه المحصورة قد صمِّم بشكلٍ يسمح بتأرجح الشخص الجالس فوقه بمجرد إفراطه في الشرب.

لن يتأخّر الأمر أكثر من ذلك، فكَّرت ليلي.

يستحقّ هذا المقعد المهتز براءة اختراع.

قربت كأس الجنّ من شفتيها، لم يعُد يُلهبها. لا تشعر بشيء الآن، باستثناء تمايل المقعد.

كانت الفتاة الوحيدة في الحانة، الباراموندي، شارع دولاب. هي واحدة من تلك الحانات التي لا يمكنكَ الذهاب إليها بمفردك، ولو صباحاً، أو إن كان الذهاب لغرضٍ محدّد في الذهن. تظاهرَ رواد الحانة بعدم الاكتراث، ومواصَلة شرب الجعة، أو احتساء النبيذ الأبيض، أو ملأ شبكات «الفرنسية للألعاب» بصخب، أو التركيز على شاشة التلفاز التي تبثّ برامج رياضية... لكنها شعرت بنظراتهم الموجَّهة بإصرارٍ إلى فخذَيها العاريين وساقيها المرفوعتين على طول المقعد، قبل الوصول إلى ظهرها، ثم عنقها...

النسيان. . .

أفرَغَت ليلي كأس الجنّ في جوفها بحركة واحدة، ثم استدارت نحو الساقي، يبدو شخصاً هادئاً وديعاً، بخصلة شعر وحيدة، رمادية ومجعدة، فوق جمجمته.

- هل من أنواع أخرى يمكنكَ اقتراحها عليّ؟

سبق وأن جربت الفودكا والتكيلا، وهي تفضل -مع بعض التردّد- الفودكا، ما زالت في بداية مرحلة الاكتشاف والتعوّد، لم يسبق لها أن احتسَت قطرة خمر واحدة قبل بلوغها الثامنة عشرة من عمرها، باستثناء كأس من الشامبانيا قبل ثلاثة أيام.

كانت تعوّض ما فاتها من وقتٍ ضائع.

- أعتقد بأنّ الأمور على ما يرام هكذا يا آنستي. لقد احتسيتِ كؤوساً بما فيه الكفاية، أليس كذلك؟

ما الذي يريده منها هذا الأبله ذو تسريحة الشعر الغريبة، ألا يفهم بأنها بلغَت سنّ الرشد منذ ثلاثة أيام؟ فكّرت ليلي في إطلاعه على بطاقة هويتها، لكن النادل الحقير سرعان ما أدار ظهره من دون اكتراث.

جلس على بُعد مترين منها في طاولة المشرب رجل يرتدي بذلة رمادية وربطة عنقٍ ناعمة، غارقاً في كأسٍ يحتوي قعره على سائل بني. كان الوحيد الذي لم يقُم بتعريتها بنظراته. مالت ليلي نحوه، محافظَة على توازنها فوق المقعد المتهادي، ومتشبّثة في الوقت نفسه بطاولة المشرب.

- ما الذي تشربه أنت؟

اعتدل صاحب ربطة العنق الناعمة قليلاً.

- سكوتش كلاسيكي. . .

- أنا أريده أيضاً! أيها النادل، أريد هذا!

رفع النادل حاجبه الأيمن، محافظاً على هدوئه:

- هل أنتِ متأكّدة من ذلك يا آنستي؟

- اتركها يا جان شارل، قال صاحب ربطة العنق، سأتولى الأمر.

رفعَ جان شارل حاجبه الأيسر هذه المرة، يبدو أنه يتلقى تدريباً خاصاً للقيام بتلك الحركة.

- آخر كأس إذاً؟ لا أريد أيّ مشاكل...

التصق بها شارب السكوتش، من دون الحاجة للنزول من مقعده، محافظاً على توازنه فوقه بطريقة أكثر احترافية من ليلي. لم يكُن غرضه مواساتها بطبيعة الحال، كان أبعد ما يكون عن ذلك، بل بالعكس، بدا أنّ هذا المنحرف لا يقتات إلّا على المحادثات بين الغرقى، قصص العواصف، حكايات البقاء على قيد الحياة، والقنينات المرمية في البحر...

- وأنت؟ ما الذي أوصلكِ إلى هنا يا آنسة...

- يعسوبة. الآنسة يعسوبة!

انتبهَ هو إلى أنه يكلِّم فتاة تملك جسد عارضة أزياء طويلة الأطراف، وأنّ كلّ رواد الحانة يتابعونهما بأعينهم، كما لو كان عرضاً مسرحياً.

- يعسوبة... هذا جميل... أمّا أنا فأدعى ريتشارد... أستاذ في الإعدادية، في بوالديو بالدائرة العشرين، تعلمين إذاً أن...

دفعته ليلي بذراعها للإمساك بكأس السكوتش الذي لامسته بشفتيها مقطِّبة جبينها. لا شيء يُعادل الفودكا! أدرك ريتشارد أنّ مساره الأكاديمي لا يهمّها في شيء، فغيّر الموضوع:

- فتاة جميلة مثلك... لا يبدو أنك محترفة. كيف أمكنك الوجود هنا وأنتِ بهذا الجمال؟

دفعت ليلي المقعد -الذي لم يسقط بمعجزة- نحو ريتشارد.

- أنت، تعالَ إلى هنا.

فجأة أمسكت بربطة عنقه لتجرّه نحوها، ثم قرَّبت أذن الأستاذ من فمها:

- سأخبركَ يا صاحب ربطة العنق. في الواقع أنا لستُ جميلة. هذا مجرّد تنكّر!

تأمّلها ريتشارد بملامح مصعوقة.

- نعم؟

- ساقاي... نهداي... شفتاي... جلدي... كل ما يشتهيه الجميع محاولين لمسه، في الشارع، هنا وهناك... ليس في الواقع سوى تنكر، مجرّد رداء، كالذي يرتديه هواة الغطس.

- أنت... أنت؟

- أنا لا أكذب. يعتقد الجميع بأنني جميلة، لكن هذه الهيئة تُخفي وراءها وحشاً!

- أنت...

- هل أنتَ غبي أم ماذا؟ أقول لكَ بأنني شبيهة بالحرباء... أملك عدّة جلود. كما ترى، أنا شبيهة بوحوش مسلسل «في» التلفزي، ممّن يشبهون كائنات بشرية لكنهم مقززون تحت جلودهم، خاصة زعيمتهم، الفتاة الحسناء التي تخفي تحت جلدها حيواناً زاحفاً قذراً. أنا مثلها، مثل هذه الزواحف التي تلتهم الفئران الحية، هذا كلّ ما في الأمر، مفهوم؟

- ليس تماماً، في الحقيقة، أنا لا أتابع المسلسلات التلفزية، أنا أستاذ. . .

كان ضغطها على ربطة عنقه كافياً لإسكاته.

- سأخبركَ بشيء آخر يا صاحب ربطة العنق، قد يكون أكثر خطورة، نحن اثنتان داخل هذا التركيب، وليس واحدة، اثنتان في الجسد نفسه، هل تصدق ذلك؟

- إذاً، نعم. . . سأقول إن. . .

- اصمت. . . لا تقُل شيئاً، هذا أفضل. . . عليّ الذهاب بعد دقائق من الآن. . . أتدري إلى أين؟ سأذهب للقيام بتصرّف أخرق. تصرُّف لا أريده، لأنه يُشعرني بالغثيان، لكنني مُجبَرَة على القيام به. . .

استند ريتشارد إلى كتف ليلي، كانت تلك طريقته الوحيدة لتجنّب السقوط، ملامساً نهدها بذراعه، قبل أن يهمس مقرِّباً شفتيه من شفتي الفتاة:

- لماذا؟ لم نكن في يوم من الأيام مجبَرين على القيام بشيء ما، قد أساعدكِ على انتزاع تنكّرك. . . لنرى ما الذي يوجد داخله، أنتِ وصديقتكِ. . .

تشجَّع ريتشارد أكثر فأكثر، لم يكن يملك هامشاً مريحاً للحركة، بعدما أمسكت ليلي بربطة عنقه، لكن يده اليمنى تسلَّلت إلى تنورتها السوداء. من دون أدنى اعتراض من ليلي.

- قلت لكَ بأنّ الأوان قد فات. . . لا يمكنكَ فعل شيء، لا أحد يمكنه فعل شيء. كما ترى، أنا ذاهبة لقتل مَن لا علاقة له بكلّ هذا، مَن لم يطلب مني شيئاً. . . لكن الأمور هكذا. . .

- حسناً، حسناً. . . لكننا نملك بعض الوقت. بضع دقائق.

ستطلعينني قبل ذلك على جلدك الثاني... إن كنتِ تريدين مني أن أصدِّقكِ...

صعدت يده اليمنى إلى فخذها، فيما استقرت اليسرى على صدر ليلي، فتحرك النادل بسرعة وقد انعقد حاجباه في غضب، وضع كأساً على طاولة المشرب بعنف قائلاً:

- على رسلك يا ريتشارد، كن لطيفاً مع الفتاة. احمِلْ ساقيك وارحَل من هنا، كثيرة هي المشاكل المماثلة التي تسبَّبت بها تصرفاتك الخرقاء، أليس كذلك؟

تردَّد ريتشارد وقد ضغطت ربطة العنق على عنقه.

- هل تسمَعني؟ أجبني! قلت لك بأنني أعتزم قتل شخص بريء!

مالَت ليلي أكثر فأكثر. لم يحتمل المقعد هذه المرة فسقطت بحركة واحدة. كانت قد تخلّت عن ربطة العنق لحظة سقوطها، لكن يبدو أنها قد تركت آثار خنق حمراء حول عنق ريتشارد.

نهض لمساعدة ليلي بلا ضغائن أو أحقاد، كمشنوقٍ نجا من الموت بأعجوبة.

- لا تلمسني! صرخت قائلة. ابتعدْ عني! اغربْ عن وجهي!

- 28 -

2 أكتوبر 1998، الواحدة زوالاً وإحدى عشرة دقيقة

جذبت ماتيلد دو كارفيل الستارة المزدوجة بلطفٍ لتتأكد من تنفيذ حفيدتها لأوامرها. وجَّه مارك بصره نحو الموضع نفسه، توقّف للحظة مُلقياً نظرة على اليد المليئة بالتجاعيد ثم تأمَّل الحديقة الخضراء الواسعة عبر ثقوب قماش الستارة الأبيض. بدا منزل الروزري شبيهاً بالأجواء الصامتة لفيلم رديء: ديكور بورجوازي قديم وألوان باستي. بدَت مالفينا من بَعيد، على ممرّ الحصى الوردي، وهي تدفع جدّها على مقعده المتحرِّك بعصبية. يبدو أنّ رأس الجد العاجز قد مالَ قليلاً بما قد يؤدّي لكسر عنقه: عيناه الثابتتان مفتوحتان ببلاهة تتأملان السماء البيضاء أو ربما قمم الأشجار، التساقط البطيء لآخر أوراق القيقب الشقراء. لم تكلّف مالفينا نفسها عناء الانحناء على الجدّ لتعديل وضعه المائل.

انتظرت ماتيلد بضع ثوان ابتعدت خلالهما مالفينا وليونس دو كارفيل متجّهين نحو أشجار الورد وبعدهما الدفيئة والمقصورة المطلّة على المارن. أغلقت الستارة المزدوجة ببطء لتُغرِق الغرفة من جديد في ظلّ خفيفٍ ظهرت من خلاله خيالات بيضاء ثابتة للأثاث المغطى

بالشراشف وبرنيق بيتروف الصيني. استدارت ماتيلد دو كارفيل نحو مارك.

- مارك... هل تسمح لي بمناداتك بهذا الاسم؟ أعتقد بأنّ سني يسمح لي بذلك. بما أنّكَ قرّرت المجيء إلى هنا فسوف أطرح عليك سؤالاً، سؤالاً بسيطاً. عندما التقيتَ بليلي مؤخراً، بعد بلوغها سنّ الرشد، هل كانت تضع حلية؟ خاتماً؟

اقترب مارك من البيانو، حاذَت أصابعه لوحة المفاتيح، دون أن يضغط على الأزرار.

ما حاجته بالكذب؟

- نعم، كانت تضع حلية... خاتم من اللازورد اللامع...

لم ترتَسم أيّ ابتسامة على محيا ماتيلد دو كارفيل، ولا حتى تعبير ضئيل عن الانتصار أو الابتهاج. بدا ذلك غريباً بالنسبة إلى مارك، فقد تصرّفت ماتيلد كشرطيّ يرفض قَبول اعترافات لصّ.

انزلقت يد مارك على البيانو. ما زال الماوزر في مكانه على الخشب الأبيض، على بُعد ثمانين سنتيمتراً من أصابعه. بحثَ عن تحديد موقع مالفينا في الحديقة عبر النافذة، لكن الستارة لم تكشف سوى عن شعاع ضوء شاحب.

- إنها مجنونة، قالت ماتيلد دو كارفيل فجأة بصوتها الهادئ. صارت حفيدتي مجنونة تقريباً. أعتقد بأنك قد لاحظت ذلك.

لم يُجِبْها، فأكملت:

- وأنتَ، ما رأيك؟

لم يفهم قصدها، فانتظر متابعتها لكلامها.

- الجنون يا مارك، أتحدَّث عن الجنون... ما رأيك أنت؟

تراقصت أصابع مارك على الأزرار العاجية في محاولة منه لإخفاء ارتجافها الملحوظ.

- أنا أكلِّمكَ يا مارك، أصرَّ صوت ماتيلد دو كارفيل الجليدي. أتحدَّث عنك. مثلكَ مثل مالفينا، لقد اضطرّ عقلك الصغير لمواجهة كلّ هذه الشكوك، ما الذي جرى لشقيقتك الصغرى؟ حية؟ ميتة؟ هل نجوتَ من آثار ذلك بشكلٍ أفضل من مالفينا؟

رفع مارك رأسه دون أن يتفوّه بكلمة.

- يا له من عذاب، أليس كذلك يا مارك؟ كلّ هذه السنوات دون أن تتمكّن من تحديد طبيعة مشاعرك تجاه الفتاة التي تحبّها أكثر من أي شيء آخر في هذا العالم. هل يتعلق الأمر بمشاعر حبّ أخوية؟ أم أنه عشق شهواني ملتهِب؟ كيف ستكبر وأنت محاصَر بهذه الشكوك؟

تغيَّرت نبرة صوت ماتيلد دو كارفيل لتصبح أكثر قوة وتهديداً، تقدَّمت نحو البيانو.

- محاولتك للعيش، أو البقاء على قيد الحياة، تعني ضرورة التعايش مع هذه المشاعر، أليس كذلك يا مارك؟ طوال سنوات الطفولة ومارك الصغير يبحث عن حنان إيميلي، شقيقته الصغيرة الجميلة... ثم كَبُر مارك الصغير... لمَ لا يستغلّ كل هذه الشكوك، فالفرصة سانحة، أليس كذلك؟ سيدفن إيميلي الصغيرة ويقع في غرام ليز-روز الجميلة والغنية، وريثة آل دو كارفيل.

اقتربَت أصابع ماتيلد دو كارفيل من المسدس، وتصاعَدَت نبرة صوتها أكثر فأكثر:

- لقد عانيتُ يا مارك، يعلم الله أنني عانيت كثيراً، لقد دفعت

طوال هذه السنوات ثمن خطأ لا أدري ما هو، لكنني دفعت الثمن في نهاية المطاف. لانتقامي مذاق مرّ يا مارك، صدِّقني.

سعلَ مارك، عجزَ حلقه عن إصدار أيّ صوت آخر. كانت ماتيلد واقفة على بُعد أقلّ من مترٍ أمامه. عن أيّ انتقام تتحدث؟

استدارت ماتيلد دو كارفيل فجأة. اتجهت المرأة العجوز نحو المكتبة، في الجهة المقابلة من الغرفة. غطى ظلّها الرمادي برنيق بيتروف الصيني. أمسكت بلا تردّد كتاباً سميكاً لم يتمكّن مارك من قراءة عنوانه، ثم فتحته لتلتقط منه ظرفاً بلون أزرق أقرب للون الخزامى. تقدَّمت ماتيلد دو كارفيل في الغرفة من جديد.

- لقد تقرَّب غران-دوك منكم يا مارك، وربما أصبح صديقاً لعائلة فيترال، ولكن لا تكونوا مغفلين، فهو يعمَل لحسابي في نهاية المطاف، وكان يوافيني بتقاريره بشكل أسبوعي تقريباً... على الأقل في سنوات التحقيق الأولى. فبعد خمس سنوات من البحث، لم يعثُر على دليل جديد، وبعد ثماني سنوات انقطع الأمل تماماً في العثور على أيّ دليل.

استعاد ذهن مارك صورة جثة غران-دوك، فيما وضعت ماتيلد الظرف الأزرق على البيانو، بالقرب من المسدس.

- أيّ دليل، باستثناء واحد فقط، الدليل الأخير. كان ذلك عام 1988...

استدارت ماتيلد مرة أخرى. ألا تملّ هذه المرأة من الحركة أبداً؟

- أمامنا وقت كافٍ يا مارك، هل تسمَح لي بدعوتك لشرب شيء ما؟

تردد مارك متفاجئاً، بدا له أنّ كلّ ما عاشه واكتشفه إلى حين

وصوله إلى الروزري كان معدّاً ومحسوباً بدقة، كما لو أنّ مجيئه كان منتظَراً: هذه الغرفة الكئيبة سيئة الإضاءة، البيانو الأبيض، الماوزر المستقر فوقه، اختفاء مالفينا وليونس دو كارفيل في الحديقة أو في مكان آخر، أخفت الستارة كلّ ما يجري خارج الغرفة.

- نع... نعم، أجابها مارك بصعوبة. لمَ لا؟

- نقيع؟ أمتلك خلطات منسمة أزرعها بنفسي.

أومأ مارك برأسه موافقاً. غابت ماتيلد دو كارفيل لدقائق طويلة، تاركة مارك وحده، بالقرب من الظرف الأزرق والماوزر، وذلك متعمّد بطبيعة الحال. تعذيب هادئ. انتقام على طريقة ماتيلد. بذلَ مارك كلّ ما في وسعه للتنفس ببطء، مترقّباً ظهور أولى علامات رهاب الخلاء. صحيح أنه لم يستشعرْ الخطر أمام ذلك الوحش المسلّح الذي يُدعى مالفينا، لكن شعوره أمام الطريقة التي استقبلته بها العجوز دو كارفيل كان مختلفاً تماماً، بعدما أحسّ بذلك التنمّل المألوف في ساقيه وذراعيه ويديه.

عادت ماتيلد حاملة صينية صغيرة بها فنجانان يضمّ كلّ واحد منهما منقوعاً. صبَّت الماء الساخن، ثم مدَّت فنجاناً لمارك.

- اشرب يا مارك...

تردَّد، فمنحته ماتيلد ابتسامة هادئة.

- لن أسمِّمك!

لامس المشروب بشفتيه. كان ساخناً جداً.

- مارك، قالت ماتيلد دو كارفيل، لن أتسبَّب في معاناتك أكثر من ذلك.

اكتفى مارك بجرعة، فأعجَبَه الطعم، يبدو أنّ هذه الساحرة العجوز تزرع نباتاتها العجيبة بنفسها في حديقتها السرية العملاقة.

- في بداية هذا العقد، تابعَتْ ماتيلد دو كارفيل، صارَ من الممكن معرفة الحقيقة، وأنتَ تعرف ذلك أيضاً... اختبار دي إن أي بسيط! والنتيجة مؤكّدة لا تحتمل الخطأ. يمكن للمختبرات الإنجليزية -رغم تكاليفها الباهظة- أن تكتفي بالقليل من اللعاب أو قطرات من الدم لتسلِّمك النتائج بعد أيام قليلة. انتظرت لسنوات قبل أن أتخذ القرار النهائي، العلاقة بين المذهب الكاثوليكي وعلم الوراثة ليست على ما يرام كما تعلَم يا مارك. تردَّدت طويلاً، ثم اتخذت قراري قبل ثلاث سنوات، عندما بلغت ليلي عامها الخامس عشر، كانت هذه مهمة غران-دوك الأخيرة إن صحَّ التعبير. تكلَّف غران-دوك بكلّ شيء. كان يملك علاقات داخل مصالح الشرطة العلمية الفرنسية، وزودته أنا بالمال اللازم، الأمور لم تكن تملك أي صبغة قانونية. حصل على عينة من دم ليلي يوم عيد ميلادها، كما أعطيته عينة من دمي ودم زوجي ودم مالفينا أيضاً. كانت المسألة بسيطة للغاية.

شعر مارك بأنّ ساقيه تخونانه. شربَ جرعة أخرى من المنقوع الذي بدا طعمه أكثر حموضة بعد هضمه. لقد تذكر عيد ميلاد ليلي الخامس عشر، كان كريدول غران-دوك مدعواً ككلّ سنة، وأهداها مزهرية زجاجية صغيرة، كانت المزهرية دقيقة ومثلومة ربما، حتى أنها تهشَّمت بمجرد إمساك ليلي بها. جرحت الفتاة في سبابتها. اعتذر غران-دوك وقام بجمع قطع الزجاج المهشّم، باحثاً عن كلمات يعبِّر بها عن أسفه...

هل سيكشف غران-دوك عن لعبته المزدوجة في الصفحات القادمة من دفتره؟ سيتأكّد من ذلك. كان حلقه ملتهباً.

لم يكن يملك في هذه اللحظة سوى رغبةٍ وحيدة: أن يُمسك بالظرف الأزرق، ويفتحه، ثم يقرأ محتواه.

منحته ماتيلد دو كارفيل ابتسامة غريبة أخرى.

- مارك، النتائج هنا، في هذا الظرف، وأنا الوحيدة التي أعرفها منذ ثلاث سنوات. لقد قدَّمت لي خدمة عظيمة بقدومكَ إلى هنا، سأعطيكَ الظرف.

ألهب مارك حلقه بجرعة أخيرة، ثم التقط الظرف الأزرق بأصابع مرتجفة، فتغضّن جبين ماتيلد دو كارفيل في إعلانٍ صريح عن الانتصار.

- لن تفتح هذا الظرف يا مارك! ستسلِّمه لنيكول فيترال. هذا حساب سنوات طويلة بيني وبينها، إن كان شخص آخر سيعرف الحقيقة الآن، فهو نيكول نفسها.

غلَّف الغرفة صمتٌ طويل، كندى فضي صباحي غطى كلّ الملاءات. دسَّ مارك الظرف الأزرق في جيبه ببطء.

- ما الذي يضمن لك أنني لن أفتح الظرف بعد خروجي من هنا مباشرة؟

- أنتَ ولدٌ مؤدّب ومطيع، أليس كذلك؟ لن تخون جدتك، لأن هذه الرسالة موجَّهة إليها هي...

- هذه قواعدكِ أنتِ... ما الذي يُجبرني على الالتزام بها؟

- ستلتزم بها يا مارك، لأنكَ تتوقع في قرارة نفسك أنك تعرف الجواب الذي يتضمنه هذا الظرف.

شعر مارك بالاختناق. التهبت معدته وحلقه أيضاً، فيما أصرَّت ماتيلد دو كارفيل:

- ما الذي تخشاه يا مارك؟ أليس هذا ما تتمناه؟ لقد عاشت

ليز-روز، أمّا إيميلي فقد لقيت حتفها. ربما ستتألم نيكول بعض الشيء، لكن سعادة حفيدها ستعوّضها عن هذا الألم، أليس كذلك؟

بدا أنّ مارك سيستسلم لأعراض رهاب الخلاء، بعدما عجزَ عن التحكّم بتنفسه، كما لو أنّ المنقوع الساخن قد التهم معدته. أطلقت ماتيلد دو كارفيل ضحكة عصبية.

- ما الذي تريده بالضبط يا مارك؟ أن تكون ليلي زوجتك؟ أن تحمل مع بلوغها سن الرشد اسم ليز-روز دو كارفيل؟ زواج أبيض في نوتردام؟ سيجد زوجي صعوبة في مرافقة حفيدته إلى مذبح الكنيسة، لكننا سنتدبر الأمر. لكن ماذا بعد؟ ستأتي رفقة ليز-روز لشرب فنجان من القهوة يوم الأحد وتلعب الشطرنج في الحديقة متأمّلاً جريان نهر المارن، في الوقت الذي أتجاذب فيه أطراف الحديث مع جدّتك حول حلوى العسل والبطاطس المحمرة. يا له من وضعٍ مثير للشفقة يا مارك، يا لها من ورطة...

حاول مارك الإمساك بفنجانه، لكنه سقط منكسراً على البساط، ولطَّخ محتواه أرجل البيانو.

- سلِّم هذا الظرف لجدتك يا مارك، وستُخبركَ بنتيجة اختبار الدي إن أي إن أرادَت، قلْ لها أيضاً بأنني لستُ نادمة على شيء، حتى فيما يخصّ الأموال التي صرَفتها. فأنا أشعر بسلامٍ داخلي الآن.

غامت عينا مارك. جرَت الدماء في جسده بقوة أكبر، لم تعُد قدماه قادرتين على حمله، كبُرجين التهمتهما النيران. تجمّدت يداه على لوحة مفاتيح البيانو، مخفّفتين من سقطته وسط صدى قوي لألحان موسيقية غير مدوزنة.

- 29 -

2 أكتوبر 1998، الواحدة زوالاً وخمس عشرة دقيقة

توقّفت آيلا أوزان أمام الرقم 21 في شارع بوت-أو-كاي. اشرأبّت بعنقها واقفة على أطراف أصابع قدميها، محاولة التطلّع أبعد ما يمكن داخل الحديقة. لا شيء يتحرك. كانت النوافذ بلونها الأخضر الفاتح مغلقة بشكلٍ يائس! ضغطت آيلا على الجرس طويلاً، عدة مرات، لا أحد!

استدارَت في النهاية، تمشّت في الشارع باحثة عن أيّ علامة أو دليل ممكن. سبق لها القدوم إلى منزل كريدول غران-دوك عدة مرات، كانت تعدّ الطعام في أثناء انشغال كريدول وناظم بالعمل على القضية ودخولهما في نقاشات محتدمة حتى ساعة متأخرة من الليل. كانت تستمع لهما قليلاً، ثم ينتهي بها المطاف دائماً نائمة على الأريكة، محتمية بحرارة المدفأة، تعدّ اليعاسيب في المَحيى، يهدهدها صوت رَجُلَيها، رجل حياتها وصديق عمره. أين ذهبا؟ لا أحد في منزل كريدول، لا اتصال من ناظم منذ يومين. شيء ما ليس على ما يرام.

مرّت آيلا بجانب حانة تُدعى «زمن الكرز». تردَّدت في الدخول

للاستعلام، كان كريدول يأتي إلى هنا من وقت إلى آخر لاحتساء فنجان من القهوة. توقفت، واعية بأنّ تحركاتها ليست طبيعية. كانت قد لفّت أحد سكاكين مطبخها المسنونة في كيس بلاستيكي وأخفته على طول ساقها، تحت سروالها الفضفاض، قبل مغادرة محلها في جادة راسباي. كانت السكين طويلة للغاية، بما لا يسمح بدخولها في حقيبة ظهرها. سلاح فعال، في حالة ما إذا وقع شيء ما... عجزت عن طرد ذلك الشعور المخيف بالخطر.

ألقت نظرة شاملة على شارع بوت-أو-كاي. لم يكن مليئاً بالمارة. أمهات وأطفال، وزبناء في المخبزة.

تسمّرت في موضعها فجأة.

كان قلبها على وشك الانفجار تحت معطفها الشتوي الطويل.

كانت سيارة كريدول، البي أم دابليو إكس 3 السوداء، متوقّفة على الرصيف، على بُعد خمسين متراً من منزله، ولا أثر في المقابل لسيارة ناظم الكزنتيا الزرقاء. على افتراض لقاء ناظم بكريدول، ومغادرتهما معاً للمنزل في بوت-أو-كاي، أيّ سبب لعين ذاك الذي سيدفعهما -خاصة العجوز المهووس كريدول- إلى ركوب الكزنتيا المتّسخة والمنبعجة عوض البي إم دابليو؟

بحثت آيلا بخطى وئيدة في الجوار، شارع سامسون، ممرّ بواتون، شارع جان ماري جيكو، شارع ألفاند، باذلة كلّ ما في وسعها لتحريك ساقها المتصلبة بفعل نصل السكين. كانت موقنة بأنّ الكيس البلاستيكي قد يتمزّق في أية لحظة، ما يعني اختراق النصل لساقها وسقوطها بغباء هكذا في الشارع...

- هل تبحثين عن شيء ما؟

تفرّس في ملامحها شخص يرافقه كلب، يبدو من تلك النوعية

من الجيران الذين يكرهون الغرباء المارين من الحي. خاصة عندما يتعلق الأمر بتركية تدور حول السيارات المتوقفة هنا.

- أنا... أنا صديقة كريدول غران-دوك الذي يقطن في المنزل رقم 21 شارع بوت-أو-كاي. المنزل الصغير قبل الوصول إلى حانة «زمن الكرز». هو ليس موجوداً هنا، لكن سيارته متوقّفة بالقرب من منزله. بي إم دابليو سوداء... ألم... ألم تلاحظ وجود سيارة أخرى؟ كزنتيا زرقاء...

تأمّلها الرجل بطريقة تشبه ما يقوم به موظفو مصالح الهجرة في وزارة الداخلية، من المكلفين بتسليم بطاقات الإقامة في الأحياء. ثم وجّه بصره نحو كلبه.

- واقية الصدمات منبعجة؟ خليط من الورود المثبتة على المرآة الارتدادية؟ عَلَم تركي ملصق على الدراءة؟ أليس كذلك؟

صمتَ الرجل في تعبير واضح عن الرضا بالنفس، فيما استعادت آيلا الأمل مؤيِّدة كلامه، فرسمت على وجهها ابتسامة مشرقة، وإن بدا أنّ الرجل يثق بحدس كلبه أكثر من ثقته بالجاذبية العثمانية. التصق الكلب بلونه البني الفاتح بساقَي آيلا في مودة.

- لقد بقيت الكزنتيا متوقفة في الحي لأيام، قال الرجل، لكنها اختفَت منذ يوم أمس... لن تجديها، كوني متأكدة. لا تضيّعي وقتك.

آلمت السكين آيلا في فخذها، كما أنّ خطم هذا الكلب اللعين قد ينتهي به الأمر مشطوراً إلى نصفين، كلحم الكباب. انحنت لإبعاد الكلب محاولة تغيير موقعها. راقَبَها الرجل بحذرٍ أكبر. صحيح أنه أبله قذر، لكنه قد يكون مفيداً لها. ابتسمت للرجل وداعبت الكلب في نوعٍ من المساواة بينهما.

- يبدو لي أنك تعرف هذا الحي بشكلٍ جيد... ألم يُثِر انتباهك شيء ما في الأيام أو الساعات القليلة الماضية... شخص غريب عن المكان على سبيل المثال؟ أو سيارة أخرى غريبة عن الحي؟

حدّق فيها الرجل مستغرباً جرأتها، جرّ رسن الكلب بحركة غريزية، فيما تابعت آيلا كلامها. لم يكن لديها ما تخسره.

- شخص غريب، أقصد...

تردد قليلاً، لكنه لم يقاوم تلك الرغبة في الظهور بمظهر المفيد:

- فهمتُ قصدكِ...

ألقى نظرة على كلبه، كما لو كان يقاسمه ابتهاجه:

- سيارة روفر ميني زرقاء جديدة. تجوّلت صاحبتها في الحي صبيحة هذا اليوم، فتاة برأس عجوز وجسد طفلة. غريبة، مبهمة، بنظرات مخيفة... هذا ما تبحثين عنه؟

ابيضّ وجه آيلا أوزان فجأة. لقد فهمت قصد الرجل. حدَّثها ناظم أكثر من مرة عن مالفينا دو كارفيل، جسدها غير المألوف، تقلّباتها، سيارتها الروفر ميني التي أهدَتها إياها جدتها الثرية... أخبرها ناظم أيضاً بأنّ هذه الفتاة قد جُنَّت تماماً بعد حادثة الطائرة.

مجنونة وخطيرة.

شعرَت آيلا بالقلق.

- حسناً... نعم. ش.. شكراً...

ما الذي يمكنها القيام به الآن؟ الاتصال بالشرطة؟ إطلاق مذكّرة بحث؟ سيحاصرونها بالأسئلة. ستكون مضطرّة للإدلاء بكلّ ما تعرفه حول القضية، حول آل دو كارفيل، حول ناظم... اختفى منذ

يومين فقط. كلامها يعني تسليمه لرجال الشرطة، وهو ما لن يغفره لها ناظم أبداً...

ابتعد صاحب الكلب مواصلاً مراقبتها بطريقة غير مباشرة. لا، عليها أن تحلّ المسألة بمفردها. هي تعرف ما يكفي عن آل دو كارفيل، ولم تنسَ كلّ ما قاله ناظم في السرير مرتمياً على ظهره بعد بلوغه نشوته. اختفى الرجل الفاشي رفقة كلبه في زاوية شارع سامسون. اعترى آيلا شعور غريب، مزيج من الجزع والإثارة. تذكّرت جسد ناظم مرة أخرى، ومداعبة شاربه الضخم لجسدها. كم كانت رغبتها قوية في الارتماء بين ذراعيه، والرقص أمامه، وتحريك بطنها الصغيرة المدورة تحت أنفه لإثارته، حتى يقبّلها بنهم.

مالت آيلا لتثبيت السكين الباردة في ساقها. لا سبيل أمامها سوى مالفينا دو كارفيل! صحيح أن آيلا أوزان وحيدة، لكنها ليست غبية. يقطن آل دو كارفيل بالضاحية الشرقية، بالقرب من مارن لا فالي. ستعثر عليهم. لقد قاسمت محقّقاً خاصاً سريرها منذ عشرين عاماً. ستعرف كيف تتدبّر أمرها.

- 30 -

2 أكتوبر 1998، الواحدة زوالاً وسبع عشرة دقيقة

تقدَّم مارك في الممرّ المظلم. لم ترافقه ماتيلد دو كارفيل، بل اكتفَت بفتح الباب، لتتركه وحيداً يصارع شكوكه. تخلَّص شيئاً فشيئاً من أعراض نوبة رهاب الخلاء، استعاد تنفّسه انتظامه الطبيعي، كما تلاشى المفعول الحارق للنقيع، كما لو أنّ تهوية جسده قد صارت أفضل بكثير من السابق. تأمّل مارك ملامح وجهه الحائر في المرآة البيضوية الضخمة في نهاية الممر. لن يتأخّر أكثر من ذلك.

سيهبط ثلاث درجات، ثم يفتح الباب الخشبي الضخم، ليهرب من هذا المكان في أسرع وقت ممكن.

بالكاد حملته ساقاه، تلاطَمَت الأفكار في رأسه، هل يفتح الظرف الأزرق ويقرأ نتيجة اختبار الدي إن أي؟ أم ينتظر لساعات طويلة إلى حين وصوله إلى دييب؟ ربما خطّطت ماتيلد دو كارفيل للإيقاع به...

درجة، درجتان، ثلاث درجات.

اصطدم وجهه بالهواء النقي، فاستنشق نفحات طويلة باحثاً في الوقت نفسه عن تنظيم أفكاره. لم يجد أمامه في حديقة الروزري أيّ

ظلال متحركة، ما جعل المكان أشبه بحديقة دار للعجزة، أو مستشفى للأمراض العقلية.

توجّه مارك نحو البوابة، فوجد على يساره، خلف شجرة القيقب الصهباء، ليونس دو كارفيل النائم وحده، وقد سقط رأسه على كتفه، بعدما تخلّت عنه مالفينا وتركته وحيداً وسط العشب.

أصدر الحصى صريراً تحت قدميه.

حاول تنظيم أفكاره، عليه أن يتعامل مع ثلاث قضايا عاجلة، كلّها ذات بُعد جنائي، بطريقة أو بأخرى. أولاً مقتل غران-دوك قبل ساعات، كلّ شيء يقود إلى الاعتقاد بأنّ مالفينا دو كارفيل هي التي قتلته. ثم مقتل جده، نعم، فما حصل قبل أزيد من خمس عشرة سنة، عندما اختنق جداه داخل الشاحنة في تريبورت كان جريمة بلا شك. عليه أن يتذكّر تفصيلاً مهماً لا يطابق محتوى نصّ غران-دوك، هي ذكرى معينة موجودة في غرفته بديبب. ثم ليلي في النهاية، وحديثها عن رحلة بلا عودة. هل هو هروب؟ أم انتقام؟ أم أنها تخطّط للانتحار؟

هل تكون هذه الأحداث مرتبطة بعضها ببعض؟ نعم، هذا ممّا لا شكّ فيه، وقد يعني حلّ أحد هذه الألغاز، إمكانية حلّها كلها.

أصدر الحصى صريراً جديداً، هذه المرة خلف ظهر مارك.

- إلى أين أنت ذاهب يا فيترال؟

مالفينا!

استدار.

- سأذهب إلى حال سبيلي. لقد أخبرَتني جدتك بلطف عن كلّ ما كنت أودّ معرفته. . .

- هل أنتَ واثق من ذلك؟ أنت لم تعرف شيئاً. جدتي تخرف رغم حديثها بتلك الطريقة الاستعلائية.

تنهد.

- لا أحد غيري يعرف الحقيقة. تابعت مالفينا. لقد كنت هناك في تركيا. مات الجميع في تحطّم طائرة جبل تيريبل، إلّا أنا، فقد أتيت قبلهم في طائرة أخرى. اتبعني يا فيترال!

تأمّلها مارك في شك.

- قلت لكَ اتبعني! كما ترى فأنا لا أحمل معي المسدس الآن. قلت قبل قليل بأنّ ليز-روز هي التي بقيت على قيد الحياة، وأن إيميلي فيترال قد لقيت حتفها في تحطم الطائرة قبل ثمانية عشر عاماً، اتبعني إذاً!

لم يتحرك.

- هيا يا فيترال، اتبعني، سأريكَ ما قد يهمّك!

لمَ لا؟

عادت مالفينا أدراجها ثم فتحت الباب الخشبي مرة أخرى وقد ملأها الحماس كطفلة صغيرة، تجاوزت الممرّ ثم صعدت أدراج السلم الخشبي، فيما تبعها مارك في فضول. وصلا إلى الطابق الأول، فاستدارت مالفينا وهي تضع أصبعاً على فمها هامسة:

- إنها غرفتي على اليمين، لا تحلم، لن تراها. أمّا هذه الغرفة على اليسار، فهي غرفة ليز-روز. اتبعني...

تقدّم، دون أن يشعر هذه المرة أيضاً بأيّ إحساس بالخطر أو إمكانية استسلامه لأعراض نوبة أخرى بوجوده إلى جانب مالفينا.

فتحت الباب.

فوجئ مارك بغرفة أطفال جميلة جداً، لا ينقصها شيء. السرير

الوردي الصغير الذي غطّته الدباديب؛ الستائر التي طُبِعَت عليها صور زرافات كبيرة يلامس عنقها السقف فيما تلامس أقدامها أرضية الغرفة؛ منشفة برتقالية اللون على طاولة قماط خشبية؛ خزانة مزينة بورود من الباستي؛ كما وُضعت على الرفّ علب موسيقية، أباجورة، ودباديب أخرى، فيل أزرق، نمر، أرنب بلونين رمادي وأبيض؛ وعلى الأرضية بساط كبير ممتلئ بلعب أخرى، خشخيشات، فيل صغير، دمى قماشية على شكل مهرجين...

راودت مارك رغبة واحدة عاجلة لم يكن قادراً على التحكّم بها: أن يغادر منزل المجانين هذا، لكن ساقيه رفَضَتا الاستجابة، كما لو أنّ صوت مالفينا قد أحاطَ بها كخيط ملائكي غير مرئي.

- قامت جدتي بإعداد هذه الغرفة قبل ثماني عشرة سنة، استعداداً لعودة ليز-روز من تركيا، ثم واصلنا الاعتناء بها انتظاراً لعودتها يوماً ما، تعلم جيداً بأنها قد تعود في أية لحظة!

تخطّت اللعب باضطراب وهي تتجه إلى داخل الغرفة. فتحت الخزانة التي امتلأت رفوفها بالملابس والفساتين من مختلف الأحجام، قبعات، أحذية صغيرة جميلة، سقط غطاء رأس من الفراء وردي اللون على الأرض.

استدارت مالفينا نحو مارك بنشاط، مواصِلَة كلامها بصوتٍ خفيض، سعيدة كطفلة تروي حكايات منزل الدمى لأحد كبار السن.

- أمّا الآن فأنا أتولى أمر العناية بالغرفة وتنظيفها، فأنا متأكدة من أنني لو تركت زمام الأمور لجدتي فسوف تقوم برمي كلّ شيء في سلّة المهملات. هل تفهم؟ رمي كلّ شيء في سلة المهملات! أعلم جيداً أن ليز-روز قد كبرت الآن ولكنها ستعود لتكتشف غرفتها، لعبها، ملابسها، ربما سيكون ذلك مؤثراً، أليس كذلك؟

تراجع مارك قليلاً، دون أن يغادر الغرفة، وقد اعتراه مزيج من المشاعر المتناقضة.

- أترى يا مارك؟ هل ستدخل؟ هل أنتَ متمسك بليز-روز أم لا؟

تقدّم بخطوة رغماً عنه.

- انظر، هنالك أيضاً بعض الهدايا!

تصاعدت حدّة انزعاج مارك، لقد وضعَ قدميه في واحدة من نسخة رديئة من حكايات الجنيات الأسطورية، ويتجاذب أطراف الحديث مع قاتلة متسلسلة في جناح الألعاب بمتجرٍ مخصّص للأطفال.

- كما ترى يا فيترال فهذه هدايا أعياد ميلاد ليز-روز، منذ بلوغها عامها الأول، توجد أيضاً هدايا الكريسماس.

أشارت إلى علب مغلّفة مختلفة الأحجام، متناثرة ومكدّسة في جميع أنحاء الغرفة.

- يمكنني استعراض محتويات هذه العلب بسهولة تامة، العلبة الكبيرة على السرير كانت هدية عيد الميلاد الأول، بحثنا عنها أنا وجدتي في أروقة لافاييت مباشرة قبل وقوع الحادث، كنت في السادسة من عمري آنذاك، وأذكر جيداً تجولنا بين واجهات المحلات...

اقتربت من مارك ثم همست في أذنه:

- هل تعلم ما هو محتوى العلبة؟

أمال مارك رأسه، منقسماً بين مشاعر الدهشة والرعب.

- إنه دبدوب، دبدوب ضخم، أضخم منها بكثير، بلونيه الأصفر والبني، اسمه بانجو. أنا التي اخترت له هذا الاسم.

بانجو. إنه صديقها الذي ينتظرها منذ وقت طويل، إنه ينتظرها كما ترى. لا تتحرك، سأقدِّمه لك...

وضع مارك يده أمام عينيه، سيُبكيه هذيان هذه البلهاء الصغيرة. فتحت مالفينا العلبة الكبيرة بعناية شديدة، ثم أخرجت منها الدبدوب بنظراته الحالمة، ثم وضعته على السرير بحنان، قبل أن تثبّته بين وسادتين ورديتين.

- مرحباً بانجو! قالت بابتهاج. سأعترف لكَ بسرّ، لن تبقى وحيداً إلى الأبد، اقترب اليوم الموعود، لن تصدّقني إن أخبرتكَ بعودة ليز-روز قريباً!

غرفة الجمال النائم، كما فكَّر مارك. دباديب محشوّة بالقش، ملابس مجعّدة تنتظر عودة طفلة ميتة، إنه متحف الغياب.

- لن أعرض عليك كلّ محتويات العلب، لكنها تضمّ دمى بطبيعة الحال، وكتباً ضخمة، أعلم أنها تعشق القراءة، تلك العلبة هناك تضم آلة كمان، بمناسبة بلوغها العاشرة من عمرها، لا أدري إن كانت هذه فكرة جيدة، لكننا نمتلك البيانو أصلاً. صار الاختيار صعباً فيما بعد، ففي العلب الصغيرة توجد مجوهرات في عيد ميلادها الثالث عشر، ساعة يد، وأسطوانات موسيقية أيضاً، ولو أنني أعتقد بأنها صارت موضة قديمة جداً الآن، أليس كذلك؟ بريتني سبيرز، ريكي مارتن، لاروسو، وتلك النوعية التي تعرفها جيداً. العلبة الضخمة هناك كانت في عيد ميلادها السادس عشر، وتضمّ جهاز تسجيل موسيقي على أحدث طراز، أما الهدية الأخيرة في عيد ميلادها الثامن عشر ففي ذلك الظرف...هل تتوقع ما نوع الهدية؟

هزّ مارك رأسه من جديد، عاجزاً عن التفوه بكلمة واحدة.

- رحلة! كاملة التكاليف، عبر وكالة أسفار معروفة في شارع

ريفولي. هل تكون فكرتي هذه في محلها؟ أتظن بأنّ ليز-روز ستجرؤ على ركوب الطائرة من جديد؟

عصفت الأفكار بذهن مارك: أن يخنق هذه المجنونة هنا، هي ودباديبها، حتى يجبرها على الصمت وإنهاء كلّ هذا السخف!

كادت مالفينا تتعلّق بعنقه.

- سأعترف لك بسرّ... هديتي المفضلة هي الهدية الأولى، الدبدوب بانجو، ألا ترى معي بأنه جميل جداً؟ في البداية كنت أحبه كثيراً، حتى أنني شعرت بالغيرة، كنت أودّ الاحتفاظ به لنفسي، لكن جدّتي رفضت، وكانت محقّة في ذلك، أنا متأكدة من أنه سيعجب ليز-روز، ما رأيكَ أنت؟

تأمّلها متسائلاً في قرارة نفسه عن ردّ الفعل المناسب تجاه تصرّفاتها. كان لسرير الأطفال ذاك بأغطيته الوردية الفاتحة شكل ولون شاهدة قبر غرانيتية! قبر طفلة، هذه ليست غرفة، بل سرداب دفن! علب مكدّسة سنة بعد سنة، مُهداة لروح الشهيدة. ربما كان الرب رحيماً بهم فأعادَ إحياء الطفلة الميتة!

- لم تقُل شيئاً يا فيترال، أنتَ مبهور بما رأيت، وربما تلوم نفسك الآن بعدما رأيت كلّ ما حرَمتم ليز-روز منه، أتخيل أيضاً نوعية الهدايا التافهة التي تتوصّل بها في أعياد الميلاد عندكم!

سيصفعها فقط، سيؤلمها جسدياً مرة واحدة على الأقل، قبل أن يفرّ من هنا.

تمالَكَ مارك نفسه.

- اقترِبْ يا فيترال، سأريك شيئاً ما، آخر شيء...

تهيّأ مارك للأسوء وهو يرى مالفينا تقترب من الخزانة ثم تفتح درجاً أخرجت منه كتاباً بغلافٍ وردي تزيّنه ورود وخيوط زينة.

- دفتر ميلاد ليز-روز، همست مالفينا، يمكنك إلقاء نظرة عليه، لكن بسرعة.

التقطَ مارك الكتاب، ثم فتحه وتصفّحه بيدين مرتعشتين.

جنون آخر...

اسمي: ليز-روز

أسمائي الأخرى: فيرونيك، ماتيلد، مالفينا

اسم والدي: ألكسندر

اسم والدتي: فيرونيك

تاريخ ميلادي: 27 سبتمبر 1980 في إسطنبول بتركيا

متبوعة بتفاصيل جنائزية أخرى...

منزلي: صورة للروزري.

غرفتي: رسم للغرفة التي يوجد بها مارك، رسم طفولي، غالباً من إنجاز مالفينا عندما كانت طفلة صغيرة.

اسم دبدوبي المفضل: بانجو

صديقتي المفضلة: شقيقتي، مالفينا

واصل مارك تصفحه مذهولاً، يكتشف سيرة حياة وهمية، قصّة وجود مجهض.

يدي: بصمة يد بألوان الصباغة، يد من؟

لوني المفضل: الأزرق

هوايتي: الاستماع للموسيقى

توالت الصفحات بين أصابع مارك.

عيد ميلادي الأول: صورة لليلي تمّت اقتطاعها من صفحات مجلة، قد تكون باري ماتش أو أيّ مجلة أخرى، ثم ألصقت عشوائياً وسط صورة لآل دو كارفيل الجالسين حول طاولة تضم حلوى عيد ميلاد مع الشموع، ربما اقتطعت هي الأخرى من صفحات مجلّة.

عطلتي الأولى: صورة ليلي نفسها، تمّ إلصاقها هذه المرة وسط حقل بين الورود، في أجواء جبلية الطابع، فيما بدت مالفينا في الصورة وهي في سن الثامنة تقريباً.

توقف مارك بعدما عجز عن المواصلة أكثر من ذلك، واعترته رعشة قوية لم تكن مالفينا لتَغفلها، فانتزعَت الكتاب من يده.

- حسناً، لقد رأيت ما فيه الكفاية، سأعيده إلى مكانه!

تابعت ماتيلد دو كارفيل مغادرة مارك للمكان بخطى سريعة.

كان يهرب من المكان، إن صحّ التعبير.

لم تقاوم هذه المجنونة تلك الرغبة في أن تُريه الغرفة واللعب، حتى أنها نسيت جدّها وسط العشب، كعربة منسية أو لعبة تُركت في الحديقة خريفاً ليتمّ العثور عليها وقد علاها الصدأ ربيعاً.

- هو يستحقّ ذلك! خاطَبت ماتيلد دو كارفيل نفسها هامسة.

تابعت مارك الذي وصلَ إلى بوابة الروزري. ابتسمت. سيذهب

إلى جدَّته في دبيب مسرعاً، متلهّفاً لفتح الظرف، خائفاً من عصيان الأوامر، لكنه لن يُصاب بخيبة أمل بعد قراءته لنتائج اختبار الدي إن أي. مارك المسكين...

فتح البوابة، ثم اختفى عن ناظريها، بعدما ابتلعته أشجار غابة كوبفراي وباقي المنازل المجاورة في الحي.

ذرعت ماتيلد الغرفة جيئة وذهاباً وهي تفكّر في ما جرى. لم تُطلع مارك فيترال على الحقيقة كاملة، لم تخبره عن اتصال غران-دوك وحديثه عن اكتشافه الأخير، ليلة عيد ميلاد ليلي، ذلك الاتصال الهاتفي الذي غيَّر كل شيء. تحدث غران-دوك عن اكتشافه للحقيقة، حقيقة مختلفة تماماً... فقط لأنه ألقى نظرة على صحيفة قديمة بعد ثماني عشرة سنة!

لامسَ أصبع ماتيلد دو كارفيل زراً في لوحة مفاتيح البيانو.

هل كان غران-دوك يتلاعَب بها؟

ستتوصل بالإجابة قريباً جداً. فقد طلبت من سكرتيرة الإدارة في مقرّ شركة دو كارفيل تزويدها بنسخة من جريدة **ليست ريبوبليكان** الصادرة يوم 3 ديسمبر 1980، وقد تتوصّل بها مساء هذا اليوم إن كانت هذه السكرتيرة نشيطة قليلاً. لقد طلبت تسلّمها مباشرة. كانت واضحة، ما عليها سوى انتظار بضع ساعات، لتعرف بعدها إنْ كان غران-دوك كاذباً، بما يُنهي فعلياً كلّ شيء.

جلست ماتيلد دو كارفيل على الكرسي أمام البيانو، ثم وضعت يديها على لوحة المفاتيح. لم تعزف منذ سنوات طويلة. كان البيانو صامتاً، ساكناً، لم يعُد صالحاً لشيء، ككلّ شيء في هذا المنزل.

نعم، ساعات قليلة وينتهي كلّ شيء.

مزّقت ثلاث نوتات صمت الغرفة. دو. فا. صول.

سينتهي كلّ شيء، إلّا ما يخصّ مالفينا.

مهما كان محتوى هذه الصحيفة، مهما كانت طبيعة اكتشاف غران-دوك، أو ما سيقرؤه مارك فيترال في دفتر المذكرات أو الظرف الأزرق، ستبقى ليز-روز حيّة دائماً في الخيال المرضي لشقيقتها مالفينا. ستعيش كما تعيش دمية في خيال طفلة صغيرة، مع استثناء بسيط، هو امتلاك هذه الطفلة لمسدس ماوزر إل 110 في عربتها، يمكنها أن تقتل به كلّ مَن يقول لها بأنّ الدمية التي تحملها في عربتها هذه ليست سوى لعبة ميتة، مجرد جثة بلاستيكية باردة.

- 31 -

2 أكتوبر 1998، الواحدة زوالاً وتسع وعشرون دقيقة

تسارعت خطوات مارك على طول طريق شو-سولاي، وقد راوده إحساس بأنّ هذا الشارع قد سمِّي بهذا الاسم قبل نمو أشجار غابة كوبفراي، وقد يُناسب هذا الطريق البرجوازي الأخضر الآن اسم «ظلال باردة». بدت له معالم بلدة كوبفراي فأشعَرَه ذلك بالارتياح، بجرسِ كنيستها الرمادي، وإشاراتها المثلثة، خفف من السرعة: مدرسة، وباقي الإشارات، مجموعة مدارس فرانسيس وأوديت تيسير أو صالة دافيد دويي للألعاب الرياضية، لكنه ارتاح أكثر لشعاع شمسي خجول اخترق السماء الغائمة.

خفّف من سرعة مشيته، ثم التقط هاتفه المحمول واستمع لرسائله الصوتية. لا جديد حتى الآن، لا من ليلي ولا من نيكول.

واصل مشيه وهو يُجري اتصالاً جديداً بليلي، امتعضَ من اضطراره لسماع سبع رنات متواصلة!

- ليلي. أنا مارك، يجب أن نتكلم في أسرع وقت ممكن. اتصلي بي. لقد غادرتُ منزل آل دو كارفيل. نعم. كما سمعتِ. منزل آل دو كارفيل. المسألة في غاية الأهمية يا ليلي. لا تتّخذي أيّ

قرار قبل الاتصال بي. سأظلّ متمسكاً بك حتى النهاية. مارك.

أنهى الاتصال ثم همسَ مخاطباً نفسه بشفتين شبه مضمومتين:

- اتصلي بي، أرجوكِ، اتصلي بي...

تابع مشيه بخطوات متسارعة، ليصلَ إلى محبس دو ليشس. لم يتحرك الصيادون قيد أنملة. استمرّ الجريان الهادئ لمياه القناة. بحثَ مارك في ذاكرة هاتفه عن الأرقام المسجلة.

نيكول.

أجابه صوت مشدوخ ومألوف بعد رنة ونصف رنة:

- ألو؟

تنهّد مارك في ارتياح.

- نيكول، أنا مارك، هل توصّلت برسالتي؟

- نعم، نعم... عدتُ من مقبرة جانفال قبل قليل. كنت على وشك الاتصال بك لأجيبك عن تساؤلاتك يا بني، لا أعتقد بأنني سأطلعكَ على ما تعرفه أصلاً، أعتقد بأنك قد قابلتَ إيميلي في باريس، كما ترى فأنا...

- نيكول، أنا في كوبفراي... لقد غادرت منزل دو كارفيل للتو.

صمت طويل، لقد غادر أورفيوس الجحيم دون يوريديس(*).

اضطر لمتابعة كلامه منكّساً رأسه.

- نيكول... لقد أعطتني ماتيلد دو كارفيل ظرفاً وطلبت مني

(*) يوريديس وأورفيوس: شخصيتان تنتميان إلى عوالم الميثولوجيا اليونانية، يوريديس كانت زوجة أورفيوس، وتقول الأسطورة إن أفعى لدغتها فماتت، ليلحق بها أورفيوس إلى مثوى الأموات وهو يعزف على القيثارة سائلاً الآلهة أن يعيدوها إليه. (المترجم)

أن أسلِّمه لك. إنه... تحليل للشرطة العلمية يعود لسنة 1995. اختبار دي إن أي. لقد سرق غران-دوك قطرات من دم ليلي.

اتّخذ صوت نيكول المشروخ نبرة متوسِّلة:

- مارك، لا تقُل لي بأنكَ تصدِّقها، بعد كل هذا ال...

قاطعها:

- افتحيه أنتِ، هذا ما قالته لي.

قطع حديثهما صمت طويل آخر، تردّد خلاله صوت أنفاس نيكول المتحشرجة.

- مارك، هل الظرف معكَ الآن؟

- نعم.

- صِفْ لي شكله...

لم يفهم مارك قصد جدّته، لكنه أطاعَها رغم ذلك:

- على أية حال، هو ظرف عادي أزرق اللون مع ميل طيف للون الخزامى، يشبه رسائل المستشفيات والمختبرات...

- هل فتحته؟

- لا! أؤكد لكِ يا نيكول، أنا...

- لا تفتحه يا مارك! ماتيلد دو كارفيل على حق، على الأقل في هذه النقطة. لا تفتحه. عُد إلى دييب. ذهابك إلى منزل دو كارفيل كان فكرة مجنونة. عُد إلى بولي في أسرع وقت ممكن.

سعلت، كما لو أنّ كثرة الكلام أتعَبَها. ثم سعلت مرة أخرى في محاولة للحديث بنبرة أكثر وضوحاً.

- الأمور ليست بتلك البساطة المتوقّعة يا مارك، لا تصدِّق ما قاله آل دو كارفيل، هم أبعد من معرفة الحقيقة الكاملة. عُد بسرعة، فقط أتمنى ألّا يكون الأوان قد فات.

خيِّل إلى مارك أنه غارق في مياه القناة الباردة التي دفعته نحو أعماقها السحيقة.

- فات الأوان على ماذا يا نيكول؟ فاتَ الأوان على مَن؟

- لا تضيّع المزيد من الوقت يا مارك. أنا بانتظارك.

- نيكول...

كانت قد أنهت المكالمة.

مكتبة

ألقى مارك نظرة على برنامج مواعيد القطارات الذي يحتفظ به في حافظة أوراقه، مبتعداً في الآن نفسه عن صخب الركاب في محطة ليون.

باريس-روان: الرابعة زوالاً وإحدى عشرة دقيقة - الخامسة مساء وتسع وعشرون دقيقة

روان-دييب: الخامسة مساء وثمان وثلاثون دقيقة - السادسة مساء وأربع وعشرون دقيقة

ما زالت أمامه ساعة قبل ركوب القطار المتوجّه إلى سان لازار، ما يعني امتلاكه وقتاً كافياً لإتمام قراءة دفتر غران-دوك قبل الوصول إلى دييب. توجّه نحو المترو محتمياً بالركاب من حوله، حاول تذكّر الكلمات الأخيرة الواردة في الصفحات الممزقة. كان المحقق في حجّه السنوي هناك في جبل تيريبل، وقد فاجأته العاصفة فبحثَ عن مكان للاختباء... ثم...

وصل المترو إلى الرصيف. سبقته موسيقية شابّة إلى الصعود وهي ترسم على محيّاها ابتسامة عذبة. كانت تحمل على ظهرها

غيتاراً تتجاوز قمته علوّ رأسها. لكنه تعود على التعامل مع كلّ أبناء العاصمة والمدن الكبرى بالطريقة نفسها. اتّخذ مكانه في أقصى نقطة بالمقطورة، ثم استندَ إلى النافذة وركّز على مواصلة قراءة محتوى دفتر غران-دوك، بدأ بآخر سطور الصفحات الممزّقة، ثم واصل بما تبقى من صفحات.

مذكرات كريدول غران-دوك

تناسيتُ وَقْعَ الأمطار القوية، وقد دقّ قلبي بعنف، تقدّمت ببطء نحو الكوخ الذي وجدته أمامي، كان كوخاً بسيطاً، مهجوراً تقريباً، ورغم سوء حالة السقف إلّا أنه كان مخبأ مناسباً، لم يكن الكوخ ما أثار انتباهي، بل الشاهد الحجري الصغير بالقرب منه، بضعة أحجار صغيرة مكدّسة، ثلاثون سنتيمتراً على خمسين، وقد غرس أمامها صليب خشبي صغير زرعت تحته نبتة، ياسمينة شتوية صفراء، بدا واضحاً أنها قد ذبلت منذ فترة طويلة.

تخيلوا مقدار رهبتي أمام هذا المشهد، لقد وجدتُ نفسي أمام قبر، قبر صغير!

حاولتُ التعامل مع المسألة بعقلانية، ربما يتعلق الأمر براعي غنم قامَ بدفن كلب أو خروف أو شاة أو أيّ حيوان آخر هنا، هل يوجد احتمال آخر؟

واصلت الأمطار انهمارها، فاحتميتُ بسقف الكوخ الذي سمح بمرور قطرات عبر ثقوبه، وهو ما أجبرني على الالتصاق بالحائط الخشبي وقد انشغل ذهني بالتفكير في القبر المجاور الذي يقارب مساحة قبر حيوان صغير... أو... رضيع بشري.

انتظرت مرور العاصفة قبل أن ألقي نظرة متفحصة على الكوخ الذي لم يكن مجهّزاً سوى بجذعٍ طويل قد يَصلح سريراً، وغطاء رمادي مثقوب ملفوف ومرمي في إحدى الزوايا. وجدت أيضاً آثار رماد في ما يشبه الحفرة، ممّا يدل على أنّ أحدهم كان يُشعل نار تدفئة هنا قبل أيام أو ربما أسابيع، كما غطّت الفضلات والبقايا أرضية الكوخ، علب الجعة، وأعقاب سجائر وغيرها، ما يعني أن هذا الكوخ قد يكون وكراً للمتشردين أو ربما المراهقين الذي يقضون فيه لياليهم، بالكاد احتملت تلك الرائحة العفنة، مزيج من رائحة التراب والبول.

لم تبتعد العاصفة إلّا بعد ساعة طويلة. حلّ الظلام، لكن سنوات متواصلة من الحج إلى الجبل جعلتني مستعداً على الدوام لمثل هذه الظروف، كان معي مصباح يدوي سلَّطْته على القبر بعد خروجي من الكوخ وغرق ساقيّ في الوحل. واصلَت الأمطار انهمارها وإن بقطرات قليلة، واصلتُ تقدمي بحذرٍ، هل تكون قطرات قليلة قبل توقف الزخات، أو مقدمة لعاصفة جديدة؟ أضاء المصباحُ اليدوي ظلمة المكان، كان الصليب مكوّناً من غصنين خشبين مربوطين بعضهما ببعض بحبل مهترئ، قبل عام أو عامين على الأكثر؟

وجهت ضوء المصباح نحو النبتة، صحيح أنني لا أفقه الكثير في هذا المجال، لكنني كنت واثقاً من ذبول ياسمين الشتاء، خاصة في درجة حرارة كهذه، ما يعني أنه قد جرى وضع الأصيص أمام القبر قبل وقت وجيز، قد لا يتعدى بضعة أشهر على الأكثر.

وجدت صعوبة في الذهاب أبعد من ذلك بعدما حلّ الظلام وامتلأت أوراق الأشجار بمياه الأمطار وانخفضت درجات الحرارة

بسرعة في تلك الليلة، كما أنني سأحتاج إلى ساعتين على الأقل للنزول من جبل تيريبل مستعيناً فقط بضوء مصباحي اليدوي. هكذا قرّرت البقاء، ربما بدأتم في فهم طبيعتي الآن! قمت بإزاحة بعض الأحجار هنا وهناك، في محاولة للتعرّف على محتوى هذا القبر، لكنني لم أجد سوى التراب، ما يعني ضرورة استعانتي برفش، سيكون الحفر بيدي العاريتين مستحيلاً...

ورغم ذلك لم أستسلم، وهو ممّا لا شك فيه كما تعلمون عني، قمتُ بإزاحة الأحجار، واحدة تلو أخرى، وبيد واحدة، فيما حملت المصباح اليدوي باليد الأخرى، ثم تبادلت اليدان الأدوار بعد عشر دقائق، وقد خيل إليّ وقتها أنني سارق جثث، أو زومبي يبحث عن جثة تُعيد إليه قوته في ليلة عاصفية، مهما كانت نوعية هذه الجثة، كلب، شاة، أو رضيع بشري...

لم أعثر على شيء، باستثناء التراب المبلل، فأعدتُ الأحجار إلى مكانها بحركة عمياء.

تجاوزت الساعة منتصف الليل عندما تمكّنت من العودة إلى سيارتي البي إم دابليو، كما سيستغرق وصولي إلى مأوى مونيك جينيفيز الجبلي على ضفاف الدوبس ساعة أخرى إضافية، بسرعة عشرين كيلومتراً في الساعة؛ اشتدّت العاصفة، وتساقط ما يشبه الثلوج الذائبة اللزجة، كنت مبللاً، متجمّداً، مغموراً بالأوحال، كما سالت الدماء من أصابعي، وهو ما كلفني البقاء في الفراش لعشرة أيام متواصلة بسبب الزكام... كلّ هذا من أجل أحجار تافهة، قبر كلب! كلب فشلت حتى في إخراج جثته. يبدو أن هذا التحقيق سيصيبني بالجنون. حاولت تهدئة انفعالاتي باحتساء ثلاث كؤوس من النبيذ في مأوى جينيفيز قبل الخلود إلى النوم.

ذهبت صباح اليوم التالي للقاء غريغوري موريز، مهندس المياه والغابات العامل في المنتزه الطبيعي، بهيئته القوية كحطّاب جبلي، ووسامته التي يخيّل إليك معها أنه قادم من فيلم هوليوودي جرى تصويره في روشوز. سنوات طويلة وهو يجوب جبل تيريبل وباقي النواحي بسيارته رباعية الدفع، طبيعي إذاً أن يعرف موقع الكوخ والقبر.

فوجئ موريز بسؤالي، وشعر بخيبة أمل بسبب عجزه عن تقديم جوابٍ مقنع. نعم، هو يعرف الكوخ الذي يستخدمه بعض المتشردين أو المراهقين ممّن يعمل على مطاردتهم قدر الإمكان، لكنه لم ينتبه يوماً ما لوجود قبر في المكان، وتوقّع أنه قد يكون قبر كلب، وهذه عادة مألوفة في هذه المنطقة الجبلية في جورا، أن يتمّ دفن الكلاب تحت كومة من الأحجار والتراب.

تردّدت في الصعود إلى جبل تيريبل من جديد لنبش القبر باستخدام رفش، كانت حالة الطقس أسوء بكثير من الليلة الماضية، واصلت درجة الحرارة انخفاضها وهطلت الأمتار الممزوجة بالثلوج. ساعتان أو ثلاث ساعات من أجل ماذا؟ سبق وأن نبشتُ تراب القبر بيدي لدقائق طويلة في الليلة الماضية، لكن بلا جدوى.

أي علاقة قد تربط بين هذا الكوخ وكومة الأحجار والتحقيق؟

لا علاقة بينها بطبيعة الحال.

احتميتُ بمقهى في إندوفيلي، أقرب بلدة للجبل، وانتظرت نصف ساعة لعلّ الأجواء تتحسن، لكن بدأ انهمار الثلوج بشكلٍ متواصل، فعُدتُ أدراجي إلى باريس.

الطريق المسدود مرة أخرى، تفصيل جديد قد يَضحك ناظم بشكل هستيري إن حكيت له عنه.

نبش قبر كلب، هل تتخيلون مدى سخافة ذلك؟

ما لم أكن أعلمه آنذاك هو أنني ارتكبت خطأ يوم 23 ديسمبر 1986، وقد يكون هذا هو الخطأ الوحيد طوال ثماني عشرة سنة من التحقيقات المتواصلة. رباه، يا له من خطأ فادح! قد أتوارى خلف كلّ الأعذار الممكنة، الثلوج، البرد، التعب، سوء الحظ، سخرية ناظم، لكن لا معنى لكلّ ذلك الآن، أنا، كريدول غران-دوك، المهووس بالدقة، العنيد، استسلمتُ ببساطة شديدة صباح ذلك اليوم، افتقرت للشجاعة اللازمة، ولم أواصل بحثي في هذا التفصيل المهم. أؤكد لكم بأنه كان خطئي الوحيد. الخطأ الوحيد الذي ما كنت أسمح لنفسي بارتكابه...

اعذروني مرة أخرى إن استبقتُ الأحداث، كنا إذاً في سنة 1986، وصلت مكافأة سلسلة اليد إلى ستين ألف فرنك، ولم يظهر أيّ زبون رغم ذلك... واصلتُ تحقيقي بإصرارٍ كبير، محاولاً تجاوز علامات الفتور الأولى بوضع خطّة عمل منظمة... سافرت إلى كيبيك في رحلة طويلة قابلت خلالها جدَّي ليز-روز من جهة الأم، آل بيرني، في شيكوتيمي، لكن بلا جدوى...

كان التقرّب من آل فيترال ضمن بنود خطة عملي المنظمة، كانت ليلي في السادسة من عمرها تقريباً، ومارك في الثامنة، قضيت يوم 21 يونيو 1986 معهم... كان الجو حاراً جداً، وشهد هذا اليوم احتفالاً بعيد الموسيقى، عزفت ليلي قطعتين موسيقيتين على البيانو رفقة أوركسترا دييب، في كشك جرى إعداده خصيصاً للمناسبة بالقرب من الشاطئ، أمام حمام السباحة. كانت ليلي متألقة

في فستان أخضر جميل، بشعرها الأشقر المجعد، أصغر أعضاء الفرقة! تناولنا بطاطس نيكول المحمرة بعد ذلك. كانت أمسية غاصة بالجمهور، بدت لي نيكول فيترال متألقة أيضاً، وأكثر من أيّ وقت مضى، كانت فخورة بحفيدتها. جميلة، سعيدة تقريباً، خاصة عندما عزفت ليلي مقطوعة لشوبان. لم تفارقها عيناي، لكنها لم تلاحظ ذلك وقد انشغلت بمتابعة حفيدتها التي أبهَرَت الجميع. حتى سترتها المبقعة لم تنجح في إخفاء شكل نهديها تحت صدارها الرقيق.

جلسنا بعد ذلك على العشب، كانت ليلي جالسة على ركبتي، منشغلة بالتهام فطيرة، سألتني عن اسمي، فقلت:

«كريدول!

- كريدول لا باسكول!»

وهكذا وجدَتْ لي لقباً بسرعة، لم يستغرق الأمر منها سوى أمسية واحدة. كريدول لا باسكول، أما زالت تذكر هذا اللقب حتى الآن؟ بعدما حوّلتني من محقق خاص إلى أرجوحة للفتيات!

أمّا مارك فكان يريد العودة إلى حيّ بوشول في بولي، وبأقصى سرعة! لمتابعة مباراة ربع نهائي كأس العالم بين فرنسا والبرازيل... لم يكن مارك بحاجة للضغط عليّ، فأنا أيضاً كنت أريد متابعة المباراة، مع رغبة داخلية في متابعتها رفقة مارك.

كنت سعيداً بصحبته، وافقت نيكول على اصطحابي له إلى بولي مع بقائها هي رفقة ليلي بالقرب من الشاطئ.

كانت ليلة رائعة...

ارتمينا في أحضان بعضنا عندما سجّل بلاتيني هدف التعادل قبل صافرة نهاية الشوط الأول، وبعدما داس ستوبيرا على قدم الحارس البرازيلي؛ عانق مارك الصغير فخذي بقوة عندما صدّ جويل باتس

ضربة جزاء سقراطيس، قبل ربع ساعة من نهاية المباراة، وبحركة رائعة؛ صرخنا معاً، عندما لم يصفر الحكم القذر ضربة خطأ لصالح بيلون في مربّع العمليات، بعد التمديد لأشواط إضافية... وعندما سجل لويس هرنانديز الضربة الترجيحية الأخيرة، ثم خرجنا معاً إلى ردب بوشول للانضمام إلى الاحتفال الجماهيري الذي لم أرَ مثله من قبل.

.1986

كريدول لا باسكول.

فرنسا في نصف النهائي ضد ألمانيا الغربية!

أعترف بأنّ كل ما ذكرته هنا لا علاقة له بمجريات التحقيق.

ولكن هل بقيت تفاصيل أخرى تستحق البحث عنها؟

كنّا بعد في عام 1986، لكن اليأس بدأ يتسلّل إلى قلبي...

- 32 -

2 أكتوبر 1998، الواحدة زوالاً وإحدى وأربعون دقيقة

كانت آيلا أوزان قادرة من موقعها ذاك على مراقبة ملكية الروزري كاملة، فقد تمركزت في غابة كوبفراي. وبعد وصولها إلى طريق شو سولاي اتَّبعت بسرية تامة ممراً صاعداً بين الأشجار. وهكذا كان بإمكانها متابعة كلّ مداخل ومخارج منزل آل دو كارفيل، محتمية بجذع شجرة.

لا حركة في الملكية حتى الآن، حتى العجوز دو كارفيل نفسه، المسمّر تحت شجرته، وسط العشب، كتمثال معاصر وسط حديقة عمومية، لم يكن ينقصه سوى لبلاب صاعد على طول ساقيه، وحزاز صخر يلتفّ حول عجلات المقعد المتحرك.

قامت آيلا بتحرياتها في المنطقة ومحيطها، الشوارع، الطرق. لا أثر لسيارة الكزنتيا الزرقاء! لكنها لم تجد -في المقابل- أيّ عناء في العثور على سيارة مالفينا دو كارفيل، الروفر الميني المتوقفة أمام الروزري. السيارة نفسها المتوقفة في شارع بوت-أو-كاي قبل ساعات.

معنى ذلك أنه لا أثر لكريدول أو ناظم هنا. تردّدت، مفكرة في

ما يتوجّب عليها القيام به. أتنتظر هنا رغم كلّ شيء؟ في حالة ما إذا. . . أتضغط على جرس منزل آل دو كارفيل وتدخل لمقابلة مالفينا دو كارفيل ثم دفعها إلى الكلام بطريقة أو بأخرى، وتسألها عن سبب وجودها أمام منزل غران-دوك؟ وهل قابلت -وهذا هو الأهم- زوجها ناظم؟

شعرت آيلا ببرودة نصل سكين المطبخ الكبيرة في ساقها. نعم، هي تتمنى اللقاء وجهاً لوجه بمَن تُدعى مالفينا. أصدرت أوراق الأشجار الميتة صريراً تحت قدميها. حاولت التفكير بنوع من العقلانية. سيكون الاتصال بآل دو كارفيل آخر ما يمكنها القيام به!

الحلّ الأمثل الذي قلبته في ذهنها أكثر من مرة هو الاتصال بالشرطة، ستخبرهم ببساطة شديدة أنّ أخبار زوجها ناظم أوزان قد انقطعت منذ يومين. سيطلقون مذكرة بحث، هم قادرون على ذلك. ربما لم يفت الأوان بعد. ربما لن يطرح رجال الشرطة بعد كلّ ذلك الكثير من الأسئلة، حتى وإنْ طرحوها وشعرت بأن ذلك قد يساعد على العثور على ناظم، فسوف تخبر رجال الشرطة بكلّ ما تعرفه حول القضية، وبلا تردّد.

في النهاية، قد تكون شهادتها سبباً في مساعدة ناظم. لم يكن هو المذنب الوحيد، هذا ما سوف تقوله لرجال الشرطة، وسيتفهّمون ذلك. ناظم أيضاً سيتفهّمها. ما يهمها الآن هو العثور عليه.

ألقت نظرة على الروزري من جديد، تمنَّت لو أنّ الفتاة المسمّاة مالفينا غادرت المنزل، ستحاصرها وربما تضع نصل السكين على رقبتها، مهدِّدة إياها بتقطيعها إلى شرائح كلحم الكباب إن هي أصرَّت على الصمت. ستُخبرها الفتاة بكلّ شيء. هي مجنونة نعم، لكنها ليست انتحارية.

لكن، لا أثر للفتاة حتى الآن، توجد سيارتها فقط. . .

تردّدت، فهي تنتظر منذ ساعة.

حسناً، عليها الذهاب الآن، ستتصل برجال الشرطة.

نهضت آيلا.

ثم انفجر صوت إطلاق النار بالقرب من أذنيها.

ارتمت آيلا على الأوراق الميتة بشكل غريزي، ما أشعَرَها بسقوطها على ما يشبه البساط المتين. زفرت في ارتياح. لم تُصبها الطلقة التي قدَّرت أنها أطلقت من مسافة لا تبعد عنها سوى بمسافة تقل عن الخمسين متراً.

هل استهدفها أحدهم أم أنه مجرد قلق لا معنى له؟ قناصون؟ ربما يوجدون بكثرة في هذه الغابة، في هذه الضاحية الراقية، ربما يتعلق الأمر أيضاً بقنص منظّم.

ماذا ستفعل؟

هل تصيح أو تصرخ: «هيه، أنا هنا». . .

هل تُعلِم القناصين بمكانها؟

أو القاتل ربما. . .

أو تزحف في محاولة للوصول إلى الطريق، على بُعد مئات من الأمتار هناك في الأسفل حيث ستكون في مأمن بالقرب من المنازل.

لم تفعل آيلا شيئاً، مكتفية بالانتظار والانتباه لأيّ صوت قادم من الغابة. ذكَّرها إفراز الأدرينالين بهروبها من تركيا الجنرالات رفقة والدها، مختبئة لساعات في الأرضية المزيفة لشاحنة. تذكرت أيضاً صوت الأحذية العسكرية على اللوح في الحدود، وتحته ببضع سنتيمترات والدها الذي غطى فمها بيده.

كانت كلّ حواسها متيقظة.

لا أصوات الآن في الغابة، باستثناء أصوات الرياح والأشجار والأوراق.

انتظرت لدقائق طويلة خيِّل إليها أنها ساعات.

لا شيء، غابة هادئة، ساكنة.

نهضت بهدوء متفحصة ظلال الأشجار وأثر الرياح على الأوراق.

لا أحد.

وحدها من جديد في الغابة. كانت رصاصة طائشة بلا شك، ربما ساهم الصدى تحت الأشجار في تضخيم صوت إطلاق النار، وربما كان إطلاق الرصاص بعيداً عنها، في الجانب الآخر من الغابة. شعرت بأنّ أعصابها متوترة أكثر من اللازم، عليها الذهاب الآن إلى مخفر الشرطة، في أسرع وقت ممكن.

خَطَت خطوة واحدة ببطء، ما زالت محتفظة بحذرها رغم كلّ شيء. استندت بيدها إلى أقرب شجرة.

كانت الرصاصة قد اخترقت الجذع.

تشنّجت يد آيلا المتجمِّدة على لحاء الجذع.

نعم، لقد جرى استهدافها هي...

سمعت آيلا صوت إطلاق النار لجزء من الثانية قبل أن تشعر باختراق الرصاصة لكتفها. سقطت أرضاً. تمزقت ترقوتها مرة ثانية بعد اصطدامها العنيف بالأرض. صرخت آيلا بلا توقف بفعل الألم. زحفت على بطنها عاجزة عن الدوران. وقد رفض الجزء العلوي من جسدها الاستجابة، متصلّباً، مشلولاً بفعل المعاناة. حاولت آيلا النهوض مستعينة بقوة ذراعها السليمة، لكن بلا جدوى. كانت كطفلة تبلغ من العمر بضعة أشهر سقطت على بطنها.

تحركت ساقاها، فيما بحثت قدماها عن مستند للزحف ثم الابتعاد عن المكان. فلم تجدا سوى طبقة من الأوراق المصفرة المتطايرة تحت حركاتها اليائسة، كما لو كانت تسبح في مسبح من الريش.

ثبّتها الألم بالأرض، لكنها كانت مُجبَرَة على الابتعاد عن المكان.

سمعت وقع الخطوات المقتربة. الصوت المشؤوم الواضح للأوراق المسحوقة.

ثم لا شيء بعد ذلك.

كان هنا، لقد انتهى كلّ شيء.

لم تعُد آيلا تشعر بالألم، بل أحسَّت فقط بسرير الأوراق الميتة الذي يُداعب وجهها، وعنقها، وذراعيها. تريد الموت على وقع هذا الشعور، هذه المداعبة. لم تكن هذه مداعبة الأوراق لجسدها الذي تخيلته عارياً، بل شارب ناظم، شاربه الضخم، الناعم، اللطيف، الفاحش. طار تفكيرها نحو المنزل الموعود في أنطاكية، المنزل الذي اعتزمت شراءه رفقة ناظم، هناك في تركيا، منزلهما، بلدهما، هذا البلد الذي هربت منه بين ذراعي والدها، منذ زمن بعيد. . .

اخترق جدار الصمت صوت مسدس يتمّ تعبئته. حاولت آيلا القيام بمجهود أخير للاستدارة نحوه، ورؤيته.

أن تتعرّف على قاتلها.

دفعت ذراعها السليمة.

لكنها لم تحظَ بهذه الرغبة الأخيرة.

ففي اللحظة الموالية، اخترقت الرصاصة رقبتها.

- 33 -

2 أكتوبر 1998، الثانية بعد الزوال وأربعون دقيقة

تغيير المحطة في كونكورد.

غادر مارك المركبة مُعيداً الدفتر إلى حقيبته بحركة آلية، كما غادرت الفتاة المبتسمة التي تحمل الغيتار على ظهرها. سارا في الممر متجاورين، تلامسا تقريباً وقد شعرا ببعض الانزعاج، كتلك الحالة التي تجد فيها نفسك في المصعد مع شخص غريب.

وجدَ على أرضية الممرّ الباردة امرأة منكمشة على نفسها بدا كما لو أنها ترفع يديها بالدعاء. لا أطفال، لا حيوانات، لا موسيقى، لا كرتونات ممزّقة، لا رسالة، لا تفسير، فقط وجه مدفون بين ركبتين وصحن أبيض فارغ. تجاهل الركاب هذه المتسوّلة، تحاشوا المرور بجانبها، تخطّوها. وضعَ مارك قطعة نقدية على الصحن بلا تردّد ومن دون تفكير. حدجته فتاة الغيتار بنظرة متفاجئة تعني أنه تحوّل بالنسبة إليها من المغفل الذي تجاهلها في المترو إلى الشاب المثير الذي يبدو أفضل بكثير ممّا كانت تتوقع ولا تفهم سبب تجاهله لها...

انقسم الممرّ بعد بضعة أمتار إلى قسمين، توجّه مارك نحو

الممر الأيمن، الخط الثاني عشر، وهو غارق في أفكاره، فيما توجّهت الفتاة إلى الممر الأيسر، الخط السابع، مخفِّفة من سرعتها قليلاً مراقِبَة ابتعاد هذا الفتى الأشقر الوسيم والحزين.

مادلين.

يقترب الآن من واحدة من أكثر المحطات امتلاء في باريس، لم تكن تلك ساعة الذروة، لكنها قريبة. تضاعفت أعداد الركاب فجأة، ما يجعل متابعة القراءة أمراً مستحيلاً.

سان-لازار.

فرغت المركبة بسرعة قياسية. تابع مارك بذهول تسابق المسافرين في ممرات محطة سان-لازار: تسابق ودفع لمن هم أقل سرعة، وتجاهل للسلالم المتحرّكة مقابل تكدّس أمام السلالم العادية لتخطي الدرج بسرعة أكبر إن سمحَ بذلك نفق طويل وواسع بعض الشيء... هل كان هؤلاء المسافرون مسرعين بسبب عجلة استثنائية، أم أنهم تعوّدوا على ركضهم اليومي هذا، صباح مساء، كما تعوّد آخرون على المشي السريع أو العدو؟

كان قد قرأ قبل مدّة قصة أحد أكبر عازفي الكمان في التاريخ، اسم روسي لا يذكره الآن، وقفَ ذات يوم، ولساعات طويلة، للعزف في ممر المترو، دون إشهار أو إعلان رسمي، فقط وقف في الممرّ وأخرجَ كمانه، في الوقت الذي كان يملأ فيه أكبرَ القاعات في جميع أنحاء العالم، وكان الحصول على تذكرة واحدة لحفلته قد يكلّف مئات الفرنكات. لم ينتبه له ولم يتوقف أحد للاستماع إلى عزفه. كلّ هؤلاء الرجال الذين يرتدون ربطات عنق لم يكلّفوا

أنفسهم عناء التخفيف من سرعتهم في أثناء مرورهم أمامه، وقد لا يخفّفون من سرعتهم في أثناء بحثهم المحموم في عطلة نهاية الأسبوع عن تذكرة للحضور إلى حفلته بأيّ ثمن!

كانت تلك أول مرة يفكّر فيها مارك بمنح نفسه قسطاً من الراحة. خفَّف من سرعة مشيه وسارَ بهدوء. وجد آلاف المسافرين في قاعة المحطة، واقفين بلا حراك، أعينهم إلى السماء، كجمهور ينتظر أمام المنصّة دخول نجم روك أسطوري، مع استثناء بسيط هو أن هؤلاء المسافرين كانوا مشغولين بالشاشات المضيئة التي تُشير إلى رصيف القطارات، وقد تجمّع المسافرون بالقرب منها، متزاحمين دقيقة بعد أخرى.

كان قطار كوراي باريس-روان من بين القطارات التي لم تدخل المحطة بعد، تجاوز مارك ساحة المحطة مندسّاً وسط المسافرين وصولاً إلى المقصف. طلب عصير برتقال من نادل مضطربٍ سلّمه الكأس في يده بسرعة كما لو كان سيهرب. أمسكَ مارك بهاتفه المحمول. يبدو أنّ راحته القصيرة كانت مجرد وهم، فقد قال: «اللعنة!» لكن كلمته ضاعت وسط ضجيج المحطة.

لقد اتصلت ليلي!

يبدو أنّ المكالمة قد وصلته في أثناء وجوده تحت الأرض، كما لو أنّ ليلي قد تبعته، خطوة بخطوة في باريس، وانتظرت غرقه في الممرات السرية لتترك رسائلها.

كلّ هذا، ولم تتحدث معه!

ضغط مارك على الأزرار ثم قرَّب الهاتف من أذنه لسماع الرسالة. كان صوت ليلي مسموعاً بالكاد، كانت تهمس أكثر ممّا كانت تتحدث:

«مارك، معك إيميلي. يا إلهي، ماذا ستفعل عند آل دو كارفيل؟ ثقْ بي يا مارك. سينتهي كلّ شيء غداً، سأشرح لك كلّ شيء، إذا كنت تحبّني كما تقول دائماً، فسوف تغفر لي. إيميلي».

بقي مارك للحظات بلا حراك، والهاتف معلّق بأذنه.

الثقة...

الغفران...

الانتظار؟!

مستحيل! تتعمّد ليلي أن تخفي شيئاً عنه، شيء ما ستقوم به في الساعات القادمة، تلك الرحلة الكبرى التي لا يمكن لأحد سواه أن يمنعها.

ضغط مارك على الأزرار واستمعَ مرة أخرى إلى رسالة ليلي. باحثاً عن التفاصيل بين كلماتها.

«مارك، معك إيميلي...» ألصق سماعة الهاتف بأذنه اليمنى وضغط على اليسرى بأصبعه. كان بحاجة إلى سماع رسالته بشكل أوضح، كان ذلك صعباً للغاية في محطة مزدحمة كهذه.

«سوف تغفر لي. إيميلي».

أعاد الاستماع للمرة الثالثة، لم يعُد مهتماً بكلّ ما قالته ليلي بقدر اهتمامه بما سمعه وراء صوتها. كان الصوت بعيداً ومتكرّراً بعض الشيء، مملاً بعض الشيء، استمعَ إلى الرسالة مرة أخيرة:

خلف صوت ليلي، استمع بوضوح لصوت صفارات سيارات الإسعاف.

وضعَ مارك الهاتف في جيبه وشرب نصف عصير البرتقال محاولاً التفكير.

هنالك تفسيران محتملان. إمّا أن تكون ليلي قريبة من مكان

وقوع حادثة سير، في الشارع أو في أيّ مكان آخر، أو أنها في مستشفى أو عيادة!

أفرغ مارك كأسه مستمراً في التفكير.

لم يكن البحث عن المكان الذي وقع فيه حادث في باريس فكرة في محلّها، حيث سرعان ما سيتم تطهير مكان الحادث سواء كان في تقاطع أو ركن معين في أحد الشوارع، كما قد تكون ليلي قد غادرت المكان، فيكون العثور عليها مستحيلاً. أما إذا فكّر في فرضية المستشفى، فسوف يكون مطالَباً بالبحث في عشرات العناوين بالعاصمة باريس، لكن لا خيار أمامه.

وضع مارك كأسه الفارغة على الطاولة، فهرع النادل لمَسحها، كإشارة إلى أنّ وقت الجلوس كان محدوداً، لكن مارك لم ينتبه له، وقد طارده سؤال آخر: لماذا ذهبت إلى المستشفى؟

ما الذي تفعله هناك؟ تخيّل إصابتها بجرحٍ ونقلها إلى غرفة العمليات على وجه السرعة، وعدد من الممرضات يتحلّقن حولها... الرحلة الكبرى، لقد حاولت الانتحار! لم تنتظر حتى اليوم التالي.

ما العمل؟

أوشك قلبه على الانفجار.

هل يتصل بكلّ العيادات والمستشفيات في باريس؟ لم لا؟

اتصل مارك بجينيفر، زميلته من فرانس تليكوم، للمرة الثالثة في يوم واحد، فأرسلت سلسلة من ثماني عشرة رسالة نصية قصيرة، تضم قائمة من مئة وثمان وخمسين عيادة ومستشفى في باريس وحدها.

نصف ساعة تقمّص مارك خلالها دور موظفي الهاتف، متكلماً بالطريقة نفسها:

«صباح الخير يا سيدتي، هل استقبلتم اليوم فتاة تُدعى إيميلي فيترال، لا أدري في أيّ مصلحة... ربما مصلحة الطوارئ».

تراوحت مدّة كلّ مكالمة بين بضع ثوان وبضع دقائق، وكان الجواب دائماً هو نفسه، مع اختلافات طفيفة، «لا يا سيدي، ليس لدينا أيّ شخص بهذا الاسم. هل أنت متأكد من هويتها؟» توقف مارك عند الرقم العشرين في القائمة. سيتطلّب الاتصال الهاتفي بمئة وثمانية وخمسين عنواناً وقتاً طويلاً جداً. وقد يفقد عدّة ساعات ثمينة مستنداً إلى دليل ضعيف للغاية: صوت سيارات الإسعاف...

جاء النادل ثلاث مرات لسؤاله عمّا إذا كان يريد أي شيء آخر. فطلب عصير برتقال، من دون اقتناع، فقط ليُبعد عنه هذا النادل اللحوح.

هل يكون ذلك الشعور نفسه الذي راود كريدول غران-دوك؟ أن يتبع طريقاً يعلم جيداً أنه خاطئ منذ البداية؟ أن يتعلّق بشُعلة عود ثقاب في ليلة عاصفة؟

ألقى مارك نظرة على اللوحة المشيرة إلى مواقيت القطارات المغادِرَة. لا معلومات حتى الآن عن قطار باريس-روان. سار كلّ شيء بسرعة كبيرة أسرع بكثير من اللازم. أصوات سيارات الإسعاف... والظرف الأزرق فيُجيبه الذي يمكن أن يفتحه متجاهلاً توصيات ماتيلد دو كارفيل والوعد الذي قطعه لنيكول... وهذا الدفتر الذي يضمّ اعترافات غران-دوك بتشويقه السيئ، وتمكّنه من الإيقاع به.

شرب مارك كأس عصير البرتقال الثانية. فهرع إليه النادل مسلحاً

بمنشفته لمسح الطاولة، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ارتياح، لكن مارك فاجأه بإخراجه الدفتر الأخضر ووضعه على الطاولة.

مذكرات كريدول غران-دوك

في عام 1987، بلغت المكافأة المحدّدة للعثور على سلسلة اليد خمسة وسبعين ألف فرنك. هل تتخيلون معي ذلك؟ يعادل هذا المبلغ ثروة آنذاك، وإن تعلّق الأمر بجوهرة من محلات تورنير. أمّا تحقيقي فقد صار كئيباً... لا وجود لدلائل جديدة، ما دفعني إلى العودة إلى القديمة، أن أقرأ وأعيد قراءة الملفات نفسها لعشرات المرات.

سافرت مرات أخرى إلى تركيا، كإجراء روتيني فقط، فندق أسكوك، القرن الذهبي، باعة السجاد، مشهد الغروب في مضيق البوسفور، كلّ ما يتعلق بـ«لغز ليلي»؛ زرتُ الكيبيك أيضاً، شيكوتيمي، عند آل بيرنيي، وكان ذلك مرة واحدة فقط، وقد بلغت درجة الحرارة خمس عشرة درجة تحت الصفر! من أجل لا شيء.

عدت إلى دييب أيضاً. مرتان على ما أعتقد، واحدة منهما مرفوقاً بناظم. كانت تلك ذكرياتي الجميلة مع هذا التحقيق، وربما أحكيها لهذا السبب، أو لأنه من المهم أن تفهموا هذه التفاصيل، خاصة فيما يتعلق بليلي ونفسيتها ومحيطها. والحتمية، والمكتسب والفطري، وكل هذه التفاهات. أنا أقدّم لكم التفاصيل لتحكموا عليها بأنفسكم. قد يكون ذلك مهماً إن أردتم تكوين رأيكم الخاص عن مجريات القضية.

كان ذلك في مارس 1987. كان الطقس سيئاً جداً. فبحسب ما

روَته لنا نيكول فيترال، لم تتوقف الأمطار والرياح التي تفوق سرعتها ستين كيلومتراً في الساعة في دييب، منذ خمسة عشر يوماً. لا وجود لأيّ قط بالقرب من شاطئ البحر. كانت نيكول تسعل مع نهاية كل جملة. تعذّبها رئتاها مع أقل مجهود تبذله.

كان ناظم سعيداً. كان يحب القدوم إلى دييب. هو يحبّ هطول المطر، ويحبّ مارك أيضاً، وإن كان الصبي يخاف منه. لم يكن لناظم أطفال، ولا أنا. لكنه يملك زوجة على الأقل! آيلا الجميلة، باستداراتها الشبيهة باستدارات الكباب الذي تبيعه. كان ناظم مشجعاً للمنتخب التركي لكرة القدم، وكان مارك يسخر منه: فقبل سنوات قليلة، انهزم المنتخب التركي في إقصائيات كأس العالم 1986 بنتيجة 8 أهداف لصفر أمام المنتخب الإنجليزي! «نتيجة بيبي-فوت» كما يقول مارك ضاحكاً.

أراد ناظم إثبات حُسن نيته لمارك، فأهداه فانيلة لدوندار سيز، الجناح الأيسر لفريق غلطة سراي، الحي الإسطنبولي... ألا يذكّركم اسم دوندار سيز بشيء؟ حاولوا ترجمته... تمام؟ ديديي سيكس... اللاعب الفرنسي الذي حصل على الجنسية التركية، لمساعدة غلطة سراي على الوصول إلى لقب البطولة في السنة الموالية. ديديي سيكس... مَن ذا الذي سيفكر في اتخاذ ديديي سيكس كمثلٍ أعلى! هذا اللاعب الذي لم يُتقن طوال حياته سوى مراوغة وحيدة، إيهام بالانطلاق على الجناح ثم مراوغة سريعة... اللاعب الذي ضيّع ركلة جزاء قذفها بين يدي الحارس في إشبيلية عام 1982، مباراة نصف نهائي كأس العالم ضد المنتخب الألماني. كان يلعب وقتئذٍ في شتوتغارت. وكان من الممكن أن نطلق عليه النار بسبب تضييعه لتلك الركلة!

ثم يأتي ناظم، خمس سنوات بعد ذلك، ليُهدي لمارك فانيلة دوندار سيز! فانيلة خائن يعيش في المنفى باسم مستعار! يا له من مثال جيد للأطفال. ارتدى مارك الصغير والساذج تلك الفانيلة دون أن يطرح أسئلة إضافية. هذا طبيعي فهو لا يتذكر عام 1982، وليلة إشبيلية التي تسبّبت في انهيارات عصبية لجيلٍ بأكمله...

أمّا إيميلي فلم تكن مهتمة بكلّ هذا الكلام. ففي ذلك اليوم من شهر مارس عام 1987، قامت بتحدي الرياح والأمطار. كانت قد ارتدت معطفاً بنفسجياً وغطاء واقياً للرأس غلّف رأسها بما لا يسمح سوى بظهور خصلات قليلة من شعرها الأشقر، كما ارتدت حذاء طويلاً من اللون نفسه، وبدأت تقفز بين البرك الصغيرة في شارع بوشول. كانت تطارد القطط! وقد شرحت لي نيكول سبب ذلك بتأثّر كبير.

كانت ليلي في السابعة، وتُحسن القراءة، بدأت قراءة **حكايات القط الشقي**(*) لمارسيل إيميه. الحكايات الحمراء. دلفين ومارينت، حيوانات المزرعة التي تحسن الكلام...

«**حكايات القط الشقي**! كانت تقولها نيكول معتبرة إياي كشاهد. في السابعة من عمرها! هل تفهم ذلك يا كريدول؟».

أعتقد بأنّ منزل الصيادين الصغير هذا كان يضمّ عشرين كتاباً، وكان هذا الكتاب هو الوحيد المخصّص للأطفال. ستسألونني: ما علاقة كلّ هذا بقطط الحي؟ أنا قادم. أحبَّت إيميلي قصة قط المزرعة الذي كان يثير عصبية الجميع وهو يقضي يومه في تنظيف نفسه واضعاً

(*) **حكايات القط الشقي**: سلسلة حكايات ألّفها مارسيل إيميه ونُشرت بين عامي 1934 و1946، والترجمة العربية صادرة عن المركز الثقافي العربي. (المترجم)

قدمه خلف أذنه، متسبباً في هطول الأمطار في اليوم الموالي. أسابيع من الأمطار التي لا تتوقف، فقط بسبب مزاج القط السيئ، قبل أن يقرر المزارعون التخلّص منه... فتتدخل دلفين وماريننت لإنقاذه. حكاية استنتجت منها إيميلي أنّ هطول الأمطار على دييب منذ خمسة عشر يوماً كان بسبب قطط الحي التي تضع قدمها خلف أذنها. الحلّ الوحيد إذاً هو إقناع كلّ قطط حي بولي بتنظيف نفسها بطريقة أخرى، ولكم أن تتخيّلوا ذلك في حي الصيادين! كانت إيميلي تقضي ساعات طويلة في الاقتراب من القطط والتودّد إليها، ثم تشرح لها بهدوء أنها تسبَّبت في إجبار جدّتها نيكول على البقاء بلا عمل طوال هذه الأيام، وأن القطط نفسها صارت عاجزة عن الخروج للتمدّد على الرصيف رغم حبّها الكبير لأشعة الشمس.

حاولت إيميلي تدريبي أنا وناظم على الإمساك بالقطط تحت الأمطار وإخافتها! طبيعي أن تجد بعض القطط البرية التي لم تهتمّ لأمرها.

«هيا، اتبعني يا كريدول لا باسكول!»

«هيا، اتبعني يا صاحب الشارب الضخم!»

كانت تجذبنا بيدها الصغيرة وقطرات المطر تسيل على معطفها. كان ناظم ينفجر ضاحكاً، مفضِّلاً عدم الخروج واحتساء فنجان من القهوة، الشيء نفسه بالنسبة لي. وحده مارك، الذي كان وقتئذٍ في الثامنة من عمره، مَن يستسلم لرجائها، فيرافقها إلى الخارج تحت الأمطار القوية، وقد ارتدى الفانيلة الواسعة لديديي سيكس فوق معطفه البني. الفانيلة التي تبلَّلت وصارت شفافة تقريباً، شفافة مثل دوندار سيز المعزول في جناحه الأيسر بملعب حديقة الأمراء.

أعتقد بأنكم تشعرون بالملل مع هذه الذكريات اللزجة، أفهم ذلك جيداً. ما يهمكم هو التحقيق حول القضية، ولا شيء غيره. أنا قادم، أنا قادم. لم أستسلم رغم ذلك. سترون، لن أخيِّب ظنكم. ذهبتُ إلى قمة جبل تيريبل يوم 22 ديسمبر 1987 في الحج السنوي المعتاد. كنت أصل مساء إلى ضفاف نهر دويس لأضع أمتعتي في مأوى مونيك جينيفيز، السيدة القوية والمحبوبة، وبلكنتها المميزة التي تذكّرني بسكان الكيبيك. كانت تحجز لي دائماً الغرفة رقم 12، مع إطلالة على جبل تيريبل، كما تحضر لي قبل شهر تقريباً الجبن والنبيذ المفضَّلين عندي. كنت عاجزاً عن التقدّم في التحقيق، وقد بدأ اليأس يتسلَّل إلى أعماقي... كنت بحاجة إلى تعويض.

في ذلك اليوم، انتظرتني مونيك بالقرب من الطريق المؤدي إلى المأوى، دون أن تنتظر توقف سيارتي:

- شخصٌ ما بانتظارك يا سيد غران-دوك!

تأمّلتها مصدوماً، فأكملت بإصرار:

- إنه هنا منذ ساعتين. اتّصل بي عدة مرات خلال الشهر الماضي، كان يريد مقابلتكَ، وقد أخبرته بأنك تصل إلى المكان بعد ظهر 22 ديسمبر من كلّ سنة... أعتقد بأنّ للأمر علاقة بتحقيقك.

كانت تتكلّم وتضحك كميس مونيبيني في مواجهتها لجيمس بوند. كنت متفاجئاً، مصدوماً، متحمّساً، فدخلت إلى بهو المأوى بسرعة، لأجد أمامي رجلاً في الخمسينيات من عمره، يرتدي معطفاً شتوياً طويلاً داكن اللون. كان ينتظرني منشغلاً بقراءة بعض المنشورات عن المنطقة. نهض نحوي قائلاً:

- أوغستين بلوتييه، أنتظر اللقاء بكَ منذ شهر كامل يا سيد

غران-دوك. عثرتُ على إعلاناتك في ليست ريبوبليكان بالصدفة. كنت أعتقد بأنّ التحقيقات حول حادثة جبل تيريبل قد أغلقت منذ وقت طويل... ولكن يبدو أنك ما زلت تعمل على القضية، ما يعني أنه من الممكن أن تساعدني...

كنت أنتظر العكس. مساعدة من طرفه، ولكن لا بأس... بدا لي أنّ أوغستين بلوتييه شخص متَّزن، قد يكون إطاراً في شركة، مصمّماً وقادراً على تحمّل المسؤوليات، وليس واحداً من أولئك النصّابين والمخادعين.

جلستُ بحانبه في بهو المأوى الذي تسمح نافذته الزجاجية بإلقاء نظرة على قمم الجبال ومن بينها قمة جبل تيريبل، في وقتٍ لم تكن فيه الثلوج قد انهمرت بعد.

- لقد فاجأتني يا سيد بلوتييه، لكنني سأبذل كلّ ما في وسعي...

- هي قصة قديمة يا سيد غران-دوك، سأكون مباشراً في كلامي، أنا أبحث عن شقيقي جورج بلوتييه الذي اختفى منذ سنوات. آخر أثر له كان في ديسمبر 1980، وكان يعيش خلال تلك الفترة في جبل تيريبل، في كوخ صغير لا يبعد كثيراً عن موقع تحطّم طائرة الإيرباص.

- 34 -

2 أكتوبر 1998، الثالثة بعد الزوال وتسع دقائق

رفع مارك عينيه. امتزجت الأحرف المضيئة للّوحة الإعلانية كأحرف لعبة سكرابل إلكترونية.

باريس-كين. الرصيف 23.

اتجه جزء كبير من المسافرين الواقفين إلى الرصيف 23، كحبوب ملوّنة محشورة في عنق ساعة رملية. يعلم مارك بأنه من الممكن تكديس ألف شخص تقريباً في قطار واحد، وهو ما يعادل عدد سكان كانتون صغير... لم يكن مفاجئاً إذاً أن يجد هذا العدد الضخم من المسافرين المتجمعين في المحطة والواقفين بانتظار قطارات أعلنت عن تأخيرها...

لم يتمّ تحديد موعد قدوم قطار باريس-روان، فألقى مارك نظرة على هاتفه المحمول. يجب عليه أن يواصل محاولاته للاتصال بالعيادات، متّبعاً الأثر الوحيد والصغير الذي قد يمكنه من العثور على ليلي. تردّدت يده بين الهاتف والدفتر الأخضر، لكن فضوله كان أقوى، سيمنح نفسه دقائق أخرى لقراءة صفحات إضافية. هل

عثر غران-دوك بالفعل على شاهدٍ عايَنَ حادثة تحطّم الطائرة في جبل تيريبل؟

مذكرات كريدول غران-دوك

كانت السُّحب قادمة من سويسرا، وكان ذلك أمراً نادرَ الحدوث. فبعد سنوات خبرة طويلة، صرت قادراً على التنبؤ بأحوال الطقس في جورا العليا.

- جورج هو شقيقي الأصغر، قال أوغستين بلوتييه شارحاً. كان أضعف مني، شخصيته معقّدة جداً، كنا مختلفين تماماً. كان في الرابعة عشرة من عمره عندما بدأ يهرب من منزلنا في بيزانسون. كان يتسكّع مع مراهقي الحي، وكان رجال الشرطة يُعيدونه في كلّ مرة إلى والدينا. ثم نُقل في النهاية إلى مؤسسة مختصّة بقي فيها لمدة سنتين، دون أن يساهم ذلك في تحسّن حالته.

نقرتُ مسند الأريكة بأصابعي، إلى أين سيصل أوغستين بحكايته هذه؟

- سأصل إلى الجزء المتعلّق بجبل تيريبل يا سيد غران-دوك، قالها أوغستين وقد لاحظَ قلة صبري. غادر جورج المنزل عندما كان في السادسة عشرة من عمره، لا داعيَ لذكر التفاصيل. كان ينام في العراء، مدمناً على الكحول والمخدرات، كما كان يلعب القمار أيضاً. لم يكن يرتكب جرائم بحقّ الآخرين، فقط تحوّل إلى متسكّع. كان معروفاً في بيزانسون، هو ومتشرّدون آخرون. استسلمَ والداي في النهاية، أنا أيضاً كنت أملك وظيفة وزوجة لا تريد سماع

كلمة عنه. يمكنك أن تتخيل المشهد يا سيد غران-دوك، ليس من السهل دعوة متشرّد إلى بيتك لإحياء ليلة الميلاد...

واصلت النقر بأصابعي على مسند الأريكة، لكنه لم يرها، أو ربما تظاهر بذلك.

- حاولت التصرّف بما تسمح به ظروفي، تابعَ كلامه. حاولتُ الإبقاء على ما يشبه العلاقة غير المباشرة، مستعيناً بالمصالح الاجتماعية ورجال الشرطة أيضاً. لم يكن يريد أية مساعدة. كنت أحاول مدّ يد المساعدة فأتلقّى إجابة على شكل لكمةٍ في وجهي إن فهمت قصدي...

نعم فهمت قصده، لكن هذا لا يهمني، وقد أظهرتُ ذلك، اختصِرْ يا أوغستين.

- لقد وصلتُ إلى الجزء الذي يهمك يا سيد غران-دوك. كنا نتابع أخبار جورج من بعيد، مع فترات متباعدة كان خلالها يختفي تماماً، ربما سنة أو سنتين. في مايو 1980 فقدت أثره تماماً، كان جورج في الثانية والأربعين من عمره، وإن كان يظهر عليه أنه أكبر من عمره بخمس عشرة سنة على الأقل، لا جديد عنه منذ ثمانية أعوام.

كنت قد فقدتُ متابعتي لخيط كلامه، لامسَت السحب السويسرية البيضاء قممَ الجبال، وهي تلعب الغميضة مع جبل تيريبل.

- سيد بلوتييه... ما علاقتي أنا بكلّ هذا؟ ما علاقة كلّ ذلك بيوم 23 ديسمبر وحادثة تحطم الطائرة؟

- أنا قادم، أنا قادم. كنت قلقاً بشدّة، لن تتصور مدى قلقي. لا جديد عنه. أجريت بحثي الخاص مستعيناً بمتشردي بيزانسون. لم يكن ذلك سهلاً... سأتجاوز التفاصيل، المهمّ أنهم أخبروني بأنّ

جورج قد ذهب إلى الجبال بعدما ملَّ من الأرصفة. كما أنه كان ملاحَقاً، قد يكون للأمر علاقة بالقمار، كما كان ملاحقاً من رجال الشرطة أيضاً، هل فهمت؟

فهمت. . .

- أخبروني بأنّ آخر ما يعرفونه عنه هو أنه يعيش في كوخ جبلي على الحدود السويسرية. في جبل يسمى جبل تيريبل، تحدّثوا عنه كثيراً خلال تلك الفترة بسبب الحادثة الشهيرة. . . وهكذا كانت تلك آخر مرة أسمع فيها أيّ جديد عن شقيقي. كان ذلك منذ سبع سنوات. بحثتُ عنه لأشهرٍ طويلة بلا جدوى، ثم تخلّيت عن بحثي وعن أملي في العثور عليه يوماً ما. لم تشعر زوجتي بالحزن، لكنني قرأتُ إعلاناتك بعد سبعة أعوام فصُدمتُ وخاطبتُ نفسي قائلاً: لمَ لا؟ لو واصل أحدهم بحثه حول حقيقة ما جرى هناك في تلك الليلة لربما عثر في طريقه على شقيقي. . .

أنهى أوغستين خطبته المسهَبة! تشبَّثت يداي بمساند الأريكة كما يستند قبطان سفينة إلى مقبض في سفينته ثلاثية الصواري. غابت عيناي باحثتين عن الأفق عبر زجاج النافذة، كما غابت قمم الجبال خلف الضباب. وماذا لو أنّ جورج كان نائماً في الكوخ المعلوم ليلة 22-23 ديسمبر 1980؟ وماذا لو كان جورج هو مَن كنت أبحث عنه طوال سبعة أعوام من التحقيق.

شاهد!

شاهدٌ مباشر على الكارثة. وماذا لو كان جورج بلوتييه أوّل من عايَنَ مكان الحادث؟ وماذا لو كان جورج بلوتييه قد عثر على سلسلة اليد بالقرب من الرضيعة الناجية، سلسلة ليز-روز؟ وماذا لو كان جورج هو الذي قامَ بحفر ذلك القبر؟

ثم بدأتُ أطرح الأسئلة بشكل عفوي:

- هل عندك علمٌ بحيازة جورج لكلب؟

بدا أوغستين مندهشاً.

«تمالك نفسك يا أوغستين، هذا ما كنت على وشك قوله. أنا أعمل على هذه القضية منذ سبعة أعوام!»

- نعم... نعم... كلب هجين بني اللون. لماذا؟

كنت قد بدأت في تدوين بعض الملاحظات في ورقة أمامي.

- ماذا كان يدخن؟ أتحدّث عن نوعية السجائر بطبيعة الحال.

- لست متأكداً، لكنني أعتقد بأنه كان يدخن سجائر بوهيمية.

- قياس حذائه؟

- 43 أو 44 على ما أعتقد.

- نوعية البيرة التي كان يشربها؟

- البيرة؟ لا... لا أملك أدنى فكرة...

بدا أنّ أوغستين قد فقدَ خيط متابعتي، فقام بإيقاف اللعبة:

- ولكن يا سيد غران-دوك، لماذا كلّ هذه الأسئلة؟ هل عثرتَ على جورج؟ هل مات؟ أليس كذلك؟ هل عثرتَ على جثته؟...

اهدأ يا أوغستين!

قامت مونيك جينيفيز -التي تتقن دورها كمسيِّرة مأوى- بإحضار الشاي والحلويات الجافّة، المُعدّة على الطريقة الجوراسية إن صحَّ التعبير. لم يلمس أوغستين شيئاً، فيما أكلتُ منها وأنا أحكي له كلّ شيء، ما اكتشفته قبل عام... خابَ ظنّ أوغستين بلوتييه تقريباً، فأنا لم أكتشف أيّ أثر لشقيقه... لكنني طمأنته وأنا أغمر قطع البسكويت في الشاي الساخن. لم أقل بأنني سأعثر على شقيقه جورج، أو أنني حتى سأعثر عليه حياً، لكنني أكّدت له بأنني سأبذل

كلّ ما في وسعي خلال الأشهر القادمة في سبيل العثور عليه. لم أكُن أكذب، فقد كنت قريباً عندئذٍ من الوصول إلى الشاهد الوحيد! حسناً فعل أوغستين بسَفَره هذا، لقد كسب محقّقاً خاصّاً يبحث عن شقيقه، مع تحمّل ماتيلد دو كارفيل لكامل المصاريف. ترك لي بطاقته، كان مسؤولاً في مصلحة الزبناء بالشركة العامة في بيزانسون. وَعَدْته مرة أخرى ببذل كلّ ما في وسعي.

لم أنَمْ تلك الليلة سوى ساعات قليلة، ربما بسبب الإثارة والحماس، وأيضاً بسبب زجاجة نبيذ «أربْوا» التي شربتها ومعها كؤوس من أنواع أخرى. كانت مالكة المأوى تملك أنواعاً ممتازة.

ذهبت منذ فجر صباح اليوم التالي إلى قمة الجبل، مجهّزاً بمجارف وغربال... فقد اتّخذت قرار نبش القبر للتأكّد إنْ كانَ الكلب الهجين بني اللون هو الذي تمّ دفنه في هذا القبر. كنت أحمل أيضاً بعض الأكياس وأنابيب الاختبار. آخر صيحة في عالم المعدّات المستعملة من قبل الشرطة العلمية، وذلك لملئها بأعقاب السجائر والكبسولات التي عثرت عليها في الكوخ، والتأكّد من هوية آخر مَن استوطنوا الكوخ. ملأتُ حقيبة ظهري بما يقارب خمسة عشر كيلوغراماً. وعندما أمرّ بالقرب من بيت المنتزه الطبيعي الجهوي لجورا العليا، كان غريغوري موريز يلوِّح لي بيده، ساخراً من شكلي:

- لو كنت تفكر في الثمانية آلاف متر، فلا أعتقد بأنّ هذا هو المكان المناسب...

غريغوري... إذا استثنينا بعض الرحلات المدرسية النادرة،

فأنا أعتقد بأن هذا المهندس يقضي اليوم بكامله في مغازلة الفتيات اللواتي يعملن متدرّبات في مصلحة الاستقبال. هذا ما كنت ألاحظه على الأقل. أعتقد بأنّ هذا الوغد يزداد وسامة سنة بعد أخرى، فيما ظلّت المتدربات في السن نفسها مع كلّ سنة أعود فيها إلى الجبل.
ترك شابة شقراء جميلة كانت تتأمّله بعينين حالمتين ثم قال لي:

- هيا يا كريدول، أنتَ مثيرٌ للشفقة، سأقودك بسيارتي رباعية الدفع، تدبّر أمرك مع الكيلومترات الأخيرة، لكنني سأساعدك في تجاوز الأصعب. سأعود بعد عشرين دقيقة يا جولي. لا تغادري مكانك، هذا إن كنت تودين معرفة تتمّة ما وقعَ لي تلك الليلة في سبيتزبيرغ...

أوصلني إلى المكان المحدّد، ثم غمزني قبل أن يعود للتغزّل بفتاته الشقراء. وقد سألته إن كان قد سمع بشخص يدعى جورج بلوتييه، لكنه أكد بأنه لم يسمع بهذا الاسم من قبل، وهذا طبيعي ما دمنا نتحدّث هنا عن ماضٍ يتجاوز عمره سبع سنوات...

مشيت وأنا أحاول ترتيب أفكاري وذكريات السنة الماضية، الأمطار الباردة، ضوء المصباح اليدوي، الأحجار المكدّسة فوق القبر. عثرتُ على الكوخ بسهولة. كنت مبلّلاً بالعرق. كان الطقس مختلفاً تماماً عن السنة الماضية. غمَرَت أشعة شمس فصل الشتاء قمة الجبل، محوّلة لون قمم أشجار التنوب إلى الذهبي، كما لو كان صيفاً هندياً لكن على الطراز السويسري، ولو أن أنواعاً معينة من الزهور لم تكن لتظهر في مثل هذا الوقت.

كنت مستثاراً، كما حصل يوم تسلّمت أول مهمة لي. لم أشعُر

بمثل هذا الشعور منذ وقت طويل. بدأت بالكوخ الذي بدا أنّ شيئاً لم يتغير فيه، وإنْ كان من الممكن أن يكون شخص آخر قد دخله خلال السنة الماضية. كنت دقيقاً في عملي، مزوّداً بقفازات واقية، فأخذتُ عدّة عينات من البقايا التي وجدتها على الأرض، كما نبشتُ بيدي أيضاً لاستخراج بعض ما علق في التربة.

أعقاب سجائر، كبسولات، قطع ورقية.

قد يكون كلّ ذلك مفيداً في العثور على أيّ أثر لجورج بلوتييه، وإن كنت متأكداً من مغادرته للمكان قبل زمن طويل.

غادرت الكوخ. ما زال الأصعب بانتظاري. القبر. تقدّمت أمام الأحجار المكوّمة، كان الصليب الخشبي في مكانه، وبالقرب منه وردة الياسمين التي ذبلت. ما يعني أن أحداً لم يعُد إلى المكان طوال أيام السنة الماضية. لماذا؟ لماذا أصرَّ القادم إلى المكان على سقيها والإبقاء عليها طوال السنوات الماضية وتراجَعَ عن ذلك هذه السنة؟ كان الجو حاراً جداً، فنزعتُ سترتي وبقيتُ مرتدياً قميصي، لكن جسدي واصلَ تعرّقه رغم ذلك. لم تكن رياح الصباح بتلك القوة، وهي تلامس قمم أشجار الصنوبر.

انحنيتُ أمام المستطيل الحجري.

أثار انتباهي تفصيلٌ غريب. كان شعوراً قوياً ومبهماً: لم تكن الأحجار مرتّبة بالطريقة نفسها كما في المرة الماضية! لقد تمّ نقلها من مكانها.

حاولتُ التفكير بعقلانية، لماذا كنتُ أمتلك مثل هذا اليقين؟ لقد تأمّلت هذه الأحجار قبل سنة، ليلاً، وتحت الأمطار، وقد حرّكتها مستعيناً بضوء مصباح يدوي...

ولكن رغم ذلك، راودني ذلك الإحساس بأنّ أحدهم قد عاد!

لقد حفرت في ذهني قبل سنة من الآن كلّ الإحداثيات وربما حتى شكل الأحجار وحجمها وتوازنها، في مشهد دقيق وإن كان ليلاً. ليس ذلك من باب التفاخر، لكنني ذكي جداً فيما يخصّ مثل هذه الأمور، أنا أمتلك ذاكرة بصرية قوية جداً.

صدِّقوني، لقد غيَّر أحدهم مكان الأحجار!

لا بأس، لن أعثرَ على إجابات لأسئلتي من دون تلطيخ يدي. بدأتُ بنقل الأحجار بحرصٍ شديد، وقد استغرق مني ذلك نصف ساعة. كما جنَّبتني الشمس المشرقة تحويل ذلك إلى مشهد جنائزي كئيب. توقفت عدة مرات لشرب الماء.

عندما قمت بإلقاء الحجر الأخير جانباً، تابعت الحفر بالمجرفة، وتمّ ذلك بعناية كبيرة. كلّ هذا من أجل ماذا؟ لاستخراج جثة كلب! هل كنتُ لأنتظر شيئاً آخر؟ رضيع مدفون في قمة جبل تيريبل مثلاً؟

تابعت الحفر إذاً، لما يقارب الساعة. انتقلت الشمس إلى الغرب، فامتدّت ظلال أشجار الصنوبر لتصل إلى القبر. كانت الحفرة عميقة، ما يفوق المتر، كما قمت بنزع الصليب الخشبي وحفرت تحته أيضاً، ثم تابعتُ عملي لنصف ساعة إضافية.

وفي النهاية... لا شيء!

ولا حتى عظام كلب، أو ماعز، أو أرنب.

قلت لكم لا شيء!

كلّ هذه الأحجار والصليب والنبتة الذابلة كانت فوق تربة عذراء. انهرتُ متعَباً، يائساً. لقد بدَّدتُ طاقتي ووقتي دون أن أتوصَّل إلى نتيجة ذات قيمة. كان قميصي ملطّخاً بالتراب والوحل.

كما بدأت أشعر بلسعات البرد بعدما غمرت ظلال الأشجار موقع القبر. تمشيت قليلاً باحثاً عن استعادة بعض الدفء، وتنشيط ذاكرتي أيضاً، كنت أتكلّم لوحدي، أخاطب أشجار التنوب... قبل أن أبتسم فجأة بغباء!

لا! لم أحفر من أجل لا شيء. الأسوء بالنسبة إلى التحقيق كان العثور على جثة حيوان، وهو ما قد يعني إنهاء حكاية هذا القبر وعلاقته بالقضية. ماذا لو نبشت مثلاً بقايا كلب جورج، هل كنت سأسلم العظام لأوغستين؟

لكن القبر الفارغ كان أمراً غير متوقّع بالمرة. لقد فتحت هذه الحفرة مصراعيها أمام جميع الاحتمالات. مسحتُ جبهتي ثم أخرجت الشطيرة التي أعدَّتْها مونيك، لا وجود هنا سوى لتفسيرين اثنين...

إمّا أن الأمر يتعلق بقبرٍ رمزي، كتلك الصلبان والورود التي يتمّ وضعها في المنعرجات والطرق التي قُتل فيها أقارب في حادثة سير. قد يكون ذلك ممكناً... ربما كانت تلك رغبة واحدة من عائلات ضحايا تحطّم الإيرباص 5403 إسطنبول-باريس، والقدوم إلى هنا في ما يشبه الحج، وحفرُ قبرٍ رمزي فارغ... وقد تقوم بذلك واحدة من عائلات المئة وثمان وستين ضحية. ولكن لماذا هنا؟ على بُعد كيلومترين من مكان الحادث؟ لماذا حفر هذا القبر المستطيل الصغير، بطولِ رضيعٍ بشري؟ لم تكن الطائرة تضم سوى رضيعين اثنين. مَن وضع الصليب والأحجار إذاً؟ أحد أفراد عائلة فيترال؟ عائلة دو كارفيل؟ مَن؟ متى؟ لماذا؟

بقي الاحتمال الثاني، وهو وجود هيكل عظمي تحت الأحجار، كان أحدهم يأتي كلّ سنة لزيارته والاعتناء بالقبر بشكلٍ سرّي، بعيداً

عن أعين الجميع. وربما لاحظ هذا الشخص أنّ القبر قد تمّ نبشه، وأن سرّه سينكشف أو على وشك ذلك، فلم يجد هذا الشخص بداً من إفراغ القبر ونقل الرفاة إلى مكان آخر. . .

فالأحجار نُقلت من مكانها، هذا ممّا لا شك فيه بالنسبة لي.

تركت هذه الفرضية الثانية عدة أسئلة مفتوحة، لماذا كل هذا الحرص؟ من أجل جثة كلب؟ مَن هذا المجنون الذي سيتصرف بتلك الطريقة؟ جورج بلوتييه؟

هنالك شيء ما غير طبيعي!

مسحت جبيني مرة أخرى. استعدتُ هدوئي، فظهور أسئلة جديدة كان هو ما أبحث عنه في الحقيقة، كنت أملك الوقت الكافي لتحليل كلّ فرضية على حدة. بحثتُ في حقيبتي ثم أخرجتُ الغربال الخشبي الذي أحضرته معي، غربال شبيه بذلك الذي كان يستعمله المنقّبون عن الذهب في الأنهار وتحت الرمال. سأفتش هذه التربة بتدقيق أكبر! لو بقيت قطعة عظام صغيرة، لكلبٍ، أو رضيعٍ بشري، أو حتى مخلوق أسطوري آخر، فسوف أجدها.

لا أبالغ عندما أقول بأنني قضيت هناك خمس ساعات أخرى، لا أعتقد بأنّ عالمَ آثار كان سيمتلك مثل هذا الصبر.

لم أنل مكافأة على هذا الصبر إلّا منتصف الزوال، لنقُل بأنني كنت أستحقّ تلك المئة ألف فرنك كلّ سنة. تحول التراب إلى غبار في الغربال، قبل أن ألتقط بطرف سبابتي حلقة ذهبية صغيرة لمعت تحت أشعة الشمس.

حلقة جوهرة لا يتجاوز طولها ميليمترين وعرضها ميليمتر واحد.

حلقة ذهبية.

* * *

- هل تريد صورتي الشخصية أيها الأبله؟

رفع مارك عينيه، وقد وجد صعوبة في التخلّص من مشهد جبل تيريبل فيما يشبه الحلم. امتزجَ ضجيج المحطّة بصمتِ غابة الصنوبر التي قادته إليها قراءته لصفحات الدفتر.

استدار مثل الجميع نحو مصدر الصرخة الشيطانية. كان مجرد حادث سخيف: فتاة هستيرية تسبّ شخصاً ما... هزّ المسافرون أكتافهم في لامبالاة... كلهم باستثناء مارك.

لقد تعرف مارك على الصوت الأنثوي... لقد تحوّل الحلم إلى كابوس. فعلى بُعد ثلاثين متراً، وأمام شباك أوتوماتيكي، هاجمت مالفينا دو كارفيل شخصاً يفوقها طولاً، لن تقوم بتصرّف كهذا إلّا فتاة مجنونة مثلها.

لقد لحقَت به إلى المحطة.

- 35 -

2 أكتوبر 1998، الثالثة زوالاً وإحدى وعشرون دقيقة

توقفت الدراجة النارية في طريق شو-سولاي، أمام الروزري، هبط منها سائقها بخفّة، نزع خوذته، أعادَ تسريح خصلات شعره الطويل، ثم ضغطَ على جهاز الاتصال الداخلي في الجرس.

- نعم؟

- طردٌ للسيدة دو كارفيل، مراسلة خاصة يبدو أنها عاجلة جداً، لقد أتيتُ من المقرّ للتو.

- هي مشغولة حالياً، يمكنك دسّ الرسالة في علبة الرسائل. . .

- أنا مطالَبٌ بتسليمها إياها مباشرة.

- ليس الآن، لن تكون متاحة إلّا بعد بضع دقائق، هل بإمكانك الانتظار؟

تنهّد سائق الدراجة:

- نعم، لكن ليس طويلاً، مَن أنت؟

- ليندا، الممرضة. . .

- حسناً، قالها بعد تردّد قصير. أنا أثقُ بك، ستسلّمين الظرف للسيدة دو كارفيل؟

- أعتقد بأنني قادرة على فعل ذلك...

أطلقَ سائق الدراجة ضحكة قصيرة:

- بالمناسبة يا ليندا... هنالك فوضى عارمة بالقرب من المكان! سيارات إسعاف وإطفاء ورجال شرطة. لقد عبرت المارن بصعوبة كبيرة. هل ألقوا القبض على قاتل متسلسل أم ماذا؟

- تقريباً! لقد عثروا على جثة امرأة في غابة كوبفراي، قريباً من المنزل. لقد قُتلت، ولا يعلمون حتى الآن إنْ كان الأمر برصاصة طائشة أطلقَها صياد، أم أنها جريمة قتل. هذا لا يصدّق، جريمة قتل في كوبفراي!

- قد يساهم ذلك على الأقل في إضفاء جوّ من الإثارة على هذه المنطقة الهادئة المملّة...

تسلّمت ليندا الظرف الكبير، لكنها تردَّدت في إخبار ماتيلد دو كارفيل بذلك، هي المشغولة بعملها في الدفيئة. لا تحبّ ماتيلد أن يتمّ إزعاجها في أثناء اعتنائها بورودها، يبدو أن هذه الدفيئة قد تحوَّلت إلى محرابها الخاص كما تحوَّل فعل البستنة إلى طقسٍ تقرُّب أو لحظات مقدّسة لن تجرؤ ليندا على انتهاكها. لا بأس، يمكن للظرف أن ينتظر عودة صاحبته. وضعته ليندا بالقرب من الهاتف، في المكتب القريب من مدخل المنزل.

لا تريد ترك ليونس دو كارفيل وحده لوقت طويل، ولا تريد أن تتأخّر أيضاً، ستنظّفه، وتساعده على ارتداء منامته وتناول عشائه ودوائه.. .إذا سارَ كلّ شيء على ما يُرام فسوف تُنهي عملها في السادسة مساء تقريباً، سيكون ليونس دو كارفيل نظيفاً، مغذى،

نائماً، ما سيمكّنها هي من العودة إلى منزلها مبكراً والاعتناء بطفلها الرضيع...

اقتربَت من ليونس دو كارفيل ثم دفعت كرسيه المتحرّك وصولاً إلى الحمام، هذه هي اللحظة التي تكرهها بشدّة، أن تمدِّد العجوز على الطاولة كما لو كانت تحمل فراشاً، ثم تضغط على زر الرافعة بعد تمكّنها من ذلك. ليرتفع جسده بشكل أفقي وصولاً إلى مستوى خصرها، كان حماماً أوتوماتيكياً، مزوّداً بتجهيزات على أحدث طراز، مشابهة تماماً لما قد يتوفّر عليه أيّ مستشفى، وربما ما هو أفضل أيضاً. وهو ما لا يترك للبندا أيّ فرصة للتذمّر، واضح جداً أنّ ماتيلد دو كارفيل قد أنفقَت مبالغ طائلة للحصول على تجهيزات كهذه.

بدأت ليندا في نزع ثياب العجوز.

دفعته بلطف لفتح أزرار ملابسه وتمرير يديه عبر الأكمام، فخيِّل إليها أنّ العجوز يتجاوب مع حركتها، أو أنه يُلاعبها بمساعدتها في عملها ذاك، بل إنها تخيلت قبل ثلاثة أيام بأنه قد ابتسم لها بشكلٍ عفوي، لكنها تعلم جيداً بأنّ ذلك مستحيل، بحسب تأكيدات الأطباء على الأقل. كان عاجزاً عن التعرف على الوجوه والأصوات أو تذكّر حركاته بين يوم وآخر، فما بالك بمساعدتها على تمرير يده عبر كمّ القميص...

نزعت ليندا السروال الحريري عن ساقَي العجوز الضعيفتين، ثم نزعت تبانه، فسقطت بعض أوراق الأشجار الميتة -التي التصقت بالسروال- على بساط الحمام.

وماذا لو أخطأ هؤلاء الأطباء؟ تساءلت ليندا.

ستّ سنوات تقريباً وهي تعتني بليونس دو كارفيل، ساعتان

صباحاً وثلاث ساعات بعد الظهر، ويُسعدها ذلك الاعتقاد بأنّ ليونس أكثر من مجرد أنبوب هضمي يجلس على كرسي متحرّك ويتجول خارج البيت راكباً عربة صغيرة.

صبَّت ليندا الماء الفاتر؛ ثم أمسكَت بقطعة الصابون بعدما ارتدت قفازاً، تبدأ دائماً بالأعضاء التناسلية، ثم النصف السفلي لجسده. صارت ليندا أُمّاً منذ سبعة أشهر تقريباً، رضيع يدعى هيغو. هي قادرة الآن على التمييز بين ابتسامة حقيقية وابتسامة معدية؛ كما تميِّز بين نظرة فاهمة ونظرة متوارية تائهة.

صعد القفاز على طول ساق العجوز اليسرى، هي تحبّ ليونس وإن اتّفق الجميع على كراهيته، على الأقل في هذا المنزل، خاصة زوجته وحفيدته الشريرة مالفينا. لقد سمعت الكثير عن ليونس دو كارفيل، قيل لها بأنه كان ديكتاتورياً، قادراً على طرد مئات العمال دون أن يرفّ له جفن، في فنزويلا، نيجيريا، أو تركيا. كان قاسياً، لا يمتلك في قلبه ذرة رحمة. لكن ماذا بعد ذلك؟ لا يهمها كلّ ما يُقال. فمنذ ست سنوات وهي تعتبر أنّ ليونس دو كارفيل مجرَّد دمية مطاطية، عجوز بلا حماية، ضعيف مسكين لا يملك سواها لحمايته ومداواته ومنحه القليل من الاهتمام والحنان، كما لو كان طفلها الرضيع!

كانا يفهمان بعضهما، خمس ساعات يومياً، الرابط الذي لن يفهمه أيّ طبيب على سطح الكرة الأرضية، ولا حتى ماتيلد ومالفينا دو كارفيل. نعم، ليونس دو كارفيل ما زال قادراً على التواصل، وإن بطريقته الخاصة...

مكتبة

تناهى إلى مسامعها صوت إغلاق أحد أبواب المنزل.

توقفت يد ليندا المنهمكة في تنظيف بطن العجوز، قد يكون

الباب الرئيس هو الذي أحدثَ هذا الصوت بالرغم من أنها متأكدة من إغلاقه بنفسها. وضعت القفاز جانباً ثم اتّجهت نحو البهو.

لا أحد، قد يكون مجرّد تيار هوائي تسبَّب في إغلاق الباب بقوة، وهو الأمر المألوف في منزل واسع كالروزري يضمّ عشر غرف وعشرين حجرة لا بد وأن تجد فيها باباً أو نافذة واحدة مفتوحة على الأقل.

عادت ليندا إلى الحمام حيث ينتظرها ليونس عارياً، كان بحاجة إليها، كما هو الشأن بالنسبة إلى رضيعها هيغو، ما كان عليها أن تتركه وحده.

ارتكبت ليندا خطأً فادحاً، تاه تفكيرها بين ليونس وهيغو، فلم تنتبه لتفصيل مهم للغاية، لم تلقِ نظرة على المكتب بالقرب من باب المنزل.

لقد اختفى الظرف.

تنهّدت ليندا من جديد، أنهَت تنظيف ليونس دو كارفيل، ألبسته سروالاً وقميصاً نظيفين، كما تفعل كلّ يوم، كانت ترفض إلباسه حفاضات خاصّة بالمسنين كالتي يتمّ استعمالها في العيادات الراقية، حتى وإن اضطرّها ذلك لتغيير ملابسه وأغطيته كلّ صباح.

وضعت ليندا العجوز المشلول على السرير الطبي في غرفته الملاصِقَة للحمام، كانوا قد اضطروا لإضافة باب جديد يسمح بمرور الكرسي المتحرك. السرير نفسه كان على أحدث طراز، يتمّ التحكّم به أوتوماتيكياً، يمكن القول إنّ وضعية ليونس دو كارفيل -من الناحية الطبية على الأقل- كانت أفضل بكثير من غرف دور العجزة، تلك

المؤسسات التي يكدّسون فيها المسنين كما لو كانوا في مقبرة عامة. يملك ليونس دو كارفيل على الأقل امتياز الموت في وسطٍ باذخ. وحيداً، نعم، لكنه وسط باذخ. تنام ماتيلد دو كارفيل في الطابق العلوي منذ سنوات طويلة.

أمسكت ليندا بالمخدّة المملوءة بالريش على السرير ثم وضعتها على أقرب كرسي. دسَّت المخدة البيضاء الضخمة خلف ظهر ليونس دو كارفيل لتُساعده على الاعتدال في سريره وتثبيته في أثناء مساعدته على تناول طعامه. ألقت ليندا نظرة على ساعة يدها. ستقدِّم له عشاءه بعد أقل من ساعة.

تأكَّدت مرة أخرى من اعتدال جذع العجوز في سريره الطبي. كانت عيناه مفتوحتين، ثابتتين، مع حركة سريعة لرموشه، كما يفعل دائماً بعد حمامه. سمعت ليندا عن ذلك المشلول الذي تمكَّن من تأليف كتاب فقط بإملاء الحروف والكلمات والجمل عبر تحريك رموشه، هذا لا يصدَّق! ماذا لو تكرَّر الأمر نفسه مع ليونس دو كارفيل؟ ماذا لو أنّ عقله ما زال محتفظاً بقواه رغم كلّ تأكيدات الأطباء؟ قد يكون سجين جسده المشلول. ماذا لو كان يريد إخبارها بشيء ما؟ أن يحكي لها شيئاً ما؟ لكنها لا تستطيع فَهم طريقته في التواصل. ما الذي يدور في رأس هذا العجوز؟ تعلم ليندا جيداً بأنّ ليونس دو كارفيل لم يكن شخصاً عادياً، كان قائداً بالفطرة، عصامي انطلق من لا شيء ثم كوَّن ثروة مهمة، ويملك سلسلة مصانع ومعامل في جميع أنحاء العالم، كان يتحكّم بإمبراطورية كبرى، كان أشبه بفرعون جالس على قمة هرم كبير، وتتلخّص مهمّتها هي في الاعتناء بذكرياته المحنّطة وجسده المشلول، وربما يكرهها الآخرون لهذا السبب، غيرة وحسداً، يجدها بعض الضعفاء فرصة سانحة للانتقام

منه بعدما فقدَ أيّ قدرة على الدفاع عن نفسه، ضعفاء يتربّصون بكلّ شيء، بما في ذلك منزل الروزري على سبيل المثال.

وضعت ليندا سماعة صغيرة على الطاولة الصغيرة بالقرب من ليونس دو كارفيل، سماعة صغيرة تشبه تلك التي يستخدمها البعض لسماع بكاء الطفل الرضيع في الغرفة المجاورة. تعوّدت ليندا على وضع السماعة الثانية في المطبخ في أثناء إعدادها لوجبة الطعام، وهو ما يجعلها مطمئنة إلى حدّ ما رغم أنّ الأمر سخيف جداً، ما الذي سيحدث للعجوز المشلول في أثناء انشغالها في المطبخ؟

ألقت ليندا نظرة أخيرة على العجوز قبل مغادرتها للغرفة، كان ثابتاً، جاحظَ العينين.

عبقري انطلق من لا شيء، قبل أن يعود إلى نقطة الصفر.

انسلّ الظلّ خلف ظهر ليندا بصمت، واختبأ بين الجدار ودرج السلم، كان بإمكان ليندا رؤيته لو أنها أدارت رأسها، لكنها ذهبت إلى المطبخ مباشرة.

اعتادت ليندا على إعداد حساء ليونس دو كارفيل بنفسها، واعتبرت أنه من واجبها الاعتماد على خضروات ولحم طري، بالإضافة إلى عشرات المقادير الأخرى التي تحرص على شرائها من سوق مارن-لا-فالي، تنظّفها وتقطّعها ثم تخلطها. صحيح أنّ ليونس دو كارفيل يلفظ نصف الوجبة ويتناول النصف الآخر بصعوبة بالغة، لكن ليندا لم تتخلَّ عن مبادئها أبداً، كما أنها حرصت منذ شهر تقريباً على مضاعفة الكمية بما يسمح لها بالاحتفاظ بنصفها لرضيعها هيغو إلى حين عودتها إلى المنزل، كانت فكرة في محلها! قائمة

الطعام نفسها لليونس دو كارفيل وهيغو الصغير، كانت ليندا فتاة منظمة، لم تخبِر ماتيلد دو كارفيل بذلك، لكنها متأكدة من أنّ العجوز لن تحاسبها على قطعتي كراث وثلاث حبات بطاطس وقطعة لحم!

وضعت ليندا السماعة إلى جانب الخلاط ثم بدأت في تقشير جزرتين أمامها.

كم تحب هذا الصمت، كان يُشعرها بالاطمئنان.

مرّ الظل أمام باب المطبخ، ثم دفع باب غرفة ليونس دو كارفيل ودخل بحذر، لم تسمع ليندا ولم ترَ شيئاً.

ثبّت العجوز المشلول ناظريه على الظلّ المتقدم نحوه، كانت عيناه جاحظتين خائفتين، كما لو أنه فهم حقيقة ما يرمي إليه صاحب الظلّ الذي تردَّد قليلاً بعدما شعَرَ بأنّ النظرات الموجهة إليه لم تكن حقيقية، بل مهدِّدَة تقريباً. لم يستغرق تردّده سوى لحظة، تقدَّم بعدها أكثر. بدا أنه لا يملك في قلبه أيّ ذرة شفقة تجاه هذا الجسد الممدَّد أمامه، الكراهية والاحتقار فقط.

اقترب الظل بإصرار، رأى مخدة بالقرب من السرير فابتسم، هذا هو الحلّ الأمثل. حلّ سريع صامت. توجَّه الظلّ نحو الكرسي، لم تتمكّن نظرات العجوز المشلول من متابعته بعدما بقيت مركَّزة على الباب المفتوح. كان الظلّ أكثر اطمئناناً كما لو أنّ خوفه السابق قد زال بسرعة. يبدو أنّ المشلول قد عجز عن التعرّف على صاحب الظلّ، هو عاجز عن التعرف على الجميع أصلاً. أحدثت خطوات صاحب الظلّ قرقعة خفيفة على الأرضية الخشبية.

توقف نصل سكين ليندا في الهواء، لقد سمعَت صوتاً غريباً في غرفة ليونس. إنها قرقعة! غادرت ليندا المطبخ بحركة آلية حاملة السكين في يدها، خرجت إلى البهو ثم توجَّهت إلى غرفة العجوز، طبيعي جداً ألّا يكون هو مَن غادر سريره!

اعتصرت يدها قبضة السكين رغماً عنها، غريبة هي الأمور التي تحدث بعد ظهر هذا اليوم، بدءاً بجريمة الغابة، وانتشار رجال الشرطة في كلّ مكان، والشخص الذي أحضرَ ذلك الظرف والباب الذي أُغلق بقوة قبل قليل، ثم القرقعة في غرفة العجوز الآن.

ارتجفت يد ليندا الممسكة بالسكين، لم تطمئن يوماً لهذا المنزل المخيف الشبيه بتلك المنازل الريفية المسكونة في أفلام الرعب، حاولت تجاهل هذا الشعور مراراً وتكراراً لكنها عجزت عن ذلك. اعترَتها رعشة خوف وهي تجرّ ساقيها بصعوبة.

دخلت ليندا إلى الغرفة حاملة سكينها، فحدَجها ليونس بنظرات خاوية كفراغ الغرفة. لا أحد! حاولت التغلب على خوفها بإطلاق ضحكة عصبية. توشك هذه العائلة وهذا المنزل الغريب على إصابتها بالجنون، ها هي تتجوّل بين غرفه حاملة سكيناً، فقط من أجل قرقعة الأرضية الخشبية! يجب عليها أن تبحث عن عمل آخر، ولن تجد صعوبة في العثور عليه، خاصة بين هذه النوعية من العائلات الغنية التي تطلّ منازلها على نهر المارن، وإن اضطرها ذلك إلى نسيان حنانها المستجدّ تجاه ليونس العجوز. . . فهي تملك هيغو الآن.

سقطت السكين من يدها فأدركت بأنها مطالَبَة باستعادة اتّزانها النفسي، ستُكمل إعداد الحساء ثم تغادر المكان. سارت في البهو بخطوات حازمة.

استمع صاحب الظلّ لصوت الخلاط في المطبخ بارتياح. كان قليل الحذر ونافد الصبر قبل دقائق قليلة. لن تسمعه الممرضة هذه المرة. فتح الظل باب الغرفة التي اختبأ فيها بحرص شديد، غرفة البيانو الأبيض. أمسكت يداه بالمخدّة ثم تقدَّم خطوتين إضافيتين. وضعها على وجه ليونس دو كارفيل الذي لم يُصدر أي حركة أو ردّ فعل، كان ذلك سهلاً، سهلاً للغاية. كم من الوقت قد يستغرقه خنق عجوز مشلول؟ دقيقة؟ دقيقتان؟ ثلاث دقائق؟ أو دهر بأكمله...

لم يكلف صاحب الظل نفسه عناء حساب الوقت. ماذا سيفعل؟ سيكتفي بالانتظار لأطول وقت ممكن.

فجأة حدث ما لم يكن في الحسبان، المستحيل بحسب الأطباء. تحركت ذراع ليونس دو كارفيل. هل كان هذا آخر ردّ فعل لجسد يُحتضر؟ دفاع يائس؟ لم يتراجع صاحب الظلّ عن ضغطه، تشنّجت ذراع ليونس دو كارفيل اليسرى محرّكة الطاولة الصغيرة إلى جانبه، فسقط الدورق الزجاجي والكأس على الأرضية الخشبية.

صرخت ليندا!

لا، لا يمكن ذلك مجرّد تهيؤات، لقد سمعت صوت تهشّم الزجاج في الغرفة. هل صارت مجنونة بالفعل؟ تسلّحت مرة أخرى بسكين المطبخ ثم انطلقت مسرعة من دون تفكير ودخلت إلى الغرفة.

زجاج مهشّم عند قدميها.

ماء لزج بعض الشيء.

ولا وجود لأحد غيرها.

لا أحد باستثناء ليونس دو كارفيل بعينيه المفتوحتين وفمه الملتوي ووجهه الشاحب الشبيه بقناع فيلم «الصرخة» الشهير.

لم يكُن يتنفس.

كان ميتاً.

هي تُحسن التعرف على الموت وتشعر به، بعدما قضت أزيد من عشر سنوات في خدمة العجزة.

لقد مات مختنقاً.

ما زالت المخدة على الفراش، بالقرب من قدميه.

لم تشعر ليندا بأيّ حزن على الرجل الذي يرقد أمامها بلا حراك، لم تشعر بأي شفقة على هذا العاجز الذي خدمته طويلاً. لم يراودها سوى شعورٍ وحيد في تلك اللحظة، شعور طغى على كل المشاعر الأخرى: الخوف.

اعترتها قشعريرة ورغبة عارمة في الهروب من الروزري وهي تصرخ طالبة النجدة.

يجب أن تغادر قصر الشياطين هذا مهما كلّف الأمر.

- 36 -

2 أكتوبر 1998، الثالثة زوالاً واثنتان وعشرون دقيقة

استعادت مالفينا دو كارفيل هدوءها في ردهة محطة سان-لازار بالسرعة نفسها التي فقدت فيها أعصابها. ابتعدت متذمِّرة عن صفّ المنتظرين أمام شباك التذاكر. استدار الضخم الذي أزعجته وهو يهز كتفيه في لامبالاة، لم يعُد أحد يهتم بهذه المرأة الهستيرية الصغيرة.

لا أحد، باستثناء مارك.

لقد تمكّنت مالفينا دو كارفيل من اللحاق به! شعر مارك بغضب عارم في أعماقه. لقد قررت هذه المجنونة تتبّعه عبر القطار إلى دييب. لكنه يملك الأفضلية الآن، لأنه في مكان عام. الحشود تحميه، وعليه استغلال ذلك...

نهض مارك بحركة واحدة. أعادَ دفتر كريدول غران-دوك إلى حقيبة الظهر ثم حشرها بين ذراعي نادل مقصف المحطة دون أن ينتظر منه أي إجابة.

- هل يمكنك الاحتفاظ بها لبضع دقائق... سأعود. انتبه، إنها ثمينة للغاية. إنها... إنها تحتوي على كلّ ملخصات دروسي لهذه السنة.

ضمّ النادل الحقيبة إلى صدره في ذهول. ابتعدَ مارك بمسافة كافية. كانت مالفينا واقفة على بُعد عشرة أمتار. يبدو أنها كانت حائرة بين الوقوف في صف المنتظرين المتعجلين أمام شباك التذاكر، أو الشبابيك الأوتوماتيكية، أو ربما عدم اقتناء تذكرة من الأساس. كانت تدير ظهرها. هي إذاً فرصة لا تعوض.

انسلّ مارك بين المسافرين بأمتعتهم المكدَّسة ثم اقترب منها. كان بحاجة ماسة للتخلص من الضغط الخانق. وضع يده على كتف مالفينا، التصقَ بكنزتها الصوفية ثم رفعَها عن الأرض. كان أطول منها بثلاثين سنتيمتراً، ويزن ضعف وزنها. نقلها بسهولة لعدة أمتار، ليضعها بالقرب من موزع أوتوماتيكي للمشروبات الطازجة والسندويتشات المغلفة بالسيلوفان، بعيداً عن أعين المسافرين.

رسمت مالفينا على وجهها ابتسامة حاولت أن تجعلها متفاجئة.

- لم يعُد بإمكانك العيش من دوني يا فيترال؟

أطبقت أصابع مارك على كنزتها الصوفية.

- ماذا تفعلين هنا؟

- احزر...

اقتربت يد مارك من عنق مالفينا. عنق صغير للغاية. قد تكون يد واحدة كافية للإحاطة به. التصق مارك بمالفينا أكثر فأكثر، دون أن يُثير ذلك انتباه أحد، سيعتقدون أنهما مجرد حبيبين متعانقين قبل فراق الرحيل.

- لماذا لحقتِ بي إلى هنا؟ كيف عرفتِ بأنني سآتي إلى محطة سان-لازار؟

- كم أنت قاسٍ، يا صاحب القلب الجميل... قاسٍ جداً...

إلى مَن سيلجأ فيترال الصغير راكضاً؟ إلى تلابيب تنورة جدّته، بكلّ تأكيد.

- حسناً. . . أنتِ الأكثر ذكاء. لكنني أحذّرك، إذا ما وجدتكِ معي في القطار نفسه فسوف أرميك من بوابة المقطورة.

ضغط مارك أكثر، فتركت ياقة الكنزة آثاراً حمراء على عنق مالفينا.

- مفهوم؟

وجدت مالفينا صعوبة في مواصلة التنفس بشكلٍ طبيعي، لكنها أظهرت مزيجاً من الابتسامة والتقطيبة على وجهها. أعادَ مارك طرح سؤاله دون أن يخفّف من ضغطه.

- مفهوم؟

بدأت تظهر على مالفينا علامات الاختناق. لا يعرف مارك أيّ مدى سيبلغه معها. كم من الوقت سيبقى ضاغطاً على هذه الرقبة. كانت مالفينا أشبه بكيس ملاكمة يصلح للضرب المبرح. لم يعُد يشعر بأعراض رهاب الخلاء وسط هذه الجموع، بل بالعكس، شعر بأنه بلغ أقصى درجات القوة والحقد الأعمى، ولكن إلى أين سيقوده هذا الشعور؟

لم تدُم تساؤلاته طويلاً، بعدما أحسّ بالفوهة الفولاذية تدخل بين ساقيه، ضاغطة على فتحة سرواله، فتراخَت قبضته بحركة غريزية.

- ابقَ ملتصقاً بي يا فيترال، همسَت مالفينا في أذنه، سيعتقد الجميع بأننا حبيبان ولن يروا الماوزر الموجّه إليك، لكن أبعِد يديك عن عنقي.

غابت عينا مارك في بهو المحطة الواسع. لا أحد يعيرهما أيّ

اهتمام. سيظنّون أنهما مجرد شقيقين متعانقين، الأكبر مع الصغرى، في الواقع قد تكون هذه هي الحقيقة، ولو بشكلٍ تقريبي. قالت مالفينا بصوتها الحادّ:

- أين هي حقيبتك؟

- لا، تريدين مني أن أتصرّف بطريقة غير لائقة، هكذا أمام الجميع...

حاول مارك كسبَ بعض الوقت لصالحه، لكن بطريقة غير منضبطة. لعنَ بَلادته في أعماقه. كان يعلم بأنّ هذه المجنونة مسلَّحة.

- ما رأيك بأن أعريكَ هنا يا فيترال؟ أنت لطيف جداً، أبله قليلاً لكنك لطيف. كما أنك مجبَر على تنفيذ أوامري.

تلألأت حبّات العرق على عنق مارك. واصل الماوزر ضغطه على سرواله، في الوقت الذي تلمّست فيه يد مالفينا اليسرى ساقه، صعوداً ونزولاً. اعترته رعشة قوية. تراجعت الفوهة ببضع سنتيمترات، فيما التصقت مالفينا بمارك أكثر، محافِظَة على ضغط يدها.

- لا تتحرّك وإلّا سأطلق النار.

تذكر مارك جثة غران-دوك. رصاصة في قلبه. لم تكن تمزح. هذه المجنونة قادرة على قتله وسط المحطة، أمام المئات من الشهود. تابعت مالفينا كلامها:

- ألم تبلغ نشوتك بعد يا فيترال؟ ألم أنَل إعجابك؟

لم يكن مارك في وضع يسمح له بالردّ على سخريتها. حاصرته أصابعها كأقدامٍ ملساء لزواحف برية. واصلت من جديد بالنبرة نفسها:

- ألم تبلغ نشوتك بعد؟ لم تتمكن من ذلك؟ ربما تفضّل شقيقتي، أليس كذلك؟

تنهد مارك في محاولة منه لاستعادة هدوئه. كان يرغب في المخاطرة، الكلّ في الكل، أن يمسك بكتفي هذه المجنونة ويرميها بعيداً، ربما لن تجرؤ على إطلاق النار، لكن لم يفعل شيئاً، ولم يقُل أيّ شيء أيضاً.

- هل أصابك الخرس يا فيترال؟ لم تجد شيئاً لتقوله؟ لا تقُل لي بأنّ شقيقتي لا تساعدك على بلوغ نشوتك! لا تتردّد، فأنا لا أشعر بالغيرة، لا أشعر بها إطلاقاً كما ترى. أعلم جيداً بأنها جميلة، جميلة بقدر بشاعتي نفسها. أنا وهي نشكّل معدّلاً متوازناً. الجميلة والوحش. فرخ البط القبيح!

هبطت يد مالفينا إلى الأسفل لتداعب مارك.

- ألن تبلغ نشوتك أبداً؟ سأخبرك لماذا لا أشعر بالغيرة. ألا تعرف السبب؟

شعر مارك بالقذارة. لا خيار أمامه، عليه أن يدفعها ويلصقها بجدار المحطة. دفعت مالفينا الفوهة نحوه كما لو كانت تقرأ أفكاره، فشعر بألم مبرح.

- ألا تفهم؟ سأخبرك، إن كنتَ وحشاً فهذا ليس خطأ ليز-روز، إطلاقاً. هذا خطؤك أنت. خطأ آل فيترال. أنتم مَن سرقتم شقيقتي... بمَ ستواجه هذا الكلام؟ يقول الأطباء إنني أعاني من «مشاكل في النمو». كنت جميلة مثل ليز-روز. كان من الممكن أن أكون بجمالها نفسه، حجمها نفسه، إثارتها نفسها. لكنني رفضتُ النمو! لقد سرق مني آل فيترال شقيقتي الصغرى التي كنت سأتجمّل من أجلها، كنا سنصفّف شعرينا، نضع المكياج، نتنكر في صور

متعددة، نختار الملابس والأولاد أيضاً. لكنكَ سرقت مني كلّ شيء يا فيترال! لمَن سأتجمَّل؟ لمَن؟

تصبب العرق من جبين مارك بشكل غزير. تراخَت أصابع مالفينا، ثم همست في أذنه:

- لقد نمت مع شقيقتي، أليس كذلك؟ تكلّم.

ماذا سيقول؟ هل تنتظر منه مالفينا إجابة أصلاً؟ ارتجف مارك. تجاوزهم زوار المحطة بلا اكتراث. لا أحد في هذه المحطة يمكنه أن يشكّ في ترابطهما الغريب.

عادت أصابع الفتاة إلى تلك اللعبة المنحرفة.

- أنت شاب وسيم يا فيترال. يمكنك أن تحصل على ما تريد من الفتيات، عدد كبير من الفتيات. لماذا تريد شقيقتي بالذات؟ أنت منحرف، أليس كذلك؟

ضغطت فوهة الماوزر بقوة أكبر.

- سأقتلك إن لم تبلغ نشوتك يا فيترال. ستعود ليز-روز الآن. ستعود إلينا؛ إلى منزلها. انتهى كلّ هذا السخف. العاهرة الصغيرة التي تُدعى إيميلي ماتت في الطائرة، أنت أيضاً اعترفت بذلك. لن تسرق مني شقيقتي الصغرى مرة ثانية...

حسناً، لم يعد الوقت مناسباً للتفكير. قد يكون مارك عاجزاً عن الحركة، لكنه قادر على القيام بردّ فعل مناسب يستعيد به سيطرته على الوضع ويُثير انفعال مالفينا في الآن نفسه. بذل مجهوداً كبيراً ليتكلم بنبرة ساخرة هادئة:

- تبحثين لنفسك عن شقيقة صغرى، أليس كذلك؟

لم يتفوّه بكلمة منذ وقت طويل، ما فاجأ مالفينا التي تخلّت قليلاً عن التصاقها الشديد به.

- صدقيني يا مالفينا، لا تنقصك شقيقات ولا أشقاء أيضاً، ربما تملكين عدداً كبيراً منهم، هناك في ناحية البوسفور. لقد خلَّف والدك ألكسندر بعض الذكريات الصغيرة هناك في تركيا، قبل أن يتحوّل إلى رماد، إن كنتِ تفهمين قصدي. لم يكُن والدك يعاني من أية مشاكل في بلوغ نشوته...

تراجعت فوهة الماوزر. انهارت مالفينا، فيما تابع مارك كلامه:

- لستِ صغيرة إلى هذا الحدّ، لا بد وأنك تتذكرين كلّ العاهرات اللواتي كان يأتي بهن والدك إلى مكتبه أو في أماكن أخرى، هناك في تركيا. والدتكِ التي كانت تبكي وتنام هي الأخرى مع أشخاص آخرين حلّوا محلّ والدك، أشخاص بعيون زرقاء...

تراجعت مالفينا، فيما أصرَّ مارك:

- قد يعني ذلك أن ليز-روز ليست شقيقتك أصلاً!

صرخت مالفينا. ما دفع الجميع إلى التحديق بها في بهو محطة سان-لازار. ركلت مالفينا مارك بكلّ ما تملك من قوة.

سقط مارك أرضاً من شدة الألم. اختفى الماوزر في جيب مالفينا قبل أن تبتعد بخطوات صغيرة وسط الجموع؛ ذرة وسط غابة من الطحالب.

جلس مارك على ركبتيه. صامتاً. متنهداً. محتمِلاً الألم الرهيب.

توجّه نحوه بعض المسافرين لتقديم يد المساعدة.

أخيراً.

- 37 -

2 أكتوبر 1998، الرابعة زوالاً وثلاث عشرة دقيقة

عَبَر مارك المقطورة الخامسة ولم يجد مقعداً بعد. صبّ لعناته على قطارات باريس–روان، ولا سيما قطارات ليلة الجمعة. يبدو أن الشركة الوطنية للسكك الحديد قد باعت تذاكر يفوق عددها ضعف عدد المقاعد المتاحة.

ما زال يعاني من آلام في منطقة ما بين ساقيه، وإن تراجعت حدّتها ببطء. كان قد جلس على الأرض في قاعة المحطّة لعشر دقائق كاملة. وقد أحاطَ به المارة:

«هل أنت بخير؟ لم تخطئ ضربتها، أليس كذلك؟».

كان مزيجاً من القلق والسخرية. كيف سيتعاملون مع رجلٍ منكمشٍ على نفسه بعدما وجّهت الفتاة التي كان يحتويها بين ذراعيه ضربة إلى ما بين ساقيه؟ ليس من السهل عليهم الاختيار بين الشفقة والضحك.

استعاد مارك حقيبته من النادل في محطة القطار ثم اتّجه نحو رصيف قطار باريس–روان، الذي أعلن عن قدومه أخيراً، كانت كلّ حركة من ساقه تصيبه بألم شديد.

استسلمَ مارك بعد وصوله إلى المقطورة السابعة. فجلس على الدرجات بين طابقَي قطار كوراي. لم يكن الوحيد الذي فعل ذلك، بعدما وجدَ أمّاً محاطة بأطفالها الثلاثة، وإطاراً غارقاً في مراجعة تقرير دراسة، كما سبقته مراهقة نائمة إلى شغل الدرج. لم يكن الوضع مريحاً لكنه أفضل من الوقوف بكثير. كان الجلوس في الممرّ ممنوعاً، ولكن امتلاء قطار الضواحي ليلة الجمعة سيجبر كلّ المراقبين على الصمت.

وضع حقيبته بين ساقيه. ثم أمسكَ بهاتفه مرة أخرى. لا رسائل جديدة.

بحث عن رقم ليلي مرة أخرى.

سبع رنات كالعادة.

- ليلي. . . مارك معك! أجيبيني من فضلك! أين أنتِ؟ لقد استمعتُ إلى رسالتك الأخيرة. وتناهى إلى سمعي صوت سيارات الإسعاف خلف صوتك. سأجنّ. أتصل الآن بكلّ المستشفيات والعيادات في باريس. اتصلي بي أرجوك.

كان غاضباً. استعرضَ سلسلة الرسائل النصية القصيرة التي توصَّل بها من جينيفر وتضمّ أرقام هواتف مستشفيات وعيادات باريس. اتصل بأكثر من عشرين رقماً حتى الآن. وعليه الاستمرار. منح نفسه نصف ساعة قبل مواصلة قراءة مذكرات غران-دوك.

دائماً الحوار نفسه:

«مرحباً سيدتي، هل قمتم باستقبال شابة تدعى إيميلي فيترال هذا اليوم؟ لا، لا أعرف في أيّ مصلحة. . . ربما في المستعجلات. . .»

امتلأ القطار بشكلٍ لا يُحتمل. واجه مارك صعوبة في سماع أجوبة السكرتيرات، وإن كانت متطابقة في جميع الأحوال.

لا وجود لأيّ إيميلي فيترال في سجلاتهم.

ثلاثون دقيقة اتصل خلالها باثنين وعشرين مستشفى. معتمداً على الحسم عوض اللطف. انتقلَ إلى المستشفيات الخاصة والعيادات المتخصِّصة. والمجمعات الطبية التي كان متأكداً من أنه لن يعثر فيها على أيّ أثر لليلي.

كان كلّ ذلك بلا جدوى. كان يلاحق وهماً، وهو ما لن يمكّنه من العثور على ليلي قبل اليوم الموالي على الأقل.

يجب عليه أن يفكر بهدوء، أن يعثر على طريقة تمكّنه من وضع كلّ قطع البازل في مكانها الصحيح. سيُنهي قراءة دفتر غران-دوك قبل كلّ شيء، هو يملك الوقت الكافي لذلك قبل الوصول إلى دييب. تنتظره ثلاثون صفحة على الأكثر.

أعادَ مارك الهاتف المحمول إلى جيب سترته، ثم أخرجَ الأوراق التي مزّقها من مذكرات غران-دوك من جيب سروال الجينز، كان ظهر الورقة الأخيرة فارغاً، فالتقط قلم حبر من حقيبته ثم دوَّن بعض الملاحظات بحروفٍ كبيرة وعصبية واضحة:

أين اختفت ليلي؟

ثم كتب تحتها بخط أصغر:

هل ذهبت إلى مستشفى؟ هذا ما قصدته برحلة بلا عودة؟

سطّر على آخر ثلاث كلمات، ثم خطّ ثلاث علامات استفهام:

انتحار؟
قتل؟
انتقام؟

سطَّر مارك على كلمة «انتقام» وهو يجهَل السبب الذي دفعه إلى القيام بذلك، ثم واصل:

مَن قتل كريدول غران-دوك؟

ثم كتب بخط أصغر:

مالفينا دو كارفيل

وضع مارك طرف قلم الحبر في فمه لعدّة ثوان، ثم أضافَ علامة استفهام بعد «مالفينا». اهتزّ قطار الكوراي لكن مارك اعتاد على ركوب القطار والمترو. سيتمالك نفسه بسهولة، هذا هو الأهم.

واصلَ تدوين ملاحظاته بالحماس نفسه:

لماذا لم يطلق غران-دوك رصاصة على رأسه قبل ثلاثة أيام؟
ما الذي اكتشفه قبل منتصف تلك الليلة؟
أيّ جديد ذاك الذي اكتشفه؟
وهل وصل الأمر حدّ قتله من أجل ذلك؟

ما هي المعلومة الناقصة فيما يتعلق بالحادثة التي أودت بحياة جدي؟

انزلق قلم الحبر بفعل الاهتزاز، ممّا حوّل الأسطر التي كتبها مارك إلى ما يشبه البحر الهائج.

سأبحث في غرفتي بلييب. سآخذ الوقت الكافي للتذكر.

أعاد مارك قراءة ما كتبه، مستمتعاً بعدّ علامات الاستفهام. اثنتا عشرة علامة! ولم يُكمل بعد. استشعرَ ثقل وزن الظرف الأزرق الذي سلمته إياه ماتيلد دو كارفيل، والمستقر في جيب سترته. واصل قلم الحبر مساره:

اختبار الدي إن أي. ما الحل؟

هل يفتح الظرف؟

أن يتقدّم في محاولته لحلّ اللغز بانتهاك حرمة السر؟

لا، لن يقوده ذلك إلى أيّ شيء. يعلم مارك جيداً ماهيّة محتوى الظرف، لم تكن ليلي شقيقته، ليلي هي حفيدة ماتيلد دو كارفيل، وشقيقة تلك المجنونة التي تُدعى مالفينا. كلّ القرائن تؤكّد ذلك، بما في ذلك تَقدّم تحقيقات غران-دوك... وصولاً إلى خاتم اللازورد اللامع الذي تحمله ليلي، الشيء نفسه بالنسبة إلى طبيعة المشاعر التي رافقته منذ البداية...

أن يكلّم نيكول

أضاف مارك علامة استفهام أخيرة، ما جعله الآن أمام خمس عشرة علامة!

سيصل القطار إلى دييب في السادسة مساء وأربع وعشرين دقيقة.

أمامه الآن ثلاث ساعات تقريباً من الانتظار.

توقف القطار في مونت-لا-جولي، فنزل ثلث الركاب تقريباً، ليفرغ عدد معقول من المقاعد. نهض مارك وجلس في المقطورة السفلية، بالقرب من النافذة. ما زال يشعر بآلام مبرحة بين ساقيه، لكن جلوسه بساقين ممدودتين خفَّف من حدّتها قليلاً. لا أثر لمالفينا هنا، وإن كان غير واثقٍ من عدم صعودها إلى القطار نفسه. كانت قد ذابت في زحام محطّة سان-لازار... تنهَّد مُخرِجاً دفتر غران-دوك من حقيبته، ثم واصل القراءة.

مذكرات كريدول غران-دوك

تمّ إرسال الحلقة الذهبية الصغيرة المحفوظة بعناية في كيس بلاستيكي صغير إلى أفضل مختبر علمي في فرنسا، كما هو الشأن بالنسبة إلى أعقاب السجائر وعلب البيرة التي تمّ العثور عليها في كوخ جبل تيريبل، كنت أحتفظ بعلاقات جيدة مع بعض رجال الشرطة، كما كنت أملك المال الكافي لتحمّل كافة المصاريف. لا شيء مخالف للقانون في كلّ هذا، أو لنقل إنه مجرد تحقيق موازٍ غير رسمي، لكنه تحقيق في جميع الأحوال.

ظهرت النتائج بعد ثمانية أيام. كانت الحلقة الصغيرة ذات الملمترين تقريباً، التي تمّ العثور عليها في القبر المجاور للكوخ من الذهب الخالص. هذه هي المعلومة اليقينية الوحيدة. لم يكن من الممكن تحديد مصدر الحلقة، هل هو سلسلة يد لطفلة رضيعة، أم سلسلة صغيرة، أم قلادة. . . أو حتى ميدالية كلب! يستحيل معرفة مصدرها، هل هو محلّ تورنير في ساحة فوندوم، أو مجرد بائع مجوهرات عادي في إحدى الضواحي الفرنسية.

حلقة جوهرة ذهبية. . . هذا ما ساهم في تعقيد القضية أكثر فأكثر. لماذا جرى دفن الحلقة في هذا القبر، تحت شاهد حجري؟ ما مصدر هذه الحلقة؟ ومَن دفنها؟

ها نحن أمام لغز آخر!

ارتفعت المكافأة المخصَّصة لسلسلة اليد عبر الإعلانات الصغيرة لتصل إلى خمسة وسبعين ألف فرنك. كان مبلغاً موحياً بسذاجة صاحبه. . . بخاصة والأمر هنا يتعلق بسلسلة يد تنقصها حلقة. لنقل إنه كان مبلغاً وهمياً افتراضياً في جميع الأحوال. مضى وقت طويل فقدت خلاله أيّ أمل في ظهور أي شخص يدلي بمعلومات مفيدة.

لكن ما كنت أجهله وقتئذٍ هو أنّ الصنارة ستغمز يوماً ما، وأن سمكة كبيرة ستبتلع الطعم. كلّ شيء نسبي، وما أقصده أنّ السمكة لن تبتلع الطعم إلّا بعد سنتين، كونوا صبورين، سأعود إلى هذه التفاصيل فيما بعد. لا أعتقد بأنكم ستحتجون فيما يخصّ التشويق، فسنة كاملة من الانتظار بالنسبة لي لا تعادل سوى بضعة أسطر بالنسبة لكم.

لم تقدم أعقاب السجائر وعلب البيرة والبقايا التي عثرت عليها في كوخ جبل تيريبل أيّ إضافة تُذكر. خاصة بعد مرور سبع سنوات على الحادث، طبيعي أنه قد مرَّت على الكوخ أجيال من المتسكعين والعشاق بعد جورج بلوتييه...

هذا ما يُعيدني إلى نقطة البداية، لا خَيار أمامي سوى العثور على جورج بلوتييه. قضيت ليالي طويلة في بناء علاقات مع بؤساء بيزانسون. طبيعي أن يُضحِكُكم ذلك... يبدو المشهد فولكلورياً إلى حدٍّ كبير، أن تربط علاقات بحفنة من سكارى المدينة، ليسوا أشراراً إلى هذا الحدّ، كما أنهم معروفون عند المصالح الأمنية، كانوا طيبين وخدومين إلى أقصى حد.

يمكنكم تخيل المشهد، أن تعيش محتمياً بورق الكرتون صيفاً وشتاء، في مدينة هي الأبرد في عموم فرنسا، لا وجود لشبكة مترو هناك، كما أنّ محطة القطار تغلق أبوابها ليلاً.

قضيت معهم ما مجموعه عشرة أيام، بين يناير ومارس 1988، وقد خيل إليّ وقتها أنني سأموت من شدّة البرد. كنت أعود إلى المنزل فجراً وأنا شبه متجمّد، ما يتطلّب حماماً ساخناً قد يستغرق مني ثلاث ساعات لاستعادة دفء جسمي. ستصدقون الآن بأنني كنت أواصل التحقيق بالهمة نفسها بعد ثماني سنوات متواصلة، لم أكُن أبدِّد أموال الجدّة دو كارفيل بلا سبب.

كل هذا من أجل ماذا؟ سأفسح لكم المجال للحكم بأنفسكم.

أجمَعَ كلّ رفاق جورج بلوتييه السابقين على التأكيد بأنّ جورج قد ظهر بعد 23 ديسمبر 1980، حياً يرزق، بعدما عاد من الجبل، لم يظهر عليه أي تأثّر بحادثة الطائرة، كما لم يكن يحمل أيّ سلسلة يد في معصمه. صامتاً كما عهدوه. بقي ستة أشهر في بيزانسون قبل

أن يبدأ مشاغباته من جديد. تجارة المخدرات وسرقات بالإكراه، ثم فرّ إلى باريس قبل تمكّن رجال الشرطة أو شقيقه أوغستين من الوصول إليه. قال رفاقه بأنه لم يكن يخشى رجال الشرطة بقدر خشيته من مواعظ شقيقه.

سأضيف تفصيلاً آخر، قد يكون الأخير. لم يعُد جورج بلوتييه من الجبل مرفوقاً بكلبه. هذه نقطة إيجابية... لكن أوغستين كان مخطئاً، لم يكن كلب جورج صغير الحجم، بل ذكر مالينو كبير الحجم بحسب ما قال أصدقاؤه، وهو ما يجعل دفنه في ذلك القبر أمراً مستحيلاً، إلّا إذا تمّ تقطيع الجثة، ولكن مَن هذا الذي قد يفكِّر في تقطيع جثة كلبه؟ لماذا لا يفكِّر في حفر قبر أوسع؟ لغز آخر ينضاف إلى سلسلة ألغاز هذا القبر اللعين!

لم أستسلم، لا تشكّوا في ذلك، لم يعُد أمامي سوى العثور على أثرٍ لجورج بلوتييه بين متسكعي وسكارى باريس، وهو ما أثار حماس ناظم أيضاً. ثلاثة أشهر إضافية ومتواصلة من البحث، إعلانات صغيرة، ضغط متواصل على بعض رجال الشرطة والمصالح الاجتماعية في البلديات ومراكز العناية بالمتشردين، ثم قضاء الليالي في الشوارع، مع مصابيح يد مسلطة على صورة جورج المبتسم بالقرب من شجرة عيد الميلاد في منزل أوغستين. وهي أحدث صورة وفَّرها لنا شقيق جورج...

كان عملنا احترافياً ودقيقاً، خطوة خطوة، عمل خاص يلامس العمق المطلوب، نوعية العمل الذي يروق لي. كانت ماتيلد دو كارفيل على حق. يتطلب الوصول إلى الحلّ الكثير من الوقت والمال، الاثنان على السواء. سأطلِعُكُم على التفاصيل. تمكّنت

رفقة ناظم من البحث في كلّ ما يتعلق بجورج بلوتييه وصولاً إلى شخص يدعى بيدرو راموس، والذي قابلته في يونيو 1989 في معرض ترون للألعاب أمام تاكادا، نعم، كما قلت، أمام تاكادا!

- لقد عمل جورج لحسابي لمدة موسمين، قال بيدرو منشغلاً بمراقبة لعبة المركبات الدائرية.

امتلأ المكان بمراهقين ومراهقات متحمسين لدفع خمسة فرنكات للجلوس مدة دقيقتين ونصف على صحن دوار، يمكن القول إنّ التاكادا كانت نسخة جماعية لأراجيح الحدائق.

- لم أطلب منه تزويدي بسيرة ذاتية، قال بيدرو بابتسامة واسعة، وذلك بعدما فهمت بأنه يريد البقاء حراً من أيّ التزامات. لم يكن كسولاً، على الأقل عندما يعمل، أما خارج أوقات العمل فلم يكُن ذلك يهمني.

- متى رأيته آخر مرة؟

لم يستغرق بيدرو وقتاً طويلاً للتفكير، فقط أشار بيده إلى فتاة ترتدي فستاناً وردياً وتتولى أمر خزينة النقود. كانت سحنته تتغير بتغير ألوان الأضواء في المكان.

- خريف عام 1983. منتصف نوفمبر بالتحديد. بعد معرض ألعاب سان-رومان، آخر معرض في الموسم، في روان. توقفنا عن العمل بسبب الطقس، ثم لا شيء. ففي الموسم الموالي كان من السهل على بلوتييه الوصول إليّ، لكنه لم يظهر بعد ذلك في الموسم الموالي، لم أحزن لاختفائه ولم أبحث عنه، تعلم جيداً أن العمال المؤقتين مألوفون جداً عندنا. عمله لموسمين متتالين كان أمراً جيداً. لم يعد، لا في السنة الموالية، ولا في التي بعدها.

طريق مسدود. . .

واصلت طرح بعض الأسئلة الشكلية على بيدرو راموس، ولم أحصل منه على معلومات مفيدة. توقف كلّ شيء بعد اختفائه في روان، غير بعيد عن دييب، غير بعيد عن آل فيترال. . .

ألذلك أية علاقة بالقضية؟ لا علاقة، بلا شك.

غيّرت مجال بحثي في الأشهر الموالية، بعدما تخصَّصت في معارض الألعاب، كمعرض التاكادا وكل هذه السخافات!

أحبّ ناظم ذلك، مقارنة بعملنا في أزقة وأحياء باريس السفلية بحثاً عن جورج، كما كان يرافق حبيبته آيلا إلى هذه المعارض في عطل نهاية الأسبوع. من المضحك التفكير في أنّ الجدة دو كارفيل كانت تتحمل مصاريف اللعب في قطارات الأشباح وباقي الألعاب السخيفة. استغرق منّا العثور على معلومات جديدة وقتاً طويلاً، ربما عدة سنوات. . .

وكنت أعود -من وقت إلى آخر- إلى دييب، في محاولة لتغيير الأجواء والبحث عن أفكار جديدة.

- 38 -

2 أكتوبر 1998، الرابعة زوالاً وتسع عشرة دقيقة

- إنه حفل زفاف!

تمسّكت يدا جوديث الصغيرتان بسياج ساحة الحضانة.

- لا أيتها البلهاء! هذا ليس حفل زفاف! كما ترين فكلّهم متشحون بالسواد. لقد مات أحدهم...

ابتعدَ الموكب في الشارع بحركة بطيئة. لا تصدّق جوديث كلّ ما تقوله صديقتها سارة، فهي تروي دائماً قصصاً خيالية رغبة منها في لفت الانتباه. كلّما تجول المارة في الشارع مرتدين أحسن ملابسهم، أو انتظموا في صفوف كما لو أنهم أمام مطعم مدرسي، أو غادروا الكنيسة، أو أن الأجراس دقت، فإنها تفسِّر الأمر على أنه حفل زفاف، وقد سبق لها الحضور لهذه الحفلات لعدة مرات، اثنتان على الأقل، بالإضافة إلى مرات أخرى كانت أصغر بكثير من أن تتذكّرها.

- أنا لا أصدقك يا سارة!

هزت سارة السياج بعصبية.

- قلت لك بأنّ أحدهم قد مات! سيذهبون لإلقائه في حفرة، لقد فعلوا الشيء نفسه مع جدّتي...

- أنا لا أصدقك!

- طيب، أين هي العروس إذاً؟

- لقد ذهبت، لم نلحق بها في الوقت المناسب، هذا كلّ ما في الأمر!

- ماذا تقولين؟ بداية، هذا يوم جمعة! لا يتزوج الكبار أيام عمل المدرسة. لكن الأمر مختلف عندما يتعلق بالوفاة التي لا يمكن اختيار موعدها.

كان على جوديث أن تعترف بأنّ صديقتها على حق، كما أنها أصرت على كلامها بالقول:

- أضف إلى ذلك أن حفلات الزفاف لا تشهد وجود عدد كبير من الطاعنين في السن، ترين بوضوح تامّ أنّ كلّ الموجودين هنا مسنون.

- لا، ليسوا كلهم كذلك!

- بل كلهم...

- لا! أترين هناك؟ سيدتي! سيدتي!

استفاقت ليلي من خدرها فجأة.

وجدت أمامها -بدهشة- طفلتين صغيرتين جميلتين في الخامسة من عمرهما، متدثّرتين بمعاطف صوفية فاقعة اللون، فيما غطت رأسيهما قلنسوتان بيروفيتان.

- سيدتي، سيدتي، هل هذا حفل زفاف أم جنازة؟

ابتسمت ليلي رغماً عنها بعدما أثارها هذا التناقض الغريب بين صرخات المرح في ساحة الحضانة وصمت الموكب الجنائزي لهذا الدفن المجهول، ثم قرفصت لتكون في طول الطفلتين نفسه.

- هذا دفن، أجابت بصوت بالغ الرقة.

- آه، أرأيت! قالت سارة بانتصار.

قطبت جوديث جبينها، فيما التصقت ثلاث طفلات أخريات بالسياج، لتتحول ليلي، على الرصيف، إلى مصدر جذب لتلاميذ الحضانة، كما لو كانت فرساً صغيراً خلف أسلاك شائكة.

- مَن التي ماتت؟ تابعت سارة.

- أنا لا أعرفها. أجابت ليلي. كنت فقط مارة من هنا. لستُ من عائلتها. أتيت من البناية البيضاء المقابلة، ويتوجّب عليّ العودة إليها الآن.

- لماذا أنتِ حزينة إذاً، ما دمتِ لا تعرفينها؟ أصرّت جوديث.

لم تتمكن ليلي من إخفاء دهشتها، فاقتربت أكثر من الطفلة الصغيرة التي زيّن النمش خديها الحمراوين.

- ما الذي يدفعك إلى القول بأنني حزينة؟

- ممم، عيناك الحمراوان، كما أن المشاركة في جنازة ميتة عوض التسوّق من المتاجر، أو اللعب في الحديقة، أو مشاهدة فيلم، لا يدل سوى على أنك حزينة للغاية...

تفرّس خمسة عشر زوجاً من الأعين -التي تُرى بالكاد بين القلنسوات والمعاطف والإيشاربات- في ملامح ليلي.

- معك حق، همست ليلي في أذن جوديث، لكن لا تخبري أحداً بذلك. ما اسمك؟

- جوديث، جوديث بوتيي. أنا في القسم النهائي بالحضانة. وأنت، ما اسمك؟

- لا أدري...

عضَّت جوديث شفتيها، كما لو أنها طرحت سؤالاً في منتهى السرية. فكرت للحظات، كانت هذه أول مرة تقابل فيها شخصاً بلا اسم. فحاولت الابتسام للشابة الغريبة، كما تفعل دائماً عندما تحاول الإصلاح بين صديقتين متخاصمتين.

- أأنتِ حزينة إذاً لهذا السبب؟

- 39 -

2 أكتوبر 1998، الرابعة زوالاً وتسع وثلاثون دقيقة

توقف الكوراي في فيرنون. لاحظ مارك أنّ المسافرين الذين نزلوا لتوّهم في المحطة قد اختفوا بسرعة قياسية، لا لقاءات على الرصيف، لا قبلات مؤثرة، لا صرخات فرح، فقط بضع عشرات من الموظفين المتعجلين للعودة إلى منازلهم، وعندما تحرك القطار مرة أخرى، كان الرصيف خالياً تماماً، فيما احتشدت السيارات في الموقف الصغير أمام بوابة الخروج في الجانب الآخر من المحطة.

لم تكن أشعة الشمس قد غابت تماماً خلف منحدرات السين. قام مارك بجرّ الستارة لتفادي انعكاس الضوء ومواصلة قراءة محتوى دفتر غران-دوك -الذي وضعه على الطاولة الرمادية- بشكل مريح. تجاوز المحقق عشر سنوات من البحث... وهكذا لم تعُد ذكريات مارك محصورة في انطباعات ضبابية بعيدة، بل تحوّلت إلى صيغة محدثة ودقيقة للأحداث. صيغة شخصية لما وقع، يمكن مقارنتها بما سيذكره غران-دوك في دفتره.

مذكرات كريدول غران-دوك

كانت إيميلي فيترال تستعد للدخول إلى الإعدادية مع انطلاق السنة الدراسية 1991. لم أحدِّثكم كثيراً عن إيميلي. من المهم بطبيعة الحال أن أعطيكم فكرة عنها، وكيف كبرت طوال هذه الأعوام، وصولاً إلى استسلام نيكول فيترال وانتصار ماتيلد دو كارفيل على طريقتها.

كانت إيميلي على وشك بلوغ عامها الحادي عشر إذاً...

أعتقد بأنّ إيميلي قد أحبَّتني بصدق. وكان هذا شعوراً متبادلاً. ربما بسبب خشونتي وميلي الطبيعي للعزلة. يميل الأطفال عموماً إلى الكبار الذين لا يتكلمون إلّا نادراً. ربما لأنهم يقاسمونهم الرصانة والاحتشام نفسهما.

كنت بالنسبة لها كريدول لا باسكول.

أعتقد بأنني كنت أعجب مارك أيضاً. ليس فقط بسبب معلوماتي الكروية الغزيرة، بل لأن مهنة تحرٍّ خاص تخلب لبّ أيّ طفل. كما لو كنت خارجاً من التلفاز مباشرة. ماكغيفر، مايك هامر... ماغنوم(*)، من دون كلاب دوبرمان، بسيارة بي إم دابليو عوض الفيراري... كنت أبالغ قليلاً. يعجبني ذلك لأنّ قصصي المختلَقَة تُضحك نيكول فيترال، فيما كنت أراقب بطرف عيني إيميلي وهي تكبر...

تمنيتُ في سري وجود شَبَهٍ ما. أن تستيقظ صباح يوم ما وقد

(*) عناوين مسلسلات تلفزية أميركية تدور أحداثها حول عوالم الجريمة والجاسوسية، وتمّ عرضها بين ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي. (المترجم)

مالَ شبه ملامحها تماماً إلى هذا الطرف أو ذاك. آل فيترال أو آل دو كارفيل. ابتسامة مارك أو تقاسيم وجه الجد ليونس دو كارفيل. مَن يدري؟ أيّ علامة يقينية كيفما كانت.

لا شيء. استمر ميلها إلى جانب آل فيترال، العينان، فقط لا غير...

أمّا فيما يخص باقي التفاصيل، فقد سارت شيئاً فشيئاً نحو المزيد من التعقيد، وهو ما حاولت نيكول فيترال إخفاءه في البداية، قبل أن تستسلم لوضوحه التام. ففي شارع بوشول، بدا أنّ إيميلي قد هبطت من مركبة فضائية وليس طائرة إيرباص. تحب إيميلي المدرسة، الأولى على دفعتها في كلّ الأقسام، فيما يتدبر مارك أموره، يدرس بعقلانية وهدوء، من دون لذة حقيقية. تحبّ إيميلي الموسيقى، تحبّ إيميلي الفنون، تحبّ إيميلي الكتب. تلتهم إيميلي كل شيء. ستجد في منزل فيترال الأسطوانات، الكتب، اللوحات، وبكميات معقولة، بما يشبه الضرورة، لا الحاجة.

كبرت إيميلي بشكل مختلف، وهو ما أثار انتباه الجميع. ظلت رائعة، فاتنة ومحبوبة، لكنها كانت خانقة أيضاً. تتابع المكتبات المتنقلة التي تتوقف في محطة دييب مساء كلّ يوم ثلاثاء. تحاصر جدتها المضطربة بالأسئلة. قرأت **حكايات القط الشقي** في سن مبكرة، ثم أتبعتها بالبقية، روالد دال(*)، إيغور سترافينسكي(**)،

(*) روالد دال (1916-1990): روائي وقاص وكاتب سيناريو بريطاني الجنسية. (المترجم)

(**) إيغور سترافينسكي (1882-1972): مؤلف موسيقي روسي، من بين الأكثر تأثيراً في موسيقى القرن العشرين. (المترجم)

روديارد كبلينغ(*)، سيرغي بروكوفييف(**)، والكثير من الأسماء المعقدة التي لم تسمع بها نيكول من قبل.

استثناء مماثل في عائلة كهذه أمر ممكن الحدوث، هذا ما كنت أقوله محاولاً إقناع نفسي. وردة نبتَت وسط الأشواك. عصامية المدرسة الجمهورية، الحلم الأميركي في نسخته سداسية الأضلاع، الطفل حادّ الذكاء الذي يتسلق درجات السلم وحده، من دون مساعدة أو مساندة من أحد، من يبلغ درجات عليا معتمداً على قوته وعزيمته، قادماً من بعيد، مفتخراً بأصوله الفقيرة، صانعاً الفارق بينه وبين «أبناء فلان وعلان...»، ممّن ولدوا في الدوائر الباريسية الأولى، أبناء ثانوية هنري الرابع، أما هذا فقد دفعته طاقته للمضيّ قدماً، حاملاً لواء أهله. هو الصغير الذي بلغ أعلى مراتب النجاح. ألهذا السبب يميل الفقراء إلى إنجاب عدد كبير من الأطفال؟ هل يبحثون عن مضاعفة حظوظ مراهنتهم على الحصان الرابح؟

طيب، لن أسهب أكثر في عقد مقارنات طبقية. أردتُ فقط إعطاء فكرة عن الكيفية التي نشأت بها إيميلي في حي بولي. الفتاة التي ستمضي بعيداً... تحت حماية أهلها، وعلى رأسهم نيكول بطبيعة الحال، وإن كان بإمكانكم تخيّل حجم الشكوك التي خدشت افتخارها بحفيدتها.

هل تملك نيكول الحق في الافتخار بحفيدتها؟ رغم مرور سبع أو عشر سنوات على المأساة، فإنّ ظلّها ما زال مخيماً على

(*) روديارد كبلينغ (1865-1936): كاتب وشاعر وقاص بريطاني. (المترجم)
(**) سيرغي بروكوفييف (1891-1953): مؤلف موسيقي روسي. (المترجم)

الأجواء. إن كانت هذه الصغيرة هي إيميلي فيترال، حفيدتها، بلحمها ودمها، فمن حقّها الافتخار بالحظّ والمجد والقدر المرسوم الذي ينتظر هذه الطفلة، أمّا إن كانت هي ليز-روز دو كارفيل... المنتَزَعة من عالمها الحقيقي بالخطأ... فالأمور عندئذٍ ستختلف.

من الناحية العملية، كنت أتابع نمو إيميلي في حيّ الصيادين هذا، لا يمكنني إلّا أن أشبهها بكائن إي.تي فضائي سقط في الولايات المتحدة الأميركية، أو طرزان تمّ نسيانه في الأدغال، أو غوليفر في ليليبوت.

«الأمر طبيعي، هذا ما كانت تقوله نيكول، طفلة قامت جدّتها وحيدة بتربيتها، طبيعي أن يحصل نوع من الاختلال أو التفاوت».

كانت على حق، جزئياً على الأقل.

في عامها الحادي عشر، مع نهاية دراستها الابتدائية، طلبت إيميلي، أو بعبارة أخرى أعلنت -فإيميلي لا تطلب أبداً- عن رغبتها في الذهاب أبعد ممّا تسمح به دراجتها، أن تنتقل إلى الجانب الآخر من المنطقة، أن تكتشف أماكن أخرى، وتجرب أنشطة أخرى أيضاً، خاصة الموسيقى، أرادت متابعة دروس البيانو، ليس لأنها ذكية أو لأن أساتذتها يشجعونها باستمرار، بل لأنها تريد ذلك، وتعدّى الأمر الرغبة ليتحوّل إلى حاجة أساسية.

كان الرهان بسيطاً للغاية. لن تتقدّم إيميلي في دروس البيانو إلّا إذا امتلكت واحداً في منزلها لتتمرن عليه عدة ساعات يومياً، كانت قادرة على الإقناع بطريقتها الخاصة، أخذت القياسات اللازمة في الغرفة، سيتخذ البيانو مكانه فيها بإزاحة التلفاز جانباً ودفع الأريكة قليلاً، سيبدو جميلاً، خاصة إن وضعنا فوقه المزهرية ومنفضة

السجائر الكريستالية التي صنعت في بريسل(*).

بقيت مسألة ثمن البيانو.

يبلغ ثمنه جديداً ثلاثين ألف فرنك، ويمكن الحصول عليه بعشرين ألف فرنك إن كان مستعملاً.

طبيعي إذاً أن يكون جواب نيكول فيترال على الشكل الآتي:

- بيانو! يا صغيرتي المسكينة، أنا أجد صعوبة في تدبّر أمر ملابسك، كما اضطررت للعمل أيام الأحد في شهري مايو ويونيو لجمع مبلغ يكفي لقضاء أسبوع في سان كي، وما زلت أجهل الطريقة التي سأتدبّر بها أمر أدواتك المدرسية في الإعدادية. لم تعُد دروس الموسيقى مجانية منذ بلوغك سن العاشرة، أما البيانو يا صغيرتي المسكينة...

لم تبدِ إيميلي أيّ اعتراض. كانت متفهّمة للغاية، رغم أنها بعد في الحادية عشرة من عمرها إلّا أنها كانت ناضجة بما يفوق سنّها بكثير. لنقل إنها بدَت متفهّمة على الأقل. انزوَت في غرفتها. الغرفة التي تشاركها مع مارك. سمعت نيكول عزف ناي عبر الجدار، الناي هو آلتها الموسيقية الوحيدة، ناي مارك البلاستيكي الذي يعزف به في دروس الموسيقى بالإعدادية. تعرّفت نيكول على المقطوعة الشهيرة آنذاك، أغنية ليدونشتاد لغولدمان(**).

(*) بريسل: منطقة بين تريبورت وأومال في النورماندي، تشتهر بأنشطتها الصناعية. (المترجم)

(**) ليدونشتاد: أغنية فرنسية شهيرة ألّفها وغناها جان جاك غولدمان، صدرت لأول مرة عام 1990. (المترجم)

انشطر القلب إلى نصفين.

عاد مارك من الملعب فوجد جدّته منهارة فوق الأريكة وهي تبكي. كان في الثالثة عشرة من عمره ولا يعرف كيف سيتصرف. استمع فقط لعزف إيميلي بنايه، عزف جميل، وحزين أيضاً.

دعت نيكول مارك للجلوس بجانبها، ثم عانقته بقوة.

- أتمنى ألّا تحسد إيميلي أبداً. مفهوم؟ أبداً.

طبعاً، فكر مارك. كيف يمكن لهذا الشعور أن يتسلَّل إلى قلبه؟

- ستواصل حياتك معها كما في السابق، ستبقى دوماً شقيقتك...

طبعاً. لكن ما الذي تقصده بكلامها؟

- حتى وإن لاحظت بعض الفروق بينكما مستقبلاً. لقد كبرت يا مارك، ويمكنك أن تتفهّم الأمر.

فروق. أي فروق؟

نهضا بهدوء، استعادت نيكول ابتسامتها، وإن كانت مجرد ابتسامة زائفة، أشارت لمارك حتى يساعدها على الإمساك بطرف الأريكة.

- ساعدني على دفعها قليلاً يا مارك، لا أدري إن كنّا سنجد موضعاً مناسباً للبيانو هنا!

تمّ شراء البيانو الجديد، ماركة هارتمان ميلونجا، من أكبر متجر متخصِّص في مدينة روان، ولم يبدُ أنّ هذا المبلغ قد أثّر على حجم الأموال الضخمة المودَعَة في حساب إيميلي البنكي.

كانت إيميلي على حق، فقد وجد البيانو مكانه بين الأريكة والتلفاز.

وهكذا توالت الأحداث، التدريبات في باريس، لبضعة أيام في البداية، قبل أن تطُول المدة بعد ذلك، تدريبات، سهرات، جولات دولية في لندن، أمستردام، براغ... تمّ شراء الأسطوانات الموسيقية اللازمة، والكتب أيضاً. لماذا ستُحرم من الكتب؟ ثم الملابس. لماذا ستحرم إيميلي من ارتداء ملابس مناسبة للموضة؟ هذا طبيعي. تستحق إيميلي الأفضل. لم تعُد نيكول تسمح لنفسها بالاستهتار بأيّ تفصيل يتعلّق بمستقبل حفيدتها أو المقامرة بكلّ شيء، في حالة ما إذا...

ربما فهمتم الآن خطة ماتيلد دو كارفيل. كانت واعية بما تفعله منذ البداية. حساب إيميلي البنكي كان أشبه ببيضة ثعبان في صندوق، بيضة كبرت شيئاً فشيئاً تحت سقف منزل فيترال، قبل أن تفقس أخيراً ويخرج الثعبان مستعداً لخنقهم جميعاً.

اتّسعت الهوة بين إيميلي ومارك. أتحدث عن الهوة المادية بطبيعة الحال، أمّا ما تبقى فسأعود له فيما بعد... كان بإمكان إيميلي أن تطلب أي شيء، ابتداء من أتفه نزواتها ووصولاً إلى أغلى أمانيها. كل شيء رخيص بالنسبة لها. أما مارك فكان مجبراً على انتظار البديل، ملابس الجار، دراجة الجد، حذاء الريكبي الذي تخلى عنه صديق كبير في السن، وهكذا...

أصرّت إيميلي في البداية على أن تشمل المصاريف مارك أيضاً، لكن جدتها أفهمَتها بأن هذا مالها هي! كانت مسألة شرف بالنسبة إلى نيكول فيترال التي احترمَت اتفاقها مع ماتيلد دو كارفيل.

خط أحمر يستحيل تجاوزه.

لن يتلقى حفيدها أيّ سنتيم من أموال دو كارفيل.

قد يبدو الأمر غريباً، وأوافقكم الرأي على ذلك، ولكن مَن منكم قادر على تصوّر ردّة فعله إن حلّ محلّ نيكول فيترال؟ نعم، أكرِّر ذلك، كانت ماتيلد دو كارفيل واعية بما تفعله منذ البداية، عندما جاءت مساء ذلك اليوم من شهر مايو 1981 لتُهدي هذا الثعبان النائم لنيكول فيترال.

خاتم اللازورد اللامع.

تبيَّن لي -عكس كلّ التوقعات- أنّ خطة الثعبان قد أجهضت. لم يشعر مارك بالحسد من شقيقته، لم يشعر به أبداً. هكذا بشكل طبيعي ودون أن يتعلق الأمر حتى بطاعة أوامر جدته. كان منتشياً بسعادة إيميلي. سأعود لهذا الأمر بالتفصيل... أعدكم بذلك.

معجزة أخرى، قد تكون أكثر إثارة، لم تتمكن كلّ هذه الهدايا والحياة المرفَّهة من تحويل إيميلي إلى فتاة لزجة، على طريقة نيلي أولسن(*) التي تتابع تفاصيل الحياة العادية بنوع من التقزّز. بقيت نشيطة، بسيطة، لا تتذمّر من ضيق الغرفة أو صغر المنازل المتلاصقة في شارع بوشول أو البحر رمادي اللون أو قسوة الحصى تحت قدميها الحافيتين.

كبرت إيميلي، محتفظة بعيني آل فيترال الزرقاء وأذواق آل دو كارفيل الراقية. طيبة آل فيترال... وأموال آل دو كارفيل.

مَن ذا الذي سيُخرجني من هذه المتاهة؟

* * *

(*) نيلي أولسن: شخصية خيالية، بطلة سلسلة بيت صغير على المرج الشهيرة. (المترجم)

رفع مارك رأسه وقد غطت الدموع عينيه.

تجاوز قطار كوراي السريع أحواض بوز. عبرت زوارق محمَّلة بالرمال نهر السين من الجهة المعاكسة. استعاد مارك في ذاكرته كلّ شيء، الناي، الأريكة، البيانو، إيميلي أمامه وهي تعزف مقطوعات شوبان(*)، بيرليوز(**)، ديبوسي(***)، لم يكن يفهم شيئاً في كلّ هذا لكنه وجد الأمر شاعرياً. إيميلي، بشعرها المعقود، جالسة، بظهر مستقيم، وأصابع يدها تتحرّك بلا توقف. كان البيانو صامتاً الآن. بعدما علاه الغبار. مستقراً في موضعه بغرفة الجلوس في منزل دييب. تذكر مارك ملابس ليلي أيضاً، كيف سينساها؟ تلك الفساتين والتنانير الخاصة بها وحدها، التي ازدادت معها جمالاً، سنة بعد أخرى.

لماذا سيحسدها؟

لم يفهم أحد السبب، لا غران-دوك ولا نيكول ولا أيّ أحد من الكبار، بمَن فيهم ماتيلد دو كارفيل أيضاً.

توقف القطار في فال-دو-روي، المحطة التي لم تصلها المدينة الجديدة أبداً. تردّد مارك، لم تبقَ سوى خمس عشرة دقيقة للوصول إلى روان. أخرجَ هاتفه المحمول، سيحاول الاتصال بعيادات أخرى. جرّب ثلاثة أرقام من دون نجاح يُذكر. لم تستقبل أيّ منها فتاة تحمل اسم إيميلي فيترال. لا بأس، لم يشغل ذلك بال مارك

(*) فريديريك شوبان (1810-1849): مؤلف وملحن موسيقي بولندي الأصل. (المترجم)

(**) هيكتور بيرليوز (1803-1869): مؤلف موسيقي فرنسي. (المترجم)

(***) كلود ديبوسي (1862-1918): أحد أشهر المؤلفين الموسيقيين في فرنسا. (المترجم)

المشغول أكثر برغبته في قراءة ما تبقى من صفحات في دفتر غران-دوك.

مكتبة

حكايات مراهقته بلسان المحقق.

كما لو أنّ الأمر يتعلق بمذكرات شخصية كتبَها شخص غريب.

- 40 -

2 أكتوبر 1998، الرابعة زوالاً وثمان وأربعون دقيقة

ذهبت نيكول فيترال إلى المزاد -في أقصى نقطة بميناء الصيد بدييب- بخطى متثاقلة، اقتربت من منضدة البضائع.

- ماذا لديك اليوم يا جيلبرت؟ شرط ألّا يكون باهظ الثمن؟

أجابها بائع السمك بلا تردّد:

- سمك موسى، مباشرة من سفينة صيد الليلة الماضية، أتريدين واحدة؟

- اثنتان!

اتسعت عينا جيلبرت حتى صارتا شبيهتين بأعين أسماكه الميتة.

- اثنتان؟ لديك ضيوف للعشاء؟ إيميلي؟ مارك؟ أم أنه عشيق مفترض؟

يا له من مغفل!

- إنه مارك، أيها الأبله! أجابت نيكول.

- حسناً، سأختار لك سمكتين جميلتين. كيف حال مارك؟

كانت نيكول مشوّشة البال، فتملّصت من الإجابة، ثم نقدته الثمن محاوِلَة اختصار الحوار قدر الإمكان.

- شكراً جيلبرت. سأمرّ هذا الأسبوع لأسلّمك منشورات البلدية المتعلِّقة بالميناء، كلّ شيء مدوّن فيها.

تنهَّد بائع السمك.

- البلدية وسخافاتها من جديد. فليهتموا بالتجار عوض عمال أرصفة السفن. صدقيني، نحن أول مَن سيموت جوعاً، قبل الصيادين حتى...

كانت نيكول قد ابتعدت بمسافة كافية. جيلبرت لوتوندور هو أفضل بائع سمك في دييب، لكنه شخص قميء أيضاً، اختار مساندة أصحاب السفن وغرفة التجارة والصناعة في دييب. كان، باختصار، شخصاً يمنح صوته لليمين... تعرف نيكول أنّ نظرتها للأمور سلبية بعض الشيء، لكنها ترى مدينة دييب هكذا، معسكران متضادّان. لم تنضم أبداً إلى معسكر التجار، وإن كانت تملك شاحنة صغيرة أمام شاطئ البحر .

خائنة!

خائنة مرتين، فها هي تأكل سمك المعسكر المقابل!

تابعت نيكول طريقها نحو الشاطئ. يعجبها الطقس الجاف والتيارات الهوائية المعتدلة، وهو ما ظهر جلياً على حركة العشب في المرج. تم الانتهاء من تثبيت عشرات الخيم البيضاء المتشابهة والمتراصة، تزينها أعلام ملونة تمثل كل دول العالم. اعتادت مدينة دييب مرة كل سنتين -وعلى امتداد عشرة أيام- على تنظيم المهرجان الدولي للطائرات الورقية.

غطت السماء معينات مخططة بالألوان، وحلقات ضخمة ثابتة، ومثلثات شكّلت خطوطاً منحنية متزاحمة، فيما ظهر على علوّ أكبر تنين صيني، وقناع إنكا، وقط أزرق ضخم، وحلقة مجوفة يدور

داخلها أجولي بسرعة كبيرة، كل هذا بالإضافة إلى كوكبة من الأشكال الملونة والخيالية.

تقدمت نيكول فيترال برأس مرفوعة وذهن مشغول بالذكريات. لم تمنع نفسها من تذكر الدورات السابقة للمهرجان. كانت دييب أول محطة استجمام شاطئية تنظم مهرجان الطائرات الورقية نهاية السبعينيات، قبل أن تنقل كل الشواطئ الرملية المتمتعة بتيارات هوائية قوية في شمال أوروبا فكرة هذه التظاهرة.

شهدت نيكول المهرجانات الثلاثة الأولى رفقة بيير، خاصة عامَي 1980 و1982. عشرة أيام من الذكريات، لمرتين متتاليتين. أجواء احتفالية ومربحة أيضاً. كان متجرهم المتنقل لبيع البطاطس المقلية قد تحوّل إلى ما يشبه المؤسسة القائمة بذاتها في تلك الفترة. في الدورة الأولى للمهرجان، كانت ستيفاني حاملاً، على وشك الوضع، لكنها قضت عطلة نهاية الأسبوع في مساعدتهما بحسب استطاعتها. فيما بذل بيير وباسكال -كأب وزوج حريصين- كلّ ما في وسعهما لإقناعها بالبقاء جالسة على كرسي، وإفهامها بأنّ عطلة نهاية الأسبوع هذه غير مناسبة كموعد للولادة المنتظرة! في نهاية المطاف، ولدت إيميلي أياماً بعد ذلك، في 30 سبتمبر، كما لو أنها تعمّدت الانتظار...

ثم حلت بهم كارثة الإيرباص... وبعدها المحاكمة، وشهد بيير فيترال مهرجاناً ثانياً، عام 1982، قبل أن ينام نومته الأبدية في 7 نوفمبر. ينظم هذا المهرجان حياة نيكول، كرمز جنائزي: خيط واحد، ذرّة ريح واحدة، تفصل الموت عن الحياة، لكن نيكول واصلت -رغم كل شيء- ركن شاحنتها الصغيرة قرب الشاطئ خلال أيام المهرجان العشرة، من دون بيير لمساعدتها. لم تكُن تملك

خياراً آخر، فأكبر إيراداتها المالية كانت في هذا المهرجان، مرة كلّ عامين.

كان مارك وإيميلي أصغر من أن يتذكّرا هذه الفترة، لم يكن المهرجان بالنسبة إليهما سوى كرنفال ضخم ينتظرانه لأسابيع. لم يكن تحكّم مارك بالخيوط سيئاً، هي رغبته في إدهاش شقيقته الصغرى. أهداه أحد الجيران طائرة ورقية على شكل حشرة عملاقة ذهبية حمراء اللون، بذيلٍ طويلٍ مزيّن بالشرائط، وأجنحة ورقية زجاجية شفافة. قرر مارك تسميتها بـ«اليعسوبة»، اللقب الذي واصل البعض مناداة إيميلي به. هم بعض البلهاء من تجار دييب، على سبيل المثال.

أمّا إيميلي فكانت تندفع وسط الجموع ورأسها إلى الأسفل. تركض متنقّلة بين الخيم، لتمرّ على كلّ دول العالم. البيرو، الصين، إثيوبيا، منغوليا، الإكوادور، اليمن، الكيبك، والطائرة الورقية أشبه بخيط طويل يجمع كلّ أطفال الكوكب: لا تحتاج سوى إلى تيار هوائي مناسب، فقط لا غير.

فن تطويع السماء، كدعابة ساخرة فقط.

إلى الأعلى دائماً. بلا ركاب، بلا مسافرين، بلا حوادث تحطّم.

بعد عام 1980، تغيرت نظرة نيكول للسماء ولم تعُد أبداً كالسابق. تبتلع إيميلي آلاف الكيلومترات، اليابان، مالي، كولومبيا، لتعود في النهاية إلى الستروين إتش، بعينين متلألئتين.

كلّ قبائل وأعراق العالم تجتمع أمام ناظريها.

«أرأيتِ يا جدتي؟ أرأيتِ يا جدتي؟».

غادرت نيكول الشاطئ مضطربة. لأوّل مرة هذه السنة ستفوت إيميلي فرصة المشاركة في مهرجان دييب للطائرات الورقية.

دخلت إلى المخبزة، وقد خشيت في أعماقها من أن تضطرّ إلى التعامل مع هراء مماثل لما جرى مع بائع السمك.

كانت على حقّ.

- رغيف خبز يا نيكول؟

- نعم، رغيف خبز، ومعه حلوى سالامبو(*) من فضلك.

- حلوى سالامبو؟ حقاً؟ مارك هنا؟

سالامبو، حلوى مارك المفضّلة، على الأقل عندما كان في العاشرة من عمره. تدرك نيكول أنّ تلبية رغبات طفولة مارك أمر سخيف للغاية، لكن هذا يُسعدها، كما أنّ مارك حفيد لطيف جداً.

ألقت نيكول نظرة على ساعة يدها، سيصل حفيدها بعد ساعتين من الآن. عبرت الميناء الترفيهي بخطوات متثاقلة، متوجهة نحو الجسر المُناقل الذي يفصل حي بولي عن باقي دييب، كجزيرة في قلب المدينة.

تذكرت -رغماً عنها- حوارها مع مارك عبر الهاتف، مظروف ماتيلد دو كارفيل الأزرق واختبار الدي إن أي الذي سلّمته لحفيدها، مع توصية بعدم فتح المظروف.

يا لها من عجوز متصابية!

(*) حلوى سالامبو: حلوى بالكريما والفانيلا والفستق، يعود أصل التسمية لسالامبو أحد أسماء عشتار إلهة الخصب عند الفينيقيين والكنعانيين، وهو الاسم الذي ألهَمَ الروائي الفرنسي المعروف غوستاف فلوبير كتابة رواية تحمل الاسم نفسه، ونشرت عام 1862. (المترجم)

توقفت نيكول بعدما ارتفع الجسر المنقل ليسمح بمرور باخرة صغيرة بعض الشيء، ترفع علماً نيجيرياً، أتحمل موزاً؟ أناناساً؟ أم خشباً مستورداً؟

من تحسب نفسها، هذه الدو كارفيل؟ أتعتقد بأنها الوحيدة التي تملك بُعد نظر؟ أنها الوحيدة التي فكرت في اختبار الدي إن أي؟ أن كريدول غران-دوك أجيرها؟ أجيرها الذي أخذ قطرة من دم إيميلي، هكذا، بهدوء، دون أن يثير ذلك انتباه جدتها؟

امتدّ رتل السيارات أمام الجسر. سعلت نيكول بشدّة، متأثرة بمزيج رائحَتَي البحر والوقود.

هذه الدو كارفيل لم تفهم كلّ شيء! لم يكن غران-دوك بهذه القذارة. لم يفرِّق بينهما. طلب اختباري دي إن أي. مظروفان باللون الأزرق نفسه. مظروف لكلٍّ جدة.

وجهت نيكول ناظريها نحو طائرة ورقية ضخمة، التنين الصيني، الذي تجاوز قمم المباني المقابلة للشاطئ. ابتسمت. يوجد في الدرج الثاني لصوانها المغلق بالمفتاح مظروف أزرق سلّمها إياه غران-دوك. نتيجة المقارنة بين دم إيميلي ودمها، والتي ستؤكّد النتيجة التي توصّلت بها ماتيلد دو كارفيل، وسيحضرها مارك لها بكلّ رصانة.

عاد الجسر المتنقل إلى وضعه الطبيعي، فتحركت السيارات.

سعلت نيكول من جديد.

كانت قد فتحت المظروف عام 1995، وهي تملك الإجابة أيضاً، منذ ثلاث سنوات.

عليها أن تحدِّث مارك بشأن المظروف، هي مُجبَرَة على ذلك. قد يكون بوسعها إنقاذ حياة أحدهم هذه الليلة، سيكون الأوان قد

فات فيما بعد. طبعاً كان عليها القيام بهذه الخطوة قبل الآن، لكن الكلام سهل للغاية.

أيكون الخلاص في جواب كهذا؟

ربما...

شرط القبول بخسارة كل شيء.

- 41 -

2 أكتوبر 1998، الخامسة مساء وإحدى عشرة دقيقة

حاذى قطار كوراي ساحل دو-زامان، ومرّ فوق جسر مانوار-سور-سين السككي بلا إبطاء، ثم تجاوز محطة بون-دو-لارش. لم يشعر مارك حتى ببرودة زجاج النافذة التي ألصق بها جبهته، لكنه اكتفى بإضاءة المصباح الصغير فوق رأسه.

مذكرات كريدول غران-دوك

كانت السنوات الأولى من عقد التسعينيات أشبه بسنوات ميتة. رحلات جديدة إلى تركيا، كندا، القرن الذهبي وشيكوتيمي، ها أنذا أوفّر عليكم مجهود البحث عن بطاقات بريدية قديمة. دون أن أنسى الحج السنوي إلى جبل تيريبل. بقي ناظم مختبئاً بالقرب من الكوخ لعدّة أيام. لكن بلا جدوى!

لا جديد بالمرة. كان ذلك بداية إحباطي النفسي. إن تعلق الأمر بتواريخ محدّدة سأقول بأنه بين عامي 1990 و1992 كانت نهاية السراب بالنسبة لي.

وصلت إلى الطريق المسدود أيضاً فيما يخصّ قضية جورج بلوتييه، المتشرد الذي تبخَّر في الهواء ولا أدري أيّ دوامة ابتلعته. بقيت المكافأة المخصَّصة لسلسلة اليد ثابتة في خمسة وسبعين ألف فرنك.

لماذا سأرفع من قيمتها؟ كنت أعيش تقاعداً ذهبياً، تقريباً.

لم أكُن قد اشتغلت على القضية لما يقارب ثلاثة أسابيع عندما تلقيت اتصالاً من زوران رادجيتش. استمرّ ظهور الإعلانات، ومكافأة الخمسة وسبعين ألف فرنك للسلسلة الذهبية، على صفحات عشرات الجرائد، وبشكلٍ أسبوعي، كانت هذه الجرائد تتوصّل بالمقابل المادي عبر تحويلات مالية أوتوماتيكية.

- كريدول غران-دوك؟

- نعم...

- زوران رادجيتش. لقد قرأت إعلانكم بشأن المكافأة المخصّصة للعثور على سلسلة يد ذهبية مفقودة. أعتقد بأنني أملك بعض المعلومات التي قد تُفيدكم.

هل توقّعتم ردة فعلي؟ كنت حذراً، بعدما وقعت في الماضي في فخّ نصاب تركي، قبل سنوات طويلة، في حياة أخرى.

- هل تعرف مكان السلسلة؟

- نعم... أعتقد ذلك...

كنت متحمساً رغم ذلك. كريدول، لن تسقط في الفخ نفسه مرتين!

التقينا بعد ساعتين في حانة ليسبادون شارع غي-لوساك. طلب كلانا جعة. دلت هيئة زوران رادجيتش على أنه أشبه ما يكون

بنصاب الحي، محتال المنطقة، خادم الشيطان بلا تردد. وجهُ نمسٍ نظرات متملصة، خصلات شعر مثبتة إلى الوراء، ما قد يدفعك للتساؤل حول إمكان تقديمه لأية خدمة.

أيكون هو الشخص القادر على مساعدتي في الوصول إلى الدليل، الدليل الوحيد الملموس؟ سلسلة تمّ العثور عليها في جبل تيريبل قبل اثني عشر عاماً... ويمكن رمي كلّ ما سواها في سلة المهملات، لون العينين، ذوق البيانو، القبر القريب من الكوخ... يكفيني عندئذٍ أن ألتقط هذه الحلية اللعينة بين أصابعي لأحسم القضية: الرضيعة الناجية تُدعى ليز-روز دو كارفيل.

- إذاً؟ قلت، محاولاً التكلم باقتضاب.

- قرأت الإعلان يوم أمس. أنا لا أقرأ الصحف بشكل منتظم. مضى زمن طويل منذ أن أمسكت صحيفة بين يدي.

تلاعب زوران بخاتمه الفضي الذي نقش عليه أول حرفين من اسمه «زد» و«آر». مَن يضع مثل هذه الخواتم الغريبة الآن؟

- و...

أفسحت له المجال ليتابع كلامه.

- هي حكاية قديمة. عشر سنوات تقريباً. 1983 أو 1984 على ما أعتقد. عرضها عليّ شخص ما. لا أخفي عنك بأنني كنت أساعد وقتها بعض مَن يعانون من مشاكل معينة.

يبدو أنني أمام سامري من طرازٍ خاص...

- حسناً، لا أخفي عنك أيضاً بأنني كنت أزوّدهم بالمخدرات، أو لنقل إنني كنت أبيعهم إياها. كان هذا الشخص مدمناً يبحث عن جرعته. لم أكُن أعرفه جيداً. لم يكن معه ما يكفي من المال، لا

شيء. أراد مقايضة جرعته بحلية. سلسلة يد. ذهبية بحسب قوله، وهذا غير مألوف، أليس كذلك؟

تلاعب السامري بخاتمه في استمتاع، كما لو أنّ شيئاً لم يكن، كما لو أنه لا يعلم أنه يتلاعب بأعصابي، أو أنه خبيث فعلاً، محترف، يفعل ذلك عن عمد. يفضّل الإيحاء لمخاطبه منذ البداية أنه محتال يمكن كشفه بسهولة، ما يدفع الطرف الآخر للاعتقاد بأنه أذكى منه، وبالتالي التخلي عن أقصى درجات الحذر معه.

لن أسقط في الفخ مرة أخرى، سأرى إلى أين سيصل بكلامه.

- أعتقد بأنّ اسم الشخص يهمك، أليس كذلك؟

قمتُ بشنّ هجمة مضادة:

- أعرف اسم هذا الشخص. أنا أبحث عن دلائل، سلسلة اليد بالخصوص. خمس وسبعون ألف فرنك ثمن السلسلة، أما الباقي فيمكننا التفاوض بشأنه.

اختفى الخاتم في يد السامري اليمنى بعدما شدّ قبضته بقوة.

- حسناً، أريد أن نلعب لعبة. لا أعتقد بأننا نقصد الشخص نفسه. كم ستدفع للحصول على اسمه؟

عاد الخاتم للظهور، لكن في يده اليسرى هذه المرة. كيف فعلَها هذا المغفل؟

- عشرة آلاف فرنك. قلت. إن كان الاسم صحيحاً...

- أنا لا أتفاوض. ما أدراني أنك لن تتلاعب بي؟ سأعطيك الاسم وما عليكَ إلّا أن تُخبرني بأنه ليس الاسم المطلوب، وبعدها ستغادر المكان، أنا سمسار.

ليس مغفلاً إلى تلك الدرجة.

- حسناً، قلت. معكَ قلم حبر؟

- نعم. . .

- سأكتب الاسم تحت كرتونة جعتي، وستفعل أنت الشيء نفسه. إن كان الاسم نفسه، ستكسب عشرة آلاف فرنك. ثم نكمل. . .

ارتسمت على وجه السامري ابتسامة طفولية. انتقل الخاتم إلى يده اليمنى.

- موافق، تروق لي هذه النوعية من الألعاب.

مال كلانا على كرتونة جعته، حاولنا قدر الإمكان إخفاء ما نكتب خلف اليد اليسرى، كمراهقين في البكالوريا.

لكنها لعبة بعشرة آلاف فرنك.

رفعنا الكرتونتين معاً.

جورج بلوتييه.

في كلتا الكرتونتين.

شعرتُ بما يشبه التيار الكهربائي يسري في مؤخرة قفاي وصولاً إلى كليتي. نحن نتحدث عن الشخص نفسه! جورج بلوتييه الذي أبحث عنه هو الذي عرض سلسلة اليد على هذا المحتال. كلّ شيء في مكانه.

انتبه يا كريدول! همس صوتٌ خافت في داخلي. لا تتسرّع. لقد قضيتَ خمس سنوات وأنت تقلب كلّ أرجاء باريس السفلى بحثاً عن بلوتييه. هذه الأخبار تنتشر بسرعة بين الدروب والأحياء الصغيرة. كلّ مَن يملك معلومات عن القضية في العاصمة يعرف اسم الشخص الذي تبحث عنه، كما أنّ الربط بينه وبين إعلان مكافأة الخمسة وسبعين ألف فرنك سهل جداً بالنسبة إلى أيّ سامري. . .

- حسناً، قلت، لقد كسبتَ عشرة آلاف فرنك، أؤكّد لك بأنّ

كل شيء قانوني، سأحرّر لك شيكاً بالمبلغ... وسأهديك أيضاً هذه الكرتونة كذكرى، مهداة باسم جورج...

قطب جبينه. شيك؟ واضح جداً أنه غير معتاد على هذه النوعية من التفاهمات.

- هل رأيت سلسلة اليد؟

- نعم... كم ستدفع نظير المعلومة؟

- عشرة آلاف فرنك إن كانت تستحق، قلت. هل عندك تفاصيل؟

- سنرى. ما الذي تريد معرفته؟

هذا المتلاعب بخاتمه (الذي انتقل إلى يده اليسرى الآن) يملك موهبة صغيرة كساحر الحي، لكنني أملك بالمقابل ورقة أخيرة في جعبتي. لقد علّمتني السنوات الماضية كيف أكون خبيثاً أيضاً.

- إذا رأيت سلسلة اليد حقاً، السلسلة المقصودة بطبيعة الحال، ستُدرك ما الذي أريد معرفته!

رمقني اليوغوسلافي وعلى شفتيه ابتسامة بلهاء. يصعب عليّ التأكد إن كان يسخَر مني أم لا؛ إن كان يتلاعب بي أم لا، إن كان يحاول إيقاعي في الفخ، أو أنه فعلاً الشاهد المنشود، الوحيد، والأخير، في بحثي هذا.

- عشرة آلاف فرنك إضافية من أجل الدليل؟ ماذا قلت؟ هل يمكنني أن أثقَ بك؟

- أنا منضبط. اسأل عني وستتأكد من ذلك...

اضطرَبَت يدا السامري. لقد أخطأ هذه المرة. سقط الخاتم على الطاولة. كان على أعصابه. أو ربما حاول إيهامي بذلك، الخبيث... أمسكتُ بالكرتونة تحت الجعة وكتبت بقلم الحبر.

ليز-روز. 27 سبتمبر 1980.
بالضبط كما في الإعلان.
دفعت الكرتونة نحوه.
- هذا هو المنقوش على السلسلة، هل تؤكد ذلك؟
فرك اليوغوسلافي يديه، عاد الخاتم إلى موضعه الأصلي في يده.
- اعذرني، لا أملك فكرة عن تاريخ الازدياد، كان ذلك منذ سنوات طويلة، حتى في تلك الفترة لا أعتقد بأنني انتبهت له، أمّا الاسم، فصحيح تماماً...
الحقير! فكرت. حقير آخر يحاول استغلالي...
- ... ولكن، تابع اليوغوسلافي بالنبرة نفسها، لكنني أذكر بأنها لم تكتب بالطريقة نفسها، كانت Lyse مكتوبة بحرف y وليس حرف i.
سرى تيار كهربائي جديد في ظهري. لم يسقط رادجيتش في فخ الإعلان! كتابة الاسم بشكل خاطئ للإيقاع بالنصابين المفترضين.
تمالك نفسك، فكرت.
- حسناً، أنت محقّ. لقد كسبت عشرة آلاف فرنك إضافية. وسلسلة اليد، هل أخذتها من بلوتييه لتلبي رغبته في الحصول على الجرعة؟
كريدول، أعلم... سيكون ذلك رائعاً أكثر من اللازم.
- لو أنني كنت أعلم وقتها بأنّ قيمتها تعادل خمسة وسبعين ألف فرنك لفعلت. لا طبعاً، كان بلوتييه مغفلاً وهو يُريني السلسلة الذهبية، القاعدة معروفة، لا نقود، لا جرعات، أنا لا أتعامل سوى بالمال، هذا كلّ ما في الأمر.

رمقني باستهزاء.

- أو شيك، بطبيعة الحال...

اللعنة!

- إذاً فقد ذهب بلوتييه ومعه السلسلة؟

- نعم...

- هل قابلته بعد ذلك؟

- أبداً. لا أعتقد بأنه كان سيصبر عليّ في حالته تلك...

اللعنة!

حرّرت الشيك بلا ندم. لن تهتم ماتيلد دو كارفيل لأمر العشرين ألف فرنك. ولو أن الشك بقي قائماً. فخّ i التي تحولت إلى y ليس صعب التجنّب على محتال حذر، اسما ليز-روز دو كارفيل وإيميلي فيترال كانا موضوع عدد كبير من المقالات الصحفية في تلك الفترة. ربما كسب زوران السامري عشرين ألف فرنك بقليل من الذكاء والثقة العالية بالنفس.

أمسكت يداه بالشيك الذي تفحّصه بانتباه، ثم نهض شاعراً بالرضا. صافَحني مادّاً اليد التي تحتوي على الخاتم.

- شكراً. مهلاً، تذكرتُ تفصيلاً أخيراً، اعتبره هدية مني.

ارتعدَت فرائصي.

- أيّ تفصيل؟

- تذكّرت الآن. لقد رفضت تسلم السلسلة من بلوتييه لأنها كانت مكسورة، كانت تنقصها حلقة واحدة أو حلقتان.

شعرتُ بأنّ طاولات وكراسي الحانة تدور من حولي. يا رباه! لا أحد. لا أحد، باستثناء ناظم وأنا، يمكنه معرفة هذه المعلومة.

- 42 -

2 أكتوبر 1998، الخامسة مساء وتسع وعشرون دقيقة

كانت هذه المرة الوحيدة التي يحترم فيها قطار باريس-روان موعده بعدما توقف على الرصيف في الخامسة وثلاثين دقيقة بالضبط. سيقلع قطار روان-دييب بعد ثماني دقائق. كان التواصل بين القطارين محسوباً بدقة، لكن تأخّر قطار الكوراي يعني ضرورة انتظار كلّ القطارات الإقليمية لشقيقها الأكبر القادم من العاصمة. سبق لمارك أن أجرى هذا التبديل عشرات المرات مذ بدأ دراسته في باريس. ثمان دقائق كان وقتاً أطول من اللازم. توجّه بسرعة إلى محلٍّ لبيع السندويتشات بعدما أغلق دفتر غران-دوك بحسرة، أمامه زبون واحد فقط. اشترى شطيرة تفاح وقنينة سان بيليغرينو. ستعدّ نيكول وليمة بلا شك، وليمة تعرف هي كلّ أسرارها، لكن هذا لن يمنع مارك من عادة تذوّق أطعمة خطوط القطارات.

كان القطار الإقليمي المتوجّه إلى دييب شبه فارغ. بدا الوضع مقبولاً بعد الازدحام الذي شهده قطار باريس روان. جلس مارك كعادته بالقرب من النافذة، لا وجود سوى لمسافرين اثنين في

المقطورة. مراهق يضع سماعات أذن وشخص نائم محتلاً بجسده مقعدين، بل ربما تجاوزهما أيضاً.

فتح مارك الطاولة الرمادية الصغيرة أمامه ثم وضع عليها حقيبته وأخرج منها دفتر غران-دوك. تنتظره عشرون صفحة لقراءتها قبل أن يحسم رأيه بشأنها. تذكّر رسائل ليلي، أمامه أمسية وليلة ليفكّ كلّ الألغاز.

سمع موظف محطّة واقفاً على الرصيف ويصفر بعصبية.

أدار مارك رأسه بحركة غريزية، فتجمّد في مكانه وقد التصق جبينه بالنافذة كالمصعوق.

إنها هي!

حدجت صاحبة البنية الهزيلة موظّف المحطة بنظرات شريرة، وتحرّكت شفتاها بكلمات نابية، قبل أن تصعد إلى القطار الذي يوشك على الانطلاق.

مالفينا دو كارفيل.

قضى مارك دقائق طويلة مراقباً الأبواب الجرّارة المُفضية إلى المقطورة. يبدو أنّ مالفينا قد اختبأت في مكانٍ ما من القطار، لكنه لا يملك المزاج الرائق للبحث عنها، لن يسمح لنفسه بالوقوع في الفخ مرتين متتاليتين كطفلٍ ساذج. ما يهمّه الآن هو إتمام قراءة الصفحات العشرين.

سيتولى أمر المجنونة، لكن فيما بعد.

تركت زوران رادجيتش في حانة ليسبادون وأنا مسكون بيقين تام: هذا المحتال يقول الحقيقة! وكلّما أعدت التفكير في مجريات الأمور إلّا وتتابعت التفاصيل أمامي بشكل منطقي. كان جورج بلوتييه في ذلك الكوخ عندما شهد تحطم طائرة الإيرباص في جبل تيريبل يوم 23 ديسمبر 1980. كان أوّل الواصلين إلى موقع الكارثة ليجد نفسه أمام الرضيعة الناجية، فانتزعَ منها سلسلة اليد الذهبية قبل قدوم فرق الإنقاذ، كلصٍّ بئيس يبحث عن أيّ شيء ليسرقه.

هل تتابعونني؟ الرضيعة الناجية التي قذفت من الطائرة هي ليز-روز دو كارفيل... هذا يقين قاطع... لكن المشكلة كانت في هذا «القاطع»... فرغم كلّ المظاهر، من الممكن أن يختلق زوران رادجيتش كل ما جرى، وهذا ليس غريباً على محتالٍ مثله قد يحتاج لسنوات طويلة حتى يزين كذبته... هذا يعيدنا إلى نقطة البداية: لا وجود سوى لقرائن، قد تكون قرائن قوية، لكنها مجرد قرائن، لا وجود ليقينيات نهائية...

قرائن... شكوك... بديهيات... نقاط تماس... سموها ما شئتم. لقد رويت لكم كل شيء، تعرفون الآن كلّ شيء عن القضية، مثلي تماماً. تدبّروا أمركم بأنفسكم!

للأمانة، يوجد شيء لم أحدِّثكم بشأنه بعد. لنقل إنه شعور خارجي أكثر من كونه مجرد «شيء». يصعب عليَّ أن أشرح ذلك، هو شعور يفوق مجرد الحديث عن جولة في جبل تيريبل أو تدوين تفاصيل محادثة مع أحد الشهود. ولأكون صريحاً أكثر، فقد توصّلت إلى قناعة مَفادها أنّ كلّ الدلائل التي جرى تجميعها، كسلسلة اليد،

القبر، ملابس البازار الكبير، لا قيمة لها ويمكن رميها في سلة المهملات، الشيء نفسه بالنسبة إلى لون العينين والموهبة الموسيقية.

كانت الحقيقة في مكانٍ آخر، أو بالأحرى، الحقيقة مرتبطة بشعوري الخاص حول علاقة معينة.

مارك وإيميلي.

أعتقد بأنّ الوقت قد حانَ للتطرّق لموضوع علاقتهما الغريبة. المسكينان، كان الأمر خارجاً عن إرادتهما كطفلين صغيرين. هذا ما قرَّرته الحياة لهما.

رغم إرادتها الصادقة، كانت نيكول بعيدة جداً، بعيداً جداً عنهما، أقصد بأنها كانت بعيدة عن مارك وإيميلي أكثر من اللازم، نظراً إلى ظروف عملها نهاراً وليلاً وفي عطل نهاية الأسبوع. مسار الحياة، فارق السن، وعدم وجود أمّ لتربية مارك وإيميلي، لا وجود لأب أو جدّ أيضاً. طبيعي إذاً أن يقترب مارك وإيميلي من بعضهما، رأسان شقراوان، وجهان ملائكيان يصلحان لتصوير الإعلانات، ورغم ذلك كانا مختلفين تماماً...

هيا، سأبدأ الآن، أعلم بأنّ ليلي ومارك سيقرآن هذه الأسطر لذلك سأبذل كلّ ما في وسعي لأكون في مستوى التطلعات. كما أنني سأغادر هذا العالم قبل أن أعرف انطباعهما.

مارك... عينان بلون أزرق سماوي، يخيَّل إليك أنهما تائهتان في آفاق بعيدة، آتيتان مع العصر الذهبي لقراصنة ديبب. عينان قادرتان على الإيقاع بالحوريات. لكنه رغم ذلك محدود الأفق، يحبّ منزله، وحيّه، وأصدقاءه، وجدته... وإيميلي بالخصوص.

يكتفي مارك بحبّ ما يعرفه فقط، حبّ يتراكم مع مرور الوقت،

وبسخاء كبير، سخاء عائلي. مارك المنغلق على نفسه. مارك الخجول. مارك الصموت، تقريباً.

معشوق الفتيات وبعدهن مراهقات الثانويات في دييب. المعشوق اللامبالي. لا هدف لمارك -منذ اليوم الذي عرفته فيه ومنذ أن بدأتُ بمراقبته كمحقق يدقّق في أتفه التفاصيل- سوى تكريس نفسه لخدمة إيميلي، أن يكون شقيقها ووالدها وجدها، كلّ مَن ينقصها، في الآن نفسه. أن يكون واقياً ضد الرياح والعواصف، أن يكون المظلّة التي تحميها.

أن يكون جنّتها الخاصة.

حفظت له إيميلي الصغيرة ذلك، كانت تملأ كلّ ما تقابله بالحياة، أجمَل من كلّ ما يحيط بها، المعامل المغلقة، جدران الآجر والصوان، المجاري المائية. جميلة مثل كلّ ما تبقى، غروب الشمس في شاطئ دييب، الخريف في حديقة آرك. قوس قزح في التلال.

كفراشة تائهة، أو يعسوبة، إن تحرّينا المزيد من الدقة. . .

ضاعفت إيميلي من مساحة منزل فيترال الصغير مرتين أو حتى عشر مرات، فقط بموسيقاها، مقطوعات شوبان أو ساتي، لتحلّق عالياً، أعلى من التلال، ككتلة من السعادة، قبل أن تنفجر في نوبة من الضحك البريء.

حتى عندما تكون حزينة، فإنها تعالج نفسها بالموسيقى.

حشرة تائهة.

مختلفة عن الجميع، متفرِّدة، لكن بلا فخر. لم تكن تتردّد في الصراخ عبر المدرجات مع كلّ سقوط لمارك في ملعب موريس

تومير، أو في ارتداء أحذية رياضية لتجري عشرة كيلومترات، ستة أودية صغيرة بينها مئات الأمتار فارق ارتفاع، دييب-بورفيل-فارنجفيل-بويس.

شمس مشعّة، كنت أذوب أيضاً أمام براءتها، عندما كانت طفلة صغيرة.

كريدول-لا-باسكول.

كانت على وشك فقدان حياتها عندما كانت في شهرها الثالث، لتعوّض ذلك باستغلال كلّ دقيقة من حياتها الآنية دون أن تترك منها أيّ فتات. كما أنها -هي الأخرى- فخورة بمارك، ملاكها الحارس، ملاكها الأشقر...

أدرك مارك ومعه إيميلي أنهما ليسا شقيقين، أو ليسا شقيقين تماماً على الأقل، منذ سنّ مبكرة، أدركا أنهما مختلفان عن الآخرين، انفجر السرّ الذي كتمته نيكول فيترال منذ حصص الاستراحة في الحضانة، الآباء يتكلمون، والأبناء يردّدون، أو يحوّرون الكلام.

ابتكر الأطفال في مدرسة بول-لانجفين لعبة: الركض حول إيميلي بأذرع مفتوحة ورؤوس مطأطئة، مع تقليد صوت المحرّك، والدوران حول أنفسهم كطائرة تهوي ثم تتحطّم على بعد سنتيمترات قليلة منها. كانت تلك لعبتهم المفضّلة: أن ينتهي بهم المطاف ممدَّدين على الأرض تحت سقيفة ساحة اللعب، متظاهرين بالموت.

كان مارك يلعب دور الطيار الحربي الذي يقوم بحماية إيميلي، بلا كللٍ أو ملل، مستغلاً سنتيمتراته الإضافية ليبدو كقرد كينغ كونغ فوق هضبة، يطرد الطائرات اللعينة التي تقترب منهما ويعاقبها، ثم تبدأ اللعبة من جديد.

لم يكن إيميلي ومارك أخوين حقيقيين أبداً، وقد كبرا وهما مكبّلان بهذا الشك.

«يا لهما من عاشقين» كان هذا التعليق الأقلّ قسوة خلال حصص الاستراحة بالمدرسة.

نعم، هما يحبّان بعضهما. هذا واضح للجميع. ولكن ما طبيعة هذا الحب الغريب الذي يجمعهما؟

أعتقد بأنّ مارك قد طرح على نفسه هذا التساؤل منذ بلوغه سن العاشرة. فمنذ ولادته، أو بعد الكارثة إن صحّ التعبير، وهو ينام مع إيميلي في الغرفة نفسها. سرير بطابقين، هو في السرير السفلي، وهي في السرير العلوي. حاولت نيكول مساعدتهما قدر المستطاع: احتفظ مارك بالغرفة التي يتقاسمها مع إيميلي، فيما تتكوم هي في غرفة جدّتها.

تتصرف نيكول وفق ما تسمح به الإمكانات، وقد نجحت في ذلك إلى حدٍّ بعيد.

أي حب هذا؟ هذا ما كنت أقوله.

أعترف بأنني حاولت المضي أبعد من ذلك، فتجسّست عليهما كأيّ باباراتزي محترف، وأعطيت لناظم آلة تصوير تقريبية، في حالة ما إذا...

لم نتوصّل إلى نتيجة. فالمشاعر لا تظهر على الصور.

أيّ حب هذا؟

ربما هما الوحيدان اللذان يملكان الإجابة...

أمّا أنا فلا...

حتى العلم لم يقدّم لي يد المساعدة.

كان ذلك بعد سنوات.

عندما بلغت ليلي عامها الخامس عشر...

اختبار الدي إن أي... اختبار الدي إن أي اللعين...

كنت واثقاً من أنّ ماتيلد دو كارفيل ستطلب مني إجراء الاختبار، ضاربة بمعتقداتها الدينية عرض الحائط، في محاولة لاستنطاق الجينات بما يخالف إرادة الربّ والمعتقد بحسب رأيها. تريد أن تعرف الحقيقة. وهي رغبة بشرية في جميع الأحوال. صبرها طوال هذه الأعوام هو بحدّ ذاته معجزة.

أمّا أنا، فلم أكن سعيداً على الإطلاق، شعرتُ بما يشبه الخوف. ضعوا أنفسكم مكاني، خمسة عشر عاماً من التحقيقات المتواصلة لا تساوي شيئاً أمام ثلاث قطرات دم كعيِّنة اختبار.

يا له من وضع مثير للشفقة! يا لقذارة العلم!

* * *

تراقصت كلمات غران-دوك أمام عينَي مارك.

«أيّ حبٍّ هذا؟ ربما هما الوحيدان اللذان يملكان الإجابة...»

مرَّت تموّجات حقول كوكس أمام عينيه، ومعها الخطوط الكهربائية عالية التوتر لبعض المحطات النووية في الطريق إلى دييب.

«أيّ حب هذا؟»

ما الذي توصّل هذا المحقق العجوز إلى فهمه من خلال تجسُّسه عبر آلة تصوير تقريبية؟ مَن سيفهم ذلك؟

«يا لهما من عاشقين...»

تردَّدت صرخات الأطفال في أذنَي مارك، الشيء نفسه بالنسبة إلى صوت المحرِّك الذي دأبَ الأشقياء على ترديده.

«يا لهما من عاشقين...»

أين أنت يا ليلي؟

فقدَ مارك الرغبة في الاتصال بعيادات جديدة، لا معنى لذلك الآن.

«يا لهما من عاشقين...»

مَن يعرف الحقيقة سواهما؟ مَن يعرف سرّهما؟

لا أحد، لا غران-دوك ولا غيره قام بتدوين ذلك في أيّ دفتر.

حدث ذلك قبل شهرين فقط.

16 أغسطس.

لم تكن ليلي قد بلغت عامها الثامن عشر بعد.

أغمضَ مارك عينيه.

حدث ذلك قبل شهرين فقط.

- 43 -

16 أغسطس 1998، السادسة مساء

يا له من جنون! فكَّر مارك. أن تمارس الجري في شهر أغسطس! كان ذلك نهاية زوال اليوم، ثلاثون درجة مئوية. موجة حرّ نورماندية لا مثيل لها!

لم يدفع ذلك ليلي إلى التراجع. فقد ارتدَت حذاءها الرياضي، وهي جالسة القرفصاء بالقرب من باب المنزل في شارع بوشول، كما لو كانت تملك أجنحة تدفعها للتحليق. تنهّد مارك، ثم ذهب للبحث عن حذائه الرياضي، فيما قالت ليلي بصوتٍ يشبه قرع الأجراس:

- إلى الأمام، أيها الكسول!

قامت بربط خصلات شعرها الأشقر برابط أزرق سماوي، على طريقة ذيل الحصان. يحبها مارك هكذا، عندما تربط شعرها إلى الخلف فتظهر كلّ تفاصيل وجهها وجبهتها، ما يمنحها جمالاً وسموّاً أميرياً. كانت قد أنهت استعداداتها، فبدأت بالقفز أمام الباب نافدة الصبر.

- أسرِعْ!

- حسناً...

أحبَّت ليلي رياضة الجري منذ حصولها على معدّل ثمانية عشر من عشرين في مادة الرياضة بالبكالوريا. كانت تجري طوال فصل الربيع تقريباً، خمس ساعات متواصلة يرافقها خلالها مارك مدرباً.

بدا عصبيّاً وهو يبحث عن الفردة اليسرى لحذائه.

- إن لم تكُن راغباً في المجيء فسوف...

- حسناً... حسناً...

أمسكت ليلي بقنينة مياه معدنية ثم دفعت رأسها إلى الوراء لتشرب منها، فسال خيط من المياه على شفتيها وذقنها وعنقها. أدار مارك رأسه بعدما أشعَرَه مثل هذا المشهد -مرة أخرى- بالاضطراب.

- فردة حذائك هناك خلف السطل...

- شكراً...

انتعل مارك حذاءه بسرعة. كانت ليلي ترتدي ملابس رياضية ماركة سيرجيو تاشيني باللونين الأبيض والبنفسجي. ملابس البطلات الأولمبيات في رياضة الترياتلون. قطع قماش صغيرة لكنها باهظة الثمن. شورت لاصق أشبه بجلد ثان، ولباس علوي لا يكشف استدارات نهديها، لكنه يبرز بالمقابل بطنها المسطحة، وجمال خصرها ولون جلدها الذي تركت شمس الصيف أثرها عليه.

- حسناً، هيا بنا!

تحرَّك مارك بصعوبة.

أكان ذلك شعوراً سيئاً؟ أهي آثار حرارة 16 أغسطس الثقيلة؟ غياب الرياح؟ نبرة ليلي؟ اللعوب؟ المتصنّعة؟

غالباً ما تكون الخطوات الأولى هي الأصعب. تجاوزوا بولي والجسر، تابعا مسارهما عبر الطريق الإسمنتي في الشاطئ، ثم

انطلقا نحو الحدب الجاف، وصولاً إلى القلعة التي جرى تحويلها إلى متحف.

ركضت ليلي أمام مارك الذي يضبط خطواته بحسب سرعتها. مرّا أمام ملعب الغولف، ثم ثانوية أنكو بهندستها الحديثة على الجرف، فلوَّحت ليلي بيدها مودّعة الثانوية، في حركة خبيثة لم يغفلها مارك.

تابعا ركضهما لما يقارب الكيلومتر على الأرض المنبسطة، وصولاً إلى بورفيل، بما يسمح لخطواتهما أن تصبح أكثر اتساعاً. قبل أن يتغيّر المشهد فجأة بوصولهما إلى وادي بورفيل الصغير بمنظره الرائع تحت أشعة الشمس. ضاعفت ليلي من سرعتها هبوطاً. فانشغل عدد من السياح، خاصة الرجال بمراقبة حركتها، مصدومين بظهور هذه الفتاة الشقراء في لباسها الرياضي القصير. وقد نوّمتهم حركة ساقيها العاريتين تنويماً مغناطيسياً، كحركة لسان جرس نحاسي لساعة حائطية. كان مارك أشبه بحارس شخصي. بنظرات ذبابة على مدى ثلاثمئة وستين درجة. كان على وشك وضع يده على كتف ليلي.

كان معتاداً على النظرات الشهوانية التي يرمق بها الرجال ليلي، ولم يمنعه ذلك من الشعور بالغيرة. التهما خمسمئة متر في شاطئ بورفيل بسرعة، ثم وصلا بسرعة إلى حدب فارونجفيل، الأشدّ انحداراً، والمسكون برياح غربية قوية... منحدر تختبئ فيه أجمل الفيلات، لسببين: المنظر الجميل والطقس المناسب... ما يقارب مئة متر فرق ارتفاع!

وجدت ليلي بعض الصعوبة في الركض. فيما تبعَها مارك من دون أدنى مشكلة تُذكر. كان يستهدف بناظريه وادي دولاسي البري

البعيد، متحاشياً في الآن نفسه توجيه بصره إلى الأمام، حيث تحرَّكت مؤخرة ليلي أمام عينيه، متموّجة، متقافزة، حيّة.

يُشعِره ذلك بالاضطراب، ألا تنتبه ليلي لذلك؟ انتهى الساحل بعد منعرج أخير، فضاعف مارك من سرعته وصولاً إلى ليلي، كانا يركضان متجاورين الآن. أدارَت ليلي رأسها نحو مارك. مبتسمة، مشرقة، جميلة.

تصاعدت عاطفة قوية في أعماق مارك. لم يكن ذلك جديداً، لا! لكنها عاطفة أكثر حدّة وقوّة من أيّ وقت مضى. الطريق منبسطة تقريباً، على طول أربعة أو خمسة كيلومترات، وصولاً إلى هدفهما في المقبرة البحرية لفارنجفيل، وهي البلدة المشجرة في ساحل ألباتر وسيجدون هنالك ظلاً يَقيهما الحر. اجتازا عزبة أنكو، ومنتزه الأزهار في موتييرس، مواصلين الركض، وقد بذلت بعض السيارات خلفهما مجهوداً كبيراً في تجاوزهما.

أظهرت ليلي، قبل مائتي متر من الوصول، رغبتها في مضاعفة سرعتها، فسمح لها مارك بالتقدّم لما يقارب خمسة أمتار، وما كان عليه أن يفعل ذلك... سالت قطرات العرق على ظهر ليلي العاري وصولاً إلى خصرها، في مشهد لم يملك مارك أمامه سوى رغبة واحدة: أن يلامس جلدها بشفتيه.

عليه أن يستعيد هدوءه.

زاد من سرعة ركضه، وتجاوز ليلي وهو يضحك، ثم خفَّف من سرعته قليلاً بما سمح لهما بالوصول إلى خط النهاية في الوقت نفسه. جلست ليلي على العشب وقد نال منها التعب، فيما أشاح مارك مرة أخرى بوجهه، مبعِداً ناظريه عن الجسد الممدَّد الذي منح نفسه لأشعة الشمس.

تقدم ليدفع باب المقبرة البحرية فتبعته ليلي بعد بضع ثوان. لم يكونا وحدهما، بعدما وجدا حوالي عشرين سائحاً يتجولون في المقبرة الصغيرة، باحثين عن قبر جورج براك(*) الذي منح زجاجه الملون جاذبية للكنيسة المطلّة على دييب، وكريبيل، وتريبورت، والساحل بكامله وصولاً إلى الجرف الميت في أولت ببيكاردي.

كم من العشاق يحلمون بإقامة مراسيم الزواج هنا؟ في هذه الكنيسة الجميلة المبنية بالحجر الرملي والمعلقة بهذا الفضاء الأخضر، بين السماء والبحر.

مارك نفسه... هل يحلم بذلك؟

طرد تلك الأفكار السخيفة من مخيلته.

- أنعود إليها؟

كان يعلم بأنّ المنحدر لم يكُن بحالة جيدة في تلك المنطقة، سهل التفتيت، ما قد يعني انهياره يوماً ما، ومعه الكنيسة والمقابر.

قد يغرق كلّ شيء في الماء، قبل أن يجرفه المدّ بعد يومين على الأكثر.

شربت ليلي القليل من الماء من صنبور المقبرة، ثم واصلت المسير.

تبعها مارك منصاعاً.

تتابع مرور السيارات أمامهما. كان جانب الطريق الضيق محدداً بمنحدر منبت بعناية، بدا الجري أصعب بكثير الآن. كان مارك مجبراً على متابعة خطوات ليلي وتأمل هذا الظهر الذي غمره العرق، وتلك المؤخرة المستديرة، وزغب عنقها الأشقر.

(*) جورج براك (1882-1963): رسام ونحات فرنسي. (المترجم)

لا يجب عليه أن يتأمّلها بتلك الطريقة.

ولكن لماذا؟

لماذا؟ صرخ ذلك الصوت في جمجمته.

لن يرى شيئاً، سيكتفي بالتركيز على إيقاع دقات قلبه وسرعة خطواته، أن يتحوّل إلى آلة ميكانيكية خالية من المشاعر.

وصلا إلى بورفيل. تتابعت العزبات أمام أعينهما، منافسة بعضها في مدى جمال زخرفها. استدارت ليلي فجأة إلى اليسار، متوجِّهة نحو مضيق بوتي آيلي، الشاطئ الصغير بالقرب من وادٍ صغير، سرّي تقريباً، لا يعرفه سوى قلة... ليس إلى تلك الدرجة في مثل هذا اليوم 16 أغسطس. اقترب مارك من ليلي مرة أخرى ليقول:

- إلى أين؟

تلألأت عينا ليلي.

- مَن يحبني سيتبعني!

استدارت مرة أخرى إلى اليمين، لا وجود لطريق هنا، فقط غابة صغيرة من أشجار الصفصاف. غادراها بعد مائتي متر تقريباً. تجاوزا بركة صغيرة على يمينهما. بدا أنهما قد دخلا إلى مزرعة، تابعت ليلي ركضها بخطوات واسعة.

هبطا نحو الشاطئ عبر منحدر وعر. واصلت ليلي ركضها، وقد حدجتهما بعض الأبقار بنظرات تجمع بين المفاجأة والخوف.

لم يجدا أيّ مزارع. سارت ليلي على طول سياج مكهرب. يبدو أنها تعرف الطريق، فيما بذل مارك جهداً للتركيز أكثر وهو يستعرض في ذهنه الدليل الطوبوغرافي، لقد دخلا إلى مزرعة بان

برولي ثم مزرعة موردال. وهو ما أكّد لمارك هدفهما: ميناء موردال الذي لم يكن يعلم بوجوده سوى عن طريق الخرائط. كان واحداً من تلك الأماكن التي يصعُب على السياح الوصول إليها، ولا وجود لطرق مؤدية إليها كما هو الشأن بالنسبة إلى باقي الشواطئ. كان شاطئاً خاصاً بالقرويين المقيمين بهذه النواحي، وإن بدا واضحاً أنهم لا يضعون فيه أقدامهم أبداً.

وجدا أنّ المنحدر قد انهار على بُعد عشرين متراً من الوصول إلى الشاطئ، فاختلط التراب بمياه البحر، كان عليهما المرور عبر ثقب من عشرة أمتار لم يكن تسلّقه بتلك الصعوبة، وهو الذي يجعل من هذا الشاطئ غير مرئي تقريباً لمَن يُلقي نظرة من الحقل.

انزلقت ليلي فتلطّخت ساقاها الطويلتان بالطين الأحمر، لكنها اعتدلت واقفة على الحصى في فخر وقد غمرها شعور بالانتصار.

تبعها مارك بسهولة، بدأت مياه البحر رحلة الجزر، تاركة خلفها ثلاثة أمتار من الرمال خلف الحصى.

نزعت ليلي رباط شعرها الأزرق السماوي، غطت وجهها خصلات الشعر الشقراء كشلال ذهبي، فارتعدت فرائص مارك.

- ضربة رأس! قالتها ليلي باستياء جميل، كما لو كانت تعتذر عمّا فعلته.

لم يُجِبْها مارك القلق، الذي لم يُغادره ذلك الشعور السيئ.

- هيا، تابعت ليلي. العرق يغمرني! الطقس جميل. هذا أجمل يوم في فصل الصيف!

كانت ليلي على حقّ، ومن وجهة نظر أرصادية على الأقل.

المياه الهادئة. الحرارة. الرمال. الصمت.

وخصوصيتهما.

كيف سيقاوم كلّ ذلك؟

لم تنتظر ليلي جواب مارك. فقد نزعت حذاءها الرياضي ثم انطلقت لتغطس في مياه البحر. كان لباسها الرياضي مصمّما ليتناسب مع السباحة كما الجري. كان مارك يرتدي تي شيرت بألوان نادي تولوز وسروالاً تحتياً من القماش. ألحَقَ التي شيرت بالأحذية الرياضية على الحصى. ستغمر المياه سرواله التحتي. لا بأس.

سبحا بهدوء لما يقارب الساعة.

استعادَ مارك بعض توازنه. غاب جسد ليلي في مياه بحر المانش الرمادية. جرّبا السباحة الحرّة والسباحة على الصدر، جنباً إلى جنب، تغمرهما سعادة كبيرة.

كعادتها، كانت ليلي على حق. لقد استسلما لنزوة لذيذة.

هل تخيّل شيئاً آخر؟

فخ؟

يبدو أنّ روحه المنحرفة هي التي دفعته إلى تلك الخيالات...

غمرته المياه، أطلقت ليلي ضحكة قبل أن ترشّه مرة ثانية، ليردّ عليها. تركته يبتعد، قبل أن تتبعه بحركة رشيقة وتصعد على ظهره لتغمر رأسه في المياه مرة أخرى. لم يقاومها، كما أنّ وزنها لم يكن ثقيلاً للغاية.

استعاد مارك تنفّسه الطبيعي بعدما لفظ المياه المالحة. سبقته ليلي بمترين وهي تضحك.

- لا...

أمسك مارك بساقها، فاحتجت:

- هذا ليس لعباً!

جذبها نحوه، كما كانا يلعبان في طفولتهما في المياه الممزوجة بالصابون في الحمام الصغير. حمل ليلي بيده، كانت خفيفة كريشة. التصقت مؤخرتها بصدره.

- غشاش...

قالتها وهي تضحك.

مدّ مارك يده، ليمسك بذراع ليلي وكتفها، ثم دفعها قليلاً لبضعة سنتيمترات، مستعيناً بوزنه كنقطة ارتكاز. غادر المياه وقد تشبثت ليلي به. التصق صدرها ببطنه، ثم انزلقت أكثر. ليحتك كتفاها ووجهها وعيناها -المغمضتان خوفاً من تسلّل المياه المالحة إليهما- بصدره.

متر إضافي تحت الماء.

التصق وجه ليلي بسروال مارك التحتي، فلامس فمها فخذه بحركة عفوية، تقريباً.

أغمَضَ مارك عينيه في خوف.

انتبها في مرمى بصرهما لسفينة غادرت ميناء دييب، متوجِّهة غالباً إلى نيوهافن. تحرّكت مثلثات بيضاء على أثر السفينة في الماء، قد تكون طيور نورس أو قوارب شراعية صغيرة، يصعب تحديد ذلك من تلك المسافة البعيدة.

لم يتفوّها بكلمة.

سبحا بهدوء وصولاً إلى الشاطئ. كانت الرمال جافة تقريباً. تمددت ليلي على بطنها.

- سأجفّ قليلاً قبل العودة.

تفوهت بتلك الكلمات بصوتٍ منزعج. صوت جديد. صوت أجشّ. صوت شابة تجاوزت مرحلة الطفولة. بقي مارك جالساً، منكمشاً على نفسه، وقد لفّ ذراعيه حول ركبتيه المطويتين، مركزاً نظراته نحو الأفق.

كم استغرق ذلك؟ بضع دقائق؟ بضع ساعات؟

اختفت السفينة منذ وقت طويل، متوجِّهة نحو إنجلترا، كما عادت تلك النوارس أو القوارب الشراعية إلى الميناء. كان البحر فارغاً كصحراء قاحلة.

نهضت ليلي فجأة، صامتة. لم يتبين مارك سوى ظلّها في الرمال. عقدت الفتاة ذراعيها ثم نزعت لباسها الرياضي بأناقة ووضعته على الرمال. وعندما مالت، لم يحتَج مارك ليدير رأسه حتى يرى ظلّ نهديها الصلبين والصغيرين على الرمال، كظلّ نهديّ غيشا.

وكما لو أن ذلك لم يكن كافياً...

مررت ليلي يديها على جسدها. تراقص الظل. انزلق الثوب ببطء، مليمتر تلو مليمتر، ليستقر على الرمال.

كجلد ميت، مترهّل، بلا قيمة.

تأمل مارك الظلّ الأسود الثابت، المصطبغ بملايين الذرات اللامعة. كان الظلّ نفسه، القوام نفسه، الساقين نفسهما، الفخذين نفسهما.

بقيت ليلي ممدّدة على بطنها.

انتظر مارك لدقائق، أو ربما ساعات.

لم يأتِ أحد لإنقاذه، لا قوارب شراعية في الأفق، لا سياح، لا مزارعون.

شعرت ليلي بيد مارك الدافئة أسفل ظهرها وقد جعلتها الرمال الملتصقة بها خشنة قليلاً. ارتعشَت وهي تستدير نحوه.

لمن ستمنح نفسها إنْ لم يكُن هو؟

* * *

فتح مارك عينيه، كان مبلّلاً بالعرق. ظهرت أعمدة أسلاك الضغط العالي عبر زجاج النافذة فتراجع بحركة غريزية سريعة.

هل كان وحشاً؟

شعر مارك بوزن العشرين غراماً لذلك الظرف الأزرق. اختبار الدي إن أي.

هل كانا وحشين؟

سيفتحها ويعرف الحقيقة، وينال الدليل القاطع...

فتح باب المقطورة في تلك الأثناء، ثم دخلت مالفينا دو كارفيل.

- 44 -

2 أكتوبر 1998، الخامسة مساء وتسع وأربعون دقيقة

انهمرت المياه الساخنة على جسد ليلي العاري كالمطر. أغمضت عينيها باحثة عن بعض الصفاء الذهني، أو الهدوء على الأقل. ضغطت بيدها على قطعة الصابون المطهر. فركت جسدها بنوع من الهستيرية: النهدان، البطن، العانة. فانسابت الرغوة البيضاء بلون الحليب حتى قدميها. نظّفت نفسها طويلاً. تبذل كلّ جهدها لتكون نظيفة قدر الإمكان. الواجهة على الأقل، إنقاذاً للمظاهر.

خرجت أخيراً، ملفوفة بفوطة كبيرة بيضاء اللون بلّلتها قطرات من شعرها الرطب. مسحت ليلي المرآة التي غشاها البخار بيدها. أفزعها انعكاس صورتها الضبابية، كما لو أنّ وجهاً غريباً حلّ محلّ وجهها الأصلي. اختفى وهم المرآة مع تصاعد البخار من جديد. نظفت ليلي أسنانها بقوة، بقوة أكبر من اللازم، حتى سالت الدماء من لثتها.

كانت قد تقيأت في مفترق طرق شارع شوازي. مفرغَة على الرصيف كلّ ما في جوفها. الفودكا، السكوتش، التكيلا... التقطها شرطي شاب، وهي بالقرب من مجرى الماء، غير قادرة على

النهوض، أعطاها منديلاً ورقياً فمسحت وجهها وهي بعد منثنية على نفسها، فيما دفعت أم عربة رضيعها مسرعة وهي بالقرب منها. كان بإمكان الشرطي اقتيادها إلى المخفر، لكنها تأمّلته بعينين متلألئتين، عيني ظبية بريئة:

«إنها أول مرة، سيدي الشرطي».

بالكاد مرّ كل شيء بسلام.

تقيأت مرة ثانية قبل نصف ساعة، عندما كانت في الغرفة، على طرف سريرها. لم تعُد قادرة على إفراغ شيء باستثناء معدتها، وهو ما آلمها بشدة.

غادرت ليلي الحمام.

انتظرت الفتاة الممدّدة على السرير المجاور في الغرفة عودتها بفارغ الصبر.

- لقد أتين لتنظيف كلّ شيء في أثناء استحمامك. . .

كانت في السادسة عشرة من عمرها تقريباً، شعرها الأحمر واقف، وأسنانها مصفرة.

- أنت محظوظة نوعاً ما، تابعت الفتاة. أنا أحتفظ بكلّ شيء في داخلي، أشعر أحياناً بأنّ أعماقي قذرة جداً. سأفعل كلّ شيء لأتمكن من إفراغ ما في جوفي مثلك.

لا رغبة لليلي في الكلام، لكن صاحبة الأسنان المصفرة لم تكن تهتم لذلك، هي تبحث عن أذن تسمعها، فقط لا غير.

- هذه ثاني مرة أوجد بها هنا. تابعت بالقول. أنا انتكاسية إذاً! فليذهبوا إلى الجحيم! بالأمس ثلاث ساعات من الثرثرة التي يسمّونها دعماً نفسياً، كم يزعجني هؤلاء المغفلون!

ابتعدت ليلي عنها وبقيت واقفة بالقرب من النافذة. فعبَّرت صاحبة الأسنان المصفرة عن غضبها بالقول:

- تخلي عن غرورك هذا، ستخضعين لذلك أيضاً، سترين.

تأملت ليلي تجمع سيارات الإسعاف في موقف السيارات. كانت قد استبقت دخولها إلى هنا بالتجوّل والسير في جنازة مجهولة في الجهة المقابلة. رمقت ليلي جرس كنيسة سان إيبوليت، فيما عجزت عن تبين ساحة الحضانة التي حجبتها المباني الهوسمانية، كما حجب صوت السيارات العابرة صخب أطفال الحضانة، هذا إن لم يكونوا قد عادوا أصلاً إلى أقسامهم أو منازلهم. لم تعُد ليلي تملك أدنى فكرة عن الوقت. سُحقت روحها وتحوّل جسدها إلى مصدر للعذاب. ما الذي تفعله هنا؟ هل ستكون قادرة على التحمّل طوال هذه الساعات؟

- كنت مثلك أول مرة. . .

اصمتي! صرخت ليلي في أعماقها.

تركت ليلي هاتفها المطفأ في جيبها، معلقاً على المشجب في الحمام. في أعماقها رغبة واحدة، رغبة لا تقاوَم: أن تتصل بمارك! أن يأتي، أن يضمّها بين ذراعيه، أن يحميها، أن يبعدها عن أولئك القذرين المتربصين بها في ساحة المدرسة، كما كان يفعل دائماً.

حسبه أن يكون هنا.

يكفيها أن تُعيد تشغيل الهاتف، وسيأتي مارك في الوقت المحدّد، أينما كان.

واصلت صاحبة الأسنان المصفرة مضايقتها بثرثرتها:

- ليس هذا وقتاً مناسباً للندم على ما فات، لا تأبهي لكل ما

سيعتقده هؤلاء الحقراء بشأنك، سيحاولون تحميلك مسؤولية ما حصل. قاوميهم.

- شكراً، أجابتها ليلي رغماً عنها.

لم تكن قادرة على التفوّه بكلمة إضافية. مفضِّلة تركيز ناظريها على شجرة الأرز أمامها، باحثة عن عصفور أو أيّ علامة حياة، من دون جدوى.

لا، مارك لن يأتي. لن تتصل به. لا مارك ولا غيره سيعثرون لها على أثر. السرية هنا مضمونة على الأقل. لا، لن تتصل به. رغم رغبتها الجامحة في ذلك، وغضبها المتزايد أيضاً. عليها أن تترك مارك وشأنه.

حتى يوم غد، على الأقل.

استدارت ليلي نحو صاحبة الأسنان المصفرة، قد تكون هذه الفتاة قادرة على إسداء خدمة صغيرة لها.

- عندكِ سيجارة...

لم تسمع ليلي الجواب، فقد انفتح الباب لتظهر ممرضة بهيئة شبيهة بهيئة حارسات السجون. تقدّمت داخل الغرفة.

- آنسة إيميلي فيترال؟

- نعم؟

- حان الوقت. الطبيب النفسي بانتظارك الآن.

- 45 -

مكتبة

2 أكتوبر 1998، الخامسة مساء وسبع وخمسون دقيقة

تفرست مالفينا دو كارفيل في ملامح مارك، وقد علت محياها تلك الابتسامة المتفرّدة، ابتسامة طفلة صغيرة منحرفة تنتمي إلى عائلة محترمة، ابتسامةُ قاتلةٍ متسلسلة ابتدعها خيال الكونتيسة دو سيغور. جلست على المقعد الأول للمقطورة، مقابل المكان الذي يشغله مارك.

وجهاً لوجه.

كلّ هذا والمناظر الطبيعية المعتادة لمنطقة دو كوكس تمرّ أمامهما عبر النافذة.

لم يتفاعل معها مارك بأيّ حركة. واضح جداً أنّ مالفينا تحمل معها مسدس الماوزر. كان الانتظار هو الفعل الأكثر عقلانية في ظرفية كهذه. كلّ ما كان يتمناه في تلك اللحظات أن يتمكن من إتمام قراءة مذكرات غران-دوك، أمامه خمس صفحات فقط لإكمالها.

تمالك نفسه مستعيداً في خياله المشهد المخيف لليلي في شاطئ مورفال، متبوعاً بلائحة المستشفيات. ليس هذا وقت تشتيت الانتباه. عليه أن يقرأ الصفحات الأخيرة للمذكرات مع مراقبة مالفينا

في الآن نفسه. . . ثم استغلال أوّل فرصة لتجريد هذه المجنونة من سلاحها.

مذكرات كريدول غران-دوك

أراكم قادمين. لقد قمتم بعدّ الصفحات المتبقية! بدأتم تقلقون، وتطالبون بالحلّ النهائي. لقد حذّرتكم في البداية، لا تنتظروا نهاية سعيدة، أو حركة مسرحية نهائية، أو إصبع هركيول بوارو(*) المشير إلى المجرم الحقيقي في السطر الأخير من الرواية. . . أعلم أنّ تحليلاتي النفسية السوقية لم تعُد تهمّكم. أو ربما أشعَرَتكم بالملل. طيب، انتهينا الآن من أساليب بابا غران-دوك، من تفاعلاته الروحية التي لا تنتهي، وأدلّته التي لا يمكن الإمساك بها. استمعتم إلى نصّي بأدب، لتبقى مسألة واحدة هي الأكثر أهمية بالنسبة لكم الآن: اختبار الدي إن أي! العلم بمعناه الشاسع. معجزة علم الوراثة. اطمئنوا، سأعود إلى هذا الاختبار فيما بعد. لا داعي للقلق. كانت هذه هدية عيد ميلاد ليلي: ثلاث قطرات من دمها بعد بلوغها الخامسة عشرة من عمرها.

اعذروني، إذ يتوجّب عليّ ضبط بعض التفاصيل الصغيرة قبل ذلك. . . فقد تابعت أنا وناظم ملاحقة هذا المدعو جورج بلوتييه بإصرار، المتشرد المدمن على الكوكايين، الذي يتجول وفي جيبه ربما سلسلة يد يقدّر ثمنها بخمسة وسبعين ألف فرنك. . .

(*) هركيول بوارو: شخصية خيالية لمحقق بوليسي، ابتدعتها الروائية الشهيرة أغاثا كريستي. (المترجم)

تمكّن ناظم في النهاية من العثور على جورج، وبما يشبه الصدفة. إذ استغرق الأمر منّا عدّة شهور لإعداد قائمة بجميع المتسكعين الذين لقوا حتفهم بطريقة أو بأخرى. كان ذلك صبيحة يوم ضبابي من شهر يوليو 1993، عندما عرض ناظم الصورة على أحد الحراس في لوهافر، حي دونيج، في ضاحية غريبة محصورة بين مستودعات ومخازن الميناء. تذكّره الحارس بشكل عام، ثم نبشنا في الأرشيف، كان هنالك ملف في مفوضية الشرطة.

في 23 يناير 1991، تمّ العثور على جثة غريق مجهول في حوض للمواد النفطية. كانت درجة الحرارة دون الصفر منذ أسبوع. يبدو أنّ هذا الشخص قد لقي حتفه بعد خمس دقائق فقط من بقائه في المياه المجلدة، وإن تمّ العثور على أكثر من غرامين من الكحول في دمه. لم يجدوا معه أي وثيقة تثبت هويته، لكن رجال الشرطة التقطوا صورة للجثة. يتعلّق الأمر بجورج بلوتييه بلا شك، ممدداً على الغطاء المثقوب، لا يحمل شيئاً في يده، ولم يتمّ العثور على شيء في جيوبه، لا وصية، لا آثار... لا سلسلة يد.

كان الأمر أشبه بجدارٍ في نهاية طريق مسدود.

أخبرتُ شقيقه أوغستين بنفسي، وقد بدا مرتاحاً نوعاً ما، إذ انتهت مسؤوليته الشخصية هنا، ويمكنه قلب الصفحة. أمّا أنا فلا.

لقد مات هذا القذر المدعو جورج بلوتييه في الشتاء، حاملاً سرّه معه. ما الذي فعله في تلك الليلة، هناك في جبل تيريبل؟ ما الذي رآه؟

* * *

أغمضت مالفينا عينيها!

يبدو أنّ تضاريس وتموّجات منطقة دو كوكس قد هدهَدَتها.

أو أنّ الطفلة غير متعوّدة على الرحلات الطويلة، فكر مارك.

جمع بين قراءة دفتر غران-دوك ومراقبة مالفينا دو كارفيل في المقطورة. غالبَت مالفينا رغبتها في النوم منذ دقائق طويلة، تنعس للحظات قصيرة ثم تستيقظ فجأة بنظراتٍ باحثة عن مارك، لكن عينيها مغمضتان منذ ثلاثين ثانية هذه المرة.

اتّخذ مارك قراره، فنهض بلا صوت، متقدِّما نحو الفتاة بخطى ذئب، لا تفصله عنها سوى عشرين متراً. يجب ألّا تفتح عينيها، حالياً على الأقل...

قطع مارك عشرة أمتار. رأس مالفينا مائل -بلا حراك- على المقعد الذي يجمع بين اللونين الأزرق والأصفر، وقد ارتسمت على محياها ابتسامة شبه ملائكية لطفلة متعبة بعد مرح طويل. واصل مارك تقدّمه، متخيّلاً نفسه طفلاً يلعب لعبة «ملك الصمت» في مركز الهواء الطلق بمدينة دييب: عندما كان مطالباً بتحرير أميرته المقيّدة إلى كرسي متجنباً مخالب تنين أعمى، وهو أحد الأطفال معصوبو الأعين، أمّا الأميرة فكانت ليلي بطبيعة الحال.

خمسة أمتار فقط. انحرف القطار قليلاً نحو اليمين. فتحرّك رأس مالفينا لسنتيمترات قليلة قبل استقراره من جديد. فتسمَّر مارك في مكانه كاتماً أنفاسه.

فتحت مالفينا عينيها. أمام وجهه مباشرة. ككُرتين فولاذيتين داكنتين أطلِقَتا من مقلاع.

لم يكُن أمام الفتاة وقتٌ للقيام بأيّ حركة، فقد هاجمها مارك بكيلوغراماته الثمانين في الثانية الموالية، ارتمى عليها بلا تفكير، معتمداً على غريزته فقط، فكتم أنفاس مالفينا بيده اليمنى، فيما شلت يده اليسرى الوحيدة حركة ذراعيها. اتسعت عيناها محاولة تحريك

ساقيها في هياج، دون أن يهتمّ بهما المسافران الآخران على متن المقطورة، المراهق ذو سماعات الأذن، والشخص النائم.

دفع مارك مالفينا نحو النافذة مواصلاً تكبيل حركتها بحزم، بجانبها حقيبة يد خضراء اللون عتيقة الطراز. كانت خطة مارك واضحة وبسيطة للغاية: تجريدها من مسدسها. وبعدها لكلٍّ حادث حديث. . .

واصلَ كتم أنفاسها بيده اليمنى، ملقياً بكلّ ثقل جسده على مالفينا ليمنعها من الحركة، ومفتشاً حقيبة اليد بيده اليسرى.

كانت بضع ثوان كافية، فانتزع مسدس الماوزر إل 110 من الحقيبة، فيما حدجته مالفينا بنظرات نارية. أمسكَ مارك بالمسدس، ثم نزع يده اليمنى عن فم الشابة ببطء شديد.

- تريدين زيارة دييب، أليس كذلك؟

قطبت مالفينا جبينها.

- بلى. أنا أعشق الطائرات الورقية. يبدو أن دييب ستتحوّل إلى محجّ للجميع نهاية هذا الأسبوع.

- أتملكين جواباً لكلّ شيء؟

- هذا رهين بطبيعة الأسئلة. ماذا ستفعل إن أطلقت صرخة قوية؟

- سأتشبَّثُ بكِ. . .

- لن تفعل ذلك؟ لن تلمس شقيقة عزيزتك ليلي؟

- كلّ شيء ممكن. . . أنا أنتمي إلى عائلة فيترال. . .إذاً فأنا شرير. . .

تنهّدت مالفينا، لم تكن ترغب -ظاهرياً على الأقل- في إثارة أيّ انتباه نحوهما.

- أتعلمين أنه قطار المساء الأخير يا مالفينا؟ أتخطِّطين لقضاء ليلتك في دييب؟

- كلّ شيء ممكن... أنا أنتمي إلى عائلة دو كارفيل كما تعلم. بحوزتي أموال كافية لذلك.

- بحوزتك نقود أم لا، هذا لا يهمني، لكنني أحذِّرك، إذا ما قابلتكِ جدتي نيكول فسوف ينتهي بك المطاف جثّة مقطعة لأشلاء تأكلها النوارس...

- متى ستتوقف عن مزاحكَ السخيف هذا؟

تراجع مارك ببضعة سنتيمترات. ضايقه هدوء هذه الفتاة وثقَتها. لو يتمكّن فقط من مواجهة العجرفة التي تُصدرها عبر شفتيها. سيحاول إغواءها حتى تتكلم! كمواجهة مراهقة مزاجية بأسلحتها نفسها قبل انهيارها في النهاية. لامست يده الحرة فخذَ مالفينا، فتراجعت الفتاة بخطوة ليصطدم رأسها بزجاج النافذة.

- كنت تفكرين في إمكانية استضافتنا لكِ... خطَّطت للنوم في غرفتي، أليس كذلك؟

تحرّكت يده إلى الأعلى. صحيح أنه انتقام حقير، لكنه لم يأبه لذلك.

- اعذريني يا جميلتي، لكنني خارج نطاق الخدمة هذه الليلة، أعتقد بأنّ قصدي واضح...

- توقّف، وإلّا سأصرخ...

استقرّت يد مارك على كنزة مالفينا البنفسجية، على بعد سنتيمترات قليلة من نهديها.

- لو أنكِ تحسنين اختيار ملابسك لربما كنتِ أقلّ بشاعة ممّا أنتِ عليه الآن.

- ابتعد عني. . .

تسلل الانكسار إلى نبرة مالفينا، كحائطٍ إسمنتي متصدِّع، فيما أصرّ مارك:

- أقصد أنك كنت ستكونين أكثر إثارة. بقوامٍ ملفوف ونهدين صغيرين جميلين. . .

وضع مارك يده على إحدى استدارتي الجزء العلوي من الكنزة، شاعراً بنبضات قلب مالفينا:

- كما أنك تملكين المال اللازم للحصول على نهدين أكبر حجماً، أليس كذلك؟

تسارعت دقات قلبها. أطبقت مالفينا أصابع يديها على ذراع مارك الأيمن: عشر أظافر مقضومة بشدة، عاجزة وغير قادرة على خدشه.

مال مارك نحوها، متعمّداً محاصرة عنقها بأنفاسه، فشعر بتصلب جسدها لعدة ثوان وإطباق أصابعها المتشنجة على ذراعه أكثر فأكثر، تحوّل جسدها النحيف إلى ما يشبه جذع شجرة ميتة. ثم استسلمت مالفينا فجأة، كما لو أنّ هيكلها العظمي قد انهار مرة واحدة.

مدّ مارك يده مرة أخرى، ثم همس في أذنها قائلاً:

- لا تحاولي لمسي مرة أخرى يا مالفينا! مفهوم؟ لا تحاولي أبداً.

انفتح باب المقطورة فجأة ليدخل أحد مراقبي القطار. مراقِبَة بالتحديد، شابة في مقتبل العمر. مرّت أمامهما دون أن تكلِّف نفسها عناء التوقف، لكنها ألقت نظرة سريعة على جسدَي مارك ومالفينا

المتشابكين. افترّ ثغرها عن ابتسامة، قبل أن تواصل طريقها نحو المقطورة الموالية.

أبعدَ مارك مالفينا عنه، ثم ألصق فوهة المسدس بجسد سجينته.

- انتهى وقت اللعب. ماذا تفعلين هنا؟

- اذهبْ إلى الجحيم...

ابتسم مارك.

- أنت مثيرة للضحك يا مالفينا. تدفعينني للشعور بالإحباط، أنا الراغب في الرفعِ من معنوياتك، كأختٍ صغرى لي.

- أنا أكبر سناً منك أيها الأبله!

- أعلم ذلك. غريب، أليس كذلك؟ يعاملك الجميع على أنك مجنونة خطيرة، لكنني لا أصدّق ذلك.

- الجميع؟ من تقصد؟ غران-دوك؟

- إلى حدّ ما، نعم...

- هذا إن كنت تصدق كلامه...

تمالكت مالفينا نفسها. كان مارك مطالباً بعدم المبالغة في ثقته، فدفعه ذلك إلى الاحتماء بالماوزر.

- من المؤكد أنه لن يذكرك بسوء بعد الآن، رصاصة مباشرة في قلبه... يا له من حلّ جذري! تقتلينه فقط لأنه يكرهك؟

انهار جسد مالفينا للمرة الثانية في أقل من دقيقة، واتسعت عيناها البنيتان بطريقة شبه مؤثرة:

- ماذا تقول يا فيترال؟ أنا... أنا لم أقتل غران-دوك...

استعاد صوتها بعض اطمئنانه:

- كنت أتمنى قتله، لكن بوصولي إلى منزله وجدتُ أنّ أحدهم قد سبقني إلى ذلك...

- أنا لست مغفلاً! لقد عثرتُ على جثته هناك. سيارتك الميني كانت أمام منزله.

اتّسعت حدقتا مالفينا. تحرّكت عيناها كذبابتين خائفتين في حوضٍ زجاجي.

- أقسم لك بأنه كان ميتاً عندما وصلت إلى منزله! لقد دخلت إلى هناك ساعتين قبل قدومك، أضف إلى ذلك أنّ جثته كانت باردة، كما هو الشأن بالنسبة إلى جمر الموقد الذي تمّ دسّ رأسه داخله.

عضّ مارك شفتيه.

إنها على حق.

كان غران-دوك ميتاً منذ ساعات طويلة عندما عثر مارك على جثته، يبدو أن مالفينا صادقة في كلامها، كما أنّ تفسيرها متماسك وذو مصداقية. ولكنه ليس مغفلاً إلى هاته الدرجة حتى يثق بمجنونة كهذه، بعيداً عن كلّ المظاهر الأخرى الواضحة. مَن قتل كريدول غران-دوك إذاً؟ تسلّلت صورة ليلي إلى ذهنه في تلك اللحظة.

- لماذا سأصدّق كلامكِ؟

- أن تصدقني أم لا، هذا لا يهمني...

- حسناً، لماذا ذهبتِ إلى منزل غران-دوك إذاً؟

- أنا عاشقة لليعاسيب، أردتُ الاطّلاع على مجموعته، وأنت أيضاً، أليس كذلك؟

ابتسم مارك رغماً عنه، منتبهاً في الوقت نفسه للماوزر في يده، فيما أضافت مالفينا:

- مَن يدري، ربما قتلته أنت، في نهاية المطاف سيعثر رجال الشرطة على بصماتك أنت، لا بصماتي أنا.

الشريرة! ليست مجنونة إلى تلك الدرجة!

تمتمَ مارك بارتباك:

- أنت... أنت على علم بما حدث؟ يقول غران-دوك في دفتره بأنه كان يفكر في الانتحار، رصاصة في الرأس فوق صحيفة قديمة...

- لا...

تردَّدت مالفينا لبرهة، تعادل مرور القطار عبر ثلاثة أبراج سلكية، قبل أن تقول بإصرار:

- علينا التصديق إذاً بأنّ هذا القذر لا يُحسن التصويب.

كانت تكذب! على الأقل في هذه النقطة!

هل اتصل غران-دوك بآل دو كارفيل قبل اغتياله؟ هل كشف عن تفاصيل جديدة لم يوردها في دفتره؟

- لقد اكتشف غران-دوك شيئاً ما! صرخ مارك. وغالباً أطلع جدتك على اكتشافه. ما الذي رواه لكم؟

- الموت أفضل لي من الإجابة عن سؤالك!

كان هذا أشبه باعتراف صريح... عقدت مالفينا ساعديها أمام صدرها مديرة رأسها ناحية النافذة، كعلامة على أنها لن تضيف كلمة أخرى. كانت النافذة مفتوحة بعشرة سنتيمترات، ما سمح بمرور تيار هوائي خفيف حرّك خصلات مالفينا القليلة التي أفلتت من مشبك شعرها اللامع. وجَّه مارك ناظريه نحو حقيبة يدها.

- حسناً، قال. ما دمتِ ترفضين الكلام... فسوف أتصرّف وحدي.

تسلَّلت يد مارك الحرة داخل حقيبة اليد.

- لا تلمسها يا فيترال!

تلوَّت مالفينا كزمبرك. وقد دفع الهيجان فكّها نحو معصم يد

مارك الممسكة بالماوزر. فم مفتوح، وأنياب متأهبة لتمزيق عروقه. انثنى ذراع مارك، مثبتاً صدر الفتاة براحة يده، قبل أن يدفعها بعنف نحو طرف المقعد.

- أيها القذر، قالتها مالفينا بصوت كالفحيح وهي تتعلق بذراع مارك.

توالت ضربات قدميها الصغيرتين على ركبتي مارك الذي تردَّد في توجيه ضربة قاضية للفتاة، قبل أن يتراجع عن ذلك، مفضّلاً مدَّ ذراعه ومواصلة شلّ حركتها بمسافة كافية. تعلقت مالفينا بسترة مارك، باحثة عن قَرْص، تقطيع، أو تمزيق أيّ شيء، بكلّ ما تبقى لديها من قوة.

قوة لم تكن كافية أمام مارك. لم تكن مواجَهَة متكافئة. فتراخت أصابعها لتجد نفسها مدفوعة مرة أخرى نحو المقعد، ورأسها مقابل النافذة.

تنهد مارك، فيما كتمت مالفينا ابتسامة مبتهجة تحت الخصلات الطويلة المكشوفة لشعرها. إذ انتبهت -في أثناء مقاومتها لمارك- لسقوط ظرف أزرق من جيبه وانزلاقه تحت المقعد. ما عليها الآن سوى انتظار بقائها وحيدة للحصول عليه. قد يكون شيئاً غير ذي أهمية: كشف نقط، فاتورة هاتف... وقد يكون شيئاً آخر...

فتح مارك حقيبتها المغلَّفة بجلد التماسيح.

بإمكان الظرف أن ينتظر، فكّرت مالفينا، المهم الآن ألّا يجرؤ ابن العاهرة هذا على...

- لا تفعَلها يا فيترال!

قالتها في هياج عاجز.

- ماذا؟ ما الذي تخفينه هنا أيتها اللئيمة الصغيرة؟

تفحّصت يد مارك محتوى الحقيبة. مفاتيح، هاتف، أحمر شفاه، محفظة، مغلفة بجلد التماسيح أيضاً، قلم فضي، مفكرة صغيرة...

ارتجفت يدا مالفينا كما لو أنها فقدت سيطرتها عليهما.

شعر مارك باضطرابها، فرؤيتها لهذه المفكِّرة جعلتها أكثر عصبية. في الواقع لم تكن مفكرة، بل مجرد مذكرة صغيرة عادية، طولها عشرة سنتيمترات وعرضها سبعة، لكن مارك أدرك سبب رعب مالفينا، قد يكون دفتر مذكراتها، أو شيئاً من هذا القبيل.

- إنْ فتحتها يا فيترال... فسوف أقتلك.

- قولي الحقيقة إذاً. ما الذي تعرفينه عن غران-دوك؟

- سأقتلك! أقسم لك...

- تحمَّلي مسؤوليتك إذاً.

أمسك مارك بالمذكرة بيدٍ واحدة، كانت كلّ الأوراق متشابهة، ملأت مالفينا الصفحات اليسرى برسوم وصور وملصقات، فيما اكتفت بكتابة ثلاثة أسطر قصيرة في كلّ الصفحات اليمنى، بخطها الطفولي الصغير، كانت أشبه بقصائد قصيرة.

واضح جداً أنه أوّل مَن فتح هذه المذكرة، وأول مَن قرأها. واصلَ توجيه فوهة المسدس نحو مالفينا التي انتظرت هفوة صغيرة منه لتنقضّ على عنقه. توقف اعتباطياً في إحدى الصفحات حيث ألصقت مالفينا صورة ورعة للمصلوب، ولكن مع استبدال رأس المسيح المتوّج بالأشواك، ذي الجسد العاري، برأس شابّ متقد النظرات، قد يكون أحد نجوم شاشة التلفاز ممّن يجهل عنهم مارك أي شيء، قرأ الصفحة اليمنى بصوت خفيض:

سأدلكك بمسبحتي

سألمس جسدك المصلوب

سأمنحك نفسي

- يا لك من متكتِّمة، صرَّ مارك بأسنانه. أهذا ما تفكرين فيه في أثناء تأدية القداس بعد رؤيتك للتمثال الصغير للسيد المسيح؟

صرخت مالفينا:

- أنتَ أكثر بلاهة من أن تَفهم هذا! إنه هايكو. قصائد يابانية. هذا يتجاوز قدرتك على الفهم!

- وجدَّتكِ؟ هل هي بلهاء أيضاً؟ هل يمكنني إرسال هذا إليها في رسالة نصية قصيرة؟

تجهَّم وجهها كطفلة متلبِّسة بارتكاب خطأ ما، لكن مارك قال بإصرار:

- إذاً؟ ستتكلمين أو أكمل القراءة. ما الذي تعرفينه عن غران-دوك؟

- هذا مزعج، أليس كذلك؟

مزّقت أصابع مارك صفحة المذكرة الصغيرة، ثم حولتها إلى كرية ورقية صغيرة، قبل رميها عبر نافذة القطار المفتوحة.

- بلى، معكِ حق، سأكون صريحاً معك، هذه قصيدة رديئة. لنجرب صفحة أخرى. هيا، سنلعب لعبة. سأطرح عليك سؤالي، إذا امتنعتِ عن الإجابة فسوف أقرأ صفحة، وإذا لم تُعجبني القصيدة فسوف أمزّق الورقة، وإذا أعجبتني فسوف أرسلها إلى الجدّة دو كارفيل في رسالة نصية قصيرة.

تصفح مارك المذكرة بأصابعه مطلقاً ضحكة صاخبة، ربما أكثر

من اللازم. كان يحتمي باطمئنان ظاهري، وإن كان يؤلمه تحوّله هذا إلى لصّ معتَدٍ على خصوصيات الغير. انكمشَت مالفينا في مقعدها، كعصفورٍ ضعيف بلا حماية، كلّ صفحة يمزّقها مارك أشبه بانتزاع ريشة جناح.

توالت الصفحات، ليتوقف مارك أمام صورة طائرة إيرباص، جرى تقطيعها ثم إلصاقها بعناية في موقد مدفأة.

عصفور من حديد
ملاك في الجحيم
جسدي

- هذه رائعة، علق مارك.

بلعَ ريقه بصعوبة بعدما شعر بضغط في حلقه، لكنه تحاشى الإفصاح عن ذلك.

- باستثناء السطر الأخير، «جسدي». كان من المفروض أن تُضيفي علامة استفهام يا صغيرتي. هيا، إلى المهملات!

رمى الورقتين عبر نافذة القطار. ارتعدت مالفينا، فيما واصل مارك:

- إذاً، ما زلت مصرَّة على السكوت يا مالفينا؟ ما الذي كنتِ تفعلينه في منزل كريدول غران-دوك؟

- اذهبْ إلى الجحيم!

- كما تريدين...

واصلَ مارك تصفّحه للمذكرة، ليتوقف عند صورة غرفة مخصَّصة للبنات، تم اقتطاعها بلا شك من مجلة للأثاث. وقد

ألصقت مالفينا في الجانب الأيمن للصفحة صورة لبانجو، الدبدوب الضخم بلونيه البني والأصفر. وألصقت صورة أخرى وسط سرير الصورة الأولى، ليلي طبعاً، مرتدية فستاناً، ربما في الثامنة أو التاسعة من عمرها، صورة أخرى قام غران-دوك بسرقتها. . .

بذلَ مارك كلّ ما في وسعه للقراءة بصوت محايد، كان حلقه ملتهباً:

لعب منسية

اشتقتُ إليكِ

هل تخلينا عنك؟

- فيترال القذر، همست مالفينا. لقد رأيتَ غرفة ليز-روز.

- أنا أنتظر. . .

أجابته بإشارة متحدية من أصبعها الأوسط.

رمى الورقة عبر النافذة.

بحثَ مارك عبر الصفحات بانتباهٍ أكبر. كان مجبَراً على انتهاك خصوصياتها بشكلٍ أعمق. توقّفت أصابعه أمام صفحة، قد تكون الأخيرة تقريباً. في الصفحة اليمنى صورة تجمَعه بليلي، من السهل تحديد تاريخها: 10 يوليو 1998، قبل أقل من ثلاثة أشهر تقريباً. كانت ليلي قد توصّلت عندئذٍ بنتائجها في امتحان البكالوريا بميزة جيد! هي ومارك متعانقان بالقرب من شاطئ دييب.

ابتسمَ مارك، يبدو أن كريدول غران-دوك أو ناظم أوزان قد لعبا دور الباباراتزي، نعم، كان يربطهما عقد بآل دو كارفيل. وهذا ما لم ينفِه غران-دوك في مذكراته. فقط وجبت الإشارة إلى أنّ

أصابع مالفينا الملائكية قد تلاعبت بالصورة. لم تكن ليلي هي التي تعانق مارك في الصورة، بل مالفينا، التي ألصقت صورة وجهها على جسد ليلي الرائع في نوع من المونتاج البدائي. رأس ضامر، كما لو جرى تقليصه بواسطة الجيفاروس(*)، مستقراً على جسدٍ آية في الجمال.

قرأ مارك بصوت مضطرب:

عانقي عشاقك بعينيكِ
تأوهي، تمسَّكي بعشاقك
وحيدة، يا لها من لعبة لذيذة

أغمضت مالفينا عينيها. لم تكن سوى فأرة وقعت في الفخ، بلا أيّ ثقب تلجأ إليه. قاومَ مارك رغبته في تسليمها المذكرة والنهوض ثم السماح لها بالذهاب. لم تكن مالفينا سوى ضحية جرى سحقها وسط الصدامات الكبرى التي أعقبت مأساة جبل تيريبل. ضحية بئيسة، مدمَّرة، مثله...

طفل استيقظ صباحاً ليصادف وحشاً أمامه على المرآة. طفلٌ غارق في وحل كريه من الأحاسيس المحرَّمة. يسمع كلمات قاتلة أشدّ فتكاً من رصاص الماوزر الذي واصل الإمساك به:

– وهذه المذكرة، هل أحتفظ بها؟ أم أبعث بها إلى جدّتك؟

غابت عينا مالفينا في حقول الذرة الشاسعة لكوكس، تقضم

(*) الجيفاروس: عملية ترتبط بطقوس سحرية معروفة بين قبائل أميركا الجنوبية، تعتمد على تقليص حجم الرؤوس البشرية للجثث بعد إزالة الجمجمة. (المترجم)

أظافرها كما لو كانت ستنتزع أحدها من مكانه. أمّا مارك فقد واصل كلامه وقد صار حلقه الجاف أشبه بصحراء قاحلة:

- أو ربما سأعرضها على ليلي، ستستمتع بها كثيراً!

شرعت أصابع مارك في تمزيق الصفحة، عندما فتحت مالفينا عينيها وتكلّمت ببطء غريب:

- لقد اتّصل كريدول غران-دوك بجدّتي أول أمس، كان على قيد الحياة وقتئذٍ، أخبرها بأنه عثرَ على شيء ما، اعتبرَ أنه قد يكون حلّ القضية كلها، هكذا قبل خمس دقائق من اليوم الأخير! في اللحظة التي كان يستعدّ فيها لإطلاق رصاصة على رأسه، وأمامه نسخة من ليست ريبوبليكان ليوم 23 ديسمبر 1980! كان بحاجة إلى يوم أو يومين لتجميع الأدلة، وإن أصرَّ على أنه متأكّد من توصّله إلى حلّ اللغز أخيراً، كما طالب بمئة وخمسين ألف فرنك إضافية أيضاً...

أغلق مارك مذكرة مالفينا بهدوء.

- كيف عرفتِ كلّ ذلك؟

- استمعتُ للمحادثة عبر هاتف آخر، أتقن لعب دور المنسية التي لا يأبه لأمرها أحد، بل لنَقُل أني ألعبه بعبقرية...

- هل صدَّقته جدتك؟

- لا أملك أدنى فكرة، لكنها دفعت له المبلغ المطلوب، هي لا تهتمّ لأمر المال، حصل غران-دوك على ما يريد من أموال لثمانية عشر عاماً، يوم واحد أو يومان، لا يهم...

- وأنتِ؟

- أنا ماذا؟

- هل صدَّقتِ غران-دوك؟

قطّبت مالفينا جبينها في تعبير واضح عن الشك:

- وهل ترى أنت بأنّ ما قاله قابلٌ للتصديق؟ أن تعثر على الحلّ هكذا، بضربة عصا سحرية، لحظات قبل الدقات الاثنتي عشرة لمنتصف الليل، أتجد هذا الكلام مقنعاً؟

لم يُجِبْها. ظهرت -عبر النافذة- بساتين التفاح في وادي لاسي بعد حقول الذرة. استدارت مالفينا نحو مارك لتُكمل بصوتٍ هامس:

- ذهبت إلى منزل غران-دوك لمقابلته، لأطالبه بالكفّ عن التلاعب بنا، كلّ شيء انتهى، ليز-روز في الثامنة عشرة من عمرها، السنّ الذي يسمح لها باتخاذ القرار بنفسها. أنت قرأت كلّ تفاصيل التحقيق، وأنا أيضاً أعرف بعض التفاصيل، سلسلة اليد، البيانو، الخاتم... لا توجد أيّ صورة! لقد قلتها أنت أيضاً، هناك في لاغوزغي: ليز-روز هي التي بقيت على قيد الحياة، أمّا إيميلي فقد احترقت في الطائرة منذ ثمانية عشر عاماً، يمكنك قول ذلك لجدّتك، هذا ما تفكر فيه، أليس كذلك؟ وجدّتك أيضاً؟

نعم، هذا ظنّ مارك، كانت مالفينا محقّة على طول الخط.

- وإن لم يكُن أنتِ، مَن قتل غران-دوك؟

- لا أملك أدنى فكرة، هذا لا يهمني.

- جدّتكِ؟ حتى لا تدفع له مبالغ أخرى؟

ضحكت مالفينا باستهزاء.

- مئة وخمسون ألف فرنك؟ ابحث عن غيرها...

صمتَ للحظات قبل طرحه سؤالاً آخر:

- هل أخبر غران-دوك جدتك عن الطريقة التي سيجمَع بها أدلّته؟

- نعم، قال بأنه سيبحث في جبال جورا، في أحد مراقد

دويس، بالقرب من جبل تيريبل، كان من المفروض أن تبعث له جدّتي ببقية المبلغ هناك.

في جبال الجورا؟ حجّ كريدول الموسمي؟ في شهر أكتوبر؟ أيّ سبب لعين دفعه لذلك؟

- لماذا ذهب إلى هناك؟ تساءل مارك. للبحث عن الأدلة التي وعدَ بها جدَّتكِ؟

- كان يسخر منّا! هذا كلّ ما في الأمر.

لم يُجِبْها مارك بكلمة، لكنه نهض، ووضع الماوزر في جيبه بحرصٍ شديد، ثم سلّم المذكّرة لمالفينا.

- لا أحقاد بيننا الآن؟

- اذهب إلى الجحيم!

- 46 -

2 أكتوبر 1998، السادسة مساء وعشر دقائق

عاد مارك إلى مكانه، مرَّ بصمت أمام المراهق الذي يضع سماعات على أذنه والشخص الآخر النائم بعمق. اجتاز قطار روان- دييب لونجفيل-سور-سي، فاختفت أشجار التفاح بعد ظهور طوفان أصفر من الذرة والكولزا، سيصل إلى مدينة دييب بعد أقل من ربع ساعة.

جلس مارك على مقعده وشرب بنهمٍ أكثر من نصف زجاجة سان بيلغرينو. تأكد من وجود الماوزر في جيبه ثم ألقى نظرة نحو آخر المقطورة. بقيت مالفينا منزوية في مكانها بلا حراك. أخرجَ مارك دفتر غران-دوك بعصبية، متّخذاً قراره بإتمام القراءة حتى النهاية. بقيت أقل من خمس صفحات. سارَ كلّ شيء بسرعة. عليه أن يواصل صعود درجات هذا السلم اللولبي إن لم يكن يريد الارتماء في أحضان الجنون، حتى وإن كان يجهل إلى أين سيقوده سلم الألغاز هذا. بإتمامه لقراءة محتوى الدفتر سيجد الوقت للتفكير في ما قالته مالفينا، ذلك المنعطف الأخير الذي أخرجه غران-دوك من قبعته السحرية قبل أن يصمت إلى الأبد.

مذكرات كريدول غران-دوك

سنة 1995، وجّهت إلى ماتيلد دو كارفيل طلبها ببساطة شديدة: مقارنة دي إن أي دم الصغيرة ليلي فيترال بنظيره عند آل دو كارفيل. كنت أملك علاقات في مصالح الشرطة العلمية، كما كانت تعلم بتوطيد علاقاتي بآل فيترال. ضعوا أنفسكم مكاني. كيف سأرفض؟ ليس ذلك سهلاً كما تعلمون، أن يستقبلني آل فيترال مساءً كصديق للعائلة، ثم أضطر صباح اليوم التالي إلى الذهاب إلى آل دو كارفيل لأحكي لهم كلّ ما جرى. كما لو كنت مجبراً على وضع مؤخرتي بين كرسيين إن صحّ التعبير. ولكن لنتجاوز الأمر مرة أخرى، واضح جداً أنكم لا تلقون بالاً لما أعانيه كجاسوس مكتئب، ومعكم كلّ الحق في ذلك!

إن تناوَلنا الأمور من منظور تقني محض، كان من المستحيل أن أقف هكذا بالقرب من حلوى عيد الميلاد وأطلب من إيميلي فيترال أو جدّتها عيِّنة من دمها، كانت خطتي مختلفة، قمت بإهداء ليلي مزهرية صغيرة يسهل انكسارها بين أصابعها، وقد نجحَت الفكرة أفضل بكثير من كلّ توقعاتي. انكسرت المزهرية بمجرد ملامستها ليد ليلي بين إبهامها وسبابتها. جمعتُ قطع الزجاج المتناثر بارتباك ثم رميتها في سلة المهملات، باستثناء قطعٍ قمت بدسها في كيس من البلاستيك في جيبي.

لعبة أطفال، لم يرَها ويعلم بأمرها أحد.

توصلتُ بنتائج المختبر أياماً قليلة بعد ذلك، لو قلت لكم بأنني شعرت بتأنيب الضمير لسخرتُم مني، لكنني أشير إلى ذلك فقط

لأشرح سبب طلبي نسختين من النتائج من الشخص الذي تربطني به علاقة ويعمل في المختبر العلمي. اختبار واحد، وظرفان. ظرف لماتيلد دو كارفيل، وآخر لنيكول فيترال، لأسلِّمهما الظرفين الأزرقين مباشرة.

التعادل.

هما يعرفان الحقيقة منذ ثلاث سنوات، لقد قالَ العلم كلمته!

وهكذا! يمكنني التوقف عند هذا الحد، والقول بأنني سلَّمت الظرفين للعائلتين وانتهت القصة، مع السلامة، دبّرا أموركما أيتها الجدَّتان!

لكنني لستُ ملاكاً. لا، بطبيعة الحال، لم أقاوم ذلك الإغراء. نعم، لقد اطَّلعت على النتيجة. خمس عشرة سنة من التحقيقات من دون التوصّل إلى أيّ نتيجة مقنعة. قمتُ بالانقضاض على ورقة النتائج كما ينقضّ محكوم عليه بالسجن على عاهرة بعد الإفراج عنه...

نعم، كان التشبيه صحيحاً، فهذه النتيجة كانت هي الأخرى عاهرة.

القول بأنّ هذه النتيجة قد فاجأتني سيكون أشبه بمَن يتعمّد تلطيف تعبيره منعاً للتفوّه بأيّ كلمات نابية. لقد سقطتُ على مؤخرتي بين المقعدين، كما لو أنّ أحداً هناك في الأعلى، الإله أو حتى عذراء جبل تيريبل، يواصل الاستهزاء بنا.

أعتقد بأنّ نتيجة الاختبار هي التي قذفت بي لا محالة إلى بئر الاكتئاب، إلى حفرة بلا قرار. نتيجة مبهَمَة، مضحكة، تضرب كلّ هذه السنوات من البحث عرض الحائط.

ولكنني بقيت مخلصاً رغم ذلك، ومنذ 1995، ككلب بوليسي عجوز ووفي. واصلتُ البحث بمشقّة، وبوتيرة متباطئة. فقَدَ ناظم حماسه مع مرور الوقت، كان يتدبّر أمره منشغلاً ببعض الملفات غير القانونية، كما كان يساعد آيلا في محلّها في شارع راسباي.

كان حجي الآخر إلى جبل تيريبل في ديسمبر 1997، ها أنذا أطلعكم الآن على القطعة الأخيرة من البازل، وإن لم تكُن الأقل إثارة للقلق... كما ستحكمون على ذلك بأنفسكم...

كنت في الطريق إذاً إلى حجي الأخير في جورا. كنت أخطِّط للاستمتاع بلذّاتي حتى آخر رمق: كانكوايوت(*) وخمر أربوا الذي تقدّمه مونيك جينيفيز. ثم البحث بين الأعشاب، انتزاع آخر الأغصان، قبل الغرق الأخير. كان حجي الأخير، في انتظار معجزة لم تقَع أبداً.

جاءتني الفكرة الأخيرة أثناء قضائي الليلة في المأوى. ولن يفهم أحد لماذا، ربما لأن الأمر تطلب اثنين وستين سنتيلتراً من النبيذ الأصفر حتى أمتلك الخيال اللازم. كانت ماتيلد دو كارفيل مُحقَّة عندما منحتي ثماني عشرة سنة مُهلة للتحقيق في القضية. واضح جداً أنها قد فهمت أنني أستغرق وقتاً طويلاً في الاسترخاء. صعدت صباح اليوم الموالي إلى جبل تيريبل ومعي مجرفة وكيس مهملات كبير. قمت بالحفر بالقرب من الكوخ كالملعون، وفي موقع القبر نفسه، ساعة كاملة، عشرة كيلوغرامات من التراب! من دون انتقاء أو ما شابَه، آخذاً كلّ ما تُظهره المجرفة، ثم حملتُ كلّ ذلك

(*) كونكوايوت: جبن فرنسي. (المترجم)

في الكيس على ظهري كسجين محكوم عليه بالأشغال الشاقة، فتولى غريغوري الوسيم العامل في المنتزه الطبيعي أمر إيصالي إلى السفح بواسطة سيارته رباعية الدفع، ثم لطخت صندوق سيارة البي إم دبليو الخلفي بمحتوى الكيس وأنا عائد إلى روزني سو-بوا لتسليم المحتوى إلى صديقي العامل في الشرطة العلمية.

لا داعي لإخباركم بمدى استغرابه لهذا التصرف، عشرة كيلوغرامات من الأتربة لتحليلها بواسطة المجهر! للبحث عن ماذا؟ أتكون تلك آخر نزوة لعجوز خرف؟

كان الصديق المعني بهذا الكلام -واسمه جيروم- ربّ أسرة، رُزق قبل فترة قليلة بطفلٍ ثالث، كما اشترى منزلاً في باندوفل بتقسيط مدّته عشرون عاماً: لم يتردّد كثيراً أمام الظرف الممتلئ بالأوراق النقدية التي تعادل ضعف راتبه طوال فصلٍ كامل من العمل كموظف في الشرطة العلمية، هو الذي جرى توظيفه بشهادة الدكتوراه، فيما لا يعادل راتبه ربع راتب طبيب. قد يستغرق الأمر منه ساعات طويلة، لكنني لم أكُن مهتماً بذلك.

اتصل بي بعد أسبوع واحد فقط:

- كريدول؟

- نعم؟

- لقد تقمّصت دور البستاني كما أردت. هل تريد كشفاً عن حمضية التربة، نوعية التربة، وكل هذه التفاصيل؟ ما الذي تخطّط لزراعته فيها؟

- اختصِرْ يا جيروم.

- حسناً، هذه كومة من التراب يا كريدول، لا شيء سوى التراب.

تردَّد قليلاً قبل قول «لا شيء»، فاحتفظت ببعض الأمل. «ساذج» كاسمي «كريدول» حتى النهاية.

- لا شيء آخر؟

- نعم... ولكننا سنمرّ هنا إلى التحاليل الأكثر دقة. لا يمكن تقديم نتائج موثوقة...

- تكلّم...

- ما دمت مصرّاً... لقد عثرت في التربة على آثار عظام، فتات أشبه بالغبار إن صحّ التعبير، غرامات قليلة، وهذا أمر طبيعي في غابة كهذه، ما التربة سوى تراكمٍ لبقايا مع مرور السنين...

بقيت مصرّاً، أعلم أنّ جيروم لارشي هو أفضل خبير في مجاله، كما أنه يتوفّر على أفضل المعدات في فرنسا بكاملها.

- عظام ماذا يا جيروم؟

- قلت لك بأنها بضع غرامات فقط يا كريدول، وهو ما لا يكفي علمياً للجزم بأيّ شيء...

- حسناً، هذا من الناحية العلمية، وأنت، ماذا تقول؟

كان جيروم لارشي متردِّداً:

- تريد معرفة حدسي؟ حسناً، لكنني أحذرك بأنني لن أضمن هذا في تقريري. حدسي يقول بأنها عظام بشرية وليست عظاماً حيوانية.

اللعنة!

عظام بشرية!

كان عليّ أن أعتصر جيروم أكثر، فقد شعرتُ بأنه لم يقُل كلّ

شيء بعد، كان على علم بطبيعة التحقيق الذي أعمل عليه منذ سنوات.

- هل يمكنكَ تحديد عمرها يا جيروم؟

- هذا مستحيل... لا يمكنني سوى تحديد نطاقٍ يفوق عشر سنوات على الأقل، وهذا لن يفيدك في شيء.

- أقصد عمر الكائن البشري المدفون، لا مدّة دفن العظام يا جيروم.

صمت طويلاً، وقد شعرتُ بأنّ التتمة لن تكون لصالحي.

- كريدول... هذا ينقلنا إلى نطاق غير موضوعي، مجرد ارتجال...

- تجاوز هذه المقدمات السخيفة يا جيروم...

- حسناً، حسناً، أعتقد بأنها عظام كائن بشري صغير السن...

انزلقت قطرات عرق باردة على ظهري.

- ماذا تقصد بصغير السن؟

- أعتقد...

- طفل؟

- تجهّز للمفاجأة يا كريدول.

بدا كما لو أنّ جمجمتي قد حوصرت في آلة لتعديل المعادن، وكانت كلّ كلمة جديدة أشبه بدقّ مسمار جديد فيها:

- ماذا تقصد يا جيروم؟ رضيع؟ عظام ملعونة لرضيع بشري؟

- أنا أعمل بشكلٍ متواصل كما قلت لك، الدقّة هنا منعدمة، لكنني شبه متأكّد من أنها عظام رضيع بشري.

اللعنة!

ماذا كنتم ستفعلون مكاني؟ أن تتوصّلوا إلى هذه المعلومة بعد ثماني عشرة سنة من البحث! كونوا صادقين، ماذا ستفعلون؟ إن لم يكن سوى الإقدام على الانتحار بإطلاق رصاصة على الرأس؟

يمكنكم تجاهل الأشهر الثمانية الأخيرة، كما هو الشأن بالنسبة إلى العشرة أيام الماضية التي قضيتها في كتابة محتوى هذا الدفتر. ها نحن الآن في 29 سبتمبر 1998، إنها الحادية عشرة مساء وأربعون دقيقة. كل شيء في مكانه. انتهى كلّ شيء في مكانه. ستبلغ ليلي عامها الثامن عشر بعد دقائق قليلة. سأعيد قلم الحبر إلى جرابه أمامي، ثم أجلس خلف المكتب، وأفرد نسخة من ليست ريبوبليكان ليوم 23 ديسمبر 1980، عدد هذا اليوم المشؤوم، ثم سأطلق رصاصة على رأسي بهدوء تام. سيسيل دمي على الورق المصفرّ للجريدة. لقد فشلت في مهمتي...

سأكتفي بترك هذا الدفتر الوصية، لليلي، ولكلّ مَن يريد الاطّلاع عليه.

لقد أحصيتُ في هذا الدفتر كل الأدلة، كل الآثار، كل الاحتمالات. ثماني عشرة سنة من التحقيقات. كل شيء مدوَّنٌ في هذه الصفحات المئة. إذا ما طالعتموها بتمعّن ستعرفون كل شيء، وبقدر معرفتي نفسها. ربما ستكونون أكثر ذكاء؟ ربما ستتبعون وجهة أهملتها أنا؟ ربما ستعثرون على مفتاح اللغز، إن كان موجوداً أصلاً؟ ربما...

لمَ لا؟

انتهى كل شيء بالنسبة لي.

من المُبالغ فيه القول إنني لا أشعر بأي ندم أو تأنيب للضمير، لكنني بذلت كل ما في وسعي.

* * *

الكلمات الأخيرة، فقد كانت الصفحة الموالية بيضاء فارغة.

أغلق مارك دفتر غران-دوك ببطء شديد. أفرغَ ما تبقى من قنينة سان بيليغرينو في جوفه. سيدخل القطار إلى محطة دييب بعد خمس دقائق. وبمفعول يكادُ يطابق مفعول السحر، استيقظَ ذلك الشخص، فيما نزع المراهق سماعات أذنه.

شعرَ مارك بأنّ عقله يدور في الفراغ، كعجلةِ دراجةٍ خرجَت عن مسارها، كان بحاجة إلى بعض الوقت للتفكير، والحديث مع جدّته نيكول قبل كلّ شيء، إذاً فقد تسلّمت هي الأخرى نتيجة اختبار الدي إن أي، وتعلم منذ ثلاث سنوات بأنّ ليلي ليست حفيدتها. كان ذلك منطقياً، وربما اعترفت بذلك في أعماقها، عندما سلّمتها خاتم اللازورد الأزرق اللامع.

لقد بقيت ليز-روز على قيد الحياة، فيما توفّيت إيميلي في الحادث. هذا هو اليقين الواحد. أما البقية...

مَن حفرَ قبر جبل تيريبل؟ هل دُفنت سلسة اليد هناك؟ كلب؟ رضيع بشري؟ توالت الأسئلة داخل جمجمته الجافة. كلها أسئلة لم يتوصّل غران-دوك إلى إجابتها. مَن قتله؟ أية حقيقة تلك التي يعمل القاتل على إخفائها؟ مَن قتلَ جدّه؟

أين هي ليل...

مزّق الصراخ صمتَ المقطورة.

كانت صرخة شيطانية.

مالفينا!

نهضَ مارك بسرعة قبل أن يجد الشخص الذي كان نائماً الوقت لإصدار أيّ ردة فعل. كانت مالفينا منكمشة في مقعدها، وقد اهتزّ جسدها النحيل المرتجف. مدَّت يدها المفتوحة كمنتحرة أقدَمَت على قطع شرايينها.

ركَّزت مالفينا ناظريها على مارك كما لو كانت تبحث يائسة عن المساعدة، كما لو أنّ يدها المفتوحة كانت لمتسلِّق جبال يمدّها لرفيقه، لحظات قليلة قبل السقوط.

خفض مارك بصره، ليجد تحت أصابع مالفينا المرتجفة ظرفاً أزرق ممزّقاً وورقة بيضاء مُلقاة على المقعد.

فهم مارك بسرعة. يبدو أنّ الظرف قد سقط منه في أثناء شجاره مع الفتاة التي لم تقاوم رغبتها في الاطّلاع على نتيجة اختبار الدي إن أي. لم تكن تعلم بالحقيقة، لم تُطلِعها جدّتها على شيء. لماذا كلّ هذا العته إذاً؟

التقط مارك الرسالة المكتوبة التي تحمل شعار الشرطة العلمية في روزني-سو-بوا بعصبية. لا يتجاوز المحتوى ستة أسطر فقط.

بحث عن رابط الأبوة

بين إيميلي فيترال (العينة 1، 95-233)
وماتيلد دو كارفيل (العينة 2، 95-234)

بين إيميلي فيترال (العينة 1، 95-233)
وليونس دو كارفيل (العينة 3، 95-235)

بين إيميلي فيترال (العينة 1، 95-233)

ومالفينا دو كارفيل (العينة 4، 95-236)

وتحتها أسطر... صادمة:

نتائج سلبية.

لا وجود لأي روابط أبوية ممكنة.

نسبة الدقة: 99,9687 في المائة.

سقطت الورقة من بين يدي مارك.

لا روابط دموية بين ليلي وآل دو كارفيل.

لقد توفيت ليز-روز، فيما بقيت إيميلي على قيد الحياة، ويملك معها الجينات نفسها، الوالدين نفسهما، الدماء نفسها، رغماً عن كل اليقينيات السابقة، رغم كلّ ما أملاه عليه قلبه، لم تكن تلك الرغبة تجاه شقيقته سوى إثارةٍ ملعونة وفاسدة، سِفاح محارم بعبارة أخرى.

- 47 -

2 أكتوبر 1998، السادسة مساء وثمان وعشرون دقيقة

تجوّل مارك بالقرب من ميناء دييب الترفيهي سائراً بخطى بطيئة. تبعُد محطة القطار عن شارع بولي بما يقلّ عن كيلومتر واحد. وجد فوقه طائرة ورقية مجسّمة على شكل تنين صيني قبيح الشكل، كما لو أنّ هذا المخلوق قد مزّق السحب آتياً بنيّة ازدرائه هو وحده، مضيفاً لمسته الخاصة إلى الوضع المجنون الذي يعيشه.

سرَّع من وتيرة مشيته وفي ذهنه فكرة واحدة، أن يكلِّم جدته. لم يستطِعْ نسيان نتيجة اختبار الدي إن أي. هو وليلي متطابقان جينياً! لكن يقينياته ومشاعره الداخلية تعارض هذه النتيجة بشكلٍ تام. ما قيمة هذه الورقة، وهذا الاختبار العلمي أمام حقيقة ما يشعر به في أعماقه؟

لا!

ليلي ليست شقيقته!

أمامه يخوت قديمة مستقرة فوق سطح بحر ميناء دييب، كانت ممتلئة، فمهرجان الطائرات الورقية يشهد الكثير من الأنشطة التي قد لا تكون مألوفة في المدن الفلامندية. تباطأت مشية مارك بعد وصوله

إلى الجسر العابر الذي يربط جزيرة بولي الصغيرة بباقي المدينة. كان قد ترك مالفينا في مقصورة القطار، منكمشة على نفسها في مقعدها، مكتفياً بالتقاط كشف مختبر الشرطة العلمية ثم وضع الورقة في جيبه. لم تُصدر مالفينا أيّ ردّ فعل، بعدما تجمّدت في وضعية شبيهة بوضع الجنين.

امتدت صفوف الانتظار أمام المطاعم، لم يأبه مارك لذلك وهو يجاهد لمغالبة الغضب الشديد المتصاعد في أعماقه.

لا!

ليلي ليست شقيقته!

لقد أخطأ غران-دوك لا محالة، ربما خلط بين العينات التي سلّمها للمختبر، أو أنه لم يقُل الحقيقة، أو أنها محاولة من ماتيلد دو كارفيل للتحكّم بكل شيء، ربما سلّمته تقريراً مزوّراً! أو أنّ الجميع يقولون الحقيقة، ولا علاقة دموية تربط ليز-روز بآل دو كارفيل، قد تكون طفلة متبنّاة لم يكن ألكسندر دو كارفيل والدها الحقيقي، فظروف ولادتها في تركيا بقيت غامضة. وقد عبّر غران-دوك نفسه عن شكوكه بهذا الشأن خلال الشهور الأولى للتحقيق. الحديث هنا عن مؤجّر الزوارق المدوسة، ذي العينين الزرقاوين...

تجاوز الجسر تاركاً على يمينه حانة بولي، ثم دخل إلى حي بوشول. صارت عودته إلى دييب تتمّ على فترات متباعدة، ربما مرة واحدة في الشهر، خصوصاً بعدما لحقت به ليلي لتتابع دراستها في باريس. منزله هنا، أمامه مباشرة، بواجهة من الآجر والصوان شبيهة بخمسة عشر منزلاً مماثلاً في الحي نفسه. تشغل السيتروين طراز إتش البرتقالية والحمراء معظم مساحة الحديقة، التي بدت كما لو أنها قد

نبتت حول الشاحنة الصغيرة بإحداثيات مضبوطة. انتبه مارك لعلامات الصدأ في الواجهتين الأمامية والخلفية، حدبة البوابة والخدوش السوداء للمركبة العتيقة، إذا استثنينا إخراج الشاحنة الدوري من الحديقة، فمتى استخدمت هذه الشاحنة آخر مرة؟ يبدو أن للأمر علاقة بعدم مطالبة أحد بالحق في اللعب في الحديقة الصغيرة.

ضغط مارك على الجرس ففتحت نيكول الباب بسرعة. غمرته حرارة جسد جدّته الممتلئ. عانقته طويلاً وبقوة. كان من الممكن أن يضايقه ذلك في ظروف أخرى، لكن الوضع الآن مختلف للغاية، وهو ما أدركه كلاهما على الفور. أطلقته في النهاية لتقول:

- هل أنتَ بخير يا مارك؟

- بخير...

لم يكلّف مارك نفسه عناء إضافة كلمة أخرى. ركّز نظراته على البهو الصغير وقد خيِّل إليه أنه يزداد ضيقاً بين كل زيارة وأخرى، وربما يزداد ظلمة أيضاً. ما زال بيانو هارتمان ميلونجا في موضعه السابق، بين الأريكة والتلفاز، وقد علاه الغبار ووضعت فوق لوحة مفاتيحه كومة من الأوراق والفواتير والإعلانات والصحف والمنشورات، لا مكان لكلّ هذا في موضع آخر، لمَ لا يتم وضعها على هذا البيانو الذي لم يعُد صالحاً لشيء؟

كانت مائدة الطعام معدّة: صحنان، منشفتان من الكتان الخام، وزجاجة من السدر الأكار(*). جلس مارك على المقعد، فيما تنقلت

(*) السدر: خمر التفاح. (المترجم)

نيكول بين المطبخ والبهو، تنقلات قصيرة لا تتجاوز خمسة أمتار. أحضرت سمكتي موسى قامت بإعدادهما على طريقة أهل دييب بالكريمة وصلصلة بلح البحر والقريدس. طباخة ماهرة كعادتها. أثّثت نيكول النقاش أيضاً بطرحها أسئلة وأجوبة في الآن نفسه حول دراسة مارك ومستقبل ميناء دييب والمنشورات التي يتوجب عليها توزيعها، ورئتيها المريضتين وميزاب المنزل المثقوب («مارك، قُمْ بإلقاء نظرة عليه، إن أمكنكَ ذلك. . .»). كلّ هذا بنوع من الحماس المضاعف، كأيّ جدة يجمعها النقاش بأقاربها بعد أسابيع طويلة من الصمت. اكتفى مارك بإجابات مقتضبة. تأمّل الغرفة بعينيه ليعود ناظراه في كلّ مرة إلى المكان نفسه فوق البيانو بعدما لاحظَ وجود ظرفٍ أزرق بالقرب من كومة الأوراق. ظرف مشابه لذاك الذي تسلّمه من ماتيلد دو كارفيل ودنّسته مالفينا. هدية غران-دوك المسمومة. إذاً فقد أعادت نيكول إحياء هذا الظرف الذي دفنته في الأدراج السرية لذاكرتها منذ أزيد من ثلاث سنوات. . .

مَن سيجرؤ على فتح الموضوع أولاً؟

كانت نيكول تتحدث عن أحد الجيران ممّن يعانون في المراحل الأخيرة من المرض، فيما انشغل مارك بالتفكير، إذاً فجدّته تعرف الحقيقة منذ ثلاث سنوات، وتملك الدليل أيضاً. لقد بقيت إيميلي على قيد الحياة، كانت هي حفيدتها التي قامت بتربيتها طوال هذه الأعوام. انتصرت نيكول على طول الخط، وربما أهدَت خاتم اللازورد اللامع لليلي شفقة على ماتيلد دو كارفيل، كما تفعل بمنحها قطعاً نقدية للمتسوّلين في الشوارع. . .

خلّف انحطاط آل دو كارفيل إلى مرتبة المتسولين مقارنة بسخاء جدّته ورحمتها مشاعر متضاربة في أعماق مارك. سكنته صورة مالفينا

خائرة القوى في القطار الإقليمي السريع، هناك في محطة دييب.

قدّمت له نيكول قطعة من الجبن كتحلية، وهو ما دأبت عليه منذ زمن طويل، قبل أن تضع على صحن مارك بافتخار قطعة من حلوى سالامبو. قطعة مقزّزة بلونها الأخضر وقطع الشوكولاتة التي تزينها! لم يعُد مارك يحتملها منذ بلوغه سن الثانية عشرة، لكنه لم يجرؤ على الاعتراف بذلك أمام جدته. هي أرخص أنواع الكعك... أكل القطعة بأدب، عادت نيكول للحديث عن تلك المنشورات والبلدية والميناء التجاري. لم يكن مارك منتبهاً لكلامها، بعدما ثبَّت ناظريه على صورة والديه، باسكال وستيفاني، وهي صورة مؤطرة استقرّت فوق المدفأة. صورة حفل زفافهما في كنيسة نوتر-دام-دو-بون-سوكور وقد ألقيت عليهما كميات كبيرة من حبات الأرز. اعتاد مارك على هذه الصورة، في المكان نفسه، معلقة بمسمار على حائط، كانت رمزاً دائماً للسعادة.

أحضرت نيكول القهوة الساخنة في إناء ثم صبّتها في فنجانين، قهوتها هي بلا سكر. كانت هي صاحبة الخطوة الأولى. خطوة صغيرة.

- هل لديك أخبار جديدة عن إيميلي؟

- لا... إلى حدّ ما.

تردَّد مارك قبل أن يضيف:

- أعتقد... أعتقد بأنها في مستشفى أو عيادة أو شيء من هذا القبيل...

خفَضَت نيكول عينيها.

- لا تقلق يا مارك، لا تشغل بالك بالأمر، لقد بلغت سنّ الرشد الآن، وهي واعية بما تفعله...

نهضت لإعادة الفناجين الفارغة إلى المطبخ.

«هي واعية بما تفعله»... تلاطمت الكلمات في جمجمة مارك المنبعجة. هل كانت مجرد كلمات مطمئنة من جدته أم أنها تُخفي عنه شيئاً ما؟

نهض مارك لمساعدة نيكول في ذهابها وإيابها المتكرّر بين البهو والمطبخ. ليتسمّر فجأة أمام صورة عائلية بإطار خشبي، على الرف، بين لعبة خشبية وبارومتر. صورة لبيير ونيكول فيترال في مظاهرة أمام مقاطعة دييب، جنباً إلى جنب، خلف لافتة كبيرة، **الإضراب، تحت الحصى**. لم يكن تقدير سنهما صعباً، إذ تعود الصورة لشهر مايو عام 1968. كان بيير ونيكول دون الثلاثين من العمر. يمسك نيكولا، الابن الأكبر، بيد نيكول، فيما حمل بيير ابنه باسكال على كتفيه. ربما كان في الخامسة أو السادسة من عمره، ممسكاً براية حمراء في قبضته الصغيرة المضمومة. تأمّل مارك وجوه جده ووالده وعمّه الذين جمعتهم صورة واحدة. لم يبقَ منهم أحد، ولم يتركوا له أيّ ذكريات ليحتفظ بها في ذاكرته. بذل كلّ ما في وسعه ليبدو صوته طبيعياً:

- سأذهب إلى غرفتي يا نيكول، سألقي نظرة على بعض ملخّصات الدروس. سأعود بعد دقائق قليلة.

أجابه صوت الصحون في المطبخ.

دخل مارك إلى غرفته المرتبة بعناية. تُواصل نيكول إهدار مجهودها وصحتها في تنظيف غرفة لا ينام فيها إلّا مرة واحدة شهرياً.

خيّل إلى مارك أنه يُعيد اكتشاف غرفة طفولته؛ ربما بسبب دفتر

غران-دوك اللعين وكلّ ذكريات الماضي التي أعاد إحياءها. ما زال الناي البلاستيكي في مكانه فوق المكتب، الناي الذي كانت ليلي تستعيره مني لعزف مقطوعات غولدمان، كابريل وبالافوان. ما زال السريران في موضعهما بالقرب من الحائط. السرير العلوي فارغ منذ انتقال ليلي إلى غرفة نيكول. تذكّر مارك سهرهما الطويل، كانت ليلي تعشق اختلاق حكايات لا تنتهي، فيما ينصت مارك إليها وهو مستلقٍ على فراشه؛ لتمتدّ ذراعها إليه أحياناً عندما تشعر بالخوف، فيجلس ممسِكاً بيدها إلى أن تنام. ثم تجري الأمور بطريقة معكوسة أحياناً أخرى، عندما تقرأ ليلي حتى وقت متأخر من الليل، فتمنع الإضاءة مارك من النوم، لكنه لا يُبدي أيّ اعتراض. مَن ذا الذي سيطلب من الشمس أن تنطفئ؟

لن تفكر ليلي أبداً في استبدال هذه الأجواء بالغرفة الواسعة التي تنتظرها عند آل دو كارفيل، وبأطنان الهدايا والدبدوب بانجو وباقي العلب الأخرى. مارك متأكد من ذلك، اليعاسيب شبيهة بالفراشات، هي بحاجة إلى شرنقة عندما تكون صغيرة. على الأقل قبل خروجها من الظلمة. . .

انتفض كما لو أن الذكريات قد أثقَلَت كتفيه. تقدّم نحو خزانة الثياب التي صارت تفرغ شيئاً فشيئاً، تتبرع نيكول بما صغر من ملابسه للإنقاذ الشعبي، باستثناء فانيلات الركبي، الصفراء والزرقاء، فئة الصغار، فئة البراعم، فئة الشبان. . . وفانيلة كرة قدم، الوحيدة في الخزانة، صفراء وحمراء، تحمل في ظهرها اسم دوندار سيز. قياس سن الثانية عشرة.

انحنى نحو الأسفل، يقوم بأرشفة دروسه في صناديق وضَعَها

على الأرض. عثر على ما يبحث عنه: ملخّصات دروس العام الماضي في مادة القانون الأوروبي. تتطلّب تلك المادة حفظ مجموعة من التواريخ عن ظهر قلب: انضمام الدول الأعضاء للاتحاد الأوروبي، الاتفاقيات، الإدارات، الانتخابات... هكذا هي دروس مادة القانون، تمرين مُتعِب لقوة الذاكرة. عثر على الصفحة المطلوبة بسهولة، فهو منظّم للغاية. قرأ: **12 فبراير 1998. هوامش الاتحاد الأوروبي**. كان منتبهاً في تلك الحصة التي تناولت الحالة التركية. أعادَ مارك قراءة ما كتبه: تركيا تحت حكم النظام العسكري، الانقلاب، عودة الديموقراطية...

قضى بضع دقائق يراجع التفاصيل، وقد غمرت حبات العرق ذراعيه قبل أن يغلق حافظة الأوراق بيدين مرتعشتين. لقد فهم الآن سرّ التناقض الغامض في ما قاله غران-دوك في دفتره.

اتّضح كل شيء الآن.

جلس مارك على سريره محاولاً استجماع أفكاره في أسرع وقت ممكن.

لا، لم يمُت جده في حادثٍ عَرَضي. لقد قُتِل! وهو يملك الدليل الآن. دليل قاطع. ولكن الغموض المحيط بهذا التفصيل يعني أنّ كلّ هذا التحقيق سيصبح محلّ شك...

- مارك؟

تجاوز صوت نيكول جدران الغرفة.

- مارك؟ هل أنت بخير؟

ختمت سؤالها بنوبة من السعال، سعال قوي زادت الجدران من حدّة صوته. نهض محاولاً طرد تلك الأفكار من ذهنه، ثم دسّ حافظة الأوراق في حقيبته وأعاد ترتيب ملفاته. بقي واقفاً لدقائق

طويلة، مستنداً إلى السريرين، وقد عجزَ عن التنفس بشكلٍ طبيعي.

أصرَّت نيكول على مناداته بصوتها المرتجف:

- مارك؟

- أنا قادم يا نيكول، أنا قادم.

فتح باب الغرفة المؤدية مباشرة إلى البهو. الأواني نظيفة وفي مكانها. كما وضعت الشراشف على طاولة الطعام. جلست نيكول باكية. وأمامها الظرف الأزرق.

اختبار الدي إن أي.

النسخة الثانية التي استلمتها من كريدول غران-دوك قبل ثلاثة أعوام.

- 48 -

2 أكتوبر 1998، الحادية عشرة ليلاً وتسع عشرة دقيقة

جذب مارك مقعداً ثم جلس بدوره، أمام جدّته مباشرة. أخرج من جيبه ببطء الظرف الممزّق الذي سلمته إياه ماتيلد دو كارفيل، ثم وضعه أمامه.

ظرفان باللون الأزرق نفسه. لكلّ ظرف صاحبه.

- كنت أعرف أنّ ماتيلد دو كارفيل تملك نسخة، قالت نيكول بصوتٍ هادئ. هذا طبيعي، لكنني لا أظنها كانت تعلم بأنّ غران-دوك قد سلّمني نسخة ثانية.

- معكِ حق، قال مارك موافقاً على كلامها. كانت تجهل ذلك.

مرَّرت نيكول منديلاً أبيض أمام عينيها.

- ما الذي قالته لكَ بالتحديد؟

لم يكُن أمام مارك خيار آخر، لقد أتى من أجل ذلك، أتى ليشرح لها حقيقة ما وقع. تكلّم طويلاً، حكى لها عن زيارته لمنزل آل دو كارفيل، لخّص محتوى دفتر كريدول غران-دوك، خاصة صفحاته الأخيرة، ما قاله عن اختبار الدي إن أي، وعن تأنيب

الضمير الذي لاحق المحقق... لكن مارك تجنّب الحديث عن نقطة واحدة، وهي المتعلقة بمقتل غران-دوك. منعه انزعاج غير مفهوم من إعلان الخبر لجدته. كان مطالَباً بالتفكير قبل ذلك، ثم تذكّر كلّ ما أورده غران-دوك في دفتره. العودة إلى نقطة الصفر والتحقّق من كلّ شيء.

مكتبة

قرّبت نيكول المنديل من شفتيها وسعلت قليلاً.

- كريدول غران-دوك لم يكُن كاذباً تماماً فيما قاله يا مارك، كما أنه لم يقُل كلّ الحقيقة أيضاً. مسار الأحداث كان مختلفاً بعض الشيء. يميل كريدول إلى تضخيم الأمور بعض الشيء...

شعر مارك بالضيق من استخدام جدّته لصيغة المضارع في كلامها.

- لقد كنتُ هنا، قالت شارحة. في عيد ميلاد ليلي الخامس عشر. رأيت كل شيء وأتذكر كل شيء. الهدية، تهشّم المزهرية، جرح ليلي، اعتذار غران-دوك في أثناء جمعه للقطع المهشّمة...

- معك حقّ بطبيعة الحال. لكنه لم يقُل شيئاً عمّا حصل بعد ذلك.

ظهر الاضطراب على وجه مارك.

- ما حصل بعد ذلك؟

- تذكر جيداً يا مارك أنك خرجت بعد ذلك رفقة إيميلي للاحتفال بعيد ميلادها عند مانون. لم تعودا إلّا بعد منتصف الليل...

وضع مارك يده على الظرف الأزرق الممزّق، ثم حرّكها فوق الطاولة بعصبية. سعلت نيكول مرة أخرى، في محاولة يائسة لمعالجة بحّة صوتها، ثم أكمَلَت:

- بقيت وحدي رفقة كريدول الذي شرب الكالفا(*) وهو جالس على الأريكة، فيما انهمكتُ أنا في غسل الصحون، كنت أبكي بالقرب من حوض المطبخ.

- كنتِ. . . كنت تبكين؟

- مارك. أنا لستُ مغفلة. كريدول يعمل لحساب آل دو كارفيل. كنت أتوقع أنهم سيطالبون يوماً ما بإجراء اختبار الدي إن أي. كان ذلك حقه، وربما لو كنت مكانه لقمت بالشيء نفسه. . . لكن ليس بهذه الطريقة. كانت خطّة بئيسة. الفخّ المغلف في علبة هدايا. كان كريدول الصديق الوحيد الذي قُمنا بدعوته لعيد ميلاد ليلي.

شعر مارك بالضيق أكثر فأكثر. لم يحدث أن أطلَعته جدّته على أسرارها أبداً.

- متى فهمتِ لعبته؟

- بمجرد رؤيتي لدم إيميلي. . . وقيامه بجمع قطع الزجاج. كريدول ومقاصده التي لا تخفى على أحد. لو أنه أحضر معه حقنة ومضغطة وكشف أوراقه بوضوح لكان ذلك أفضل. هذا كلّ ما كنت أطلبه منه. كان ذلك اتفاقنا منذ البداية: سأفتح له باب منزلي، لكن مع امتلاكي الحق في الحصول على المعلومات نفسها.

- هذا ما فعله، أليس كذلك؟ لقد سلّمك نسخة ثانية من الكشف. . .

غطت الدموع عيني نيكول من جديد.

- ليس تماماً يا مارك، ليس تماماً. هذا ما فعله، لكن بعد

(*) كالفا: شراب مسكر من عصير التفاح، يُعرف باسم موطنه. (المترجم)

خضوعه لتفاصيل أخرى. كنت أبكي بالقرب من حوض المطبخ، ثم اتخذت القرار في حينه، التقطت سكيناً ثم ضغطتُ على أسناني وأنا أجرح خنصري. مجرّد قطع بسيط، لكنه كان كافياً لتسيل دمائي. قمتُ بلف إصبعي بممسحة ثم أحضرتُ لكريدول كأساً في قعره بضع ملليلترات من دمي. فهم قصدي بسرعة، لم يكن مغفلاً أيضاً.

- كيف تعامَلَ مع الوضع؟

ابتسمت نيكول لأول مرة.

- كان غاضباً قليلاً، كطفل وقع في الفخ. لكن كريدول ليس شخصاً شريراً. اعتذر، واعترف بأنه تصرَّف بغباء. كان مؤثراً بعض الشيء. ثم طمأنني بأنه سيُجري اختباراً مطابقاً لآل دو كارفيل لتسليمه لماتيلد، وآخر لآل فيترال سيسلّمه لي. ثم. . .

سعلت نيكول مرة أخرى، كما لو أنّ السعال حبس الكلمات القادمة في حلقها. تردّد مارك، شاعراً بالضيق بشكل متزايد:

- نيكول. . . ما الذي تريدين قوله؟

تلوى المنديل الأبيض بين أصابع نيكول:

- أنت متمسِّك بمعرفة الحقيقة؟ في نهاية المطاف لم يكن ما حصل جريمة، وأشك في أن كريدول قد ذكر شيئاً في دفتره.

لا، لم يكُن مارك راغباً في معرفة ما حصل. سمحت نيكول لدموعها بالانهمار دون أن تكلّف نفسها عناء مسحها.

- مارسنا الحب تلك الليلة. مارسنا الحب في الوقت الذي كنتما أنت وإيميلي خارج البيت تحتفلان بعيد الميلاد. مارسناه كعجوزين. كانت أول مرة. أول مرة منذ وفاة جدك. المرة الوحيدة. لسنوات طويلة وغران-دوك ينظر إليّ باشتهاء. كان طيباً. هو الرجل الوحيد الذي سمحتُ له بالدخول إلى البيت. كان. . .

- نيكول. . .

نهض مارك، ووضع يديه على كتفي جدته بحنان أخرق، ثم لامس فمها بأصبعه. كانت صورة جثة غران-دوك تسكنه.

- لستِ بحاجة إلى إخباري بكلّ ذلك. . .

- لا، كنتُ بحاجة إلى ذلك يا مارك.

مسحَت نيكول دموعها، ثم نهضت وهي تثبت المنديل في ردائها.

- هيا يا مارك، معك حق، لن أضايقك مستقبلاً بحكايات العجائز هذه.

خَطَت بضع خطوات، عَدَّلت السماط الصغير على الطاولة، ثم حدَّقت بانتباه في الظرف الأزرق أمام مارك.

- هل فتحتَ الظرف؟

- هذه. . . هذه قصة طويلة، لنقل بأنه حادث، نعم، لقد فتحت الظرف وقرأت محتواه.

- لقد فهمتَ إذاً سبب بكائي يا مارك. ليس بسبب كريدول، أو ليس بسببه وحده، أنا أبكي بسبب إيميلي.

شعر مارك بغبائه وهو جالسٌ وحده على الأريكة، فنهض بدوره وقد اعتراه شعور مرعب. لم يعُد يفهم شيئاً.

«أنا أبكي بسبب إيميلي». تردّد صدى كلمات نيكول في رأسه من جديد. لماذا تبكي بسبب إيميلي؟ بالعكس، كان اختبار الدي إن أي هذا شهادة ولادتها الرسمية. . .

رفع الظرف الأزرق الممزّق الذي سلّمته إياه ماتيلد دو كارفيل ببطء، ثم وضعه في يد نيكول. ثم أمسك بالظرف الذي سلمه غران-دوك لجدته.

فتح الظرف.

قرأه.

شعر بدوران الغرفة المظلمة حوله؛ البيانو، الإطارات، السماطات الصغيرة، الأريكة، التلفاز، كلها دخلت في تلك الدوامة الوهمية.

سقطت الورقة من يده.

لم يكن لنتيجة اختبار الدي إن أي أيّ معنى.

- 49 -

2 أكتوبر 1998، الحادية عشرة ليلاً وسبع وثلاثون دقيقة

شعرت مالفينا بالاستياء بفعل الحصى الأملس الذي آلمها في مؤخرتها. كان صلباً وبارداً. غمر الشاطئ ضوء ضعيف لقمرٍ في منتصف دورته. لم تجد مالفينا مكاناً آخر مناسباً لقضاء ليلتها. كانت المراقِبَة الشابة قد مرّت بعد توقف قطار روان دييب بفترة طويلة، بدت لطيفة للغاية، وطلبت من مالفينا المغادرة بأدبٍ شديد، لكنها تخلّت عن لهجتها المؤدبة بعدما وصفتها مالفينا بـ«العاهرة القذرة». أتى مراقِبان آخران وساعداها على طرد مالفينا من المحطة بالقوة.

وجدَت مالفينا نفسها على الرصيف، كلّ غرف فنادق المدينة ممتلئة بسبب مهرجان الطائرات الورقية اللعين.

قضت مالفينا أمسيتها متجوّلة بين أرجاء المدينة. لم تأكل شيئاً. لم تكن جائعة. لم تهتمّ بذلك. تسكّعت طويلاً بين الشوارع قبل العودة إلى الشاطئ، منتظرة عودة الهدوء وتوقف تلك السخافات، الطائرات الورقية، الموسيقى، الأعلام، البالونات، الحلويات، وكل تلك القذارات التي يبيعها أشباه آل فيترال بالقرب من شاطئ دييب.

انتهى كل شيء الآن بعد اقتراب الساعة من الإعلان عن منتصف الليل. بقيت بعض الأشكال الهندسية البراقة المحلّقة في السماء فقط، تربطها بالأرض خيوط طويلة ممدودة، جرى تثبيتها بأوتاد مغروزة في العشب. لم تهتمّ مالفينا بكلّ ذلك أيضاً، لا تملك المزاج الرائق لتأمّل أوراق حريرية محلّقة فوق رأسها، تمنّت بالمقابل لو أنها تمكّنت من قطع كلّ هذه الخيوط لتسقط في البحر كشموس ميتة.

قطع الخيوط. إطفاء هاتفها المحمول. صبّ اللعنات على جدّتها التي طلبت إجراء اختبار دي إن أي، جدتها التي كذبت عليها كلّ هذه السنوات. قطع كلّ حبال التواصل.

تمدّدت مالفينا على الحصى. ستنام هنا. ستتجاهل الحصى البارد الذي يؤلمها في مؤخرتها أيضاً.

- لماذا لم تعودي إلى بابا وماما في هذه الساعة المتأخرة يا جميلتي؟

بقيت مالفينا في الظلّ، مكتفية بتحريك رأسها نحو مصدر الصوت. كانوا ثلاثة واقفين على الشاطئ، على بُعد عشرة أمتار منها. كلّ واحد منهم يحمل قنينة مياه معدنية تحتوي على سائل برتقالي. لا يتعلق الأمر بمياه أو عصير برتقال كما هو واضح.

- قد يتسبب بقاؤك وحيدة هنا في لقائك بأشخاص سيئين يا جميلتي. . .

كان المتكلم هو أكبرهم. على جفنه الأيمن حلقة فضية. الثاني أصغر منه، أصلع، منكمش على نفسه بعض الشيء، يجد صعوبة في المحافظة على توازنه على الحصى، دون أن يساعده حذاؤه المستقيم

والطويل على طريقة رعاة البقر على الوقوف. أما الثالث الواقف على الحصى فقد ذكّرت بنيته مالفينا بالدبدوب بانجو.

اقتربَ منها صاحب الحلقة الفضية أكثر فأكثر. ثلاثة أمتار. تبعه الآخران. رفعت مالفينا رأسها.

- يا رباه، إنها متقدِّمة في السن، قال صاحب حذاء رعاة البقر. ظننتُ من بعيد أننا أمام فتاة بكر...

- ربما هي كذلك، أضاف صاحب الحلقة الفضية.

ضحك الدبدوب وصاحب حذاء رعاة البقر.

انكمشت مالفينا على نفسها، وبحثت في حقيبة يدها باضطراب. أرغَت وأزبدت في حنق! لقد تذكّرت بأنّ فيترال قد انتزع منها الماوزر في القطار.

تقدّم صاحب الحلقة الفضية متراً إضافياً.

- يبدو أنكِ تبحثين عن مغامرة يا جميلتي. أملكُ حاسّة شمّ قوية يمكنها التقاط الفتيات من هذه النوعية. وكما ترين فهذا يوم حظك. ثلاثة رجال، خصيصاً من أجلك...

- ابتعِدْ عني أيها الحقير.

تراجع الثلاثة بما يقارب المتر، باستثناء صاحب حذاء رعاة البقر الذي فقدَ توازنه منزلقاً على الحصى. تقدَّم صاحب الحلقة الفضية من جديد.

- هيه يا رفاق، يبدو أننا عثرنا على مومس صغيرة حقيقية...

يبدو أن الدبدوب الأسمر يُحسن الكلام أيضاً، كان ألطف أعضاء العصابة.

- لن نُلحِق بك أيّ أذى. نبحث فقط عن بعض المرح...

- نعم، تابع صاحب الحلقة الفضية. تعجبني طريقة اختيارك لملابسك يا جميلتي. حقبة الخمسينيات، أليس كذلك؟ حلمت دائماً بأن تضاجعني امرأة في عمر جدتي.

واصل تقدمه مضيفاً:

- ولو أنّ مَن هنّ في عمر جدتي قد فقدن أسنانهن...

ضحك الدبدوب الأسمر وصاحب حذاء رعاة البقر من جديد، كجمهور مستمتع. تقدّما أيضاً خلف زعيمهما، تراجعت مالفينا صارخة:

- سأقتلكم جميعاً إن تقدّمتم أكثر!

تأمل الرجال الثلاثة باستمتاع جسد مالفينا النحيف المتكوّم على الحصى.

- أعتقد بأنّ هذه الصغيرة قادرة على عضّنا. هيا، لا تكوني شرسة أكثر من اللازم...

تقدّم صاحب الحلقة الفضية أكثر، وما كان عليه القيام بذلك. سمع صفيراً، وربما أبصر ظلاً عبر الإضاءة الضعيفة. لتغلق عينه بعد ذلك. تدلّت الحلقة الفضية بعدما تعلق بها جزء من الجفن الممزق والغارق في بركة من الدماء، قبل أن تهشّم حصاة أخرى غضروف أنفه.

- أيتها الـ...

أخطأت حصاة ثالثة فمه المفتوح، محطّمة عظمة فكه اليمنى.

يمكن لحصاة جيدة أن تقتل، إذا ما تمّ اختيار واحدة مناسبة لراحة اليد، وإن تمّ رميها أيضاً على بعد ثلاثة أو أربعة أمتار، ويمكنها أن تصيب المستهدف بإعاقة دائمة على الأقل، إن لم يتمّ رميها بشكل دقيق. لم تكن مالفينا واعية بذلك، لكن الرجال الثلاثة

أدركوا خطورة الأمر، ففي حالات مماثلة، يمكن لأشدّ الناس بلادة أن يستوعبوا ذلك، هي مسألة حياة أو موت.

هرب الثلاثة.

واصل الحصى استهدافهم كالمطر. تزحلق صاحب حذاء رعاة البقر على الأرض بعدما أصابت حصاة ترقوته، أما الدبدوب الأسمر فلم يكن أخفّ حركة من صديقه، فأصيب في ظهره وقفاه. كانت مالفينا ترمي بالحصى كالعمياء، بعدما شحنها الغضب بقوة إضافية.

- سنلتقي مرة أخرى أيتها العاهرة! صرخ صاحب الحلقة الفضية عندما شعر بأنه أصبح في مأمن من ضرباتها. سنلتقي من جديد!

- حسناً، أجابته مالفينا. أمّا أنا فسأخبر رجال الشرطة بأنهم لن يجدوا أدنى صعوبة في العثور على المجرم الذي حاول اغتصابي، فالأعور لا يركض هكذا في الشوارع...

ابتعدَت الظلال العرجاء.

ساعة بعد ذلك، صفرت الرياح في الشاطئ، شعرت مالفينا بالبرد. وقفت مُحرِّكة أطرافها المتألمة. تجوّلت في المدينة الميتة بخطى وئيدة، وصولاً إلى محطة القطار. كانت مغلَقَة بطبيعة الحال، فنامت مالفينا على مقعد أمامها.

- 50 -

2 أكتوبر 1998، الحادية عشرة مساء وإحدى وخمسون دقيقة

توقفت الحركة في بهو منزل آل فيترال، بشكل أبدي ربما.

مالت يد مارك المرتجفة لالتقاط الورقة التي سقطت أرضاً.

كانت مطابقة تماماً لتلك التي قرأها في القطار: شعار الشرطة العلمية في روزني-سو-بوا نفسه. الخط نفسه. الطريقة نفسها في عرض النتائج: ثلاثة أسطر.

بحث عن رابط الأبوة

بين إيميلي فيترال (العينة 1، 95-233)
ونيكول فيترال (العينة 2، 95-237)

نتائج سلبية.
لا وجود لأية روابط أبوة ممكنة.
نسبة الدقة 99,94513 في المائة.

وضع مارك الورقة على الطاولة كمَن يرمي ورقة مشتعلة. بقيت نيكول متماسكة لبعض الوقت، قبل أن تنهار على الأريكة.

النتيجتان سلبيتان!

طرح مارك سؤالاً غير مسموع تقريباً:

- ما... ما الذي يعنيه كلّ هذا؟

أخرجت نيكول منديلها، ثم مسحت دمعة على طرف عينها وقد رسمت على وجهها ابتسامة غريبة.

- أنّ كريدول غران-دوك مخادع كبير، أليس كذلك؟

- كنتِ... كنتِ على علم بذلك؟

- لا يا مارك، أؤكد لكَ ذلك. لم يكن أحد على علم بذلك. باستثناء كريدول بطبيعة الحال. لقد قرأت هذه النتيجة منذ ثلاثة أعوام، ومنذ ذلك الوقت وأنا واثقة بأنّ إيميلي ليست حفيدتي، وبأنّ إيميلي الحقيقية قد قُتلت في تحطم طائرة الإيرباص، وبأنني قمتُ بتربية ليز-روز دو كارفيل... كما أقنعتُ نفسي بهذه الفكرة، وربما تقبّلتها بعدما أهديت ليلي ذلك الخاتم في عيد ميلادها الثامن عشر، وربما أسعدني ذلك أيضاً.

صمتت نيكول قليلاً، وهي تجرّ الشال الصوفي الذي يغطي كتفيها لتعدِّل وضعه فوق قميص نومها الذي أغلقت كلّ أزراره وصولاً إلى عنقها. ثم حدجت مارك بنظرات حانية.

- كان ذلك سيُسعدني، من أجل مستقبلها، من أجلكما معاً. هذا كلّ ما في الأمر، كانت هذه النتيجة منطقية...

لم يُجِبْها. نهض فجأة، ثم أمسك بالورقتين مرة أخرى، ووضعهما إلى جانب بعضهما ليقارن بينهما. لا شيء يدلّ على أنه أمام وثيقتين مزوّرتين. تمالك مارك نفسه بعدما اعترته رغبة عارمة في

تمزيق الورقتين وتحويلهما إلى عصيدة عديمة الشكل. قال فيما يشبه الصراخ:

- لقد أخطأ غران-دوك يا نيكول! ربما خلط بين العينات، أو أنّ المختبر قد ارتكب خطأ معيناً. لا بدّ من وجود تفسير مقنِع لما جرى!

- ربما قام كريدول بإعطائنا تلك الأجوبة التي كنا نبحث عنها، قالت نيكول بهدوء.

انتفض مارك.

- كيف ذلك؟

- هو وحده يعلم أيّ عينات دم قامَ بتسلميها للخبير... لقد فعل ذلك وفق رغبته، وفق الحقيقة التي رغب هو في ظهورها. لم يعثر على شيء بعد خمس عشرة سنة من التحقيق، فحاول ربما كتابة نهاية القصة بنفسه...

استغرقت نيكول بعض الوقت للتفكير، ثم أكملت:

- اختباران سلبيان، هذا ليس سخيفاً في واقع الأمر، سارت الأمور بطريقة رائعة، وهكذا قام بإقناع ماتيلد دو كارفيل بأنّ حفيدتها قد توفيت. وبشكلٍ نهائي. ما سيخلّصنا من مضايقاتها إلى الأبد. أعتقد بأنّ غران-دوك لم يكن يحبّها كثيراً، أما أنا فكنت سأبتلع ألمي، بأن إيميلي ليست حفيدتي، وليست شقيقتك. لقد أبكتني نتيجة هذا الاختبار السلبية لليالٍ طويلة، في تلك الفترة قبل ثلاث سنوات، لكنها أذابت أيضاً كرة الثلج الرهيبة التي جثمت على معدتي وشطرتني إلى نصفين وأحرقت رئتي، في كلّ مرة انتبهت فيها لتلك النظرات التي تتبادلها أنت وإيميلي، كلّ دقيقة، وكل ثانية...

جلس مارك على الأريكة ملتصقاً بنيكول، ثم وضع رأسه على

كتفها، ومرّر يده خلف ظهر جدته. تلاعبت أصابعه بالشال الصوفي. فأدارت نيكول وجهها نحو حفيدها.

- أنت تفهم يا مارك، تفهم جيداً كما هو واضح. هذا يعني بأنكما لم تكونا مرتبطين بأيّ رابط دموي يجمع أخاً بأخته. كنتما حرّين يا عزيزي. لقد أحبّكما كريدول على طريقته وهو يراقبكما طوال هذه الأعوام، وهو ما جعله قادراً على صياغة خطة كهذه...

ألقت نظرة على الظرفين بلونهما الأزرق فوق الطاولة.

- كان من الممكن لخطّته أن تنجح، لو أن النتيجتين لم تكونا هكذا، على الطاولة نفسها...

نهض مارك، ثم خطا بضع خطوات عصبية في الغرفة، لم يكن قادراً على تصديق هذا التفسير رغم كلّ المعطيات التي قدّمتها جدته. أن يكون غران-دوك هو الذي تعمَّد صياغة هذه المسرحية! مَن يقرأ محتويات الدفتر سيجد بأنّ كران قد روع مثلهم بنتائج الاختبار، وإن كان قادراً على الكذب في هذا التفصيل، كما بقية التفاصيل...

- سأخرج يا نيكول، سأقوم بجولة سريعة.

لم تقُل نيكول شيئاً. مسحت عينيها بطرف منديلها بعناية شديدة. وضع مارك يده على مزلاج الباب. لتقول نيكول بصوت أكثر ارتجافاً:

- لم تسألني أين ذهبَت إيميلي؟

بقي مارك مسمّراً في مكانه.

- لأنك تعرفين؟

- ليس تماماً، لا. لا أملك أدنى فكرة عن مكانها بالضبط، لكنني فهمت قصدها عن الرحلة الكبرى والجريمة التي تنوي اقترافها. يا إلهي، لماذا ستسمّي ذلك جريمة؟

شعر مارك بأن قلبه سينفجر. هي ثالث مرة ينقلب فيها مجرى حياته في أقل من عشر دقائق. بدا أنّ كلّ أعراض رهاب الخلاء قد اختفت بالسهولة نفسها التي تختفي بها الحازوقة أمام خوف مفاجئ.

تردَّدت نيكول قليلاً.

- يمكن للجدة أن تفهم مثل هذه الأمور.

تجمّدت يد مارك الممسكة بمقبض الباب، فأجابها صارخاً:

- أن تفهم ماذا يا نيكول؟

أجابته نيكول بصوت أكثر هدوءاً، بتحفظ؟ أم برصانة؟

- إيميلي حامل يا مارك. حامل منك.

انزلقت يد مارك على المزلاج، فيما واصلت نيكول بالنبرة الهادئة نفسها:

- لقد قرّرَت إجراء عملية إجهاض يا مارك. وهي في المستشفى من أجل ذلك.

استندَ مارك إلى سلة مهملات في حي بوشول. أضاء القمر صفّ المنازل الصغيرة المتشابهة بضوء ضعيف. وفي نهاية الطريق المسدود قطان يتبادلان النظرات بصمت، وقد انتصب زغب فروهما. تساءل إن كان الأمر يتعلق بالقطين نفسهما اللذين رغبت ليلي في تربيتهما عندما كانت في السابعة من عمرها. ربما كانا كذلك، القطين نفسهما، وقد كبرا بعد عشر سنوات.

شعر مارك بهدوء غريب، كان أكثر ارتياحاً من دقائق وربما ساعات ماضية. تغيّر سلم أولوياته بشكل مفاجئ، كما لو أنّ روحه قد تخلّصت من كلّ الأفكار الضبابية. سينتظر لغز اختبارَي الذي إن

أي المتناقضين، كما هو الشأن بالنسبة إلى هوية قاتل جدّه. صار مارك مهووساً بفكرة واحدة، ليلي وحدها الآن في غرفة بعيادة باريسية، حاملاً في أحشائها بطفل.

طفلهما.

تقدم مارك نحو المصباح الوحيد المضاء في الردب. لم يتحرّك القطان اللذان تحوّلا إلى ما يشبه التمثالين. حاول الاتصال بليلي خمس مرات متتالية، من دون جدوى. لم يعد الاتصال بعشرات العيادات الباريسية ينفع في شيء الآن، واضح جداً أنها تحترم خصوصية المرضى إن طُلب منها ذلك.

ويبدو أنّ ليلي قد طلبت ذلك.

وجد مارك نفسه من جديد مخاطباً العلبة الصوتية، وهو مستند إلى مصباح الشارع، كسكّير يناجي نفسه على ضوء القمر.

- ليلي، لقد أخبرتني نيكول بكلّ شيء، لم أرَ ولم أفهم شيئاً، اعذريني، كنت كالأعمى. أين أنتِ؟ يجب أن أكون هناك، بالقرب منك، لن أرفع من معنوياتك، ولن أضغط عليكِ للاحتفاظ بالطفل، لا شيء من كلّ هذا. لن أكون كاذباً إن قلت بأنّ تحقيقي لم يتقدّم. إنه الظلام التام. الضباب. أكثر من أيّ وقت مضى. لم أعُد أثق سوى بيقينياتي التي تعرفينها، أعلم بأنها غير كافية. انتظريني يا ليلي، أرجوك. اطلبي مني القدوم، وسأفعل، اطلبي مني ذلك، أتوسل إليك. أحبك كثيراً. مارك.

طارت الرسالة الصوتية في الليلة المضيئة.

اقترب القطان من بعضهما، ثم أطلقا أصواتاً حادّة بنبرة أعلنت

عن مواجهة أخرى بينهما، لم تكُن تلك سوى لعبةٍ يكرّرانها كلّ ليلة، منذ عشر سنوات.

جلس مارك أرضاً، على الرصيف الصغير الذي يحفظ كلّ تفاصيله عن ظهر قلب. يذكر يوم سقطت ليلي في الموضع نفسه الذي يجلس فيه. لم يكن ذلك خطيراً، مجرّد سقطة من دراجتها ثلاثية العجلات، خدشٌ صغير، والقليل من الدم الذي غسلته الأمطار النورماندية.

أغمض مارك عينيه.

طفل. طفلهما.

تصاعد غضب كبير في أعماقه. ليس بسبب ليلي، بل بسبب مسار الأمور، لم يعُد يتحمّل هذا الشعور بأنه لا يصلح لشيء.

فتحت نافذة في الردب. الطابق الأول. ظهر أحد الجيران بين مصراعي النافذة ثم أطلق صرخة غاضبة. لا يعرف مارك، قد يكون ساكناً جديداً في الحي. فأطلق أحد القطين ساقيه للريح، فيما تقدم الآخر نحو مارك بخطى بطيئة.

مدّ مارك يده نحو القط الذي احتكّ به، كان فروه منتصباً، رمادياً، قذراً بعض الشيء. القط العجوز الذي اعتاد ربما على المواء مستسلماً لملاطفات ليلي.

يتفهم مارك الأسباب التي دفعت ليلي إلى إجراء عملية إجهاض. أخرج هاتفه ثم ألقى نظرة على الرسائل السابقة. لم تكن سوى مسألة عمر وأمان مادي ومستقبل منتظَر. طبيعي ألّا ترغب ليلي في حمل طفل ناتج عن سفاح القربى في أحشائها.

أمسكَ مارك بفرو القط الرمادي بين أصابعه. ما دامت ليلي غير واثقة من هويتها فهي لن تجازف بولادة وحش.

رفع مارك عينيه نحو السماء. وماذا لو اكتشف لغز هويتها؟ قد يكون بإمكانه إيقاف كلّ شيء بمجرّد توصّله إلى مفتاح الحلّ. قفز القط إلى ركبتَي مارك، فاستدار نحوه.

- قل لي أيها القط البدين، فيمَ ينفع الأب قبل ولادة طفله؟ ألا ترى معي صعوبة متابعة ابنتي أمامي، وهي تكبر وصولاً إلى سن الفهم، خمسة عشر عاماً؟ أو ثمانية عشر؟ أن تلتقط يدها ثم تقول لها ما يلي: «كما ترين يا جميلتي، لو لم أنجح في التوصل إلى هذا الدليل اللعين، لربما ما كنت لتأتي إلى هذا العالم، نعم، لقد أنقذتكِ، لأنني أحب والدتكِ وأردت طفلاً منها. طفل هو ثمرة حبنا»...

هرب القط فجأة.

- معك حق، قال مارك. أنا أهذي!

وقفت ليلي في الشرفة تدخن. ما كان عليها أن تفعل ذلك، لكنها لم تكُن تهتم. سيجارة واحدة فقط، أو لنقل ثلاث سجائر فقط. لم تكن الفتاة صاحبة الشعر الأحمر والأسنان الصفراء، النائمة بالقرب منها بخيلة إلى هذا الحدّ، بعدما تركت لها علبة السجائر.

استمعت ليلي لرسالة مارك. أجابت عنها بسرعة. لا يملك مارك أي فرصة في العثور عليها، وذلك أفضل. ستنفّذ رغبتها وحدها.

سيكون من الجنون الاحتفاظ بهذا الطفل. لا يمكنها العيش بلا هوية واضحة. كانت واعية بذلك، أكثر من أيّ شيء آخر. كيف لها أن تتخيل إمكانية معاقبة مخلوق آخر بريء، رضيع آخر، طفلها؟ كيف ستتحمل تحولها هي الأخرى إلى أداة تساهم في هذه اللعنة المتواصلة؟

اعتصرت ليلي في يدها اليسرى ذلك الصليب الطوارقي الذي أهداها إياه مارك، فيما ارتجفت أصابع يدها اليمنى. كانت تمسك بالسيجارة في الوقت الذي انشغلت بالضغط على أزرار الهاتف. تطاير دخان السيجارة في الهواء، فيما قسمت ليلي رسالتها الطويلة إلى أربعة أقسام.

سينتهي كل شيء قريباً يا مارك، لا تقلق. إنها عملية بسيطة لا تستغرق سوى دقائق معدودة.

سأقابل بعض الأطباء طوال يوم غد. يقولون بأنهم في حاجة إلى بعض الكشوفات الإضافية المتعلّقة بالتخدير. قد تكون مجرد حيلة من الأطباء النفسيين لمَنحي وقتاً إضافياً للتفكير.

لن أدخل إلى غرفة العمليات إلّا بعد غد. لا تقلق بشأني. أنا واثقة بأنني اتخذت القرار الصحيح، سيكون كل شيء على ما يرام.

اعتنِ بنفسك. ليلي.

قرأ مارك جواب ليلي، مستلقياً على السرير في غرفته، فحاولَ الاتصال بها، من دون جدوى.

أعاد مارك قراءة الرسائل، وقد استرعت جملة واحدة انتباهه: «لن أدخل إلى غرفة العمليات إلّا بعد غد» أو إنها كلمتان بالتحديد: «بعد غد».

أمامه يوم واحد للوصول إلى الحقيقة! لم يعُد يفكر سوى في ذلك. لقد ربح يوماً إضافياً. كما لو كانت إشارة من القدر. لم يفقد كلّ شيء بعد.

ثبت مارك بصره على السرير العلوي. ومرّت الساعات، كما في أيام طفولتهما عندما كانت ليلي تقرأ حتى وقت متأخر من الليل، أو عندما يصدر أحد الجيران صوتاً مزعجاً، أو عندما يضطرّ لمواجهة أرقه وحده. بقي ساهراً، وقد نَمَت فكرة في أعماقه، كنبتةٍ مجنونة في ممرّ حديقة نظيفة. كان موقناً من شيء واحد فقط: كلّ شيء مرتبط ببعضه في هذه القضية؛ مقتل جده؛ مقتل غران-دوك؛ جرائم أخرى قد يجهلها... وهوية ليلي الحقيقية!

لقد توصل كريدول غران-دوك إلى الحلّ قبل أن يُقتَل. لقد فكر مارك في الذهاب إلى جورا وصعود جبل تيريبل. وهذا منطقي في نهاية المطاف، لقد بدأ كلّ شيء هناك، وهناك سينتهي كلّ شيء. الحلّ بانتظاره في جبل تيريبل... وليس في أي مكان آخر.

الرابعة صباحاً. نهض مارك فجأة ثم ارتدى سترة. ما الذي سيخشاه بعد كلّ ما جرى؟ لا طريق أمامه لاتّباعه باستثناء قراءة وإعادة قراءة دفتر كريدول غران-دوك. لا! لم يكن ذلك الأسلوب المناسب، لم يكن ذلك أسلوبه في كل الأحوال. مشى بحرص في الظلام متوجهاً نحو غرفة جدته.

- مارك؟ قال الصوت الناعس لنيكول.

- نيكول. هل ما زالت الشاحنة تعمل بكفاءة؟

- السيتروين؟

فركت نيكول عينيها في ذهول. ألقت نظرة على المنبه على الطاولة بجانبها، دون أن تعلق.

- نعم، أعتقد ذلك. لا أستخدمها حالياً إلّا لبضعة كيلومترات. آخر مرة ركبتها كانت...

- ما زالت المفاتيح في الدرج الثاني بالبهو؟ والأوراق أيضاً؟

- نعم، ولكن...

قبَّل مارك وَجنة جدته.

- شكراً، لا تقلقي بشأني...

كانت تودّ لو أجابته «كن حذراً»، لكن كلماتها ضاعت وسط نوبة من السعال، فقرّبت منديلها من فمها. كانت تعلم بأنها ستبقى مستيقظة ما تبقى من هذه الليلة، وربما كلّ الليالي القادمة.

- 51 -

3 أكتوبر 1998، الرابعة صباحاً واثنتا عشرة دقيقة

اشتغل المحرك بعد محاولة واحدة فقط، سبق لمارك أن قاد الشاحنة عدة مرات، لكن لمسافات قصيرة فحسب. يتولى منذ سنتين أمر التجوّل بها في دييب أو إعادتها إلى الحديقة. علّمته نيكول كيفية التعرف على نقط المعلم التي تسمح له بالتراجع والدوران: صندوق البريد، والنافذة اليسرى لجارهم في الجهة المقابلة، وهو ما يتم بشكلٍ دقيق إن تمّ احترام التوجيهات المذكورة.

كانت سيتروين طراز إتش التي يملكها آل فيترال واحدة من بين آخر سيارات هذا الطراز التي جرى تصنيعها في فرنسا. اشتراها بيير فيترال سنة 1979، فيما أوقفت سيتروين خط تصنيع الشاحنة الأسطورية سنة 1981. اختار بيير الموديل المستطيل الذي يشبه إلى حدّ ما الموديل الذي امتلكه الجزارون في السبعينيات. برتقالية اللون مع أنف أحمر مسطح جعل الشاحنة شبيهة بكلب ضخم، بمصابيح أمامية دائرية كعينين مفتوحتين ومرآتين ارتداديتين حديديتين، منفردتين كأذنين كبيرتين. كلب مجعد من الفولاذ المتموج. الكلب الضخم

كما كانت تسميها ليلي. الكلب الضخم الكسول الذي يرقد خارجاً، محتلاً مساحة الحديقة الصغيرة.

أعاد مارك تهيئتها بمساعدة قريب له يعمل ميكانيكياً في نوفيل، قريب يتولى مهمة صيانة الشاحنة الصغيرة من وقت إلى آخر. تجاوزت السيتروين عمرها الافتراضي بكثير. مئتان وثلاثة وثمانون ألف كيلومتر. «دابة لا تتعب أبداً»، هذا ما أكّده القريب. ولم يكن أمام مارك من خيار سوى تصديق كلامه، رغم انبعاج هيكلها وانتشار علامات الصدأ وتثبيت ماسح الزجاج الداخلي بشريط لاصق عازل وصعوبة إغلاق الغطاء الأمامي...

ألقى مارك نظرة على ساعته، الرابعة صباحاً وبضع دقائق. ما زالت مدينة دييب غارقة في نومها. سيعبر مدينة شبحية تحرسها بغرابة أقنعة حريرية تحرّكها رياح قوية في السماء. تتحرك السيتروين مُحدِثَة صخباً كبيراً، لكنها تتحرك، وهذا هو الأهم. لم يشأ مارك إعلان انتصاره بسرعة، إذ تنتظره مسافة طويلة تقدَّر بستمئة كيلومتر. كان قد راجع المعلومات على الخريطة بعناية، يفضِّل تجنب باريس والذهاب شمالاً. قام بتدوين كلّ شيء على ورقة: نوفشاتيل-أون-براي، بوفي، كومبين، سواسون، ريمس، شالون-أون-شامبان، سان-ديزييه، لانغريس، فيسول، مونبليار، جبل تيريبل. أجرى عملية حسابية فتبيّن له أن سفره سيستغرق عشر ساعات، هذا إن سارَ كلّ شيء على ما يرام بطبيعة الحال.

تجاوز مارك الميناء، لم يبقَ أمامه سوى عبور جادة شانزي ليغادر دييب. لم يقابل أحداً في طريقه، مرّ بجانب محطة القطار فأدار رأسه بحركة آلية، ليجد فتاة نائمة على أحد المقاعد القريبة من المحطة.

توقّفت السيتروين بشكلٍ مفاجئ، الفرامل بحالة جيدة على الأقل!

المنبّه أيضاً.

استيقظت مالفينا دو كارفيل بسرعة وقد أمسكَت في يدها بالحصى الذي جمعته من الشاطئ. قد تكون مجنونة فعلاً، لكنها حريصة على نفسها أيضاً. نهضت وتعرّفت أخيراً على مارك الجالس خلف مقود الشاحنة البرتقالية والحمراء، فتح هذا الأخير النافذة الجانبية.

- هل تخطّطين لرمي الشاحنة بالحصى أم ماذا؟

- أعِذْ لي مسدّسي!

- إنه في جيبي كما ترين، اصعدي!

حدجته مالفينا بنظرات بلهاء.

- ستذهب للتسوّق أم ماذا؟

- قلت لكِ اصعدي، أنا ذاهب للحج. أعتقد بأنّ هذه الرحلة تهمّك أيتها المجنونة.

اقتربت مالفينا دون أن تتخلى يدها عن الحصى، ثم دقّقت بعينيها في حالة الشاحنة الصدئة.

- لا تقُل لي بأنّك تعتزم الذهاب إلى جبل تيريبل بهذا التابوت المتجوّل!

كتم مارك ردّة فعله، متجنباً التساؤل عن احتمال تعمّدها قول ذلك من عدمه.

- أنا متأكد من أنه لم يسبق لقدمك أن لامست أرض جورا، وأنّ الشوق يكاد يقتلك للقيام بذلك.

رمت مالفينا الحصى بعيداً.

- كم أنتَ محقّ في اعتقادك هذا!

فتح مارك باب الشاحنة، فوجدت مالفينا بعض الصعوبة في رفع ساقها للوصول إلى المقعد، لتقول بتذمّر:

- مع شاحنتك التافهة هذه، لن نتمكن من الوصول حتى إلى باريس.

- لن نمرّ عبر باريس، سنذهب شمالاً...

قالها ثم أطلعها على لائحة المدن التي يعتزم المرور عبرها.

- اللعنة، قالت الشابة. الأرياف... أفضل أن تُصاب هذه الشاحنة بعطل ما. خاصة إن كان مَن يقودها عاهة مثلك!

لم يُجِبْها مارك، فتابعا طريقهما صامتين. اتخذا طريق وادي براي، ثم قطع مارك الصمت بعد عشر دقائق:

- اعذرينا بشأن يوم أمس، لم نقُم بدعوتك للعشاء... لنترك ذلك لفرصة قادمة، مفهوم؟

- لا تكُن سخيفاً، أنا قادرة على تدبّر أموري بنفسي، لقد كوّنت صداقات حميمة مع بعض أبناء المنطقة...

عشر دقائق أخرى من الصمت، كانا قد اقتربا من نوفشاتيل-أون-براي.

- ماذا سنفعل هناك؟ قالت مالفينا فجأة.

- قلت لكِ بأننا سنحجّ إلى هناك...

تأمّلته مالفينا بنظرات متسائلة.

- ولماذا كلّ هذه العجلة؟ كنت أعتقد بأنّ ملف القضية قد أغلق إلى الأبد بعد إجراء جدّتي لاختبار الدي إن أي السخيف. اليعسوبة هي شقيقتك الصغرى، هذا واضح للغاية، أم أنك منزعج لأنك تضاجعها؟

دخل مارك إلى منطقة الضواحي، ضغطَ على الفرامل بقوة فوجدت مالفينا نفسها ملتصقة بالمقعد، كان حزام السلامة عالياً، حتى أنه لامس عنقها.

- إذا ما ضغطت على الفرامل كلما رميتك بنقدٍ لاذع كهذا، فلن نصل إلى هدفنا أبداً...

نقد لاذع...

عليه أن يتحمّل هذه الفتاة لعشر ساعات متواصلة... أجابها مضطراً:

- اعذريني بشأن حزام السلامة، لقد نسيت معزّز المقعد عند المربية...

- هاهاها، أجابته مالفينا بتهكّم. لو عملت على تحسين أسلوبك الساخر، فلا أعتقد بأنّ رحلتنا ستكون مملّة عندئذٍ.

لم يكن مزاج مارك يسمح له بالانجرار إلى لعبتها. فصمتَ طويلاً، قبل أن يسألها:

- وهل تصدقين أنت هذا الاختبار السخيف؟

- أفضِّل الموت على أن أصدّق هذا الكلام الفارغ!

- حسناً، هذا يعني أننا متفقان.

أضافت مالفينا وهي تلامس حزامها:

- هراء! كنت واثقة منذ البداية أن غران-دوك يقف في صفّكم أنتم، ربما بسبب ندمه السابق، ولأنه كان معجباً بنهدَي جدتك أيضاً...

لم يضغط مارك على الفرامل هذه المرة، لكنه فكّر جدياً في طردها والتخلي عنها هنا، على حافة الطريق، كان سيفعل ذلك لو أنه لم يكُن بحاجة إليها. سيصبر، لأنّ مالفينا ستكون مفيدة للغاية،

لقد أدانت نفسها دون أن تدري، عندما تحدّثت عن ندم غران-دوك، وقد لا تكون هذه سوى بدايةٍ لما هو آتٍ...

حافظا على صمتهما لما يقارب الساعة، كانت الطريق الوطنية خالية ورتيبة. مالت مالفينا إلى الأمام، لكن حزام السلامة القديم والمتيبس منعها من التقدّم أكثر.

- أراهنك بأن جهاز الراديو لا يعمل...

- أوافقك الرأي بشأن الراديو، لكنني أعتقد بأنّ مشغل الشرائط ما زال بحالة جيدة، وربما ستجدين أيضاً تلك الشرائط التي كنا نستمع لها عندما كنا صغاراً...

ضحكت مالفينا.

- اللعنة! شرائط؟ هل ما زال هذا الاختراع موجوداً؟

استدارت نحو مارك، وفي عينيها تعبير ماكر.

- هل أغضبكَ كلامي؟ أنا أمزح فقط!

استغرقت مالفينا بضع دقائق في تفقد الشرائط، قبل أن تدسّ شريطاً في المشغّل، لكنها قامت بذلك خفية عن مارك. لينطلق صوت مفاجئ تردّد صداه في أرجاء المركبة، هو مزيج من صوت غيتار وصوت جرس إنذار سيارة الشرطة. «جولة سيرج ك». نزهة ليلية لمركبة وحيدة.

تعرَّف مارك على الألبوم بسرعة. **قصائد الروك**.

«الغد، الغد. الغد مثل الأمس»، غنى شارليلي كوتور بصوته المخنّ.

- كنت واثقاً من أنك ستختارين هذا الشريط، قال مارك.

- أشكّ في ذلك، لم أشأ تخييب ظنك...

ابتسم مارك بدوره. دخلا إلى بوفي. التي لم يكُن السير داخلها

بتلك السهولة، رغم أنّ عقارب الساعة لم تتجاوز الخامسة صباحاً إلّا بقليل. تقدّما بين إشارات المرور ثلاثية الألوان التي يبدو أن موظفاً سادياً قد قام بضبطها بطريقة تجبر أيّ سائق يحترم السرعة القانونية على التوقف أمامها عندما تشير إلى اللون الأحمر.

- معك حق، قال مارك بين إشارتي مرور، أوافقك على أن قصائد الروك هي أفضل ألبوم روك فرنسي تمّت كتابته على الإطلاق...

- لا أدري. لا أعرف سوى أغنية واحدة، أعتقد بأنك تعرفها، لكنك لا تملك أقراصاً مدمجة، ما يعني إجبارنا على الاستماع لأغاني الشريط كاملة...

- ما الذي تستمعين له عادة؟

- لا شيء.

عوض صوت شارليلي كوتور صمتهما. غادرا بوفي أخيراً. انتهى الوجه الأول من الشريط، فقلبت مالفينا الوجه الثاني من دون كلمة، ثم رفعت صوت المسجل، حتى ترددت في أرجاء الشاحنة نغمات البيانو الأولى للأغنية.

كطائرة بلا أجنحة...
غنيت طوال الليل،
نعم، غنيت من أجلها
تلك التي لم تصدقني طوال الليل...

أحسَّ مارك بقشعريرة غريبة. أغمضت مالفينا عينيها، فتحت

شفتيها، وتابعت الكلمات، أو بالأحرى ومأتها، ففمها لم يكن يصدر أي صوت.

وإن كنت عاجزاً عن الطيران،
سأمضي حتى النهاية،
آه نعم، أريد أن ألعب،
وإن كنت لا أملك أوراقاً رابحة.

خفّف مارك من سرعته رغماً عنه، لقد استمع لهذه الأغنية مئات المرات، خاصة عندما كان ينزوي وحيداً، يلجأ إليها عندما يغمره الشك. يستمع إليها من دون ليلي، لأنها لم تكُن تطيقها. كانت تصرخ غاضبة بمجرد سماعها لها، وسبق لها أن ألقت بجهاز ترانزستور على أرض مطبخ منزل صديقتها مانون، فقط لأنّ الإذاعة كانت تبث الأغنية.

استمعي لصوت الريح،
الذي ينزلق، ينزلق تحت الباب،
اسمعيني، سنغيِّر السرير، سنغير طريقة حبنا لبعضنا،
سنغير حياتنا، سنغير أيامنا...

بدا التأثر على ملامح مالفينا، ولم ينجح مقطع الغيتار الصامت في تهدئتها، فيما تأمل مارك الأفق بثبات.

آه، أيتها اليعسوبة،

أنت، تملكين أجنحة هشة،

أنا، أنا، جسمي مدعوك. . .

ابتعد صوت شارليلي كوتور شيئاً فشيئاً. نخرت مالفينا، لم يتفوّه مارك بكلمة، تابعا المسير عبر الطريق الوطنية، متجاوزَين مُدُناً حزينة تنتظر شيئاً ما يغيِّر مسار الأحداث فيها، مع لوحات إشهارية تحصي عدد ضحايا حوادث السير وعدد الشاحنات ذات الوزن الثقيل التي تمرّ بشكلٍ يومي من ذلك المكان. عشرون دقيقة بعد ذلك، وجدا نفسيهما على مشارف كومبين. صارت حركة المرور أكثر كثافة.

بمجرد مغادرتهما لكومبين، استدار مارك نحو مالفينا.

- إذا وجدنا مخبزة مفتوحة في البلدة القادمة، فسوف نتوقف لتناول شيء ما.

أدارت مالفينا رأسها نحو الخلف قائلة:

- ماذا؟ كنت أعتقد بأنك ستترك لي المقود، لتقوم بإعداد الفطائر وحلوى العسل. . . مثل جدّك وجدتك. . .

لم يُجبْها. لم يعد ذلك ذا قيمة الآن. كان هذا هو الوقت المناسب. . . ففي نهاية المطاف، كانت هي البادئة. وصلوا إلى بلدة صغيرة تدعى كاتنوي، صُمِّمت بحيث يكون وسطها بكنيسته ومدرسته وبلديته، منعزلاً عن الطريق الوطنية. توقف مارك في موقف سيارات يعلوه الغبار. تجاوزا الروضة ليجدا أن كلّ المنازل والمتاجر مغلقة، بما في ذلك المطعم الذي يعرض بنوع من الافتخار قائمته الشاملة للمسافرين عبر الطريق، وبتسعة وأربعين فرنكاً. تأكد مارك من وجود الماوزر في جيبه، ثم أمسك بالمفاتيح وغادر السيتروين. امتلأ

موقف السيارات بأوراق ميتة علاها السواد بفعل السيارات والشاحنات المتوقفة هناك باستمرار. ابتعد مارك قليلاً، واحتمى بجذع شجرة ليفرغ مثانته، ثم عاد إلى الشاحنة.

لم تغادر مالفينا مكانها، اقترب مارك من الباب المحاذي لمقعدها، ثم أخرج من جيب سرواله الجينز الورقات الخمس الممزقة، ثم سلّمها إياها.

- خذيها، اقرئيها.

اتّسعت عيناها في مفاجأة حقيقية، فأضاف مارك:

- هذه صفحات من دفتر غران-دوك، المذكرات عينها، تحقيق القضية. اقرئي هذه الصفحات، هذا مقتطف تعليمي إن صحّ التعبير، وبعد ذلك سأطلعكِ على شيء آخر.

- 52 -

3 أكتوبر 1998، السادسة وثلاث عشرة دقيقة صباحاً

أشعلت ماتيلد دو كارفيل عود الثقاب وقرّبته من موقد الغاز. أحاطت دائرة من اللهب الصغير الأزرق بقدر الماء المغلي. استدارت متطلّعة للمرة الأخيرة إلى نسخة ليست ريبوبليكان ليوم 23 ديسمبر 1980، مزّقت الصفحة الأولى وصنعت منها شمعة من ورق ثم قرّبتها من ألسنة اللهب فتحوّلت إلى مشعل. لم ترمها ماتيلد دو كارفيل فوق حوض المطبخ إلّا بعدما صارت أظافرها سوداء بفعل النيران.

هذه الصحيفة لم تعُد تصلح لأيّ شيء. كانت قد عثرت على الظرف في مدخل المنزل بعد ظهر الأمس. كانت الصحيفة مطوية داخل الظرف، مثلما طلبت من هذه السكرتيرة اللبقة. قرأت الصحيفة ولم يستغرق منها الأمر سوى دقيقة واحدة لتفهم كلّ شيء. وكيف لها ألّا تفهم؟

لم يكن غران-دوك يتلاعب بها. كان محقّاً على طول الخط. ستقفز الحقيقة إلى عين الباحث عنها، هذا صحيح، لكن بشرط واحد. أن تفتح هذه الصحيفة بعد ثماني عشرة سنة.

يا له من مشهد ساخر!

لقد اختاروا الطريق الخطأ منذ البداية.

والأكثر من ذلك أنّ زوجها قد تصرّف مثل أحقر المجرمين. ارتكب جريمة قتل من أجل لا شيء. جريمة لا قيمة لها. كانت قد أغمضت عينيها عمّا جرى من أجل ليز-روز. وافقت على ذلك مع علمها بالسبب. لقد ارتكبوا جرماً بحق أناس أبرياء. ضحايا مثلهم. كانت الحقيقة ستظهر يوماً ما. هي لا تملك الشجاعة على مواجهة حكم البشر، فما بالك بالحكم الإلهي...

غمرت ماتيلد دو كارفيل أصبعها في الماء الفاتر بلا أدنى تردّد. كانت ليندا في الأعلى، نائمة في غرفة الأصدقاء. فقدَت وعيها في البهو بعد اكتشافها لجثة ليونس، خطت عشر خطوات قبل أن تسقط على الأرضية الخشبية. قدّمت لها ماتيلد مهدّئاً أتبعته بمنوّم، ثم مدَّدتها على السرير، واتصلت بزوجها لتُعلمه بأنّ ليندا ستبقى في الروزري، وهو ما كان يحدث من وقت إلى آخر عندما تتدهور حالة ليونس. لم يطرح الزوج أيّ أسئلة، فماتيلد تدفع راتباً مجزياً بما يكفي لتعمل زوجته الحبيبة لبضع ساعات إضافية.

فتحت ماتيلد خزانة وأخرجت منها قارورة زجاجية مغلّفة بورق الجرائد. ستستيقظ ليندا بعد قليل. وأول ما ستقوم به بطبيعة الحال هو الاتصال بالشرطة في أسرع وقت ممكن. لن تمنعها ماتيلد من ذلك. ماذا ستفعل؟ لا يمكنها أن تقتل هذه الشابة المسكينة. لو أنها فكرت وتصرّفت بشكل أفضل لكان عليها الانتظار لبضع ساعات بعد ظهر الأمس، أن تصبر إلى حين مغادرة ليندا المنزل. لتبقى وحدها رفقة ليونس، مثل كلّ ليلة. ربما ستكون الأمور أكثر بساطة... لكن

ذلك كان فوق طاقتها! أن تنتظر ساعات طويلة بعد توصلها بهذه الصحيفة وتمكّنها من فَهم كلّ شيء. طوال هذه السنوات وهي تفكر ألف مرة في تحقيق العدالة بنفسها. **تحقيق العدالة**... يا لها من كلمة كبيرة للغاية. الإنجاز الوحيد الذي يمكنها أن تفتخر به هو تمكّنها من اختصار معاناة شخص عاجز، أمّا العدالة فقد تحققت بفضل الله.

حان دورها الآن لوضع وزن ندمها على الكفة.

الشرطة، الفضيحة...

لا يهم. لن تكون هنا لمواجهة كلّ ذلك.

غمرت ماتيلد دو كارفيل أصبعها في الماء من جديد. ساخن تقريباً! تنهّدت في ارتياح. قريباً سينتهي كلّ شيء. أطفأت موقد الغاز وصبّت الماء بارتعاش في إناء كبير من الطين الأمغر، ووضعته على صينية فضية إلى جانب القنينة وملعقة صغيرة، ثم غادرت المطبخ.

صعدت ماتيلد الدرج الخشبي ببطء. فتحت الباب الأول على يمينها، غرفة ليز-روز. تأمّلت الغرفة الواسعة المليئة بالألعاب والهدايا. لا تهمها قيمتها كثيراً، كانت هذه الهدايا كلّ سنة، كل عيد ميلاد، كل ليلة ميلاد، أشبه برسالة أمل. لم ينسوا ليز-روز. كانت كلّ شمعة دليلاً على احتفاظهم بأملٍ صغير في بقائها على قيد الحياة. شعلة انطفأت إلى الأبد منذ ظهر أمس.

ارتكب ليونس جريمة قتل من أجل لا شيء.

وضعت ماتيلد الصينية الفضية على طاولة السرير الذي تطلّب وصولها إليه تحريك عربة أطفال بلون أزرق سماوي وحواشي من

الدانتيلا، كما تخطّت بحرصٍ طقماً صغيراً من الأواني الصينية. ودفعت بلطف الدبدوب الضخم النائم على سرير الطفلة، الذي أطلقت عليه مالفينا اسم بانجو. تمدَّدت على السرير الذي كان من المفترض أن تنام عليه ليز-روز كل هذه السنوات، الذي لن تنام عليه أبداً. انتزعت غطاء القنينة الزجاجية وصبّت محتواها أصفر اللون في الإناء الطيني بمائه المغلي.

- المفضّلة لدي، همست ماتيلد. السرية. بقلة الخطاطيف التي احتفظت بها بحرص في دفيئتي، خصيصاً للمناسبات الكبرى. المناسبة الكبرى. الأخيرة.

حركت ماتيلد محتوى الإناء بالملعقة الفضية. امتزجت عصارة بقلة الخطاطيف بالماء الساخن لتشكِّل منقوعاً تعلم ماتيلد أنه مُميت.

علمت في السابق أنه من الصعب قتل أحدهم باستخدام بقلة الخطاطيف، حتى لو كان زوجها. يبدو أن طعم النبتة غير محتمل. لهذا السبب كانت الحوادث نادرة للغاية، شخص واحد لقي حتفه في ألمانيا بحسب ما قرأت يوماً ما، لهذا كانت بقلة الخطاطيف، النبتة المكسوة بالثآليل، مستبعَدَة من قبل مؤلفي الروايات البوليسية.

وضعت ماتيلد الملعقة على الصينية الفضية بحركة أنيقة. مرّرت يديها وراء عنقها منتزعة صليبها.

لم يكن استخدام بقلة الخطاطيف فكرة رائجة حتى بالنسبة إلى مَن يفكرون في الانتحار... أو أنها مخصّصة فقط لأصحاب الإرادة القوية. ابتسمت. لم تكن من النوع الذي يضع حداً لحياته بتناول علبة من المهدئات أو يحقن عروقه بمنتوج غير مؤلم...

انتحار ناعم! قمة المتناقضات! يا لها من طريقة منافقة لمواجهة الحكم الأخير!

لامست شفتا ماتيلد دو كارفيل الإناء الذي يحتوي على منقوع بقلة الخطاطيف. قطبت جبينها لكنها واصلت الشرب من الإناء الطيني حتى النهاية.

كان طعمه مقزّزاً.

لن تتذمر.

كان من الممكن في أزمنة أخرى أن تكفّر عن خطئها بأن تأمر بجَلدها بالسياط حتى الموت، أن يغرز وتد خشبي في قلبها، أو أن يتمّ حرقها حية.

تمدّدت ماتيلد على سرير ليز-روز. سرير طفلة ميتة.

اعتصرت الصليب بقبضتها.

لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً الآن.

- 53 -

3 أكتوبر 1998، السادسة صباحاً واثنتان وعشرون دقيقة

ذرعَ مارك موقف السيارات جيئة وذهاباً، في الوقت الذي كانت فيه مالفينا جالسة على مقعدها في الشاحنة، تقرأ الصفحات الخمس الممزقة. كان قد أحضر معه في حقيبته بعض الحلويات وعلبة عصير برتقال. التهم البسكويت وشرب نصف محتوى علبة العصير. توقفت شاحنة كبيرة في موقف السيارات، على بعد خمسين متراً تقريباً من السيتروين، ليَخرج منها شخص يحمل في يده ترموساً، قهوة بلا شك. تردّد مارك في طلبها منه.

غادرت مالفينا السيتروين حاملة الأوراق في يدها.

- هل أنت سعيد الآن؟ لقد قرأت محتوى الأوراق! هذا ما أردته؟ أن تثير غيظي بما يتعلّق بحادثة جدك؟ ما قصدكَ من كلّ هذا؟ كنت وقتها في الثامنة من عمري لكنك تشكّ في إمكانية معرفتي بحقيقة ما جرى. ما هي مشكلتكَ معي؟ إن كنتَ تهدف من وراء هذا إلى القول بأنّ شاحنتك البرتقالية والحمراء كانت عربة لنقل الأموات فلستُ بحاجة لذلك! ففي كل الأحوال لم أكُن أفكر أبداً في قضاء ليلتي داخلها...

لم يُجِبْها، ربما لأنه تعود شيئاً فشيئاً على سخريتها اللاذعة، طريقتها الوحيدة في التواصل مع الآخرين، وربما تعتبرها هي في أعماقها مجرد وسيلة لمعالجة نفسها بشكل ذاتي. ربما كان علاج الصدمات الكهربائية مفيداً لمارك أيضاً، كطريقة فعالة للمواجهة مع سنوات الصمت والأسرار والطابوهات. عاد إلى السيتروين، وبحث في حقيبته، قبل أن يستخرج منها حافظة الأوراق التي تحتوي على دروس القانون التأسيسي الأوروبي.

- خذي، اقرئي هذا الآن. . .

- ماذا؟ كل هذه الأوراق؟!

- لا طبعاً. فقط درس 12 فبراير الذي يتناول موضوع تركيا.

تنهدت مالفينا.

- سأفعل، لكنني أريد عصير برتقال وشيئاً ما لآكله قبل ذلك.

أعطاها ما تبقى من فطوره، فالتهمَت كلّ شيء بنهم واضح يوحي بأنها ربما تخفي إصابتها بداء فقدان الشهية.

- طيب، ما هذا السخف؟

أمسكت بحافظة الأوراق، وبحثت عن الصفحة المطلوبة، ثم قطبت جبينها.

- معذرة، لن أستطيع فكّ رموز هذا الخط الفظيع. يبدو لي أنك كبير بُلَهاء الكلِّية، مقارنة بليلي على الأقل، ليلي التي أثق بأنها تتدبر أمر تحصيلها الدراسي بشكل أفضل بكثير. . .

السخرية، السخرية ذات الأهداف العلاجية!

- وأنت، هل تمتلكين شهادات معينة؟

- الرقم القياسي العالمي في عدد الأساتذة الخصوصيين. سبعة وثلاثون في خمسة عشر عاماً. . . لم يصبر آخرهم أكثر من يومين. . .

- لا تسخري مني إذاً...

ضحكت مالفينا، ثم رمت بمغلف البسكويت وعلبة العصير الفارغة أرضاً.

- نعم، لكنني كما ترى من طراز خاص جداً، لا أنصاع للأساتذة أبداً.

رفعت عينيها.

- اللعنة، لم أفهم شيئاً في ملخّصات دروسك...

- ركزي على قراءة التواريخ. هل تمكّنت من قراءتها؟ لا أعتقد بأنّ ذلك صعب إلى هذه الدرجة...

- لا تسخر مني...

- اقرئي!

- لا تلعب بأعصابي...

لكنها قرأت رغم ذلك:

- «29 أكتوبر 1923، تحوّلت تركيا أتاتورك إلى النظام الجمهوري؛ 17 سبتمبر 1961، أعدم الوزير الأول عدنان مندريس بسبب مخالفته للدستور»... طيب، ما الذي ترمي إليه من كلّ هذا؟

- أكملي!

- اللعنة... «12 سبتمبر 1980، انقلاب عسكري يُعيد الجيش إلى السلطة؛ 7 نوفمبر 1982، استفتاء وطني حول عودة الديموقراطية إلى البلاد»...

- حسناً، قاطعها مارك. عودي الآن إلى أوراق مذكرات غران-دوك، وركّزي على السطور الأولى.

- أنت تتلاعب بأعصابي فعلاً!

ألقت مالفينا بالأوراق أرضاً.

– طيب، هل نكمل سفرنا الآن؟ هذا إن كنت تخطّط للوصول بدبابتك إلى جورا قبل عيد جميع القديسين(*)...

مكتبة

انحنى مارك بهدوء ليجمع الأوراق، ثم قرأ:

– «في هذا الأحد، 7 نوفمبر 1982، كنت أقضي عطلة نهاية الأسبوع في أنطاليا، على ضفاف البحر الأبيض المتوسط، الريفييرا التركية. ثلاثمئة يوم مشمس في السنة، عند موظف سام في وزارة الداخلية التركية استضافني في إقامته الثانية»... سأتجاوز هذه المقدّمة لأصل إلى المهم: «انتهى المطاف بالموظف المذكور بدعوتي إلى إقامته التي يستقبل فيها أبرز قادة الأمن الوطني التركي. كانت هذه أول مرة لا يرافقه فيها ناظم، بعدما أصرت آيلا على عودته بسبب مرضها، أعتقد بأنني أذكر ذلك... لم يناسبني هذا الوضع، بالعكس، فقد قضيت عطلة نهاية الأسبوع بكاملها في محاولة لشرح ما أريد من دون مترجم، بخاصة أن المعنيين بالأمر كانوا هنا للاستمتاع بأشعة الشمس رفقة زوجاتهم... غير مقتنعين بطلباتي الغريبة. ربما كنت مثلهم، غير مقتنع أيضاً»...

تلاعبت مالفينا بخاتمها البني بين أصابعها في عصبية واضحة، ثم وجّهت ناظريها إلى الشاحنة المتوقفة في أقصى نقطة من موقف السيارات.

– والآن، ماذا بعد؟ صاحت بأعلى صوت حتى يسمعها سائق

(*) عيد جميع القديسين: عيد مسيحي تحتفل به الكنيسة الكاثوليكية في 1 نوفمبر من كل عام، القصد هنا أنّ مالفينا تطالب مارك بالإسراع مستعينة بأسلوبها الساخر، خاصة أنّ شاحنته ليست بحالة جيدة وقد تتأخر في الوصول إلى جورا! (المترجم)

الشاحنة الأخرى، هل ستُدير محرك شاحنتك السخيفة لنواصل رحلتنا أم لا؟

سمعها السائق الذي يحمل ترموس القهوة، فحدجها بنظرات فضولية قبل أن يهزّ كتفيه ليستدير مبتعداً في لامبالاة واضحة. ركّز مارك بصره على مالفينا. لقد فقدت الفتاة أعصابها في وقتٍ غير مناسب. محاولة إلهاء يائسة وتدعو للرثاء...

- سأضع النقاط على الحروف يا مالفينا. يتعلق الأمر بمسألة تواريخ مثيرة للانتباه... يحكي كريدول غران-دوك في مذكراته عن استقباله من قبل وزير الداخلية التركي، ودعوته لحفلة قريبة من شاطئ البحر، يرافقهم فيها نساء وأطفال، يوم الأحد 7 نوفمبر 1982...

- شكراً، أنا أحسن القراءة.

-... ولكن، تابع مارك، الأحد 7 نوفمبر 1982 هو يوم الاستفتاء في تركيا. العودة إلى الديموقراطية! نهاية الحكم العسكري. اليوم التاريخي. أتظنين بأنّ كبار موظفي الدولة الأتراك سينشغلون بأمرٍ آخر غير هذا الاستفتاء؟

هزّت مالفينا كتفيها.

- لقد أخطأ غران-دوك في التاريخ، هذا كلّ ما في الأمر. يتعلق الأمر بذكريات يتجاوز عمرها خمسة عشر عاماً كما تعلم...

- هراء! أجابها مارك صارخاً.

تابع سائق الشاحنة المشهد كما لو أنّ مالفينا ومارك أبطال سلسلة سيتكوم.

- هل أنت بحاجة إلى سماعة ذوي السمع الخفيف؟ صرخَت مالفينا موجِّهة كلامها للسائق.

لم يردّ هذا الأخير، شاعراً بنوع من الضجر. . . فيما أكملَ مارك:

- سأخبركِ بالحقيقة يا مالفينا. لم يكن غران-دوك في تركيا يوم 7 نوفمبر 1982! أو أنه لم يكن في فيلا أنطاليا على الأقل. لماذا سيكذب إذاً؟ لماذا سيلجأ إلى عذرٍ غبي كهذا؟ لأنه كان في مكان آخر، هذا أكيد. ولكن أين؟ أين اختفى في نهاية الأسبوع هذه، يوم 7 نوفمبر 1982؟ أي مكان ذاك الذي تجنّب الإعلان عن وجوده به؟ لماذا أكّد على أنّ ناظم كان في فرنسا وهو في تركيا، إن لم يكن لترك الشكوك تحُوم حول شريكه؟

- أنت تهذي، أجابته مالفينا، يبدو لي أنك أكثر جنوناً مني.

أمسك مارك بطرف كنزة مالفينا التي لم تجد القدرة على صدّه بعدما فقدَت مسدسها والحصى التي دافعت بها عن نفسها في الليلة السابقة.

- وماذا لو أنّ غران-دوك الطيب، المحقّق الصبور، المدقّق في التفاصيل، المستقيم، كريدول لا باسكول، صديق آل فيترال، عاشق جدتي الولهان، الراوي المتنوّر لهذا التحقيق الطويل، الوفي، النقي، كريدول غران-دوك المسكين. . . ماذا لو كان مجرّد مرتزقٍ قذر! حشرة طلب منها جدّك تصفية جدي وجدّتي لاستعادة ليلي؟ حشرة قالت «نعم». . .

ضغطت أصابع مارك المختلجة على كنزة مالفينا البنفسجية. لم تتفوّه الفتاة بكلمة. أما السائق الآخر فقد صعد إلى شاحنته، ليبْلغهما صوت الراديو فيها.

تابع مارك وهو على وشك البكاء:

- لم يجرؤ غران-دوك على الإشارة إلى هذه الجزئية في

مذكراته... وإن كانت كلّ التفاصيل الأخرى صحيحة، تعلّقه بعائلتنا، بجدتي... المشهد الكلاسيكي للمجرم الذي يتعلق بالضحية التي لم يتمكن من القضاء عليها... الندم الذي يتحوّل إلى إعجاب. نعم، هذا مثير للتأمل! إننا استضفناه في منزلنا طوال هذه الأعوام... قاتل جدي، حتى أنّ جدتي...

ترك مالفينا فجأة، ثم خطا بضع خطوات في موقف السيارات، جَمَعَ بقايا مغلف البسكويت وعلبة العصير الفارغة بحركة آلية، ثم ذهب إلى أقرب سلة مهملات، على بعد عشرة أمتار.

- قولي ما تشائين! صرخ قائلاً. هكذا جرت الأمور. غران-دوك هو مَن فعلها! وعندما نتوصل إلى هذه الحقيقة فإنّ قراءة دفتره اللعين ستصبح أكثر وضوحاً... مرتزق قذر، هذه هي الحقيقة...

رمى البقايا في سلة المهملات.

- نعم، إنه جدي، قالت مالفينا.

لم يسبق لمارك أن سمع مالفينا تتكلم بهذه النبرة الهادئة، فاستدار نحوها.

- إنه جدي، كرّرت مالفينا، تصرّف وحده، بعد أزمته القلبية الأولى. لم يكن مؤمناً بفكرة جدتي المعتمدة على إجراء تحقيق طويل الأمد. كان عجولاً إلى حدٍّ بعيد، اتصل هو الآخر بغران-دوك، بعد جدّتي بفترة قصيرة، ودفع له مبلغاً ضخماً، بما يسمح له باقتناء منزل صغير في بوت-أو-كاي إن كنتَ تفهم قصدي. يجب أن يبدو الأمر كحادثة عرضية... فبحسب المحامين إن توفي الجد والجدة فيترال، فإنّ قاضي الأطفال وبيير سيكون ضجراً، لكننا سنمتلك حينها كلّ الحظوظ لاستعادة الصغيرة... أجرى جدي تحرياته عن غران-دوك، لم يكن هذا الأخير ملاكاً بريئاً. تطلّب

الأمر رحلة ذهاب وعودة بين فرنسا وتركيا نهاية ذلك الأسبوع من شهر نوفمبر 1982، لم يعلم أحد بحقيقة ما جرى، أما ما تبقى فلم يكُن صعباً بالنسبة له.

- كيف عرفت ذلك؟

- كنت في الثامنة من عمري. لم أفهم كلّ شيء وقتها، لكنني كنت أتجسَّس على الجميع، الفأرة التي تملك جحوراً هنا وهناك، بما يسمح لها بالاختباء متى أرادت. حتى جدتي لم تفهم حقيقة ما جرى إلا متأخرة، بعد وفاة بيير فيترال. لا داعي لوصف تضارب مشاعرها آنذاك. جريمة! كيف ستعترف بذلك وهي تؤدي صلواتها للأب والابن والروح القدس؟ أصيب جدي بأزمته القلبية الثانية بعد فترة قصيرة، لم تنجح خطته، فاعتبرت جدّتي ذلك بمثابة عدالة إلهية، ثم أغلقت فمها!

- وما رأيك أنتِ يا مالفينا؟

تردَّدت مالفينا لثانية. ضربت الأرض بقاعدة حذائها في حركة عصبية، ثم أجابته:

- إن جدي كان على حق! ماذا توقعت؟ كان من الممكن أن تنجح الخطة، سيموت الجدان فيترال، وستعود ليز-روز، شقيقتي التي سرقتموها، إلى غرفتها الحقيقية، وأنت سيتم إرسالك إلى الميتم. كانت لتكون خطّة محكمة، هذا ما كنت أظنه آنذاك.

- والآن؟ ما رأيك؟

لم تتردّد هذه المرة في القول:

- الرأي نفسه!

تابعا طريقهما. غيَّرت مالفينا شريط الموسيقى. اختارَت الشريط اعتباطياً بعدما أثارها لون غلافه الأزرق السماوي، **إخوة في السلاح** لفرقة دير سترايتس. امتزج صوت المغني مارك كنوبفلير بصوت الغيتار الكهربائي. كسرت مالفينا الصمت بقولها:

- هذا لا يمنعني من الاعتراف بأنّ غران-دوك مجرّد مغفل قذر. لم يستلطفني أبداً، ولا أدري ما السبب، ربما لأنه أدرك بأنني على علم بالحقيقة.

استمع إليها مارك بشرود. اعتراه شعور مُقبِضٌ بالغدر. إلى أيّ مدى تلاعب غْران-دوك بالحقيقة في مذكراته؟

- لقد حاول ابتزاز جدّتي قبل أربعة أيام. تابعت مالفينا. كلامه السخيف عن الانقلاب المفاجئ في الأحداث. مئة وخمسون ألف فرنك. وثلاثة أضعاف المبلغ عندما يحضر الأدلّة... لا أعرف هوية مَن قتله، لكن هذا القاتل خلّص الكرة الأرضية من صرصار لعين!

تلاعبت أصابع مارك الممسكة بالمقود على نغمات الساكسوفون في «إنها خدعتك الأخيرة». كان يفكر في كلمات مالفينا الأخيرة.

«لا أعرف هُوية مَن قتله»...

استعاد ذهنه مشهد عثوره على جثة غران-دوك، الرصاصة في قلبه ورأسه في المدفأة، في مشهد جنائزي كئيب. وجه الجثة مكسو بالتجاعيد والرماد.

- هذا من دون الحديث عن اختبار الدي إن أي، تابعت مالفينا. كلانا يعلم بأن ليز-روز هي التي بقيت على قيد الحياة. ما يعني أن غران-دوك محتال حتى العظم.

تولّد شك مرعب في أعماق مارك، ومضة صغيرة حرّكتها ريح قوية لتنتشر في أرجاء عقله كنار في الغابة.

- أضف إلى ذلك، ختمت مالفينا كلامها، كان غران-دوك شخصاً فاشلاً. أن تدفع له مبلغاً ضخماً ويعجز مع ذلك عن قتل عجوزين نائمين. . .

ضغطت يدا مارك على الجلد المهترئ للمقود. أطلق غيتار المغني مارك كنوبفلير لحنه الأخير.

كلامها مجرّد سخرية، علاج ذاتي.

- 54 -

3 أكتوبر 1998، الحادية عشرة صباحاً وثلاث وثلاثون دقيقة

خمس ساعات من المسير حتى الآن، وما زالت السيتروين ذات اللونين البرتقالي والأحمر طراز إتش قادرة على الاستمرار، وإن بدا أنها تعاني من بعض المشاكل في الطريق السيّار، مكتفية بسرعة تتراوح بين مئة ومئة وعشرة كيلومترات في الساعة. استمعا لكلّ الشرائط المتوفرة في المركبة: مختارات من أفضل ما أنتجته موسيقى حقبة الثمانينيات. **إنقاذ الحب** لدانييل بالافوان؛ **أشهر الكلمات الأخيرة** لسوبرترامب؛ **أنت مورجان** لرينو؛ **إيجابي** لجان جاك غولدمان.

توقّفا في فيتري لو فرانسوا، مدينة صغيرة وسط حقول الذرة، لا تضمّ حتى برج أجراس لتنبيه المسافرين. تناولا وجبة الغداء في مطعم محصور بين الطريق الوطنية ونهر المارن. كانا الزبونين الوحيدين في المطعم. اكتفى مارك الغارق في بحر أفكاره بعجّة بيض وسلطة، فيما طلبت مالفينا كلّ ما يعرضه المطعم في قائمة اليوم، صحن من اللحوم المقدّدة، شريحة لحم بقر بالكريما الساخنة.

- يبدو أنّ شهية رفيقتك الصغيرة مفتوحة، قال صاحب المطعم وهو يغمز مارك. أتساءل فعلاً أين تذهب بكلّ تلك الكميات من الطعام!

واصلا رحلتهما.

سان-ديزييه، شومون.

تتابعت حواف الحوض الباريسي، كانت السهول المزروعة بالقمح محدودة بخطوط من النجد، مع منحدرات مفاجئة شديدة الوعورة، أشبه ما تكون بدرجات السلم، قبل المرور عبر منخفضات مشجرة، وبعدها سهل آخر مزروع بالقمح. ازدادت سرعة شاحنة السيتروين في أثناء هبوطها عبر النجد، كما لو أنها فقدت القدرة على التوقف، منتظرة الوصول إلى منحدر معاكس بما يسمح لها بالتخفيف من سرعتها. صدح صوت رينو مغنياً مقطوعة «رماد الحريق» للمرة الثالثة. لم يتبادلا كلمة واحدة منذ ساعتين، قبل أن تكسر مالفينا صمتهما بالقول:

- أتظنّ بأن ليز-روز ستقبل بشقيقة مثلي؟

اجتاز مارك بلدة تُدعى فايل بيلو. بقي صامتاً.

- أنت تعرفها أكثر مني. تابعت مالفينا. أتظنّها قادرة على الفهم؟ أن تقبل بشقيقة كبرى مثلي؟ شقيقة قبيحة، فظّة وشريرة.

حافظَ مارك على صمته، يبدو أنه يفضّل سخريتها العلاجية أكثر.

- سأتغيّر، قالت بإصرار. ستُخبرها بأنني سأتغير؟

- هل أنتِ واثقة من أنّ ليلي هي شقيقتك؟

- طبعاً، ونحن متّفقان على ذلك، أليس كذلك؟

عادا إلى صمتهما لساعتين إضافيتين. كان يقين مالفينا وإصرارها مثيرين لحسد مارك. يبدو أنها تعيش في فقاعة ترفض مغادرتها. توصَّل برسالة نصّية قصيرة من ليلي بعد تجاوزهما لفيسول. اهتزّ الهاتف في جيبه فأمسكه بيدٍ واحدة مواصلاً القيادة.

مارك، سأدخل إلى قاعة العمليات في العاشرة من صباح الغد. لا تقلق، سيكون كلّ شيء على ما يُرام. سأتّصل بك فيما بعد. قبلاتي. إيميلي.

«في العاشرة من صباح الغد»... أي بعد أقل من أربع وعشرين ساعة.

صرخ غولدمان «حلق بي!»، فضغط مارك على دواسة الوقود بحركة لاإرادية. مرّا عبر منبسط بدا معه أنّ السيتروين طراز إتش قد خفَّفت من سرعتها. تتوالى الكيلومترات لتتأكّد معها الفرضية المجنونة التي صاغَها مارك في ذهنه، تتأكّد وتجد أرضية مناسبة لتتحوّل إلى يقين.

تجاوزا مونبليار بعد ثلاث ساعات إضافية من المسير. بدا أنّ محاور التجمّعات السكنية واسعة جداً مقارنة بحركة السير الخجولة: شوارع كبيرة وطرق عرضية واسعة. تمّ بناء المدينة بما يناسب مساحة مصنع بيجو إبان تأسيسه واستيعابه لما يفوق الأربعين ألف عامل. أكبر مصنع في أوروبا... فيما انخفض عدد العمال الآن إلى ما يقلّ عن الثلث.

ثبت مارك خريطة طرقية على ركبتَي مالفينا، ليستعين بها في الوصول إلى تقاطع دوبس والحدود السويسرية على سفح جبل تيريبل، وصولاً إلى كليربييف؛ ثم تحديد منزل مونيك جينيفيز،

أجمل دارة في المنطقة بحسب ما ذكره غران-دوك في دفتره.

- ماذا سنفعل هناك؟ قالت مالفينا بغضب. هل تخطط للحصول على المبلغ الذي أرسلته جدتي لغران-دوك؟

هزّ مارك كتفيه. تأكد من وجود الماوزر في جيبه. هل سيضطرّ لاستخدامه؟ أيكون على حقّ في اعتقاده بأنه قد جرى استخدامهم منذ البداية؟

تخلّت مالفينا عن إصرارها مفضّلة التركيز على تفاصيل الخريطة، وقد نجحت في ذلك إلى حدٍّ كبير. مرّا عبر جسر دو-رواد بعد تجاوزهما لمونبليار بعشرة كيلومترات، لتدخل الشاحنة الحمراء والبرتقالية الشجاعة إلى المنحدرات الأولى لجورا: في البداية طريق مستقيم يحاذي دوبس وصولاً إلى سان-هيبوليت، ثم منحدر يمرّ عبر تجمّع سكّاني صغير. بدا أنّ الشاحنة تعاني، لكنها تمكّنت من الوصول إلى الجانب الآخر من الجبل. كان منظر النهر الذي يقطع ثلاثين كيلومتراً داخل سويسرا قبل العودة إلى منبعه في فرنسا جميلاً للغاية. هبطت الشاحنة بالقرب من النهر، في غابة من أشجار الصنوبر التي جملت بمنظرها بقية الأشجار المجاورة بأوراقها الميتة.

لم يكن تحديد موقع شاليه مونيك جينيفيز صعباً. طريق واحدة تحاذي نهر دوبس وصولاً إلى الحدود السويسرية. تنعكس صورة الشاليه بخشبه اللامع على صفحة مياه النهر الراكدة. التقط مارك نفساً عميقاً، لامسَ المسدس بأصابعه مرة أخرى وقد اعتراه القلق. دلّت لافتة مبيت فرنسا على أنهما لم يضلّا الطريق.

كان موقف السيارات فارغاً، باستثناء الشاحنة البرتقالية

والحمراء. بدا كما لو أنّ الزمن قد توقف هنا في هذه البلدة الحدودية. تنفّس مارك بصعوبة. ماذا لو توقفت رحلة بحثه هنا، على قارعة الطريق؟

- هيا بنا، قالت مالفينا.

- دقيقة...

أخرج مارك مسدس الماوزر إل 110 وتأكّد من أنه محشو بالرصاص.

- ماذا ستفعل بمسدسي؟ هل تفكّر في سرقة الأم جينيفيز؟

حدجها بنظرات طويلة، قبل أن يقول:

- هل تذكرين جثة غران-دوك؟

- نعم.

- ما الذي تتذكرينه؟

- ماذا تقصد؟

- تتذكرين جثة موجودة في منزل غران-دوك، جثة بملابس غران-دوك وحذائه وساعة يده...

صمتت مالفينا في تعبير عن الصدمة، فتابع مارك:

- جثة برأس في المدفأة. وجه محترق يغمره الرماد حتى صار التعرف على الملامح في غاية الصعوبة.

تلاعبت مالفينا بأصابعها.

- ماذا تقصد؟

- اتبعيني!

غادرا الشاحنة، فوجدا مونيك جينيفيز بالقرب من الشاليه، مُحاطة بأحواضٍ كبيرة من الغرنوقيات.

- مرحباً! قال مارك. هل هذا هو شاليه جينيفيز؟

لم تكن طريقته في افتتاح الكلام مناسِبَة، فالاسم محفور على لافتة خشبية ملمعة، وبأحرف كبيرة جداً.

- نحن... نحن أصدقاء كريدول غران-دوك.

أشرَقَ وجه مونيك.

- السيد غران-دوك! أعرفه طبعاً. منذ عشر سنوات وهو يقضي بضعة أيام من شهر ديسمبر هنا.

- أعتقد... أعتقد بأنه جاء هذه السنة قبل موعده المعتاد.

ارتسَمَت علامات الأسف على محيّا مونيك.

- نعم، من سوء حظكما أنه غادر المكان صباح هذا اليوم.

شعرَ مارك بالأرض تميد تحت قدميه، فيما كادَت مالفينا تختنق. تابعت مونيك جينيفيز كلامها بالنبرة نفسها، دون أن تنتبه لاضطراب زوارها:

- لقد نام هنا كعادته، في الغرفة رقم 12، أمس وأول أمس، بقي هنا صبيحة أول أمس، منتظراً وصول البريد قبل الذهاب، فتوصل فعلاً بظرفٍ ضخم، لكنه غادر صباح اليوم في وقت مبكر، حوالي السادسة صباحاً.

تفوّه مارك ببضع كلمات:

- هل... هل تعرفين موعد عودته؟

- لا أظن بأنه سيعود إلى هنا، هو لا يقضي هنا سوى ليلة واحدة أو ليلتين على الأكثر. حجّه الخاص، على حدّ تعبيره. صديقكم شديد الحذر، لكنه مؤدّب وظريف، كما أنه ذو شهية مفتوحة أيضاً. لكن قصّته مثيرة للاهتمام أيضاً، حديثه عن جبل تيريبل، الكارثة، الطائرة، بعد ثماني عشرة سنة، كما لو أنه عجز عن نسيان كلّ هذه الأحزان، هل تصدّقان هذا الكلام؟

حافظ مارك على صمته لبضع ثوان، قبل أن يتمتم:

- هل... هل أَخبركِ بشيء ما، شيء ما يتعلق بالمكان الذي ذهبَ إليه؟

انشغلت مونيك بانتزاع بعض أوراق الغرنوقيات الميتة.

- تعلمان جيداً أنّ غران-دوك كتوم إلى حدٍّ كبير، حتى بعد احتسائه للتر من خمر العنب المجفّف. كما أنني لم أفكر في سؤاله، صدقاً لا أعرف، لكنني أعتقد بأنه عاد إلى باريس كعادته خلال زياراته السابقة.

أصرَّ مارك أكثر لكنها لم تُفِدْه بشيء ذي قيمة، فعادَ إلى الشاحنة برفقة مالفينا التي جلست إلى جانبه قائلة بغضب عارم:

- قلتُ لك بأنّ هذا القذر سعى للتلاعب بنا منذ البداية!

لم يُجِبْها بعدما اعتراه شعور عميق بالعجز. ما زال كريدول غران-دوك على قيد الحياة إذاً، لكنه هرب... لقد تسرَّب خيط التحقيق الأخير من بين أصابعه... فيما تابعت مالفينا بإصرار:

- ماذا لو أدركت بأن غران-دوك قد زيّف ظروف موته واضعاً جثة أخرى مكانه، هل كنّا ستتجشّم عناء القدوم إلى هنا؟

- اصمتي...

صفقت مالفينا بيديها.

- يا لعبقريتك يا فيترال، عشر ساعات من المسير، وستمئة علامة كيلومترية لنجد أنفسنا هنا كأيّ غبيين، كان بإمكاننا الاكتفاء باتصالٍ هاتفي.

- اصمتي.

- استأجِرْ لي غرفة في شاليه مونيك، يبدو المكان راقياً للغاية.

- قلت لكِ اصمتي.

- سأكتفي بوجبة طعام وجرعة من خمر العنب المجفف...

- كم أنت غبية، كان عليّ أن أرميك من هنا ثم ألقي بك في نهر دوبس قبل الفرار إلى سويسرا...

حدجته بنظرة متفاجئة:

- لا أعتقد بأنّ قذارة غران-دوك ستكون مَدعاة للدهشة، ما مشكلتك أنت؟ لماذا تبدو عصبياً إلى هذا الحدّ؟ هل المسألة عاجلة؟ هل تخطِّط للزواج بشقيقتي غداً؟ هل قمتَ بحجز القاعة؟

- لن تفهميني، لا تملكين القدرة على ذلك.

أدار محرّك الستروين بعصبية بالغة.

- إلى أين سنذهب الآن؟ تابعت مالفينا. سنعود أدراجنا؟ لن نقوم بزيارة تفقّدية للمنطقة؟

- اصمتي! لقد وعدتكِ بالحج، سنتابع طريق الصليب حتى نهايتها إذاً.

- 55 -

3 أكتوبر 1998، الثانية عشرة زوالاً ودقيقة واحدة

تابع كريدول غران-دوك جولة ساعي البريد بمنظاره المقرّب. كان من السهل تحديد مسار الشاحنة الصغيرة، فطلاؤها الأصفر يظهر مع كلّ منعرجٍ وسط الخضرة أحادية اللون لغابات التنوب. كانت تصعد ببطء، آخذة وقتها الكافي، ثم تتوقّف أمام صناديق بريد المنازل الجبلية المتتابعة على طول الطريق الصغيرة، المتوجِّهة كلها نحو الجنوب، على السفح المشمس للجبل. لن تكون هنا قبل عشر دقائق على الأقل.

كانت سيارة الكزنتيا متوقفة في الأعلى، على بُعد بضعة كيلومترات من الشاحنة، تفصلها عنها ثلاثون طريقاً متعرجة تقريباً، قبل مدخل سان هيبوليت. واصل المحقق تفحّصه لجولة الموظف عبر شاحنته الصغيرة.

عشر دقائق...

هل هو الموظف المقصود؟ هو ثامن ساعي بريد يراقبه من دون جدوى. ستدور عجلة الحظ، هذا أكيد. ولو أنها في الواقع ليست مسألة حظ بقدر ما هي -كالعادة- مسألة منهجية دقيقة وبعض

التصلّب والعناد أيضاً. منذ ثلاثة أيام وهو يقتفي أثر المدعوة ميلاني بيلفوار. لم تعد تربط هذه الفتاة بعائلتها أي علاقة. لا وجود لاسمها في أي دليل هاتف، إلكترونياً كان أو ورقياً. لم يعثر على أيّ أثر إداري لوجودها. ربّما تزوجت، لكن لا وجود لأيّ ميلاني بيلفوار في سجلات الزواج بالمنطقة، لقد بحث في خمس وأربعين بلدية تابعة لمونبليار. وهذا ما قاده إلى التفكير في موظفي البريد. حتى إذا كانت ميلاني بيلفوار مُدرَجَة في اللائحة الحمراء أو غيّرت اسمها فربما ما زالت تتوصّل ببريدها عبر اسمها العائلي السابق، قد تكون رسائل إحدى صديقات طفولتها، أو اشتراكات قديمة... ربما قد يكون ساعي بريد على علم بذلك، خاصة ساعي بريد في منطقة قروية، منطقة جبلية، يمكن التعرّف فيها على كلّ العناوين...

لكن لا أحد من موظفي البريد السبعة السابقين يعرف شيئاً عن ميلاني بيلفوار.

لا بأس. سيواصل متشبثاً بالأمل. لقد عاينَ مثل هذا الوضع أكثر من مرة منذ بدء التحقيق، لكنه حافظ على حماسه... لم يحدث أن اقتربَ من شمس الحقيقة مثل اليوم.

ما الذي يربطه بهذه الحياة؟ ربما دقيقة واحدة، أربعة أيام قبل الآن كان على وشك إطلاق رصاصة على رأسه.

قرَّب غران-دوك المنظار من عينيه مرة أخرى، اجتازت الشاحنة الصغيرة عشرة طرق متعرّجة تقريباً.

اعتصرت يد كريدول غران-دوك مقبض مسدسه، الماتيبا طراز 6 أونيكا نصف الأوتوماتيكي. ربما تحوّل سلاحه هذا إلى قطعة أثرية بعد إفلاس الشركة المصنِّعة. كما أنه يستورد الرصاصات من

كندا بسعر الذهب، أربعون دولاراً كندياً لكلّ علبة تضمّ ست رصاصات. لا يهمه ذلك. هو يملك الإمكانات اللازمة، أكثر من أيّ وقت مضى. لقد تسلّم صباح الأمس من طريق مونيك جينيفيز المئة وخمسين ألف فرنك الإضافية التي بعثتها ماتيلد دو كارفيل.

مجرّد عربون.

ما الذي سيطلبه أكثر من ذلك؟

ضمير، ضمير جيد ربما؟

تذكّر دفتره؛ لقد قرأته ليلي الآن ومعها مارك أيضاً بلا شك. وربما ذهبا إلى منزله واكتشفا الجثة. ولكنه اتخذ احتياطاته تحسّباً لذلك. هو مجرّد ضحية أمامهما وليس قاتلاً. أمّا فيما تبقى... هل كان حاذقاً بما فيه الكفاية؟ هل ستُراودهم الشكوك بشأن الحقيقة؟ خاصة فيما يتعلق بالتعذيب المميت بأنبوب الغاز هذا، في تلك الليلة من شهر نوفمبر عام 1982؟

سنوات طويلة مرّت، أقنع غران-دوك خلالها نفسه بأنه لم يكُن سوى أداةٍ بيد آل دو كارفيل، مجرّد أداة بسيطة بين أيديهم؛ هو لم يكن يرغب في قتل آل فيترال، وحتى لو رفض الاتفاق الذي اقترحه ليونس دو كارفيل فلربما نفّذ المهمة شخص آخر، وبطريقة قد تكون أكثر وحشية، شخص لم يكُن ليشفق على نيكول فيترال. لقد كفَّر عن ذنبه بعد ذلك وتقرّب من آل فيترال، من نيكول، ومن أحفادها أيضاً. عرفَهم وأحبَّهم أيضاً. نعم، أحبّهم، بخاصة نيكول. لم يغدر بهم بعد ذلك أبداً، وحاول متابعة التحقيق مع أكبر قدر ممكن من النزاهة والتجرّد، كما دوَّن كل شيء في دفتره، بكلّ الوفاء الممكن.

باستثناء ليلة تريبورت طبعاً.

لم يكن ملاكاً، ولم يتوقع يوماً أن يكون كذلك، لكنه كان

حيادياً، شديد التدقيق في كلّ التفاصيل، حتى فيما يتعلّق باختبارات الدي إن أي، هذه الاختبارات الشيطانية التي كادت تصيبه بالجنون، إلى حدود أربعة أيام قبل الآن، وكان على وشك الانتحار بسببها.

انتهى كل شيء. المحقق الفاشل، الوحيد الذي يقتله تأنيب الضمير. لقد فكّ عقدة اللغز، ولا ينقصه الآن سوى وضع يده على الشاهد الأخير.

ميلاني بيلفوار.

ظهرت الشاحنة الصفراء الصغيرة في المنعرج، توقفت بالقرب من الكزنتيا، ثم خرج منها ساعي البريد، شابٌ بشعرٍ طويل قام بتصفيفه على طريقة الراستا ولفّه بشريط أحمر. رياضي البنية، من تلك النوعية القادرة على التجول بالدراجات في الدروب الضيقة للجبال...

وقف كريدول غران-دوك أمامه.

- من فضلك، أريد أن أطرح عليك سؤالاً. هل يمكنك أن تدلّني على عنوان المدعوّة ميلاني بيلفوار؟

رمقه ساعي البريد بنظرات حذرة.

- معذرة، لا أستطيع إفشاء هذه النوعية من المعلومات...

جواب كلاسيكي، لكن كريدول غران-دوك ابتهجَ من دون إظهار أيّ علامة على ذلك. لقد تصرّف ساعي البريد باسم «ميلاني بيلفوار». هو يعرفها! ضربة موفقة أخيراً. بقيت فقط مسألة استمالته! دسَّ ساعي البريد ثلاث رسائل في الصندوق المقابل، ثم عاد بسرعة نحو شاحنته الصغيرة.

- دقيقة واحدة يا بني، أنا أتكلم بجدية. أنا شرطي!

أشهرَ كريدول غران-دوك أمامه بطاقة المحقق الخاص الموثّقة

والموشومة بعلم الجمهورية الفرنسية، والتي كانت تفي بالغرض تسع مرات من عشرة.

- وما شأني أنا؟ أجابه الموظف دون أن يكلّف نفسه عناء التطلّع إليه. أنا أعمل الآن. تقدّم بطلب رسمي لرئيسي في العمل. فهو المكلّف بهذه الأمور الإدارية...

يبدو أنه يتعامل مع شخص مثير للعصبية، عليه أن يتمالك نفسه ويتصرّف معه بهدوء.

تظاهر غران-دوك بأنه مفوّض على عجلة من أمره.

- الأمر عاجل. هي مسألة حياة أو موت، لا أستطيع التصريح بأكثر من ذلك، لكن لكلّ دقيقة ثمنها...

تأمّله ساعي البريد طويلاً.

- آسف، لا أستطيع إخبارك، هذه أسرار مهنية. أعتقد بأنّ اتصالاً واحداً بالإدارة قد يكون كافياً ل...

- لا. لا وجود لميلاني بيلفوار في السجلّات الرسمية، على الأقل بهذا الاسم...

- هذا يعني أنها لا تريد إزعاجاً من أحد...

واضح جداً أنّ الحظ قد أوقعه مع أبله لا يمكن التفاهم معه بسهولة.

- من واجبكَ يا بني أن تساعد رجال الشرطة.

أطلق الموظف صفيراً وهو يحرّك خصلات شعره.

- معذرة يا صديقي. لستُ من تلك النوعية التي تظهر بمظهر المواطن الصالح أمام رجال الشرطة، فكما ترى لم يعُد ذلك مناسباً الآن... هيا، مع السلامة.

قالها ثم أشاحَ بوجهه.

- حسناً، قال غران-دوك. كم؟

تنهَّد ساعي البريد.

- كم ماذا؟

- بخصوص العنوان، كم؟ خمسة آلاف فرنك؟ عشرة آلاف فرنك؟

- هل هذه أساليب رجال شرطة؟

قالها ثم أطلقَ ضحكة ساخرة.

- أنا لا أصدّقك...

حسناً، انتهى وقت اللعب، فكر غران-دوك.

بهذه الطريقة لن يحصل على ما يريد من هذا الأبله، صعد ساعي البريد إلى شاحنته عندما التصقت الفوهة الطويلة للماتيبا بصدغه.

- كما ترى الآن فهذه أساليب رجال شرطة! قال غران-دوك.

ارتجف الشاب، كما لو أنّ كلّ لامبالاته تجاه صرامة غران-دوك قد ذابت في لحظة. وضع يديه على المقود بحركة غريزية.

- مهلاً. مهلاً.

- إذاً، ميلاني بيلفوار؟

- لا أعرف، لا أدري.

دفع غران-دوك مسدّسه بقوة أكبر، واستقرّ إصبعه على الزناد، فيما لوّث عرق صدغ ساعي البريد فوّهة مسدس الماتيبا.

- قلتَ لكَ بأنها مسألة حياة أو موت، بالنسبة لك أنت أيضاً الآن، سأعترف لك بشيء، أنا لستُ رجل شرطة، أنا قاتل متسلسل، قاتل موظفي البريد. مفهوم؟ أعاني من خوف مرضي من اللون الأصفر، وأقتل كلّ مَن يسخرون مني... إذاً، ميلاني بيلفوار؟

- أقسم لك بأن. . .

- حسناً، سأبدأ إذاً برصاصة في الركبة. لن تتسلق الجبال ولن تمارس رياضة التزلج أو التجوّل عبر الدرجات بعد الآن. . .

أمال غران-دوك الفوهة موجِّهاً إياها نحو الساق.

- حسناً، حسناً! صرخ ساعي البريد، لا داعي لكلّ هذه السخافات. هي تحمل الآن اسم زوجها، أو رفيقها ربما. لويزان. ميلاني لويزان. وتقطن في تلة قريبة، دي 34 بالقرب من مونبليار، خارج دانماري، الدارة الأولى، الوحيدة والمعزولة، بعد البلدة، بنوافذها ذات اللون الأزرق السماوي على ما أذكر. . .

- كيف عرفتَ ذلك؟

- لأنها تتوصّل حتى الآن ببعض الرسائل باسمها القديم ميلاني بيلفوار، ثلاث أو أربع مرات سنوياً.

- حسناً، كما ترى فالمسألة ليست بتلك الصعوبة. . .

أظهر غران-دوك ابتهاجه، لقد توصَّل الآن إلى الشاهد الأخير! هو الأول والوحيد الذي استطاع فعل ذلك. حتى وإن فتح أحدهم هذه النسخة القديمة من **ليست ريبوبليكان** وفهم اللغز وتوصّل إلى الحلّ، مَن غيره سيستطيع الوصول إلى ميلاني بيلفوار؟ مَن سيتوصل إليها بهذه السرعة؟ لا، هو هادئ الآن، ويملك أسبقية واضحة على الجميع.

- ما. . . ما الذي تريده من ميلاني بيلفوار؟

- لا تقلق يا صغيري، أنتَ حسّاس جداً. أريد فقط أن أحدِّثها عن الأيام الخوالي.

- 56 -

3 أكتوبر 1998، الثالثة زوالاً وثلاث وعشرون دقيقة

قادَ مارك الشاحنة متّبعاً حدسه. لكن السيتروين بدأت تتعثّر. لا، ليس هذا الوقت المناسب لذلك! بذلت المركبة كلّ ما في وسعها لمتابعة الطريق وصولاً إلى جبل تيريبل. تجاوز مارك أندفيلر ثم دخل إلى ممرّ من الحصى أبيض اللون، تحدّه قطع خشبية على امتداد بضع مئات من الأمتار. لن يضلّ الطريق، سيتبع المسار الذي تُشير إليه أسهم خشبية صغيرة على جانبَي الطريق: **بيت المنتزه الطبيعي لجورا العليا**.

توقّف مارك أمام بيت المنتزه، كان الشاليه محاطاً بحديقة واسعة، وزيّنت واجهته بخريطة كبيرة لمنطقة جورا الفرانكوسويسرية، التي تشير إلى مختلف مسارات المشي لمسافات طويلة. وجدَ بالقرب من موقف السيارات فضاء صغيراً يضمّ بعض الألعاب الخشبية، قضبان، مزلقة، وحبال ملساء قد تكون مخصّصة لهواة تسلق الجبال الصغار ممّن لم تُتعبهم مسارات المشي الطويلة رفقة آبائهم.

- إنها الرابعة زوالاً، قال مارك. قد نصلُ إلى القمة قبل حلول الليل.

حدجته مالفينا بنظرات ساخرة واضحة.

- على ماذا ستعثر هناك في الأعلى؟

- لا شيء، تعلمين جيداً أنكِ لستِ مُجبَرَة على اللحاق بي.

- كم أنت مغفّل. ولماذا تظنّني أتيتُ إلى هنا؟

دخل مارك إلى بيت المنتزه. اشترى خريطة للمنطقة ودليلاً طوبوغرافياً، وأمام ماكينة تسجيل المدفوعات النقدية فتاة سمراء لفَّت خصلات شعرها على شكل ضفائر هندية، فيما انشغل رجل بمداعبة يدها متظاهراً بمساعدتها في الضغط على الأزرار المناسبة، فيما لامست يده الأخرى مؤخرة المتدرّبة الشابة.

غريغوري بلا شك. فكّر مارك.

المهندس العامل في بيت المنتزه بعينيه الشبيهتين بعينَي كلب هاسكي. رجل الغابة الذي يهوى وضع قائمة يضمّ إليها مختلف المتدربات المتخرجات حديثاً من الجامعة.

لحق مارك بمالفينا. فردَ الخريطة أمامه فوق إحدى طاولات بيت المنتزه، وعثر بسرعة على المَسار الواجب اتّباعه للوصول إلى قمة جبل تيريبل. طوى الخريطة ثم فتح باب الشاحنة الخلفي وأخرج حقيبة ظهر دسّ فيها مخدة صغيرة، مصباحاً يدوياً، قنينة مياه معدنية، نقانق، وبعض العلب المليئة بالحلوى.

- إذاً فقد خطَّطتَ لرحلتكَ هذه؟ تبدو مؤخّرة شاحنتك شبيهة بمغارة علي بابا!

- منزل جدتي صغير جداً. وكما ترين فلا يتعلّق الأمر بمغارة أو مرآب، نحن مُجبرون على تحويل الشاحنة إلى مخزنٍ إضافي...

- هل يمكنني ملء حقيبتي أيضاً؟

- نعم، لكن لا تملئيها أكثر من اللازم، لا يجب أن تكون هذه الحقيبة أثقلَ منك.

- لا تحلم، أنت الذي ستذرف الدموع منادياً جدتك قبل بلوغك قمة الجبل!

أطلق مارك ضحكة عصبية، كان قد فقدَ الرغبة في التفكير بشكل عقلاني، أو البحث عن خطّة مناسبة. شعر بأنّ رحلته تلك كانت بلا معنى: تسلّق جبل تيريبل والعودة إلى مكان وقوع الحادث، ثم البحث عن الكوخ والقبر الذي تحدّث عنه غران-دوك الذي من الممكن أن يكون الآن في أيّ مكان إلّا هناك. انطبعت في ذهنه أفكار هي أشبه ما تكون بالهوس. سلسلة اليد الذهبية، بقايا عظام رضيع، آثار متشرّد قد يكون شاهداً على حادثة الاصطدام... هي أحجار صغيرة تركها غران-دوك. ما الذي يأمل مارك في العثور عليه بعد بلوغه قمة الجبل؟ المعجزة، الومضة...

قطَّب جبينه.

نعم، هذا ما يتمناه تحديداً.

واصلا طريقهما، وكما كان متوقعاً، استغرق ذلك ساعتين إضافيتين. تقدّم مارك بسرعة، فيما لحقت به مالفينا دون أن تُظهر أيّ علامة على التعب. لم يكُن صعودهما صعباً جداً، خمسمئة متر فرق ارتفاع في مسار واضح عبر الغابة. ومع صعودهما، بدا أمام ناظريهما نهر دوبس، وسويسرا، وبلدة سان-أورزان المحصّنة. توقفا

قليلاً لشرب الماء. كان الطقس حاراً بعض الشيء. تبلّل قميص مارك بالعرق، فيما احتفظت مالفينا بكنزتها الصوفية من دون أن تبلّل جلدها قطرة عرق واحدة. بلغا قمة جبل تيريبل عبر غابة كثيفة من أشجار الصنوبر، بمنحدرات سهلة التجاوز.

ضاعف مارك من سرعته، فيما تبعت مالفينا خطواته، وقد أوشكت على الالتصاق به. جعلهما المجهود العضلي متعاونَين. فاجأت هذه الفكرة مارك، قبل أن يتراجع ويقرّ بسخافتها في اللحظة الموالية.

ثم ظهر موقع الحادث أمامهما.

لم يجدا أيّ أثر للغابة أمامهما.

بدا كما لو أنّ حشداً من القرويين قد قاموا بقطع أشجار مساحة شاسعة من الجبل، وبدقّة مساح أرضي. مساحة طويلة وضيقة على شكل حزام عار، شريط عرضه أربعون متراً وطوله كيلومتر واحد تقريباً. تمّت زراعة أشجار صنوبر صغيرة، لم يتجاوز طولها متراً واحداً فقط، فبدت أشبه بجماعة من المبشّرين الأقزام الذين جرى إرسالهم لإعادة إحياء شعب من العمالقة. أقزام سعداء في ساحة ألعاب متعدّدة الألوان: كانت المساحة المستطيلة مغطاة بزهور الجنتيانا الصفراء والزرقاء، وزهرة فينوس، والأرنيكا بلونها الذي يميل إلى البرتقالي.

بقي مارك ومالفينا واقفين، جنباً إلى جنب. لم يتبقَّ أيّ أثرٍ من آثار المأساة، أيّ تذكار أو قطعة رخام ولا حتى علامة إشهارية. قد يكون ذلك أفضل، فكر مارك. آلاف الأزهار، وبعد عشرين عاماً قد يبلغ طول أشجار الصنوبر الصغيرة طول مثيلاتها في باقي أرجاء الغابة، كما ستتشابك أغصانها كأيادٍ تلمس بعضها، لن تزهر الورود

مرة أخرى مختنقة في الظلّ، ميتة بدورها، منسيّة لتترك مكانها للسرخسيات وربما الحشائش والنرجس البري في أفضل الأحوال.

وبعد ذلك سينسى كلّ شيء.

بقيا صامتين. كان مارك واقفاً في المكان نفسه بين الغابة والفرجة المستطيلة، كما لو كان عاجزاً عن انتهاك حرمة المكان. ابتعدت مالفينا قليلاً وهي تخطو على العشب بثبات. وقد بلغت الجذوع وسيقان النباتات الطويلة حدّ فخذيها. شعر مارك بتسارع دقات قلبه رغماً عنه، وازدرد ريقه بصعوبة. يدرك جيداً أنها العلامات الأولى لرُهاب الخلاء، وإن بدأت تظهر ببطء شديد، ربما بسبب وجوده على علوّ مرتفع. إنه ذلك الشعور السخيف بالخوف من الخوف...

لم يتفوّه بكلمة، ولم يتحرك، محاولاً استعادة إيقاع تنفّسه الطبيعي. ربما سمعته مالفينا وفهمته. استدارت نحوه. أجبرتها أشعة الشمس على إغماض عينيها قليلاً، فبدت مبتسمة، ابتسامة حزينة، هدنة سوداوية، ويأس هادئ. سعلَ مارك، لن يعترف لمالفينا بحقيقة اضطرابه، لكنه شعرَ بأن تنفسه ينتظم شيئاً فشيئاً. حتى لو أجبروه فلن يعترف بأن وجود هذه المجنونة بجانبه كان يُشعره بالأمان، بخاصة وهما في هذا الملاذ الذي يتقاسمان سره.

استغرق وجودهما هناك ساعة تقريباً. شحبَ وهج أشعة الشمس المطلّة فوق قمم الأشجار.

– هل نذهب إلى الكوخ؟ قال مارك بهدوء.

لم تُجِبْه، مفضّلة اللحاق به.

اضطرّ مارك للاستعانة بالخريطة عدة مرات. استغرقا ساعة

أخرى من التجوّل في الغابة وبين الفرجات المتشابهة. حتى خيِّل إلى مارك أن غران-دوك قد اختلقَ كلّ ما ذكره في دفتره. لم تُصدر مالفينا أيّ ردة فعل، بل وحاولت مساعدة مارك قدر الإمكان في أثناء محاولته فكّ شفرات الدليل الطوبوغرافي. ثم عثرا على الكوخ أخيراً مع حلول الظلام. إذاً فقد كان غران-دوك صادقاً! كان كما وصفه في دفتره: كوخ متواضع؛ أحجار فوق بعضها؛ سقف متهالك. خيِّل إلى مارك أنه سيجد غران-دوك بانتظارهما، فدسّ يده في جيبه بحركة آلية، متلمّساً مقبض الماوزر.

من أجل لا شيء.

كان الكوخ فارغاً. أكثر نظافة ممّا ذكر غران-دوك، وإن كان قد أشار أيضاً إلى قيامه بجمع كلّ البقايا والنفايات في أكياس بلاستيكية صغيرة خلال بحثه عن المدعو جورج بلوتييه.

وهل كان هذا الهارب موجوداً أصلاً؟

غادر مارك الكوخ للقيام بجولة في محيطه. كان كما ذكره غران-دوك تماماً. الأرض المقلوبة، الأحجار المتفرقة هنا وهناك، قطعتا الخشب المكسورتان غير بعيد عن المكان. تفاصيل أخرى لم يكذب غران-دوك بشأنها. يوجد بالفعل قبر بجانب الكوخ، قام المحقق بانتهاك حرمته مرتين بحثاً عن حلقة ذهبية وآثار عظام رضيع بشري.

ما الذي تغيّر الآن؟

ألقى مارك نظرة على ساعة يده.

السابعة مساء وست وثلاثون دقيقة.

لم يتوصّل بأية رسالة من ليلي. جلسَ على جذعٍ ميت لا يبعد

عن الكوخ سوى بأمتارٍ قليلة. غابت الشمس في هذا السقف من العالم. سقف عالمه على الأقل. بعيداً عن كلّ شيء، مصحوباً بفتاة مجنونة، وإن لم تكن مجنونة أو خطيرة أو سيئة إلى هذا الحدّ.

لقد خسرَ كلّ شيء. سيسمح لتلك الذكريات الموجِعَة بأن تهاجمه وتسيطر عليه. سيغرق في ذلك الماضي المرضي لينسى وجود ليلي في هذه الأثناء في غرفة عيادة مجهولة، في انتظار خضوعها لعملية إجهاض بعد ساعات قليلة، فقط لأنّ ثمرة حبهما قد تحوّلت إلى ثمرة مسمومة لا يمكن الإبقاء عليها، كإجراء وقائي. كما سينسى أنّ الوحيد القادر على مساعدته، هو قاتل جدّه، الذي يتجوّل الآن في مكان ما، حراً طليقاً، دون أن يتمكّن من تحديد مكانه بدقة.

تبعته مالفينا لتقول:

- كلّ شيء جاهز الآن!

كانت قد وضعت طرف ثوب وعليه قنينة الماء وعلب الحلوى والنقانق.

- وجبة شهية، أليس كذلك؟

أكلا بصمت. كان الكوخ مُضاءً بنور القمر، فبدا ككوخ حقير مسكون وسط غابة تملؤها الغيلان. كانا متأكّدين من تأخّر الوقت على النزول، وبأنهما مجبران على النوم هنا معاً. كانا متفقين على ذلك دون أن يتبادلا كلمة واحدة. لقد جاءا أصلاً من أجل ذلك.

قضاء ليلة في قمة جبل تيريبل.

يتيمان مفقودان في قبر بلا شواهد.

رتّبا المكان، ثم أخرج مارك من حقيبته دفتر كريدول غران-دوك الأخضر، وسلّمه إلى مالفينا.

- تفضلي، أعتقد بأنك تبحثين عنه منذ وقت طويل، أليس كذلك؟ قد تكونين أكثر ذكاء مني.

- هذه هي مذكرات ابن العاهرة؟

- كما تقولين...

- أشكركَ إذاً.

التقطت مالفينا الدفتر والمخدّة الصغيرة ومصباحاً يدوياً ثم دخلت إلى الكوخ، فيما ابتعدَ مارك ليتمشى قليلاً، مضيئاً مسار خطواته بمصباحه اليدوي. تجوّل في الغابة لدقائق طويلة. ووجدَ بعد عودته مصباح مالفينا وهو يضيء الكوخ بنور ضعيف محتشم، كنور شمعة في فانوس صغير.

دخل مارك فوجدها نائمة وقد انكمشَت على نفسها، فيما بقي دفتر غران-دوك مفتوحاً بالقرب من رأسها.

ابتسم مارك رغماً عنه أمام هذه الشابة الذي تكبُره بأربعة أعوام، والتي عذَّبتها الآلام المتراكمة، رقّ قلبه، شاعراً بكونها شقيقة صغرى ثانية يجب عليه أن يحميها. اقترب منها بصمت، ثم التقط الدفتر الأخضر وغادر الكوخ ليجلس على الجذع نفسه، تصفّح الأوراق بحركة ميكانيكية، وصولاً إلى الصفحة الأخيرة والسطور الأخيرة.

لقد أحصيت في هذا الدفتر كلّ الأدلة، كل الآثار، كل الاحتمالات. ثماني عشرة سنة من التحقيقات. كلّ شيء مدوّن في هذه الصفحات المئة. إذا ما طالعتموها بتمعّن ستعرفون كل شيء،

وبقدر معرفتي نفسه. ربما ستكونون أكثر ذكاء؟ ربما ستتبعون وجهة أهملتها أنا؟ ربما ستعثرون على مفتاح اللغز، إن كان موجوداً أصلاً؟ ربما...

لمَ لا؟

انتهى كل شيء بالنسبة لي.

من المُبالغ فيه القول إنني لا أشعر بأيّ ندم أو تأنيب للضمير، لكنني بذلتُ كلّ ما في وسعي.

«لكنني بذلت كلّ ما في وسعي».

لم يراوده أيّ حدس. حاول الاتصال بليلي، لكن شبكة التغطية كانت منعدمة في قمة الجبل. كان غاضباً وبدأ يلوم نفسه على غبائه. لم يكن القدوم إلى هنا فكرة موفّقة. سيقرأ الرسائل المخزّنة في ذاكرة الهاتف، وبدأ بقراءة الرسالة الأخيرة التي توصّل بها عندما كان في الشاحنة بعد ظهر اليوم:

مارك، سأدخل قاعة العمليات في العاشرة من صباح الغد. لا تقلق، سيكون كلّ شيء على ما يرام. سأتصل بك فيما بعد. قبلاتي. إيميلي.

غداً في العاشرة صباحاً.

شعر فعلاً بأنه لا يصلح لشيء.

أضفى نعيبُ البوم جواً مشؤوماً على ليلته تلك. قد يكون بوماً أو بومة أو حتى غران-دوك نفسه، ابتسم مارك لنفسه. هو لا يعرف

الكثير عن الطيور الجارحة. كما أنّ هذا الطائر يتوارى غالباً بين أغصان الأشجار، مختفياً عن الأنظار.

سلّط مارك مصباحه اليدوي على المساحة أمامه، لم يكُن يضيء سوى الأوراق الميتة.

- أين أنت؟ قال بصوتٍ عالٍ.

ضاع صوته بين الجبال.

- مراوغ، أليس كذلك؟ تحتمي بالظلال؟ كم مرّ من الوقت وأنت هنا في قمة هذا الجبل، تراقب وتتجسّس على القادمين؟ ماذا عن الطائر الحديدي الضخم الذي تحطّم في مملكتك قبل سنوات، هل كنت شاهداً على الحادث؟ وجورج بلوتييه الذي كان ينام في الكوخ، والقبر الذي قام بحفره، وسلسلة اليد، هل رأيت كلّ هذا أنت أيضاً؟ وغران-دوك، هل رأيته؟ ماذا رأيت؟ أجبْني!

أجابه نعيب خيِّلَ إليه أنه مستمتع بإثارة أعصابه.

- أنت تسخر مني، أليس كذلك؟ أنت واثق من أنني وصلت إلى طريق مسدود؟ لستَ مخطئاً. تخيّل معي... فقط تخيل. قد تكون صغيرتي في الثانية عشرة من عمرها. ونحن وحيدان في الهواء الطلق، تحت خيمة. وأنا أقول لها شيئاً ما على شاكلة: «كما ترين يا صغيرتي، في تلك الليلة، كنت في قمة الجبل وسط الضباب، لكنني كنت مطالباً بالعثور على الحلّ قبل العاشرة من صباح الغد، وإلّا ما كنتِ لتأتي إلى هذا العالم لرؤية هذه النجوم ولم أكُن لأسمع ضحكتك وألمس أصابعك الصغيرة وأحتضنك بين ذراعي، لقد أنقذك والدك بصعوبة، كان ذكياً جداً في تلك الليلة».

سلّط ضوء المصباح اليدوي على الأغصان فطار خيال أسود، قد يكون طائراً ليلياً.

- معك حق، أنا أهذي...

عاد مارك إلى الكوخ. كان قد شعرَ بالبرد. تمدَّد بالقرب من مالفينا. استلقى على ظهره وعيناه نحو السماء التي تظهر عبر شقوق في السقف. يجب عليه أن يواصل التفكير بغية الوصول إلى الحلّ، سيعذّب نفسه بنفسه، أن يبحث في لاوعيه وذاكرته لعلّه يعثر على شيء ما، أي شيء قد يكون مفتاحاً للحلّ. يجب عليه أن يستغلّ كلّ دقيقة في الساعات المتبقية.

كانت مالفينا نائمة بالقرب منه، نوم مضطرب بتغييرها لوضعيتها باستمرار دون أن تستيقظ، وكانت تطلق صرخات قصيرة من وقت إلى آخر، ثم اقتربت شيئاً فشيئاً من مارك باحثة عن دفء جسده. هل سبقَ لها النوم مع رجل؟ بالقرب من رجل؟

تجاوزت الساعة منتصف الليل قبل وقت طويل. لم يغمض لمارك جفن طوال الليلة الماضية، فنام هذه المرة دون أن يشعر بذلك.

كان متعباً للغاية.

نام ثلاث ساعات.

ثم أيقظته صرخة مالفينا فجأة. صرخة شيطانية مخيفة. كانت ترتجف واقفة وقد جعلتها خصلات شعرها غير المرتّبة أشبه بساحرة خائفة. وتقافزت ساقاها النحيفتان تحت الكنزة الصوفية التي نامت بها.

- هل... هل أنتِ بخير؟ قال مارك بصوت هامس.

- نعم، نعم، لا تقلق بشأني، صرتُ معتادة على ذلك.

عادت إلى موضعها، فتأمَّلها مارك بقلق.

- قلت لكَ إنني بخير!

- هل أنتِ متأكدة من ذلك؟

- نعم، عُدْ إلى نومك، لا تبالغ، لستُ بحاجة إلى جليسة أطفال، عُدْ إلى نومك!

- لست متأكداً من قدرتي على النوم مرة أخرى. . .

- قُمْ بمصّ إبهامك، أعتقد بأنك قد تعودت أيضاً على كوابيسك. . . تدبّر أمرك إذاً!

أدارت مالفينا ظهرها، فلامس كيس نومها كيسه. بقي مارك مستيقظاً.

أشارت عقارب الساعة إلى الرابعة صباحاً. إما الآن أو لا شيء. سيحاول القيام بشيء ما، وإلّا سيفوت الأوان.

كانت مالفينا قد نامت.

ماذا سيفعل؟ واصلت عينا مارك تأمّل الظلام. كانت النجوم تَظهر وتختفي غالباً تحت تأثير سحب غير مرئية تدفعها رياح جورا، كشهبٍ مزيفة تبحث من خلالها عن أمنيات لن تتحقّق. كنور طائرة ليلية لا تفرق بينهما وبين نور نجمة بعيدة، قريبة وسريعة الزوال.

ماذا سيفعل؟

قادته أفكاره مرة أخرى إلى السطور الأخيرة للدفتر الأخضر، لهذا الانتحار المجهض.

هل كانت حيلة من غران-دوك؟

هل اكتشف شيئاً جديداً بالفعل، بعدما انتهى من كتابة مذكراته ووضع قلم الحبر على المكتب؟ خمس دقائق قبل منتصف الليل؟ حدث جديد لم يدوّنه في دفتره؟ حاول مارك التذكر، ماذا قالت

مالفينا بالأمس؟ حاول التركيز. اختفت تجمّعات النجوم في السماء كالدبّ الأكبر والنسر، فيما استعاد ذهنه كلمات مالفينا:

«لقد اتصل كريدول غران-دوك بجدّتي أول أمس، كان على قيد الحياة وقتئذٍ، أخبرها بأنه عثر على شيء ما، اعتبر أنه قد يكون حلاً للقضية كلها، هكذا قبل خمس دقائق من اليوم الأخير! في اللحظة التي كان يستعدّ فيها لإطلاق رصاصة على رأسه، وأمامه نسخة من ليست ريبوبليكان ليوم 23 ديسمبر 1980! كان بحاجة إلى يوم أو يومين لتجميع الأدلة، وإن أصرّ على أنه متأكّد من توصّله إلى حلّ اللغز أخيراً، كما طالب بمئة وخمسين ألف فرنك إضافية أيضاً». . .

قلَّب مارك كلماتها في ذهنه أكثر من مرة. إن لم تكن حيلة جديدة من غران-دوك، فقد اكتشف بالفعل حلّ القضية وهو يستعدّ لإطلاق رصاصة على رأسه في مكتبه، شارع بوت-أو-كاي، أمام المدفئة التي التهمت نيرانها أرشيف ملفات التحقيق. فتش مارك المكتب أوّل أمس ولم يعثُر على شيء، الشيء نفسه بالنسبة إلى مالفينا، لم يعثرا سوى على جثة. حاول مارك تخيّل مشهد انتحار كريدول غران-دوك. فوهة المسدس بالقرب من صدغه، وحبر الصحيفة الممتزج بدمائه. لماذا تراجع غران-دوك عن قراره؟ ماذا سمع؟ ماذا رأى؟

ماذا قرأ؟

ثم جاءت الفكرة بشكل طبيعي: ليست ريبوبليكان ليوم 23 ديسمبر 1980! كانت الصحيفة آخر ما رآه غران-دوك.

وماذا لو كان الحلّ موجوداً في صحيفة عمرها ثماني عشرة سنة؟ لمَ لا؟ إن لم يكُن ذلك أثراً فسيكون هدفاً.

نهض مارك بلا صوت، متجنباً إيقاظ مالفينا التي واصلت

إطلاق صرخاتها القصيرة في نومها المضطرب، ثم ألقى بحاجياته في حقيبة ظهره، وأخرجَ واحدة من صفحات دفتر غران-دوك الممزقة وكتب في ظهرها:

ذهبتُ للبحث عن هلاليات.

مارك

ألقى بالورقة أرضاً، بالقرب من رأس مالفينا. وترك لها الدليل الطوبوغرافي محتفظاً بالخريطة. ألقى مارك نظرة أخيرة على الجسد الصغير للفتاة المحتمية بكيس النوم الواسع بلونيه الأزرق والرمادي. هو واثق من أنها ستتمكن من تدبر أمرها بنفسها.

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد، لكن وضوحاً ضعيفاً سمح له بتبيّن خطّ قمة الجبل. كان ذلك فجر اليوم الأخير.

تخيل ليلي نائمة في غرفة بيضاء.

وبدأ رحلته.

- 57 -

4 أكتوبر 1998، السادسة صباحاً وخمس دقائق

السادسة صباحاً. تمطى غران-دوك داخل سيارة كزنتيا، كان قد توقّف في طريق ترابية صغيرة، مباشرة خارج دانماري، تجاهد النباتات فيها للبقاء حية بين الأخاديد. أمتاراً قليلة قبل الوصول إلى دارة ميلاني بيلفوار، أو ميلاني لويزان، بحسب هويتها الجديدة.

كان تمركزه مثالياً، ما سيمكّنه من التعرّف على السيارات القادمة من دانماري بسهولة، حتى قبل مرورها أمامه. أن يرى دون أن يُرى. أبسط أبجديات مهنته. تذكّر غران-دوك أنّ سنوات طويلة مرّت منذ آخر سهرة حراسة له أيام عمله كتحرٍّ خاص. ذكَّره ذلك بشبابه، قبل توقيع عقده مع دو كارفيل، أيام سهره أمام الكازينوهات والملاهي الليلية في سواحل نيس ومنطقة الباسك. حتى كزنتيا ناظم كانت شبيهة إلى حدّ ما بالسيارات التي استخدمها في تلك الفترة لانعدام شروط الراحة بها.

بحث كريدول غران-دوك عن ترموس في الدرج الأمامي للسيارة، ثم صبّ لنفسه بعض القهوة في كأسٍ من البلاستيك، وقطّب جبينه بمجرّد احتسائه لجرعات صغيرة من السائل الساخن.

ما زال أمامه الكثير من الوقت. لن تعود ميلاني بيلفوار إلّا في التاسعة صباحاً. هي تعمل ممرضة مناوبات ليلية في المركز الاستشفائي في بيلفور-مونبليار. حادثَها كريدول غران-دوك طويلاً عبر الهاتف، قبل تسلّمها لمناوبة الليلة الماضية، وقام بتسجيل المحادثة كأقل ردّ فعل على تمنّعها الطويل قبل تمكّنه من الإيقاع بها. ثم قضى الجزء الأكبر من ليلته في مأوى جينيفيز، يُعيد كتابة المحادثة مستعيناً بحاسوبه الشخصي، ليطبع منها نسخة في النهاية.

ألقى غران-دوك نظرة على المقاعد الخلفية للسيارة حيث استقرّت النسخة في ظرفٍ مغلق، وما على ميلاني بيلفوار-لويزان سوى توقيعها.

واصل غران-دوك شرب قهوته وإن شعرَ بسوء مذاقها الأقرب إلى مذاق البلاستيك.

كم سيدفع آل دو كارفيل مقابل هذا الظرف؟ ثروة بلا شك. ثروة حقيقية، ما يُعادل على الأقل مجموع الرواتب التي تلقّاها طوال الثمانية عشر عاماً الماضية...

لم يشك غران-دوك أبداً في قدرة آل دو كارفيل على الدفع، هم يملكون الإمكانات، إمكانات لا محدودة. بكم يمكنهم شراء ذمّته هو؟ بأوراق مالية تملأ برميل دانايد؟(*)

عضّ شفتيه بفعل حرارة القهوة، وألمه الداخلي أيضاً... انقبض قلبه. كان بإمكانه تقسيم هذه الثروة المنتظرة إلى قسمين...

(*) برميل دانايد: برميل أسطوري من الميثولوجيا الإغريقية، تملؤه بعض النسوة باستمرار لأنه مثقوب، يُضرب به المثل في عصرنا الحالي للتعبير عن القيام بعمل متواصل بلا نهاية. (المترجم)

فقط لو وافقه ناظم. قد لا يقسمها إلى قسمين متساويين، لكنه سيمنح ناظم وآيلا ما يكفيهما للحصول على الفيلا التي يحلمان بها في تركيا، لكن ناظم رفضَ بجُبن، معتبراً أنّ القضية قد انتهت، وأن آل دو كارفيل دفعوا ما يكفي من الأموال. يعلم كريدول غران-دوك جيداً أنه أخطأ بتشديده لهجته. صحيح أن ناظم شخص طيب للغاية، إلّا أنه عصبي أيضاً.

«كريدول، إن لم تتركني وشأني سأقوم بتبليغ الشرطة، تعلم بأنني قادرٌ على ذلك، منذ بدأ ضميري يؤنبني...

- منذ بدأ ضميرك يؤنبك؟ ماذا تقصد؟»

شعر كريدول غران-دوك بالخوف. من النادر أن يتكلّم ناظم بلا معنى أو قصد. طلب منه غران-دوك تفسيرات وضمانات، ثم خرجت الأمور عن السيطرة. استلّ ناظم سلاحه أولاً، لكن كريدول غران-دوك كان الأسرع في إطلاق النار. هذا كلّ ما في الأمر. لم يكُن قتل ناظم في حسبانه أبداً، قبل أن تتوالى الأفكار بسرعة بعد سقوط ناظم أرضاً، جثة هامدة بالقرب من المدفأة. فدفع غران-دوك رأس ناظم قليلاً داخل الموقد حتى يصعُب التعرّف على ملامحه، ثم حلقَ شاربه وألبَسَه ملابسه وحذاءه وساعته، كسباً للوقت في حالة ما إذا دفع الفضول ليلي أو مارك إلى زيارة المكان. لم يخطّط غران-دوك أيضاً لقتل آيلا، لكن لم يعُد من خَيار أمامه وقتئذٍ. هو يعرفها جيداً، ويدرك أنها كانت ستبلغ الشرطة بلا تردّد. كان ناظم على علم بمحاولة قتل الجدين فيترال، وإن لم يشارك في العملية، وواضح جداً أنه قد أفضى لزوجته بكلّ شيء. أكان عدم اهتمام ناظم بإبعاد زوجته عن شؤونهما خطأه هو؟ كانت قد اتصلت به البارحة، تاركة رسائل مذعورة، ما أجبَرَه على العودة إلى باريس، خمس ساعات

عبر الطريق السيار، ثم استدراجها، من محلّها في راسباي إلى بوت-أو-كاي، ثم غابة كويفراي. والتخلص منها هناك، كانت فرصة لا تعوّض. قبل العودة إلى جبال جورا، بمئة وثمانين كيلومتراً في الساعة عبر الطريق السيار أ39، لإنهاء هذه القصة إلى الأبد.

شرب غران-دوك ما تبقّى من قهوته بصعوبة، مقطّباً جبينه مرة أخرى.

ناظم أوزان، آيلا أوزان.

صديقاه الوحيدان، طوال هذه السنوات. مقتولان على يده هو.

يا لسخرية القدر!

نعم، آل دو كارفيل قادرون على دفع المبلغ المطلوب!

لم يُرِدْ ولم يقرِّر شيئاً، كلّ ما جرى كان رغماً عنه، دوامة طويلة، عزاؤها الوحيد كان سعيداً لحسن الحظ.

ميلاني بيلفوار.

الضيفة المفاجَأة.

ألقى كريدول غران-دوك نظرة على ساعة سيارة كزنتيا، بأرقامها الخضراء اللامعة.

السادسة صباحاً وخمس عشرة دقيقة.

ما زال أمامه الكثير من الوقت.

كما أنه يسبق الجميع، وبمسافة كبيرة.

- 58 -

4 أكتوبر 1998، السادسة صباحاً وتسع وعشرون دقيقة

أوقف مارك شاحنة السيتروين في موقف السيارات بوسط مدينة مونبليار، على بُعد أقل من خمسين متراً من مكاتب ليست ريبوبليكان. استغرق نزوله من جبل تيريبل ساعة ونصف ساعة تقريباً، وجد الشاحنة بانتظاره أمام المنتزه الطبيعي، واحتاج إلى ساعة إلّا ربع للوصول إلى مونبليار. دلّه نادل مقهى على عنوان ليست ريبوبليكان، 12، ساحة جول فييت.

كانت مكاتب الصحيفة مغلقة! هذا منطقي في مثل تلك الساعة المبكرة، هل كان يتوقع شيئاً آخر؟

تقدّم، متمسّكاً في قرارة نفسه بذلك الوهم: الوصول إلى الحقيقة الكاملة قبل دخول ليلي إلى قاعة العمليات، بعد أقل من أربع ساعات من الآن.

وجد أمامه ستاراً حديدياً منعه من تبيُّن أي شيء داخل المكاتب، استدار متأمّلاً موقف السيارات الذي أوقف فيه شاحنته. لاحظ وجود ثلاث شاحنات تحمل شعار ليست ريبوبليكان. يبدو أن توزيع جرائد الصباح لم ينتهِ بعد، ما يعني أنه لم يفقد كلّ شيء حتى الآن!

تحرّك مارك على الرصيف بسرعة، متخذاً طريق محجّ كوفيي، قبل الاستدارة والدخول إلى ردب موريس دولورين، فوجد شاحنة صغيرة متوقفة وثلاثة عمال عاكفين على تعبئتها بأكوام من الجرائد المغلَّفة بالسيلوفان، فيما ارتفع صوت المذيع في إذاعة محلية، وهو يعرض توقعات الأبراج لهذا اليوم.

- صباح الخير، قال مارك. ما زالت المكاتب مغلقة؟

عضّ شفته بسرعة. يا لغباء سؤاله. تأمّله العامل للحظات قبل أن يُجيبه دون أن ينزع السيجارة من فمه:

- كم أنتَ محظوظ، سأفتح المكاتب بعد خمس دقائق من الآن.

تحمَّس مارك لبارقة الأمل هذه، لكن العامل سرعان ما تابع كلامه:

- فقط بما يسمح لي بارتداء تنورة، وبعدها سأكون لك.

انفجر زميلاه ضاحكَين، فاستوعبَ مارك الدعابة السخيفة.

- عُدْ بعد ثلاث ساعات يا عزيزي، كما ترى فنحن مشغولون الآن...

تسمّر مارك أمام العامل. كان يفوقه ببضع سنتيمترات، فحاول تلطيف الأجواء بالقول:

- لا أستطيع الانتظار أكثر يا سيدي. هي مجرّد خدمة صغيرة أطلبها منك. ألا يوجد مَن يمكنه فتح المكاتب الآن؟ أحتاج فقط للتأكد من معلومة معينة...

- يمكنه أن يطلب ذلك من الموظفة المسؤولة، أجابه صوت عامل آخر من داخل المستودع.

مكتبة

انفجر العمال الثلاثة ضاحكين من جديد دون أن يتفاعل مارك مع سخريتهم.

- حسناً يا بني، ما دمتَ مصرّاً إلى هذه الدرجة.

ضغط العامل على هاتف داخلي صغير.

- سيدة مونتيغو؟ ينتظركِ أحدهم في مدخل المستودع.

ظهرت مَن يُفترض أنها السيدة مونتيغو بعد بضع دقائق. كانت هذه المسؤولة سيدة أنيقة ترتدي سترة وتنورة متناسقتين مع قوامها، التنورة واصلة إلى ركبتيها، ساقاها مسمرتان وترتدي حذاء أحمر جميلاً؛ لكنها أفسدت كلّ هذه الأناقة بوجه صارم أكثر من اللازم، يعبِّر بوضوح عن سنوات طويلة من الصبر في سبيل صعود درجات السلم الإداري في هذه المؤسسة. ترتدي نظارة مائلة قليلة على أنفها، وتحمل في يد أوراق جداول حسابات، وقلم حبر في اليد الأخرى. إنها المسؤولة...

- ماذا تريد؟ قالت صاحبة الملامح الجافة.

حاول مارك وضع خطّة ارتجالية. ماذا سيقول؟ أيّ مبرّر سيخترعه حتى يدفع السيدة مونتيغو للموافقة على طلبه بفتح ملفات الأرشيف في السابعة صباحاً؟ تهديدها بالماوزر إل 110؟ لا، هذه فكرة سخيفة...

- إذاً؟ أصرّت مونتيغو، ملقيةً نظرة من فوق نظارتها على ساعة يدها.

قال مارك بنبرة قلقة:

- اسمعيني، أنا... أنا بحاجة إلى الاطّلاع على عدد قديم من

صحيفة ليست ريبوبليكان. عدد قديم جداً. أنا بحاجة إلى الاطّلاع على عدد يوم 23 ديسمبر 1980...

رسمت المسؤولة ابتسامة صغيرة على وجهها.

- يبدو لي أنّ الأمر عاجل جداً...

- بل أكثر من ذلك...

- حسناً... حتى لو كان الأمر كذلك، يمكنك الانتظار حتى الافتتاح المعتاد في التاسعة صباحاً.

لم يفوّت العمال الثلاثة كلمة من هذا الحوار، رغم انشغالهم بتعبئة الصحف، في الوقت الذي دارَت فيه مونتيغو على عقبيها مبتعدة، وهي تضرب الأرض بكعب حذائها الدقيق والطويل.

- لا! صرخ مارك.

استدارت المسؤولة مرة أخرى، مُظهِرَة امتعاضها الشديد هذه المرّة، لكن مارك واصل كلامه بلا وعي تقريباً:

- اسمعيني... زوجتي حامل. حامل بابننا. لكنها تخطط للقيام بعملية إجهاض بعد ساعتين من الآن لأنها تملك شكوكاً قوية حول الهويّة الحقيقية لوالديها، فيما أملك أنا أسباباً قوية للاعتقاد بأنّ الدليل القاطع على هذه الهوية موجود في هذا العدد من الصحيفة...

اتّسعت عينا مونتيغو في تعبيرٍ واضح عن الصدمة، فيما تسمّر العمال الثلاثة في أماكنهم مذهولين. حدجتهم مونتيغو بنظرات نارية فواصلوا عملهم بشكلٍ آلي، قبل أن توجّه ناظريها إلى مارك.

- تريد حرمان زوجتك من حقّها في الإجهاض، أليس كذلك؟ هل أنتَ واثق من أن...

- اللعنة، أجابها مارك صارخاً. ليس هذا وقت الدخول في

مهاترات نسوية سخيفة حول حقوق المرأة! أريد فقط إلقاء نظرة على هذه الصحيفة. امنحيني فرصة، مجرد فرصة صغيرة . . .

بدا أنه قد نجح في زعزعة صرامتها الظاهرية، فتابع:

- تذكرين كارثة جبل تيريبل على الأقل؟

هزّت رأسها نافية، هذا منطقي، فكر مارك، ربما لم يكن عمرها يتجاوز العاشرة آنذاك، لا بأس، سيواصل. . .

- كانت ليست ريبوبليكان الصحيفة الوحيدة التي ركّزت على الحادث بعد وقوعه، اليعسوبة، أعجوبة الثلوج! هي المعنية بهذا الأمر. أنا أبحث عن هذا العدد بالذات!

لم يبدُ على المسؤولة أنها قد فهمت شيئاً، كانت منزعجة. لقد تعلّمت في مدرسة التسيير ألّا تتخذ القرار إلّا بعد امتلاك العناصر اللازمة التي قد تعطيها فكرة شاملة عن الوضع.

- مارسيل، أنت تعمَل في هذه المؤسسة منذ أربعين سنة، هل تذكر قصة تحطّم الطائرة في جبل تيريبل؟

لم يكن مارسيل ينتظر سوى هذه الإشارة ليرمي سيجارته بعيداً ويقول:

- كانت هذه أضخم كارثة تشهدها المنطقة يا سيدتي. فترة أعياد الميلاد سنة 1980. ما يقارب مائتي قتيل، هناك في الأعلى، قريباً من. . .

- هل تدخّلت جريدتنا في الموضوع؟

- بالطبع! كانت الصحيفة الوحيدة التي ركّزت على القضية، منذ صباح اليوم الموالي، خاصة فيما يتعلق بالناجية الوحيدة، وهي رضيعة صغيرة، كما تناقلت كلّ القنوات التلفزية هذا الخبر بعد

ذلك، لقد تابعت الصحيفة تطورات الأحداث لشهور طويلة... هذه هي التفاصيل، ولكن...

- هل تذكر اسم الرضيعة الناجية؟ قاطعته المسؤولة.

- طبعاً، مَن ينسى ذلك الاسم؟ إيميلي فيترال. طفلة نورماندية.

التفتت مونتيغو إلى مارك.

- وأنت، مَن تكون؟

- مارك، فيترال...

- زوجها؟

تردّد مارك للحظات.

- نعم... لا... إنها... المسألة بالغة التعقيد...

لم تعلّق.

- متى تعتزم زوجتك إجراء عملية الإجهاض؟

- العاشرة...

- هنا؟

- لا، في باريس.

- هذا جنون. أنت مجنون...

- الأمر عاجل جداً، أريد إلقاء نظرة على هذه الصحيفة، إن تمّ إنقاذ الطفل أعدكِ بأن تكوني العرابة!

أطلقت المسؤولة ضحكة ساخرة.

- كلام فارغ! إلّا هذا، أنا أكره الأطفال.

تجاوزت تردّدها الأخير لتقول:

- حسناً، اتبعني.

قادته مونتيغو إلى طابق تحت الأرض، في قاعة واسعة جعلوا

منها مستودعاً للأرشيف. الجدران بلا طلاء، ولا وجود لنوافذ، وحدها مصابيح طويلة تنير المكان بضوء أبيض. كان الترتيب في غاية البساطة، فقد جمعت أعداد صحيفة ليست ريبوبليكان في خزانات خشبية، بحسب ترتيب السنوات والفصول.

فتح مارك دُرج عام 1980، سبتمبر- ديسمبر. بحث مباشرة في آخر الدرج فعثر على عدد 23 ديسمبر بسهولة تامة، ثم وضعه على طاولة العمل وسط القاعة.

شَغَلَت صورة ملوّنة كبيرة الجزء الأكبر من مساحة الصفحة الأولى: حطام طائرة وسط أشجار محترقة. مشهد مرعب. بدا أنّ الثلوج والنيران والفولاذ قد اجتمعت للقضاء على أيّ علامة على الحياة. ليظهر الأمل في صورة أخرى أصغر من الأولى، تكشف عن رجل إطفاء يحمل بين يديه رضيعة أمام مستشفى بيلفور-مونبليار. ليلي بطبيعة الحال. مع بضعة أسطر تعليقاً على الصورة:

تحطم درامي للإيرباص 5403 إسطنبول -باريس، على منحدرات جبل تيريبل، على الحدود الفرنسية السويسرية، ليلة 22 إلى 23 من ديسمبر 1980. مئة وثمانية وستون من أصل مئة وتسعة وستين من ركاب وطاقم الطائرة لقوا مصرعهم، إمّا في الحال أو بفعل النيران. الناجية الوحيدة بأعجوبة، رضيعة تبلغ من العمر ثلاثة أشهر، قذفت بعيداً أثناء الاصطدام، قبل اشتعال النيران في الطائرة.

هذا كل شيء.

قضى مارك عدة دقائق وهو يتأمل الصور، الوجوه، بدن الطائرة، ألسنة اللهب، كلّ شجرة على حدة، آثار الأقدام على الثلوج، كما قرأ وأعاد قراءة تلك الأسطر أكثر من مرة.

لا شيء، لا جديد.

طريق مسدود مرة أخرى، وبشكل نهائي هذه المرة.

أمسك مارك برأسه بين يديه، ثم اعتدل قليلاً ليلقي نظرة على جدران الغرفة البيضاء.

هنا، وفي تلك اللحظة بالذات، استقرّت عيناه على باقي الأخبار التي تضمّنتها الصفحة الأولى من الجريدة، لا شيء تقريباً، انتصار إف سي سوشو على آنجير بثلاثة أهداف مقابل هدف وحيد؛ مظاهرة لعمال صناعة النظارات بالقرب من موريز في جورا العليا؛ تفاصيل جولة بابا نويل في بلديات المنطقة...

وجد أسفل الصفحة إشعار بحث عن مختفية، إشعار من بضع كلمات فقط.

ميلاني بيلفوار. 18 سنة. اختفت منذ ثلاثة أسابيع.

تم إرفاق الإشعار بصورة تعريفية ملونة. بطول ثلاثة سنتيمترات وعرض سنتيمترين.

كاد مارك أن يفقد وعيه. مستحيل. لا يمكن لهذه الصورة أن تكون حقيقية، قد تكون مزيفة.

وجه هذه الفتاة، ميلاني بيلفوار، التي تبلغ من العمر ثماني عشرة سنة، هو وجه ليلي بالذات.

لا، ليست صورة فتاة تشبهها، بل صورتها هي، العينان نفسهما شديدتا الزرقة، شكل الخدين نفسه، الابتسامة ذاتها، نقرة الذقن نفسها، وإن اختلفت تسريحة الشعر بشكل طفيف، فشعر ليلي كان أقصر قليلاً.

كانت الصورة المنشورة في هذه الصحيفة نسخة طبق الأصل عن صورة ليلي المطبوعة في بطاقتها الجامعية وصورة بطاقة النقل والصورة التي يحتفظ بها مارك بحرص في محفظته.

يا له من جنون!

صفحة واحدة من جريدة 23 ديسمبر 1980 تحمل صورتين، واحدة لليلي في شهرها الثالث، يحملها رجل إطفاء أمام المستشفى، والثانية لليلي في الثامنة عشرة من عمرها، جميلة، مبتسمة، كما تركها قبل يومين، في 2 أكتوبر 1998...

هل جنّ أم ماذا؟

هل يعيش كابوساً يتوجّب عليه أن يُنهيه الآن، ليجد نفسه بالقرب من ليلي، غارقاً في عرقه؟

أو أسوء من ذلك؟

بالقرب من مالفينا، في ذلك الكوخ بجبل تيريبل؟

- 59 -

4 أكتوبر 1998، السابعة صباحاً واثنتا عشرة دقيقة

تسلَّلت أشعة الشمس عبر فتحات سقف الكوخ، رفيعة كأشعة الليزر التي تحمي خزنة بنك في فيلم بوليسي. لامس شعاعٌ وجه مالفينا، فتلذّذت بداية بالحرارة اللطيفة على خدّها، قبل أن تتقلّب في كيس نومها عدة مرات، وتفتح عينيها في النهاية.

بحثت يدها عن كيس النوم المجاور، كيس مارك.

لم تلامس يدها سوى الأرض الجافة.

لا أحد.

لا أكياس نوم. لا أجساد دافئة. لا شيء.

مجرد رسالة مقتضبة، مكتوبة على ورقة.

ذهبت للبحث عن «كرواسان».

مارك

المغفل! ويحسب نفسه صاحب حسّ فكاهي أيضاً!

وجدت الدليل الطوبوغرافي بجانب الورقة. الرسالة واضحة: «تدبّري أمرك بنفسك!».

نهضت مالفينا متذمّرة. يا له من أبله! كان عليها أن تصدّق شكوكها، وألّا تثق أبداً بشخص من عائلة فيترال. كانت أذكى من ذلك في السابق، لكنها وحيدة الآن في قمة جبل تيريبل، ليس معها سوى هاتفٍ محمول خارج التغطية. خدعها مارك كما لو كانت طفلة صغيرة، ولا حلّ أمامها سوى الهبوط.

تركت مالفينا كلّ شيء في الكوخ، كيس النوم، بطارية الإضاءة، بقايا طعام الأمس، ثم غادرت المكان. ولم تكلّف نفسها في أثناء الهبوط عناء النظر إلى أشعة شمس الصباح المزعجة التي جعلت قمم الجبال السويسرية أشبه ما تكون بجبال الهيمالايا.

ساعة بعد ذلك، وجدَت المنتزه الطبيعي أمام ناظريها، وبعض الأطفال يلهون بالألعاب الخشبية، فيما انشغل الآباء، أمتاراً قليلة خلفهم، بعقد أربطة أحذيتهم المخصّصة لهذه النوعية من الرحلات، وهو ما يستغرق منهم وقتاً طويلاً.

لا أثر لأي شاحنة سيتروين في موقف السيارات. المسألة واضحة، لقد تخلى عنها هذا القذر ابن عائلة فيترال بالفعل!

ألقت نظرة على هاتفها المحمول بحركة آلية، فتبيَّن لها وجود تغطية. ستتمكن أخيراً من مغادرة هذه الحفرة. أثار انتباهها ظهور مظروف أصفر مغلق على شاشة الهاتف، رسالة صوتية في مجيبها الآلي. ربما حاول أحدهم الاتصال بها بين ليلة الأمس وصباح اليوم، جدّتها ماتيلد بلا شك. لكنها ضغطت على الأزرار رغم ذلك، ففوجئت بظهور رقم مجهول.

مارك فيترال؟ كريدول غران-دوك؟

قرّبت مالفينا الهاتف من أذنها.

«مالفينا. معكِ راشيل. راشيل دو كارفيل، عمتك...»

راشيل؟ عمّتها، شقيقة جدها، وريثة سلسلة متاجر إليتيس للعطور في مدينة لابول. ما الذي تريده منها؟ فهي لم تكلّمها منذ أزيد من عشر سنوات!

«مالفينا، ابنتي المسكينة. اتصلي بي في أسرع وقت ممكن. حصلت حادثة رهيبة في كوبفراي. يا إلهي، جدّك وجدتك لم يستيقظا من نومهما. لقد عُثر على كليهما، كلٌّ في فراشه، وقد انقطعت أنفاسهما إلى الأبد. ارتقت روحاهما معاً إلى السماء، يا ملاكي المسكين».

أطفأت مالفينا الهاتف. سقط ذراعها إلى جانبها ثقيلاً، كما لو كان وزن الهاتف المحمول طناً. ثبّتت ناظريها طويلاً على الغابة المظلمة، وقد مسّ روحها صمت الجبال الذي لم تكن تعرفه من قبل، ثم امتدت يدها إلى حقيبة يدها. ليس هذا وقت التفكير أو البكاء، أو حتى الدعاء، هذا وقت التحرّك، والتصرّف، والفهم، والانتقام. عليها التركيز على هدفٍ واحدٍ، حقيقي، حيّ.

هو...

اعتصرت أصابعها مقبض الماوزر إل 110 المستقر في حقيبتها. حسِب فيترال نفسه الأكثر ذكاء، لكنها لم تكُن لتتركه ينام بهناء، هي تحسن لعب دور المجنونة واختلاق تأثّرها بالكوابيس المزعجة متى شاءت. لم تكن تلك سوى تمثيلية لاستعادة سلاحها، كما أنّ هذا الخائب المدعو مارك فيترال لم يكُن سيُحسن استخدامه في جميع الأحوال.

أمّا هي فنعم.

- 60 -

4 أكتوبر 1998، السابعة صباحاً وتسع عشرة دقيقة

- ألو، جينيفر؟

لم يكن مارك قد غادر قاعة الأرشيف في ليست ريبوبليكان. عملت زميلته في فرانس تيليكوم بدوام كامل طوال عطلة نهاية الأسبوع. كانت تلك ورقته الرابحة الوحيدة التي لا يمكنه أن يخسرها بسهولة.

- جينيفر، مارك مرة أخرى. أنا بحاجة إلى خدمة، خدمة كبيرة...

- أنا جاهزة لتنفيذ كلّ ما تطلبه. هذا ممّا لا شك فيه.

- أنا بحاجة إلى رقم هاتف وعنوان. ميلاني بيلفوار. ب-ي-ل-ف-و-ا-ر...

- أين؟

- ابحثي في جورا ودوبس وبعدها في منطقة فرانش كونتي بكاملها. ثم في كامل التراب الفرنسي...

- حسناً...

استمع مارك لصوت أصابع جينيفر الضاربة على أزرار لوحة

المفاتيح. دون أن يشيح ببصره عن الصورة في الصفحة الأولى لعدد سنة 1980 من جريدة **ليست ريبوبليكان**. ذلك التشابه السريالي. مَن تكون ميلاني بيلفوار هذه؟ لا بدّ من وجود تفسير عقلاني...

- آسفة يا مارك، قالت جينيفر. لا وجود لهذا الاسم، لا وجود لميلاني بيلفوار لا في جورا ولا في أيّ مكان آخر في فرنسا.

- قد تكون في اللائحة الحمراء!

- بحثتُ فيها أيضاً! لا شيء.

- اللعنة. هل يوجد أشخاص آخرون في فرنسا يحملون اسم بيلفوار؟

- انتظر...

تناهى إلى مسامعه مرة أخرى صوت الأصابع الشبيه بصوت مدافع رشاشة.

- نعم، ثلاثمئة وثمانية وأربعون.

- وفي جورا؟

- نعم، هنا يبدأ الرقم في التناقص. ثلاثة وعشرون فقط، لكن لا وجود لاسم ميلاني.

- اللعنة، ربما قامت بتغيير اسمها...

- مَن تكون ميلاني هذه؟

- قد يتطلب الشرح وقتاً طويلاً جداً، هي حكاية مجنونة، لكنني لا أملك سوى دقائق قليلة لكتابة نهايتها. من فضلكِ يا جينيفر، هل يمكنكِ مراجعة طلبات إلغاء الخطوط، دائماً باسم ميلاني بيلفوار؟

- كيف سأفعل ذلك؟

- ابحثي في الأرشيف، يمكنك الدخول إليه باستخدام الحساب الإداري، والبحث في طلبات إلغاء الخطوط طوال الخمس عشرة سنة الماضية...

- الدخول باستخدام الحساب الإداري ممنوع يا مارك، قد يتسبّب ذلك في طردي...

- لا تبالغي، لقد قمت بذلك أكثر من عشر مرات! أرجوكِ يا جينيفر، الأمر عاجل جداً...

- أحذركَ يا صديقي، قد يكلفكَ ذلك دعوة على العشاء، وحدنا، في مطعم نجمة ميشلين.

- حاضر، حاضر، سأنفّذ كلّ ما تطلبينه مني، هيا.

استمع مارك من جديد لصوت الضرب على لوحة المفاتيح.

- جينيفر، أنا مرتبط، ألا تفضّلين -عوض المطعم- أن تكوني عرابة رضيع صغير قد تساهمين بعملك هذا في إنقاذه؟

أجابته بقسوة:

- وماذا بعد؟ لا يهمني كلّ ما تقول! أريد مطعماً بتصنيف نجمتين على الأقل، فأنا أستحقه. عثرتُ على فتاتك، لقد أوقَفَت اشتراكها منذ خمس سنوات، يوم 23 يناير 1993. كانت تقطن في تلك الفترة في 65 شارع كونت-دو-لا-سوز في بيلفور. قبل أن تختفي بعد ذلك.

- جينيفر، قومي بمراجعة طلبات نقل المكالمات!

- ماذا؟

- طلبات نقل المكالمات! ففي معظم الأحيان يقوم الزبناء بإيقاف اشتراكاتهم بسبب تغيير المسكن أو الانتقال للعيش مع شخص آخر، فيطلبون نقل رقمهم السابق إلى الرقم الجديد، لبضعة

أشهر على الأقل، حتى هذه المعلومات متوفرة في الأرشيف ويمكنكِ الوصول إليها عبر الحساب الإداري. . .

- أنتِ مجنون! مطعم ثلاث نجمات، ومعه قنينة شمبانيا.

- حسناً، حسناً، مع عازفي كمان هنغاريين وإنجليز إن أردتِ!

- طبعاً أريدهم!

بقي مارك في الاستماع، وقد بدت له الثواني الموالية بلا نهاية.

- معك حق، قالت جينيفر أخيراً. لقد طلبت ميلاني بيلفوار نقل اتصالاتها إلى عنوان لورونت لويزان، أعتقد بأنك تريد العنوان. . . دانماري، في دوبس، 456، طريق فيار. تعلم جيداً بأنها معلومات سرية. ما الذي تريده من المسمّاة ميلاني؟ هل هي حبيبة سابقة؟ هل للأمر علاقة بلائحة المستشفيات التي زوّدتك بها أول أمس؟

دوَّن مارك العنوان بعصبية على الصفحة الأولى لجريدة ليست ريبوبليكان.

- أنتِ الأفضل يا جيجي. ستحصلين على عشاء المطعم، وربما حلوى المولود أيضاً. هل يمكنني أن أطلب منك خدمة أخيرة؟ هل أنت متصلة بشبكة الإنترنت؟

تنهدت:

- نعم.

- اربطي اتصالاً بشبكة مابي للخرائط وحدِّدي لي أقصر طريق للوصول إلى 456، طريق فيار.

- اللعنة. . . أعتقد بأنني كنت في منتهى الغباء. . . احتفظ بتلك الحلوى لنفسك. . .

صعدت شاحنة السيتروين الحمراء والبرتقالية الطريق ببطء، فبعد مونبليار قادته الطريق مباشرة إلى الحدود السويسرية على بعد عشرة كيلومترات. بقيت قدم مارك ملتصقة بالأرضية، وإن لم يدفع ذلك المركبة إلى مطاوعته بشكلٍ أفضل. تزايد عدد المباني مع مواصلته الصعود، صار شكل الطريق أفعوانياً. قبل أن يقلّ عدد البلدات، ويجد نفسه أمام أكواخ متناثرة دلَّت على وجود بشري مع اقترابه من قمم الجبال.

بحسب المعلومات التي زوّدته بها جينيفر، فإنّ شاليه ميلاني بيلفوار لويزان يوجد في الطريق المؤدية إلى سويسرا، تحت خط القمة. دخلت السيتروين إلى البلدة المقفرة. إنها الثامنة صباحاً، لم يفتح أي مقهى أو مخبزة أبوابهما بعد.

منعرج أخير، غادر بعده البلدة.

توقف مارك في موقع مناسب بالقرب من الرصيف.

لن يرتمي مرة أخرى في فم الذئب! لا شك في أنّ كريدول غران-دوك يبحث عن ميلاني بيلفوار أيضاً. كما أن سنوات متواصلة زار خلالها ديبب أكثر من مرة ستمكّنه من التعرّف على السيتروين الحمراء والبرتقالية بسهولة. أن يتابع طريقه بالشاحنة وصولاً إلى منزل ميلاني قد يكون أشبه بالبحث عنها باستخدام بوق.

كان الجو بارداً بعض الشيء. تقدم مارك بخطوات واسعة وحريصة في المنحدر، بعيداً عن الطريق الرئيسة. عثر على سيارة كزنتيا بعد السياج الثالث. كانت السيارة مخفية بالقرب من الطريق. وفوقها مباشرة تمكّن مارك من العثور على شاليه ميلاني بيلفوار المعزول، هو بلا شك. تقدّم مارك عبر المنحدر أكثر فأكثر،

متجاوزاً العشب الندي، كان من الصعب على أيّ كان تحديد موقعه، حتى عبر مرآة كزنتيا العاكسة.

انتظر كريدول غران-دوك بهدوء، وفي يده فنجاناً أبيض، دون أن يخامره أيّ شك. واصل مارك تقدّمه الحذر. يعلم جيداً أن بإمكانه استخدام الماوزر الذي استعاره من مالفينا، وإن كانت خطته -هذا إن كانت عنده خطة أصلاً- مختلفة تماماً. سيكون مباشراً أكثر! يقترب كريدول غران-دوك من عامه الخامس والستين، أمّا مارك ففي العشرين من عمره ويملك بنية جسدية لرياضي يمارس الريكبي بانتظام. ستكون مواجهة بين رجلين.

لم يملك كريدول غران-دوك الوقت للتحرك، بعدما فتح باب الكزنتيا فجأة وظهر من العدم ظلٌّ ضخم أمسك بذراعه ثم كتفه، ليجد نفسه مرمياً على الأرض الترابية. كان عاجزاً حتى الآن عن تحديد هوية مهاجمه عندما مزّقت أضلاعه ركلة قوية جداً. انثنى في ألم، قبل أن تضرب الركلة الثانية عظمة العصعص.

صرخ المحقق.

- أيها ال. . .

ضاعت صرخته غير المكتملة في فضاء الجبال الصامتة، قبل أن تجبره الركلة الثالثة في أسفل ظهره على الاستدارة، ليتبين هوية الظلّ الواقف أمام جسده الذابل.

مارك فيترال.

كيف توصل إلى الحقيقة؟ كيف تمكن من اللحاق به، وبتلك السرعة؟

- مارك؟ تمتم غران-دوك. ك. . . كيف. . .؟

بصق المحقّق بعض الدماء التي اختلطت بغبار الأرض، محاولاً النهوض من سقطته، قبل أن تستقرّ قدم مارك على صدره.

- لا تتحرك... لا تتحرك وإلا سحقتك كصرصار وضيع...

- مارك، ما الذي...

- اصمت. لا تُعِدْ كلامك الفارغ على مسامعي. لقد حاصرتني كلماتك ومعادلاتك الغبية طوال اليومين الماضيين، حياتك، تحقيقك، وتغيرات حالتك النفسية والروحية السخيفة...

ضغطَ مارك بقدمه على صدر غران-دوك الذي قطّب جبينه في ألم، وقد وجدَ صعوبة في التنفس، فتابع مارك ببطء:

- لن نلعب لعبة القط والفأر. سنذهب إلى الهدف مباشرة. كتلك المباريات التي تابعتها وأنا جالس على فخذيك، هناك في ديبب. كنتُ جالساً على فخذَي قاتل جدي، وربما جدّتي أيضاً، لو سمحَت لك الظروف بذلك.

- مارك، هل تظنّ بأن...

وضع مارك قدمه على وجه غران-دوك، محطّماً ذقنه وفمه وأنفه. تلوّى المحقق مختنقاً من شدة الألم.

رفع مارك قدمه، فبصق غران-دوك مزيجاً من الدم والطين.

- لا أملك الوقت الكافي لسماع ترّهاتك يا كريدول لا باسكول، أو كريدول الأرجوحة إن صحّ التعبير...

بصق المحقّق مرة أخرى، وقد وجد صعوبة كبيرة في التنفس بشكلٍ طبيعي.

- كيف... كيف عرفت؟ هل... هل أخبرك آل دو كارفيل بذلك؟ ماتيلد؟ مالفينا؟

- لقد توصّلتُ إلى الحقيقة وحدي، وحدي، كالكبار.

- لم... لم أكن أريد ذلك، صدقني. لقد... لقد... نفذت الأوامر فقط... ثم ندمت... كنت صريحاً جداً بعد ذلك... لقد أحببت...

وجّه مارك ركلته إلى ترقوة غران-دوك هذه المرة، فتدحرج قبل أن يجد نفسه مستلقياً على ظهره مرة أخرى، وقد لامسَت يده الدامية كتفه.

- توقف يا مارك، توقف... أرجوك.

- اصمت إذاً! وفّر كلامك السخيف عن الندم والحبّ القديم... لستُ هنا من أجل سماع ذلك! ما أريد معرفته هو هُوية ليلي، أريد معرفة الحقيقة!

كانت تلك أول مرة ترتسم فيها ابتسامة غريبة على وجه غران-دوك المحطّم.

- لم تفهم إذاً؟ لم تفهم كلّ شيء على الأقل... يبدو أنك ما زلتَ بحاجة إلى خدماتي كمحقّق خاص...

ارتفعت قدم مارك مهدِّدة من جديد.

- لست متأكداً، أثبِتْ لي العكس.

- كيف وجدتني بهذه السرعة؟

- أنا أقل بطءاً منك، هذا كلّ ما في الأمر، لا تبحث عن كسب الوقت لأنني لا أملك ما أضيعه منه. ما قصّة اختبار الدي إن أي؟ وماذا عن صورة ليلي في الجريدة؟

حاول غران-دوك أن يبتسم مرة أخرى.

- فيما يتعلق بجدك... هل وشى بي أحدهم... أم أنك توصلت إلى تلك الحقيقة بنفسك كما تقول؟

- وحدي! كما قلتُ لك. أحذِّرك، لا تبحث عن كسبٍ وقت إضافي.

هَوَت ركلة جديدة على أضلاع المحقق فصرخ متألماً. تقدم مارك أكثر وقد راودته رغبة عارمة في أن يدوس عليه. امتدت يد غران-دوك على ساقه، ففهم مارك ما يجري بسرعة: كان المحقق يبحث عن سلاحه!

من حسن حظ مارك أنه قد استبق ردّة فعل غران-دوك، بعدما مدّ يده نحو حقيبته للإمساك بالماوزر وتصويبه نحو...

كانت الحقيبة فارغة!

لقد اختفى الماوزر.

مرّت المشاهد أمام عيني مارك. مالفينا المستيقظة خلال الليلة الماضية، والمتظاهرة بمعاناتها من الكوابيس. فات الأوان على الندم...

أشهر غران-دوك مسدّسه الماتيبا في وجه مارك.

- لقد أدهشتني سرعة بديهتك يا مارك، لكنك سمحت لمشاعرك بالتأثير عليك كالعادة. كانت كلّ أوراق اللعب في يدك. عجوز بين قدميك، والحلّ الذي ينتظرك، في المقعد الجانبي لسيارة كزنتيا. التتمة، أو النهاية المنتَظَرَة لما دوّنته في دفتري. ظرف يشرح محتواه كلّ شيء، وأرجو أن يجلب لي ثروة، ما كان عليكَ سوى الانحناء لالتقاطه...

نهض كريدول غران-دوك بصعوبة. سالت الدماء من شفته بغزارة، كما لطخت الأتربة والدماء سترته الطويلة. وجد صعوبة في الوقوف على ساقه اليمنى. عجز مارك عن التفوه بكلمة واحدة. سيفشل بغباء بعدما كان قريباً جداً من بلوغ هدفه.

- لقد ضربتني بما فيه الكفاية أيها القذر، أعلم جيداً أنني أستحق ذلك، وربما فعلتُ الشيء نفسه لو كنت مكانك، أو ربما أسوء من ذلك.

تقدّم المحقق ببطء، وقد أمسك كتفه المُصابة بذراعه السليمة، موجِّهاً مسدسه نحو مارك.

- كما ترى، فأنت لم تترك لي خياراً آخر يا مارك، أنت الوحيد الذي يعلم بالحقيقة، أتحدّث عن مقتل جدك، صحيح أن العجوز المشلول على علم بها أيضاً، ولكن لا يبدو أن دو كارفيل الهرم سيكون قادراً على الكلام. سيكون قتلكَ آخر ما كنت أتوقعه، ولكن لا خيار أمامي.

تكلم مارك أخيراً، وقد وجّه ناظريه نحو سيارة الكزنتيا.

- لم يكن الخيار أمامك حتى فيما يتعلق بناظم أوزان؟

اعتدلَ المحقق بصعوبة بفعل الآلام المبرحة التي اجتاحت ساقه.

- كما ترى، فهذه الحياة تخبئ لنا الكثير من المفاجآت. من الصعب على أيّ كان أن يسبح ضد التيار، أو أن يتحدى قوة الشلال. قبل ستة أيام، كنت على وشك إطلاق رصاصة على رأسي، لأموت في منزلي، وحيداً، معترفاً بنهاية اللعبة. والآن، أجد نفسي وقد كسبتها، وإن وجدتُ نفسي مجبراً على قتل أقرب صديقين لي، وبدم بارد، أوزان وآيلا. أو لنقل أقرب ثلاثة أصدقاء، بعد إضافتك أنت.

ارتعش مارك وقد شعر بانخفاض حرارة جسمه. ثلاثة أمتار تفصله عن المحقِّق وفوهة مسدس الماتيبا. لن يكون التقدّم نحوه ومحاولة تجريده من سلاحه فكرة مناسبة، كان مارك واثقاً من أن

غران-دوك سيطلق عليه النار بسرعة. بقيت الطريق الجبلية خالية، كما أنّ موقعهما يجعل التعرّف عليهما ومن ثم الوصول إليهما مستحيلاً تماماً.

- سأشرح لكَ يا مارك، لقد عُرضت عليّ ثروة لقتل زوجين وتصوير الجريمة على أنها حادثة عرضية. سبق لي أن قتلت الكثيرين، في جميع أنحاء العالم، عدة مرات، وبراتب بئيس بالنسبة إلى مرتزِق مثلي، راتب لا علاقة له بالثروة التي عرَضَها عليّ ليونس دو كارفيل. عرض كهذا لا يُرفَض أبداً... هل كنت سأتصور وقتئذٍ بأنني سأتعلق بالمرأة التي بقيت على قيد الحياة؟

فليصمت! لم يكن غران-دوك مجنوناً، هو لا يملك عذراً كهذا. خرجت الكلمات من فم مارك رغماً عنه. هل كانت تلك محاولة أخيرة لاستمالة هذا الرجل؟

- ليلي حامل مني. وهي تخطط لإجراء عملية إجهاض بعد ساعة من الآن.

لم يتحرّك المسدس قيد أنملة.

- كان ذلك سيحصل يوماً ما يا مارك، عاجلاً أم آجلاً، كان ذلك منطقياً للغاية... لقد ارتكبت خطأً فادحاً بقدومك إلى هنا، كان بإمكانكَ البقاء إلى جانب ليلي والعيش معها بسعادة، فأنتما تشكلان ثنائياً شاباً جميلاً للغاية. يؤسفني أنّ ليلي لن تتحمّل ذلك، لكنك لم تترك لي خياراً آخر...

صوّب غران-دوك مسدسه نحو قلب مارك المشلول والعاجز عن إصدار أية حركة إضافية. سينتهي كلّ شيء هنا. تراقصت أمام عينيه صور غريبة وسعيدة من حي بوشول: كأس العالم 1986، ضربة جزاء فرنانديز، فانيلة ديدي سيكس، عزف ليلي على البيانو...

- ما كان لكلّ هذا أن يحصل يا مارك، كلّ هذا العذاب، وكلّ هذه الآلام، لم يكن ذلك خطأ أحد. ربما كان ذلك خطأ ميلاني بيلفوار، وإن كانت تظنّ هي الأخرى أنها تصرَّفت بالشكل الصحيح.

يجب عليّ أن أتحرك، فكّر مارك، سأنقضّ عليه...

بدا كما لو أن غران-دوك قد قرأ أفكاره، فقد تراجع خطوة وقبضته تعتصر المسدس.

- المشكلة يا مارك أننا نتشبث بالحياة، حتى بعد فقداننا لأيّ أمل. كلّ هذه الحروب بين آل دو كارفيل وآل فيترال كانت من أجل لا شيء. حرب خاسرة ككلّ الحروب الأخرى. مجرد سوء تفاهم. أعتقد بأنكَ فهمتَ الحقيقة الآن. لقد ماتت الرضيعتان ليلة كارثة جبل تيريبل، ماتت إيميلي وليز-روز، صدّقني، تلك هي الحقيقة يا مارك، آسف جداً.

مكتبة

استقرّ إصبع غران-دوك على الزناد.

وتردَّد صدى إطلاق النار في كلّ الجبال المجاورة، وصولاً ربما إلى ما بعد الحدود السويسرية.

- 61 -

4 أكتوبر 1998، الثامنة صباحاً وأربع عشرة دقيقة

سقط كريدول غران-دوك على الأرض، وقد سالت الدماء من ثقب في ظهره، كنبع صغير من المياه القرمزية.

ظهرت خلفه مالفينا، مُمسِكَة بمقبض الماوزر إل 110 بكلتا يديها الممدودتين أمامها، قبل أن يخترق صوتها الحاد صمت المكان:

- لا تصدّق بأنني أطلقت عليه النار لإنقاذ حياتك يا فيترال! أنا لا أتحمّل أن يُقال بأن ليز-روز قد ماتت. . .

تركت الماوزر يسقط أرضاً، عند قدميها. كان جسدها يرتجف، لم يكن ذلك مجرد تهديد أجوف هذه المرة، لقد أطلقت النار. . . لقد قتلت. . .

- أنت. . . كيف. . . ؟

أجابته مالفينا بعصبية:

- لستُ مغفلة مثلك. لقد فكّرت أيضاً في نسخة الجريدة. لقد اقتادني موريز، موظف المنتزه، بسيارته رباعية الدفع حتى مقر ليست ريبوبليكان. وقد سهلت علي المأمورية. كانت نسخة يوم 23 ديسمبر

1980 هناك، وقد كتبت على صفحتها الأولى عنوان ميلاني بيلفوار. . . فركبت سيارة أجرة وطلبت من السائق أن يُنزلني بالقرب من دانماري.

تردَّد مارك، وقد عجز عن اختيار الموقف المناسب. أن يشكر مالفينا ويحتويها بين ذراعيه؟ أو أن يتركها هكذا؟ اقترب منها فتصلّبت في مكانها قائلة:

- لا تلمسني!

انهارت أرضاً كدمية مخلوعة الأطراف. كانت تبكي، ولم يفهم مارك طبيعة كلماتها.

- جدتي، جدي. . . طارا يوم أمس. . . لقد رحلا. . . رحلا. . .

دارَ على عقبيه ثم فتح باب سيارة الكزنتيا. لم يكذب غران-دوك. فقد وجد ظرفاً أبيض على المقعد. مزّقه، ليعثر داخله على أوراق مكتوبة على الآلة الكاتبة. تقدّم مارك نحو مالفينا التي واصلت بكاءها منكمشة على نفسها في وضعية الجنين، جلس إلى جانبها، ثم قرأ ببطء، وبصوتٍ عالٍ:

- سأعترف بكلّ شيء، سيد غران-دوك، ففي نهاية المطاف أنا لم أرتكب أيّ جريمة، ولا ألوم نفسي على أيّ شيء. لقد حان الوقت بالنسبة لي لأتكلم، ما دمت قد عثرت عليّ الآن. كنتُ مجبرة على الكلام، عاجلاً أم آجلاً. لنقل بأنّ الوقت المناسب قد حان. كنت مراهقة صعبة المراس كما يقولون. ضعفت علاقتي بأبوي منذ بلوغي سن السابعة عشرة، كما غادرتُ المدرسة منذ وقت طويل. كنت أقضي وقتي في التسكّع مع آخرين مثلي. تمكّن والداي من

إلحاقي بالوكالة الوطنية للشغل، وتطلّب الأمر الكثير من الانتظار قبل الحصول على وظيفة «بيئية» في المنتزه الطبيعي لجورا، وكان العمل هو جمع نفايات الغابة. عمل كلاسيكي عادي. كنت أنفّذ الأوامر رفقة عدد آخر من المتدربين، ونعمل تحت إمرة غريغوري موريز مهندس المياه والغابات العامل في جبل تيريبل. كان وسيماً بدرجة رهيبة. كما كان لطيفاً جداً مع الفتيات اللواتي يناسبن ذوقه. كان يملك موهبة تسمح له بلمسهن ومداعبتهن من دون إصرار مثير للريبة. كان فارق السن بيننا يفوق عشر سنوات على الأقل، لكنني وقعتُ في حبه كالأخريات. مارسنا الجنس أول مرة في الهواء الطلق، في منطقة توجد بها عدة أشجار متشابكة، بالقرب من الجرف، وسط تلك الغابة التي يعرفها جيداً. ثم مارسناه مرات عديدة بعد ذلك، يومياً خلال فترة التدريب، وعدة أسابيع بعد ذلك. مارسناه في أماكن غير متوقعة. كنت أعلم بأنه يخوض مغامرات مماثلة مع أخريات، لكنني كنت أعتقد بأنه مختلف جداً معي أنا بالذات، وأنه يحبني فعلاً. كنت أحاول تصديق وعوده. قصة كلاسيكية يا سيد غران-دوك، أليس كذلك؟ المغفّلة الصغيرة والنصّاب الوسيم. . .

- ماذا بعد ذلك؟

- كنت حاملاً، ولم أعلم بذلك إلّا بعد مرور وقت طويل. ستة أسابيع بدأتُ خلالها رحلتي إلى الجحيم. كنت سأحرم من الوظيفة، كما ابتعدت عن عائلتي وأصدقائي. كان هذا المدعو غريغوري موريز هوساً قاتلاً، بجمال جسده وتلك اللذة التي كان يمنحني إياها.

- إذاً فغريغوري هو الأب؟

- نعم، كان عشيقي الوحيد. وقد أخبرته بذلك ذات ليلة، بعدما مارسنا الجنس في غرفة فندق حقير بضواحي بيلفور.

- كيف كانت ردّة فعله؟

- كالعادة، يا سيد غران-دوك. القصة الكلاسيكية نفسها. لقد طردني، متهماً إياي بكوني مجرد عاهرة صغيرة تبحث عن الإيقاع به في الفخ، كما أنني لا أملك أيّ دليل على كلامي، ولا حلّ أمامي سوى إجراء عملية إجهاض.

- ولم تقومي بإجراء العملية إذاً؟

- لا . . . كما أنني لم أتخذ قراراً نهائياً بالإبقاء على الجنين. كلّ ما هنالك أنني استسلمتُ لمرور الأسابيع من دون القيام بأيّ ردة فعل. الأسبوع السابع، والثامن، حدث كلّ شيء بسرعة كبيرة. كنت مهووسة بغريغوري، كنت كالمجنونة. واثقة من أنني سأتمكن من دفعه إلى تغيير رأيه واستعادته. كنت في قعر حفرة الضياع أيضاً. وبلا مسكن قار. أتسكع ثم أعود إلى منزل والدي أقلّ من مرة في الأسبوع، قبل أن أتوقف عن زيارتهما بعدما صار حملي ظاهراً للعيان. اكتفيتُ بعد ذلك بالمكالمات الهاتفية.

- وضعتِ حملك في المستشفى؟

- نعم، في مونبليار، بالكاد بلغتُ سنّ الرشد. لم أكن في حالة صحية جيدة، كما أنّ وزن الرضيعة لم يكن طبيعياً، بالكاد يتجاوز كيلوغرامين. ولدت يوم 27 أغسطس 1980. طفلة صغيرة. غادرتُ المستشفى بعد أسبوع، ومعي أوراق الحالة المدنية التي لم أقُم بتعبئتها، وألقيت بها في أقرب سلة مهملات.

- هكذا، بهذه البساطة؟

- كما تعلم يا سيد غران-دوك، أسبوع واحد في المستشفى كان كافياً لأقابل عشرات الممرضات وعدداً مماثلاً من الأطباء، قد يوجد في المستشفى أثر ما، في ملفّ ما، عن ولادة طفلتي، والدليل

على أنها موجودة. ولكن، مَن سيهتم بالتأكد إن كانت هذه الطفلة معي، وأنني أقوم بتربيتها، لا أحد من أفراد عائلتي كان يعلم بوجود هذه الطفلة.

- ما الاسم الذي أطلقته على هذه الطفلة؟

- لم أطلق عليها أي اسم. يبدو ذلك غريباً، أليس كذلك؟ قلت لهم في المستشفى بأنني لم أختَر لها اسماً مناسباً بعد، وبأنني أنتظر والدها. غادرتُ المستشفى ومعي ابنتي. كان انهياري كاملاً، وفي أسابيع قليلة للغاية. قمتُ بقطع كلّ علاقاتي مع العائلة وأصدقاء الطفولة. كان ذلك صيفاً. كنت أنام في الشارع ومعي طفلتي الملتصقة بثديي طوال اليوم. كنت متعبة، وأقضي يومي رفقة وحوش بلا رحمة، سكارى ومدمنين. لم أكن قادرة على اتخاذ القرار المناسب. هل أعود إلى المنزل وأرتمي في أحضان والدي باكية؟ كانا يعملان سوياً في ألشتوم، في سلسلة ربط القطارات فائقة السرعة في بيلفور. هل أعود إلى غريغوري وأنا أحمل الطفلة بين يدي، محاولة إقناعه من جديد؟ كانت تملك عينين زرقاوين جميلتين للغاية، ربما تشبهان عيناي قليلاً، لكنهما تشبهان عينَي والدها أكثر، عينان رائعتان كأعين كلاب الثلوج. أو أبقى في الشارع لأموت على الرصيف؟

- كيف قرَّرتِ الرحيل؟

- لم يكن أمامي من خيار آخر، مراهقة تتسكع في شوارع مونبليار ومعها رضيعة صغيرة، سيتم العثور عليها بسهولة. وقد بدأت المصالح الاجتماعية في ملاحقتي بعد أسابيع قليلة. كنت قد بلغت سن الرشد، وأعلم جيداً إلى أين يمكن أن يقودني كلّ ذلك. سيحتفظون بالطفلة ويعيدونني إلى منزلي في بيلفور دون أن يطلبوا

رأيي أنا. أعترف لك يا سيد غران-دوك بأنني ارتكبت عدة أمور غير قانونية، قامرتُ، سرقتُ، بعت جسدي أيضاً، عدة مرات. تفهم جيداً أنّ بقائي على قيد الحياة كان يتطلّب مني مغادرة مونبليار.

- وهكذا قابلتِ جورج بلوتييه؟

- نعم، كان سكيراً مسكيناً مثلي، يبحث عن الفرار من رجال الشرطة والمصالح الاجتماعية والعائلة أيضاً. بدوتُ جميلة في عينيه رغم كلّ شيء، أعتقد بأنه بدأ يفكر بسرعة في العمل كقواد يتاجر بي كما يشاء. لم أسمح له بلمسي. لكن كانت لنا مصالح مشتركة إن صحّ التعبير. أن نغادر المكان سوية، وكانت جورا وجبل تيريبل مكاناً مثالياً. مكان قريب من مونبليار، ولن يأتي أحد للبحث عنا هناك. كان ذلك الأسبوع الأول من شهر ديسمبر، لم تكن درجة الحرارة قد انخفضت بشكلٍ كبير، وقد تعوّدنا على النوم في العراء. كما كانت تلك فرصة للعثور على غريغوري ومقابلته. سيتعرّف عليه، ويتعرّف على ابنته وعينيها. لن ينكر أبوّته. أعلم جيداً بأنها كانت فكرة غبية يا سيد غران-دوك، لكنني كنت مؤمنة بأن غريغوري موريز هو القشّة التي ستنقذني من الغرق.

- وقابلتِه في النهاية؟

- عثرتُ رفقة جورج على كوخ في قمة جبل تيريبل، لم يكن الطقس حاراً، لكننا كنا نشعل النار، نملك سقفاً، ما يجعلنا في نهاية المطاف أفضل بكثير من حياة الشارع. سأجيبك عن سؤالك يا سيد غران-دوك. نعم، قابلت جورج موريز، وبشكل يومي تقريباً. جبل تيريبل ليس بذلك العلوّ الكبير، كما أنّ غابته ليست كبيرة. نعم، قابلته، وأنا أحمل طفلتي بين ذراعي. لكنه لم يتعرّف عليّ يا سيد غران-دوك! بل حتى لم يكلّف نفسه عناء إلقاء نظرة عليّ. كانت

بضعة أشهر كافية لتحوّلني من فتاة شابة مثيرة إلى نفاية. ازداد وزني وتحوّل نهداي إلى قطعتي لحم مترهّلتين متدليتين. فقدت عيناي بريقهما. لم يكن من السهل التعرّف علي.

- لم تحاولي التكلم معه؟

- أنت لا تفهم يا سيد غران-دوك. كنت ذليلة، ذليلة للغاية. لم يتعرّف عليّ. هل كنت بشعة إلى تلك الدرجة؟ هل عرف أخريات بَعدي؟ أدركتُ يومها يا سيد غران-دوك بأنه لن يلمسني أبداً ولن يتحمّل وجودي، فما بالك بإمكانية تقبّله لطفلتي... انطفأ أملي الأخير هناك في منحدرات جبل تيريبل. كنت قد فقدتُ كلّ شيء. كانت طفلتي مثل كرة صغيرة من اللحم تنتمي إليّ، كنا سنغرق سوية. لا يدفعنك ذلك إلى الاعتقاد بأنني لم أكُن أحب ابنتي أو أنني فقدت أيّ شعور بالأمومة يا سيد غران-دوك. لا طبعاً! بالعكس، لكنني لم أكُن أملك شيئاً لأعطيه لها، لا أب، لا اسم، ولا حتى حليباً يغذيها، هل تفهم ذلك؟ ثم بدأت الثلوج بالتساقط على قمة الجبل. كان ذلك صبيحة يوم 22 ديسمبر. بحثنا عن الدفء قدر الإمكان، حول النيران المشتعلة، تحت سقف الكوخ، طوال اليوم. كنت مطالَبَة بالعناية بكلّ شيء. يقضي بلوتييه ثلاثة أرباع وقته تحت تأثير الكوكايين، وقد يبقى في مكانه حدّ التجمد لو لم أكُن بجانبه. كما كنت مجبرة على طرده خارج الكوخ لإجباره على جمع حطب التدفئة.

- ثم حلّ الليل...

- نعم، بدأت العاصفة وضاعفت من قوتها، كان بلوتييه غائباً عن الوعي. لا أعتقد حتى بأنه قد سمع صوت الاصطدام. ارتجّ الكوخ، كما لو كانت هزة أرضية، أو نهاية العالم ربما. رأيت من

موقعي في الكوخ احتراق الأشجار على بُعد كيلومتر واحد تقريباً. تحترق تحت الثلوج. كنت مشدوهة أمام المنظر العجيب. قمت بلفّ طفلتي بغطاء ثم غادرت المكان. لم أشعر بالبرد، بالعكس، كانت حرارة تقرص الجلد بفعل النيران التي خلَّفها الاصطدام...

- لم تشعري بالخوف؟

- لا، أبداً. كان مشهداً غريباً، أقرب للخيال. الثلوج والنيران. ثم الطائرة المحطمة وسط الجبل، وقد ذاب فولاذها أمامي بفعل النيران، كمطاط بلا قيمة. كنت أعلم بأنني الشاهدة الأولى على المأساة، لكنني لم أدرك بأنّ الإسعافات ستتأخر كلّ هذا الوقت.

- ثم عثرتِ عليها؟

- الرضيعة، هذا ما تقصده يا سيد غران-دوك؟ نعم، في تلك اللحظة بالذات.

- كانت... كانت...

- نعم. كانت ميتة. متورّمة، لفظَت أنفاسها قبل دقائق طويلة. لا أعتقد بأنّ رضيعاً آخر كان من الممكن أن يبقى حياً هناك، في ذلك الجحيم. لا أفهم كيف صدَّق الجميع تلك الخرافة... كانت الرضيعة ميتة يا سيد غران-دوك. وقد فكَّرتُ مباشرة بأنّ ذلك لم يكن عادلاً.

- كيف ذلك؟

- كان ذلك قاسياً، إنْ صحّ التعبير. عائلة بكاملها ستبكي هذه الرضيعة الميتة. كانت طفلة صغيرة ترتدي فستاناً، كان ذلك يعني عزاء وحياة ضائعة. أما أنا فلم أكُن قادرة على منح مستقبل مريح لابنتي، مستقبل لم أكن قادرة على منحه لنفسي. هل تفهم ما أقصده بـ«القاسي» و«غير العادل»؟

- نعم فهمتكِ. . .

- نعم، لم يكن ذلك صعباً. كانت الرضيعة الميتة في الثلوج في عمر ابنتي نفسه تقريباً. تصرّفتُ من دون تفكير. كيف سأشرح لك؟ شعرتُ لأول مرة بأنني سأقوم بعملٍ شجاع وذي قيمة. أن أقوم بإنقاذ حياة. هذا ما فكّرت فيه. إنقاذ حياة، إنقاذ عائلة، إنقاذ طفلتي الصغيرة أيضاً. بعض ما يمكن أن يشعر به الأطباء ورجال الإطفاء. لقد فاجأني هذا الشعور طوال تلك الليلة، أن أصبح ممرضة أو شيئاً من هذا القبيل، المهم أن أساهم في إنقاذ حياة الآخرين.

- وقمتِ بنزع ملابس الرضيعة الميتة؟

- لأنقذها يا سيد غران-دوك، لأنقذها! ألا تفهم؟ لقد أهديتُ طفلتي بمستقبلها الضبابي إلى عائلة محبّة، غنية بلا شك، لن تعلم أبداً بتضحيتي هذه، عائلة ستبكي فرحاً أمام المعجزة دون أن تشكّ في شيء، سيبدو المشهد أقرب إلى القداسة. . .

- ليس هذا ما حصل بالمرة. . .

- كيف لي أن أعلم بذلك يا سيد غران-دوك؟ كيف لي أن أعلم وقتئذٍ بأنّ الطائرة قد ضمَّت رضيعتين اثنتين؟ لقيتا حتفهما ككلّ الركاب الآخرين. كيف لي أن أعلم بتبعات ذلك؟ خيِّل لي أنني أتصرف كقديسة يا سيد غران-دوك، نعم، كقديسة. لقد تابعتُ أخبار الصحف بعد ذلك، وكلّ ما يتعلق بالقضية والعائلتين المتصارعتين والمحاكمة. ما الذي كان بإمكاني قوله؟ ما الذي كان بإمكاني فعله؟ كان من الممكن أن تكون الأمور أكثر بساطة. انتظرتُ لما يقارب الساعة، إلى حين وصول رجال الإنقاذ، وأنا أحمل طفلتي بين يدي وهي ترتدي ملابسها الجديدة. سمعت أصوات رجال الإطفاء القادمين، مصابيح اليد، الصرخات، فوضعتُ طفلتي في الثلوج

بعيداً عن الطائرة بمسافة تسمح بتدفئتها النيران دون خشية من احتراقها. قبّلتها لآخر مرة. فبعد ساعات قليلة سيمنحونها عائلة جديدة. ثم هربتُ وبين ذراعي جثة رضيعة ماتت في حادثة التحطم وقد قمتُ بلفها في ذلك الغطاء.

- أنتِ التي قمتِ بدفنها في ذلك القبر الصغير بالقرب من الكوخ؟

- ماذا كنتُ سأفعل؟ هل من فكرة أخرى؟ كان بلوتييه نائماً، خاضعاً لتأثير الكوكايين. حفرتُ في التراب بيدي كالمجنونة. حفرتُ طويلاً في الثلوج، ثم جاء بلوتييه من خلفي عندما كنت على وشك الانتهاء. كانت جثة الرضيعة الميتة في القبر، وقد اخترعت صلوات قمتُ بتلاوتها قبل دفنها. كان بلوتييه كالمجنون، وقد اعتقد بأنني قتلتُ ابنتي...

- وفهم الحقيقة عندما رأى السلسلة في يد الرضيعة الميتة؟

- نعم، ففي نوبة جنوني تلك لم أنتبه لسلسلة اليد التي كانت تحمل اسم ليز-روز. أمّا بلوتييه فقد انتبه إليها من نظرة واحدة. سلسلة ذهبية. كانت المقامرة بسيطة جداً. سأترك له السلسلة مقابل إغلاق فمه. انتزع السلسلة من يد الطفلة ثم رحل. لم أرهِ بعد ذلك أبداً. بقيت في الكوخ بعض الوقت، وأنا أعمل على الاعتناء بالقبر. كانت أصابعي المتجمّدة شبه مشلولة. قضيت وقتاً طويلاً في صنع صليب خشبي. نمت في الكوخ ما تبقى من تلك الليلة. أو بالأحرى لم أنَم، لا تلك الليلة، ولا الليالي الموالية.

- ثم عدتِ إلى القبر خلال السنوات الموالية؟

- نعم... يبدو أنكَ قد فهمت. عادت الحياة إلى طبيعتها شيئاً فشيئاً. بحثَ عني والداي، ونشرا مذكّرات بحث في الصحف.

عدتُ إلى بيلفور في النهاية. عدتُ إلى مقاعد الدراسة وأصبحتُ ممرضة كما قلت لك. قابلتُ لورنت قبل ستة أعوام، لورنت لويزان. يعمل موظفاً في المستشفى. كَبُرَ والداي في السن. توفي والدي قبل خمس سنوات، وماتت أمي قبل سنة. لم أتزوج بلورنت لكنني حملتُ اسمه العائلي. لا يعلم لورنت شيئاً عن الماضي. لا هو ولا أحد غيره. يريد لورنت طفلاً مني. لم يفت الأوان بعد، أنا الآن في السادسة والثلاثين من عمري. لا أدري. الأمر معقد جداً، أنت تفهم قصدي جيداً.

- لقد فهمت يا ميلاني. لم تُجيبيني، بخصوص القبر.

- أنا قادمة يا سيد غران-دوك. نعم، عدت إلى القبر في السنوات الموالية، كل يوم 27 أغسطس، عيد ميلاد ابنتي. كما لو أنني قمتُ بدفن ابنتي، لا طفلة غريبة عني. كنت أعود للاعتناء بالقبر والصليب. وفي إحدى السنوات، أعتقد عام 1987، انتبهتُ إلى أنّ أحدهم قد حرّك الأحجار ونقلها من مكانها. مَن؟ كنت أعلم بأنّ قضية فيترال - دو كارفيل لم تُغلَق بعد، كما أنها لن تغلق أبداً، ولا يمكنها أن تُغلق أصلاً.

- إلّا إذا قام أحدهم بنبش القبر واستخراج رفات الرضيعة الملفوفة في غطاء بالقرب من الكوخ. قد يكون محقّقاً عنيداً على سبيل المثال.

- مثلاً، نعم، نبش هذا القبر كان معناه نبش الماضي، وهكذا قمتُ بإفراغه وتنظيف آخر دليل قد يقود أحدهم إليّ.

- وقمتِ بإعداد قبر آخر؟ قبر أكثر سرية؟

- هذا لا يخصّك يا سيد غران-دوك. هذا يخصّني وحدي. ماذا ستفعل الآن؟

- لا أدري. هل يمكننا أن نتقابل؟

- لا أعتقد بأنني أملك خياراً آخر. أنا تحت رحمتك كما يقولون. أفضّل أن يتمّ ذلك في وقت مبكر. يبدأ لورنت عمله في الخامسة صباحاً، أما أنا فأعمل ليلاً. كما ترى فالعمل بالمستشفى ليس بتلك السهولة. أنا أنهي عملي في الثامنة في مونبليار. ما يعني وصولي في التاسعة. نلتقي غداً صباحاً؟ لقد تمكنت من الوصول إليّ بعد كلّ هذه السنوات، وأعتقد بأنك ستتمكن من الوصول إلى العنوان... أتمنى أن تحافظ على السرية يا سيد غران-دوك. لقد بدأتُ حياة جديدة ونجحت في ذلك، لكن نسيان الماضي ليس سهلاً. لم أكُن أريد القيام بتصرف سيئ في تلك الليلة، هناك في جبل تيريبل، بالعكس. كما أنني لم أتصور يوماً أن...

- لم تتصوري ماذا؟

- ...

- لم تتصوري ماذا؟

- ... أن ابنتي ستُشبهني بعد بلوغها سن الثامنة عشرة ...

تجاوزت الساعة التاسعة. تبدَّد الضباب في جورا. رأى مارك تلك السيارة البيضاء الصغيرة، فيات باندا. اقتربت ببطء ومرَّت أمامنا قبل أن تتوقف بعد بضعة أمتار أمام شاليه بنوافذ زرقاء سماوية. تبين لمارك شعار الممرضات الملصق على الزجاج الخلفي للسيارة، بقيت الشقراء جالسة للحظات طويلة، قبل أن تطفئ أضواء الفيات.

ثم انفتح الباب لتظهر ابتسامة وجه غريب ومألوف جداً.

- 62 -

20 مايو 1999،
مستشفى أوبيبين للأطفال، دييب

نام توم بقبضتين مغلَقتين على سرير صغير من البلاستيك الشفاف. تحرّك جسده ببطء. لا يظهر منه سوى وجهٍ صغير ممتلئ الخدين وشعرٍ أشقر طويل بشكل غريب، مقارنة بوضعه كرضيع في يومه الرابع.

أمسك مارك بيد ليلي. كانت متعبة. أغمضَت عينيها رغماً عنها. مستمتعة بالصمت أخيراً، وحيدة، برفقة مارك وتوم. تتلقّف هذا الصمت كهواء نديّ قليل الكثافة، قبل اقتحام ممرضة جديدة للمكان كإعصار مدمِّر.

غادرت نيكول الغرفة للتو. أفهمتها ليلي -بلطف- أنها بحاجة إلى قسط من الراحة. كان بإمكان نيكول البقاء لرعاية توم الصغير ليل نهار. علم الجميع في دييب بالخبر. وكانت زيارتها الأولى لبيير في مقبرة جانفال، قبل أن تستعيد قدماها شبابهما العشريني للمرور على كل متاجر المدينة والإعلان عن خبر الولادة. ابن حفيدها! لو كان الأمر بيدها لوزّعت منشورات أيضاً!

ترقب مارك -بقلق- زيارة كلّ أبناء ديبب، بمَن فيهم العمدة ورئيس الميناء التجاري، للمستشفى، محمّلين بباقات الورد.

سقط رأس ليلي على كتف مارك الجالس على طرف السرير، فبقي مسمّراً في مكانه. التقط بأطراف أصابعه ورقة صغيرة أرسلتها ميلاني بيلفوار، مثبتة على باقة ورد ضخمة، أكبر ثلاث مرات من باقة مارك نفسه.

حظاً سعيداً لتوم الصغير. لم أعرف كيف أقوم بواجبي كأمّ تجاهكِ يا ليلي. آسفة مرة أخرى. قد تقبلين بي جدّة، أليس كذلك؟ سأبذل كلّ ما في وسعي لتعويض كلّ ما فات، كلّ ما أفسدته بصمتي. أنا مؤمنة بأنّ الأوان لم يفُت بعد، إن أرَدت. من أجل توم على الأقل. ربما لم يكن هذا الصغير ليحلم بجدّة في السادسة والثلاثين من عمرها.

اعتني بمارك.

ميلاني

رفضت ليلي مقابلة والدتها حتى اللحظة، كما أنّ ميلاني لم تصرّ على ذلك. لم تكُن ليلي تملك الشجاعة الكافية. كانت بحاجة إلى بعض الوقت. توم هنا الآن. قد يصبح الرابط الأقوى بين هذه الأجيال.

لم تنعَم ليلي سوى بثلاث دقائق من الراحة قبل أن تقتحم ممرضة أخرى الغرفة.

لن نرتاح أبداً، فكّر مارك.

لكن سبب قدومها لم يكن سيئاً إلى هذه الدرجة، كانت بالكاد قادرة على حمل هدية ضخمة.

- لقد أحضرَها مستخدم بريد جوال، شرحَت الممرضة. من حسن حظنا أننا لا نتوصل بهدايا ضخمة كهذه كلّ يوم. البطاقة للأب، والهدية للأم.

غادرت الممرضة الغرفة. اتّسعت عينا ليلي أمام ضخامة حجم الهدية. طولها متران وعرضها متر!

- افتحيها إذاً، قال مارك.

- يبدو كهدايا السنفور الضاحك، عقَّبت ليلي. متأكِّد من أنه لن ينفجر؟

- هذا مرهون بهُوية المرسل...

فضّ مارك ختم المظروف، فيما مزَّقت ليلي ورق الهدايا الذي غلّف العلبة الكرتونية.

تعرَّف مارك بسرعة على الخطّ الصغير المقروء بالكاد.

مالفينا.

امتلأ قلبه بعواطف جياشة.

- مَن هو؟ سألته ليلي، المنشغلة بفتح العلبة.

- صديقة، أجابها مارك بهدوء. صديقة عزيزة للغاية.

- نعم؟

كانت ليلي قد فتحت العلبة، لتجد دبدوباً ضخماً، يجمع بين اللونين البني والأصفر، فأطلقت صرخة فرح:

- يا إلهي! إنه جميل جداً!

بالكاد تمكّن مارك من قراءة خط مالفينا.

إلى ابن ال. . . الصغير
ربما سيوليه العناية اللازمة.

لم يمنع نفسه من الابتسام، ثم أمسكَ يد ليلي بقوة، قبل أن يستدير نحو الدبدوب قائلاً:

- مرحباً أيها الضخم، ربما كنت تنتظر منذ زمن هذه اللحظة التي ستُقابل فيها ليلي!

اتّسعت عينا ليلي في دهشة.

- ليلي، أقدِّم لك بانجو.

مكتبة
t.me/ktabrwaya

ميشيل بوسي مكتبة 470

فتاة الرحلة 5403

«تمّ توظيفي للعمل على تحقيق طويل مدّته ثمانية عشر عاماً. أتتصوّرون ذلك؟ ثمانية عشر عاماً وهذه القصة تضغط على أعصابي، كقطعة لُبان صغيرة جرى مضغها مراراً حتى فقدَت طعمها. كونوا حذرين، يا قرّاء هذه الصفحات، فقد تلتصقُ قطعة اللبان هذه بذاكرتكم، لتعجنها مخيّلتكم، ويتلاعب بها منطقكم، بلا نهاية...».

❖ ❖ ❖

ليز-روز أم إيميلي؟ مَن تكون الرضيعة التي شاء القدر أن تكون الناجية الوحيدة من حادث تحطم طائرة الرحلة 5403؟

عائلتان، الأولى غنية، والثانية فقيرة، تتصارعان لانتزاع حضانة الطفلة التي لقّبتها وسائل الإعلام باليعسوبة. بعد ثمانية عشر عاماً، يتوصل محقّق خاص إلى ما يعتبره مفتاح حلّ القضية، قبل أن يلقى حتفه في ظروف غامضة، تاركاً وراءه دفتر مذكرات فيه كلّ تفاصيل تحقيقه.

أدلّة خاطئة وآمال خائبة ويقينيات بقيت موضع شك... من باريس إلى إسطنبول مروراً بكندا، يجد القارئ نفسه منخرطاً في سباق محموم لن ينتهي إلّا بسقوط الأقنعة.

هل الصُّدف والحوادث الغريبة التي تجري هي مجرد لعبة من ألاعيب القدر؟ أم هي أحجار يحرّكها أحد ما منذ البداية؟

فتاة الرحلة 5403 ليست فقط رواية مشوقة تحافظ على إثارتها حتى آخر سطورها، بل هي رواية تدفعنا إلى التفكير في حدود قدرة المال على منحنا السعادة، وسطوة الحبّ الذي قد نرتكب باسمه أشدّ الأفعال جنوناً.

قصةٌ مثيرة إلى أقصى حدّ، تحليلٌ نفسي دقيق لكلّ الشخصيات، فيضٌ من المشاعر والعواطف والمواقف الكوميدية... أثبت ميشيل بوسي بعد **تحفة نيلوفر أسود** أنه فعلاً أستاذ وأنه وُجِدَ ليبقى!

ISBN 978-9953-68-899-2

9 789953 688992

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com

تصميم الغلاف: © Marion Tigréat